صفاتُ الإنسانِ وأحوالهُ
كما وردتْ في القرآنِ الكريم
محمد خير رمضان يوسف
١٤٤٣هـ

صفاتُ الإنسانِ وأحوالهُ

كما وردتْ في القرآنِ الكريم

محمد خير رمضان يوسف

١٤٤٣ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمدُ لله الذي خلقَ الإنسانَ فأحسنَ خلقَه، وقدَّرَ لهُ قلبًا وعقلًا وجسدًا وهيئة، وجعلَ لها حدودًا ومقادير، وألهمَهُ غايةَ وجودِه، فإذا آمنَ وعملَ صالحًا فقد أحسن، وإذا استَكبرَ عنِ اتِّباعِ الحقِّ وأساءَ العملَ فقد خسر. والصلاةُ والسلامُ على النبيِّ محمد، الذي اتصفَ بأحسنِ الصفات وأعلَى الأخلاق، وعلى آلهِ وصحبهِ أجمعين.

أطلتُ النظرَ في موضوعٍ قرآنيّ أقدِّمه للقارئ، يكونُ سهلًا عليه، وينفعهُ في حياتهِ العملية، ويبقى له ذخرًا يومَ القيامة، فرأيتهُ في ذكرِ "الصفات الحسنة والصفات السيئة للإنسان كما وردت في القرآن"، فإن ذكرَها يأتي من معينٍ صافٍ لا يشوبهُ كدر، وهو القرآنُ الكريم، والقائلُ والواصفُ لها هو الربُّ الحكيم، الذي خلقَ الإنسان، وعرفَ نفسَهُ وأسرارَها، وما يُصلحُها وما يُفسدها.

ولو أن كلَّ امرئٍ نظرَ في هذه الصفات، فاتصفَ بجميلها، وتركَ سيئها، لزَكَّى نفسه، وأحسنَ تربيتها، وقوَّمَ شخصيته، وأحرزَ استقامتها.

ولو أن الآباءَ والأمهاتِ والمربين اجتمعوا على هذه الصفات، وتدبروها، وعرفوا مداخلها ومخارجها، لربَّوا الأسرَ والأجيالَ أحسنَ تربية.

ثم رأيتُ هذه الصفاتِ تكتملُ وتتوضحُ أكثرَ بذكرِ أحوالِ الإنسان، واعتقاداتٍ له وتصرفاتٍ وممارسات، وما يعتري نفسهُ من تأثرٍ وتأثير، وتفاعلٍ أو جمود، فذُكرتْ مع الصفات، حتى تكونَ صورةُ الإنسانِ وشخصيتهُ ظاهرةً من خلالها، وتكونُ شخصيةُ المسلمِ متميزةً من بينها، وبذلك تكونُ الدراسةُ جامعةً بين النظرِ والتطبيق، والأملِ والواقع، وكثيرًا ما تكونُ أحوالُ الإنسانِ صدًى لصفاتهِ ومعتقداته، وإن تفرَّعتْ واختلفت.

واجتمعتْ موضوعاتُ الكتابِ في أبوابٍ عامة، تحتها فقراتٌ معنونة، وهي: الصفاتُ الحسنة، والسالبة، والسيئة، والمزدوجة، والخاصة.

والكتابُ كلهُ دراسةٌ موضوعية، في تفسيرٍ موضوعي تحليلي، فأذكرُ الصفةَ والحالة، وشاهِدَها من الآياتِ الكريمة، وتحتها تفسيرُها. ومحتوى التفسيرِ كله من "الواضح في التفسير"، الذي وفقني الله لتصنيفه، وقد جمعتهُ وحررتهُ من أهمِّ التفاسيرِ وأشهرها.

وأدعو القارئَ إلى الإقبالِ على هذا الكتابِ بشغف، وترغيبِ غيرهِ فيه، لقراءتهِ بفهمٍ ووعي، بهدفِ الاستفادةِ منه، والعملِ بما فيه، ولمعرفةِ نفسهِ على حقيقتِها من خلاله، والتحلّي بالصفاتِ الحسنةِ منها، وتجنبِ سيئها، ولتسديدِ وتحسينِ ما يحتاجُ من أحوالهِ بالنظرِ فيها.

ومن الله أرجو النفعَ القبول.

محمد خير يوسف

١٠ رمضان ١٤٤٣ هـ

إستانبول

الباب الأول
الصفات والأحوال الحسنة

الفصل الأول
الصفات الإيمانية

الإيمان

وهذا أهمُّ ما ينبغي أن يتَّصفَ به المسلم، ليكونَ فردًا معتبَرًا من أمَّةِ الإسلام، متميِّزًا عن المللِ الأخرى. فيؤمنُ بالله، وملائكته، وكتبه، ورُسله، واليومِ الآخر، والقدَر.

مثالهُ مما وردَ في القرآنِ الكريم:

- الإيمان بالله ورسله

فالناسُ مدعوُّونَ للإيمانِ بالله، وهو أوَّلُ ما يجبُ عليهم.

قالَ الله تعالَى: {فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ} [سورة البقرة: ١٨٦].

أي: فليَستَجيبوا لندائي إذا دَعوتُهم للإيمان، وليَمتَثِلوا أوامِري إذا شَرَعتُ لهمُ الأحكام، وليَثبُتوا على الإيمان، وليُداوِموا على الطَّاعة، لعلَّهم بذلكَ يَهتدونَ ويَعملونَ الأعمالَ الصالحة.

وقد أمرَ الله الناسَ بالإيمانِ به وبرسُله، فقال:

{آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ} [سورة الحديد: ٧].

أي: آمِنوا باللهِ ورَسُولِه، واثبُتوا على إيمانِكم وداوِموا عَليه.

وقالَ في الآيةِ التي بعدها:

{وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ}؟

أي: ما الذي يَمنَعُكم مِنَ الإيمَانِ باللهِ والرسُولُ يَدعوكم إلى ذلك، وقد أيَّدَهُ اللهُ بالحُجَجِ والمعجِزات، ولا يَدعُوكم إلاّ إلى عِلمٍ ظاهرٍ نَفعُه، وحقٍّ باهرٍ أمرُه؟

- الإيمان بالكتب السماوية

ومن صفاتِ المؤمنينَ المتَّقينَ أنهم يؤمنون بما أنزلَ الله عليهم من كُتب، كما في أولِ سورةِ البقرة:
{وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ} [سورة البقرة: ٤].
أي: الذين يُصدِّقونَ بما جِئتَ بهِ منَ عندِ اللهِ أيُّها النبيُّ، وبما جاءَ بهِ مَن قَبْلَكَ مِنَ المرسَلين، لا يُفرِّقون بينَهم، ولا يَجحَدونَ بما جاؤوا بهِ من ربِّهم.

- الإيمان بالغيبيات

ومن الصفاتِ التي ذكرَها الله تعالَى للمتقينَ أنهم يؤمنونَ بالغيب، فقالَ سبحانه:
{الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ...} [سورة البقرة: ٣].
أي: الذينَ يُؤمنونَ باللهِ، وملائكتِه، وكُتُبِه، ورُسُلِه، واليومِ الآخِرِ وما فيه، وما ذُكرَ في القرآن.

- الإيمان باليوم الآخر

ومن صفاتِ المؤمنين المصلِّين التي وردَتْ في القرآنِ الكريم، أنهم يؤمنونَ بيومِ الحساب:
{وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ} [سورة المعارج: ٢٦].
أي: الذينَ يؤمِنونَ باليَومِ الآخِر، والجَزاءِ والحِساب، والثَّوابِ والعِقاب، فيَبتَعِدونَ عنِ المنكَراتِ لئلاّ يُعاقَبوا، ويَعمَلونَ الأعمَالَ الصَّالحةَ ليُثابُوا.

والإيمانُ باليومِ الآخرِ يذكِّرُ بالحسابِ والجزاء، فيرقِّقُ القلب، ويبعثُ على الطاعة. قالَ ربُّنا سُبحانه:
{وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَ تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ هُمْ يُنْصَرُونَ} [سورة البقرة: ٤٨].
معناه: احذَروا يومَ الجزاء، الذي لا يُغني فيهِ أحدٌ عن آخَر، ولا يُقبَلُ مِن كافرٍ تقرُّبٌ ولا فِداءٌ للتجاوُزِ عن كُفرهِ ومَعصِيَته، ولا أحدَ يدافعُ عنهُ وينصُرهُ ليُنقذَهُ منَ العذاب، فكلُّ نفسٍ مسؤولةٌ عن نفسِها.

الإسلام

دعوةُ أنبياءِ الله ووصيَّتُهم للنَّاسِ أن يَستَجيبوا لنداءِ الله ويَكونوا مسلِمين، مستَسلمين لأمرِ الله، طاعةً وتقوى. قالَ الله تعالَى لنبيِّهِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم:

{فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ} [سورة آل عمران: ٢٠].

أي: إذا خاصَمكَ المشرِكونَ وأهلُ الكتَاب، وجادَلوكَ في عقيدةِ الإسلامِ التوحيديَّةِ الصافية، فقلْ لهم: لقدِ استَسلَمتُ لطاعةِ ربِّي، وخَضعتُ لأمرِه، واتَّبعتُ وحيَه، وأخلَصتُ عِبادَتي لهُ وحدَهُ لا شَريكَ له، ومنِ اتَّبعَني منَ الناسِ كانَ مُسلِماً وقالَ كما قلتُ.

وقلْ لأهلِ الكتابِ والمشرِكينَ في دعوتِهم إلى دِينِ التوحيد: أأسلمتُم وأقررتُم بتوحيدِ الله، والإيمانِ بألوهيَّتهِ للخلقِ أجمعين، وتحاكمتُم إلى كتابِه؟

فإذا أسلَموا واتَّبَعوكَ فقدِ اهتَدَوا إلى الدِّينِ الصَّحيح، وإذا أبَوا وعانَدوا وآثَروا الشِّركَ والكفرَ على دِينِ الإسلام، فما عليكَ أكثرُ ممَّا بلَّغتَ وبيَّنتَ لهمُ الدِّينَ الحقّ، ولا تَقدِرُ على سَوْقِ قلوبِ الناسِ إلى الإسلام، إنَّما مرجِعُهم وحِسابُهم على الله، وهوَ عالمٌ بأمرِ عبادِه، بصيرٌ بمَن يَستَحِقُّ الهِداية ممَّن يَستَحِقُّ الضلالَة.

وقالَ أيضًا في أهلِ الكتاب:

{فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} [سورة آل عمران: ٦٤].

أي: إذا أعرَضوا عن هذه الدعوةِ المنصِفة، فقولوا أنتُم لهم: اشهَدوا بأنَّنا مُستَمرُّونَ على الإسلامِ الذي شَرعَهُ اللهُ لجميعِ أنبيائه، ومُخلِصونَ في توحيدِه وعِبادتِه.

ولا يُقبَلُ من أحدٍ إلا الإسلام:

{وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [سورة آل عمران: ٨٥].

معناه: مَن يَسلُكْ غيرَ دينِ الإسلامِ طَريقاً ومِنهَجاً، مِن مَذهبٍ أو دِينٍ أو فكرةٍ أو نِظام، فإنَّ اللهَ لن يَقبَلَ منه، فلا عِبرةَ بما تُريدهُ أهواءُ البَشر، وإنَّما يكونُ الاعتِقادُ والعمَلُ بما يُشَرّعهُ ربُّ البَشر، فمَن أبَى وتَنحَّلَ غيرَ دينِ الله، فإنَّ اللهَ لن يَقبلَ منه، وسيَكونُ منَ الخاسِرين، حيثُ يَنتظرُهُ العذابُ المقيم، لرفضهِ الحقَّ المبين، ولتَفضيلهِ الضَّلالَ على الهِداية.

وقد وُصِفَ الإسلامُ في كتابِ اللهِ تعالَى بأنه (صبغةُ الله)، فقالَ سبحانه:

{صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدونَ} [سورة البقرة: ١٣٨].

إنَّهُ دينُ اللهِ الواضحُ المبِين، والعلامةُ التي وضعَها على عبادهِ المؤمنينَ المتَّقين، فطَهَّرَهُم بالإيمانِ مِن أَوضَارِ الكفر، وَزَيَّنَ قلوبَهُم بآثارهِ الجميلة، فلا أفضلَ من هذه السِّمَةِ الجليلة، والعلامةِ المبارَكة. وَنَحنُ شاكرونَ للهِ عابدونَ لهُ على هذهِ النعمةِ الكبيرة، وسائرِ نِعَمِه.

الهداية

المهتدُون إلى الحقِّ هم المسلِمون، الذين يُطيعونَ اللهَ ورسوله. قالَ جلَّ جَلاله:

{فَإِنْ آمَنُواْ بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ} [سورة البقرة: ١٣٧].

فإنْ آمنَ أهلُ الكتابِ والمشرِكونَ بمثلِ ما آمنتم بهِ أيُّها المؤمنون، منَ الإيمانِ بجميعِ كتبِ اللهِ ورُسلِه، ولم يُفرِّقُوا بينَهم، فقد أصابُوا الحقّ، وكانوا منَ المهتَدين، وإنْ أعرَضوا عنِ الإيمانِ بالوجهِ المذكور، فقدِ استقرُّوا في خلافٍ عَظيمٍ بعيدٍ عنِ الحقّ، ولا قرارَ لهم على أصلٍ ثابت.

وقالَ سُبحانه:

{وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْواهُمْ} [سورة محمد: ١٧].

معناه: الذينَ اهتدَوا إلى طَريقِ الحقّ، زادَهمُ اللهُ هُدًى ورُشدًا، وألهمَهمُ العملَ بما يُرضِيه.

وقالَ في عاقبةِ الهداية:

{مَّنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا} [سورة الإسراء: ١٥].

أي: منِ اهتدَى إلى الحقِّ وعَمِلَ بهِ فإنَّ عاقِبَةَ هِدايَتِهِ تَعودُ عَليهِ بالحُسنَى، وتُكَلِّلُهُ السَّعادَةُ يَومَ القِيامَة، ومَن ضَلَّ عنِ الحقِّ فإنَّ عاقِبَةَ ضَلالِهِ تَعودُ عَليه، ويُخزَى يَومَ القِيامَةِ ويُجازَى بشَرِّ ما عَمِل.

العبودية

وهي الخضوعُ للحقِّ سبحانه، والاعترافُ بألوهيَّته، وعبادته.

وقد وصفَ اللهُ تعالَى عبادَهُ المؤمنينَ المتَّقينَ بصفاتٍ جليلة، منها أنهم (قانتون)، وهم الذينَ يَقومونَ بواجبِ العبوديةِ لربِّهم، ولا يَركعونَ إلاّ له، ولا يَسجُدونَ لغَيرِه. فقالَ سبحانه:

{الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالقَانِتِينَ وَالمنْفِقِينَ وَالمسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ} [سورة آل عمران: ١٧].

وقالَ اللهُ تعالَى فيمن كانت همَّتهُ في طاعةِ الله وعبادتهِ وإرضائه:

{وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً} [سورة النساء: ١٢٥].

معناها: ليسَ هناكَ أحسنُ وأحكمُ منَ المسلمِ الذي أخلصَ العملَ لربِّه، فلم يَعرِفْ سِواهُ ربًّا، ولم يَبتَغِ بعملهِ سِوَى وجهِه، وهوَ مُحسِن، يَعملُ الحسَنات، فيأتي بالأعمالِ الصَّالحةِ على هَدْيِ منَ الدِّين، وبإخلاص، وهما ميزانُ قَبولِ الأعمال، مُتَّبِعاً بذلكَ مِلَّةَ أبيهِ إبراهيم، الموافِقَةِ لدينِ الإسلام، المتَّفَقِ على صِحَّتها، ومُتَّبعو مِلَّتهِ هم أمَّةُ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم.

وقدِ اتَّخذَ اللهُ إبراهيمَ خَليلاً، والخُلَّةُ أرفَعُ مَقاماتِ المحبَّة، وما ذاكَ إلاّ لكثرةِ طاعتهِ لربِّه، وتَنفيذِ جميعِ ما أُمِرَ به، فلم يَشْغَلْهُ شيءٌ عنِ استجابةِ نداءِ ربِّه، صَغيراً كانَ أو كبيراً، حتَّى صارَ إماماً يُقتدَى به، وتَوصَّلَ إلى غايةِ ما يَتَقرَّبُ بهِ العباد.

طاعةُ الله، اتِّباع الهدى

اللهُ تعالَى يأمرُ عبادَهُ بطاعته، فيقول:

{وَأَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [سورة آل عمران: ١٣٢].

أي: أطيعوا اللهَ واتَّبِعوا أوامرَ رسولهِ في كلِّ ما أمرَكم بهِ ونهاكم عنه؛ لكي تُرْحَموا.

وقالَ أيضًا:
{وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [سورة الحشر: ٧].
أي: ما أمرَكمُ الرسُولُ بهِ فافعَلوه، وما نَهاكم عنهُ فاجتَنِبوه، واخشَوا اللهَ وابتَعِدوا مِن مُخالَفتِه، واللهُ شَديدُ العِقابِ لمن عَصاهُ وخالفَ أمرَه.

ويقولُ سبحانه:
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ} [سورة النساء: ٥٩].
أي: التَزِموا بما أمرَكمُ اللهُ بهِ ونَهاكُم عنه، وأطِيعُوا رسولَه، فإنَّهُ مُبلِّغُ أحكامِ ربِّه، وأطِيعُوا أولي الأمرِ مِنكمْ بالمعرُوف، أي: إذا كانَ أمرُهم موافِقاً لأحكامِ الشريعةِ الإسلامية، وإلاّ فإنَّهم لا يُطاعُون، ففي الحديثِ قولهُ صلى الله عليه وسلم: "السَّمعُ والطَّاعةُ على المرءِ المسلمِ فيما أحَبَّ وكَرِهَ ما لم يُؤمَرْ بمَعصِية، فإذا أُمِرَ بمَعصيةٍ فلا سَمعَ ولا طاعة". رواهُ الشَّيخانُ وغيرُهما.

وقالَ جلَّ جلاله:
{قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الكَافِرِينَ} [سورة آل عمران: ٣٢].
أي: أطيعوا اللهَ فيما يأمرُكم به، واتَّبِعوا الرسولَ محمَّداً صلى الله عليه وسلم في جميعِ ما يُبَلِّغكم مِن أمرٍ ونَهي، لتَفوزوا برِضَى اللهِ وعفوِه، فإذا أبَوا ورَضُوا بالكفرِ والضَّلال، فإنَّ اللهَ يَبغُضُهم ويَسخَطُ عليهم، ويُعِدُّ لهم ما يَستَحِقُّونَهُ مِن عِقاب.

وقد طلبَ اللهُ الاستجابةُ لأمره، فقالَ سبحانه:
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ} [سورة الأنفال: ٢٤].
معناه: أجيبوا اللهَ ورسولَهُ إذا دعاكم لِما يُصلحُكم في حَياتِكم منَ الإيمانِ والجِهاد، الذي فيهِ عِزُّكم ورفعتُكم.

والمؤمنونَ يقولون: السمعُ والطاعةُ لربِّنا:
{وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ المَصِيرُ} [سورة البقرة: ٢٨٥].
وقالوا جَميعاً مؤمنينَ مُستَسلِمين: سَمِعنا قولَكَ يا ربَّنا وعَقَلناه، وأطَعنا ما فيهِ وامتَثلناه، فاغفرْ لنا يا ربَّنا ذنوبَنا وتَقصيرَنا، فإنَّ إليكَ مآبَنا ومرجِعَنا يومَ الحِساب، فلا مَلجأ منكَ إلاّ إليك، ولا نَجاةَ مِن عقابِكَ إلاّ بغُفرانِك.

وقالَ أيضًا:
{إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ. وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ} [سورة النور: ٥١-٥٢].
تفسيره: إنَّما المؤمنونَ الصَّادِقونَ في إيمانِهم، إذا دُعُوا إلى حُكمِ اللهِ وقضاءِ الرَّسولِ بينَهم، استَجابوا لِنداءِ الحَقِّ وقالوا: سَمِعنا كلامَ اللهِ وأطَعنا حُكمَه. فأولئكَ همُ السُّعَداءُ الفَائزون.
ومَن يُطِعْ أمرَ اللهِ وأمرَ رسُولِه، ويَخَفِ اللهَ ويَجتَنِبْ ما نَهَى عَنه، فأولئكَ النَّاجُون، الفائزونَ بجنَّةِ اللهِ ورِضوانِه.

ووصفَ اللهُ المؤمنين والمؤمناتِ بالطاعة، في قولِهِ سبحانه:
{وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [سورة التوبة: ٧١].
أي أنَّهم يُطيعونَ اللهَ ورسُولَه، فيما أمرَ ونَهى، أولئكَ المتَّصِفونَ بتلكَ الصِّفات، سيَرحَمُهمُ اللهُ ويَتولاّهم بلُطفه، إنَّ اللهَ عَزيزٌ لا يَمتَنِعُ عليهِ ما يُريده، ولا يُعجِزهُ شيءٌ عن إنجازِ وعدِهِ ووَعيدِه، حَكيم، يَضَعُ الأمورَ في مواضعِها كما يَنبغي، لا يَفوتهُ شَيءٌ مِن ذلك.

وبشَّرَ اللهُ الطائعينَ بالفوزِ العظيم:
{تِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الفَوْزُ العَظِيمُ} [سورة النساء: ١٣].

يعني سبحانهُ بالحدودِ الفرائضَ والتَّشريعاتِ التي شرعَها للناس، وأنَّ الذي يُطيعُ اللهَ ورسولَهُ مُلتزِماً بفريضتهِ وقِسمتِه، مِن غيرِ حيلةٍ ولا خِيانة، يَلْقَ جزاءً طيّباً مِن ربِّه، فيُدخلهُ جنّاتٍ تجري في خلالِها الأنهار، معَ خلودٍ دائم، وهوَ فوزٌ عَظيم، لمن عَرَفَ خُطورةَ ذلكَ اليومِ وهولَهُ وشِدَّتَه.

نعم، نتيجةُ الطاعةِ عظيمة، قالَ سبحانه:

{وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا. ذَلِكَ الفَضْلُ مِنَ اللهِ وَكَفَى بِاللهِ عَلِيمًا} [النساء:٦٩-٧٠].

أي: مَن عَمِلَ بما أمرَهُ اللهُ فانقادَ لأمرِهِ ونَهيه، واستَجابَ لرَسولهِ فِيما بَلَّغَ عنه، فأولئكَ المطِيعونَ دَرجتُهم في الجنَّةِ معَ الذينَ تَفضَّلَ اللهُ عَليهم وأكرَمَهم وجَعلَهُم خَيرَ الناس، مِن أنبيائه، وعِبادهِ الصدِّيقينَ والشُّهداء، والصَّالحينَ الذينَ تولاّهمُ اللهُ بالصَّلاحِ فصَلَحَت سرائرُهم وعلانيتُهم، وما أحسَنَ هؤلاءِ رِفْقَة، ولطَافةً وعِشْرة.

وذلكَ الأجرُ الكبيرُ الذي أُعِدَّ لهم هوَ مِنَ اللهِ الكريم، وهوَ العليمُ بمَن يَستَحِقُّ ذلكَ وبمِقدارِه.

الإخلاص

الإخلاصُ أمرٌ مطلوبٌ من كلِّ مسلمٍ لقبولِ عمله، فهي صفةٌ أساسيةٌ لازمة.

وقد أمرَ اللهُ رسولَهُ أن يَقول:

{قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَّهُ دِينِي} [سورة الزمر: ١٤].

معنَى قوله: إنَّني أعبدُ اللهَ وَحدَهُ مُخلِصًا لهُ طاعَتي وعِبادَتي، بَعيدًا عنِ الشِّركِ والرِّياء.

وقالَ ربُّنا سبحانه:

{بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ} [سورة البقرة: ١١٢].

فالقاعدةُ في الأمر، أنَّ مَن أسلمَ وجهَهُ للهِ بالطَّاعة، واتَّبَعَ هَدْيَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم، وأحسنَ في عملهِ بالإخلاص، فهذا أجرُهُ مضمونٌ عندَ الله، فلا يَخافَنَّ على ما يَستَقبِلُه، ولا يحزننَّ على ما تَركَه.

وَعَبَّرَ بالوجه، لأنَّهُ أشرفُ الأعضاء، ومَجمعُ المشاعر، وموضِعُ السُّجود، ومَظهَرُ آثارِ الخضوع، الذي هوَ مِن أَخَصِّ خصائصِ الإخلاص.

والمؤمنونَ يُنفِقونَ ويُطعِمونَ لوجهِ الله:
{إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلَا شُكُوراً} [سورة الإنسان: ٩].
أي أنَّهم يُطعِمونَ المساكينَ وهم يَقولونَ بلسانِ الحَال: إنَّما نُطعِمُكم طَلَبًا لِرضا اللهِ ورَجاءَ ثَوابِه، لا نُريدُ منكم أنْ تُكافِؤونا به، ولا أنْ تُثنُوا عَلينا جَزاءً عليه.

واعترفَ الشيطانُ أنَّهُ ليستْ له سيطرةٌ على المخلَصين، وهم أخلَصُ الخُلصاء:
{إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ} [سورة الحجر: ٤٠]
أي: إلاّ عِبادَكَ الذينَ أخلَصُوا لكَ بالطَّاعَةِ والتوحِيد، واتَّقَوا حُرُماتِك، فلا أَقدِرُ على تَضليلِهم.
وقالَ ربُّنا بعدَ ذلك:
{إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ} [سورة الحجر: ٤٢].
أي: إنَّ عِباديَ المخلَصينَ المتَّقينَ لا قوَّةَ لكَ على قُلوبِهم، ولا مَدخَلَ لكَ إليها ولا سَبيل، إنَّما سُلطانُكَ على منِ اتَّبعَكَ ورَضيَ بطَريقَتِكَ منَ الزَّائغِينَ الشَّارِدين، الذينَ خُدِعوا بتزيينِكَ الباطِلَ لهم، واستَسلَموا للشَّهواتِ وترَكوا المكرُمات.

وقالَ سبحانهُ في صدقِ الإيمانِ وجزائِه يومَ القيامة:
{هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [سورة المائدة: ١١٩].
أي: في هذا اليومِ يُفيدُ إيمانُ مَن كانَ في الدُّنيا صادقاً في إيمانهِ وتوحيده، لهم جزاءَ إيمانِهم وصِدقِهم جنّاتٌ عاليات، تَجري من خلالِ أشجارِها وفي أسافلِها أنهارُ العَسلِ واللبنِ وأنواعِ الأشرِبة، مُقيمِينَ فيها أبداً، لا يَزولونَ عنها ولا يَحُولون، ويُفيضُ اللهُ عليهم رِضوانَهُ الذي لا غايةَ وراءَه، ويَرضَونَ هم، فلا شَيءَ أعزُّ من رضوانهِ سُبحانَه، وهوَ الفوزُ والفَلاحُ الذي لا أعظمَ منهُ ولا يُدانيهِ مَطْلَب.

حبُّ الله

محبَّةُ اللهِ تعالَى دلالةٌ على الإيمان، وتجلبُ رضَا الرحمَن. قالَ سُبحانه:

{قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [سورة آل عمران: ٣١].

أي: إذا كنتُم تُحِبُّونَ اللهَ حقّاً فاتَّبعوني واسلُكوا طَريقي، وأطيعوا ما آمرُكم به، فإذا فَعلتُم ذلكَ فقد حَصلَ لكم جزاءُ طلبِكم، وهوَ محبَّةُ اللهِ لكم ورِضاهُ عَنكم، ومَغفرَتُهُ لذنوبِكم، فإنَّهُ كثيرُ المغفِرَة، واسعُ المرحَمة.

وقالَ ربُّنا في صفةِ المؤمِن:

{وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً لِّلّهِ} [سورة البقرة: ١٦٥].

أي أنَّ المؤمنينَ يَعبدونَ اللهَ على نُورٍ من ربِّهم وبُرهان، ويُحبُّونَهُ حُبًّا خالِصاً لا شائبةَ فيه، وهم أكثرُ حبًّا لهُ من حبِّهم أنفسَهم وما يملكون؛ لتَمامِ معرفتِهم به، وتوحيدِهم وتعظيمِهم له، ولجوئهم إليهِ وحُسنِ توكُّلِهم عليه.

موالاةُ الله ورسوله

المطلوبُ من المسلمينَ أن يُوالُوا اللهَ ورسولَهُ. قالَ جلَّ مِن قائل:

{وَمَن يَتَوَلَّ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ اللّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ} [سورة المائدة: ٥٦].

أي: مَن يتَّخذِ اللهَ ورسولَهُ والمؤمنينَ أولياء، فيتوكَّلْ على اللهِ حقَّ التوكُّل، ويَمتَثِلْ أمرَ رسولِه، ويُوالي إخوانَهُ المسلِمينَ ويَنصُرهم، فإنَّهُ مِن حزبِ اللهِ وجماعةِ المؤمِنين، وإنَّ جُندَ اللهِ وأنصارَهُ همُ المنتَصِرون.

وأمرَ اللهُ تعالَى رسولَهُ أن يقولَ للمشركين:

{قُلْ أَغَيْرَ اللّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ} [سورة الأنعام: ١٤].

معناه: قلْ لهم أيُّها الرسُولُ الكريم: لا أتَّخذُ غيرَ اللهِ مَعبوداً وناصِراً ومُعيناً، سُبحانَهُ لا شريكَ له، خالقِ السَّماواتِ والأرضِ ومُبدِعِهما، وهوَ يَرزُق ولا يُرْزَق، يَرزُقُ الكائناتِ كلَّها، وهوَ غيرُ محتاجٍ إليها.

وقالَ جلَّ من قائل:
{اتَّبِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ} [سورة الأعراف: ٣].
أي: اتَّبِعوا والتَزِموا ما أنزلَهُ اللهُ إليكم في القُرآن، ولا تُقبِلوا على غَيرِه، ممَّن يَبتَغونَ إضـــلالَكُم بأهوائهم، ويُلقونَ إليكُم أباطيلَهم؛ لتَنحَرِفوا عن جـادَّةِ الحقّ، وأنتُم قليلاً مـا تَعمَلونَ بهـذا، فتَتركونَ الحقَّ وتَتوجَّهونَ إلى غيرِه!

والمؤمنونَ يقولون:
{هُوَ مَوْلاَنَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} [التوبة: ٥١]
٥١- أي أنَّ اللهَ ناصِرُنا وحافِظُنا، ومَلجَؤنا وسيِّدُ أمورِنا، وعلى اللهِ وحدَهُ فليَعتَمدِ المؤمنون، فهوَ حسبُهم ونعمَ الوَكيل.

التوكل على الله

أمرَ الله تعالَى عبادَهُ أن يتوكلوا عليه، فقالَ سُبحانَ مِن قائل:
{وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المؤْمِنُونَ} [سورة آل عمران: ١٢٢].
أي: ليَكنْ توكُّلُ المؤمنينَ على اللهِ وحدَهُ في جميعِ أمورِهم، فهوَ حسبُهم، ومُعينُهم، وناصرُهم.

وقالَ لرسولهِ الكريم، عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام:
{وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ} [سورة الفرقان: ٥٨].
معناه: الجأْ إلى اللهِ واعتَمِدْ عَليه، وفَوِّضْ أمرَكَ إليه، فهوَ الحَيُّ الباقي الذي لا يَموت، يَنصُرُكَ ويُؤَيِّدُكَ بقُوَّتِهِ وتأييدِه.

وقالَ لهُ أيضًا:
{وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً} [سورة الأحزاب: ٣].
أي: اعتَمِدْ على اللهِ في أمورِكَ كُلِّها وثِقْ به، وكفَى بهِ حافِظًا لمن فوَّضَ إليهِ أمرَه.

وقالتِ الرسُلُ لأقوامِهم:
{وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ} [سورة إبراهيم: ١٢]:
وكيفَ لا نَتوكَّلُ على اللهِ رَبِّنا وقد هَدانا لدينِه، وبيَّنَهُ لنا بالحُجَّةِ والدَّليل، ويسَّرَ لنا الطَّريقَ إليه، فنحنُ على هُدًى ونُورٍ منه، وسَوفَ نَصبِرُ على أذِيَّتِكم وعِنادِكم وتَكذيبِكم، ولا نَضعُفُ ولا نَتراجَعُ عنِ الحقِّ الذي نحنُ عَليه، وعلى اللهِ وحدَهُ فليَعتَمِدِ المتوكِّلون، منَ المرسَلينَ والمؤمِنين، وعلى ذلكَ فليَثبتُوا.

وقالَ موسَى لمؤمِني قومِهِ عندَما رأى تخوُّفَهم مِن فرعَونَ وملَئه:
{يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ. فَقَالُواْ عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا} [يونس: ٨٤-٨٥].
يا قَوم، إذا كنتُم صَادِقينَ في إيمانِكم، مُتمَسِّكينَ بعَقيدتِكم حقّاً، ففَوِّضوا أمرَكم إلى اللهِ واعتَمِدوا عليه، فإنَّهُ كافيكُم كلَّ شَرٍّ وضُرّ، هذا إذا كنتُم مُستَسلِمينَ لقضاءِ الله، مُخلِصينَ له.
فقالَ قَومُهُ المؤمِنون: اعتَمَدنا على الله، وأخلَصنا لهُ العِبادةَ والدُّعاء.

وقالَ هودٌ لقومه:
{إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُم} [سورة هود: ٥٦].
معناه: إنِّي اعتَمدتُ على الله، وفوَّضتُ أمري إليه، فهو مَالِكي ومالِكُكم، وهوَ الذي يحفَظُني ويَدرأُ عنِّي ما أخشَى ضَرَرَه.

ولْيَعرفِ المسلمُ هذا:
{وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً} [سورة الطلاق: ٣].
أي: مَن يَعتَمِدْ على اللهِ ويُفَوِّضْ إليهِ أمرَه، فهوَ كافيهِ في جَميعِ أُمورِه. إنَّ اللهَ يَبلُغُ ما يُريدُه، ويُنَفِّذُ ما قَضاه. وكُلُّ شَيءٍ مُقَدَّرٌ بمِقدَار، ولا يوجَدُ شَيءٌ جُزافًا في الكونِ كُلِّه، وقد قدَّرَ اللهُ الأشياءَ قَبلَ وجودِها، وجعلَ لها أجلاً تَنتَهي إليه، ففوِّضوا الأمُورَ إلى الله، وأحسِنوا تَوكُّلكم عليه.

جزاء من آمن

وقالَ الله تعالَى في جزاءِ من اتصفَ بالإيمانِ والعملِ الصالح، والصفاتُ الحسنة من الصالحات:
{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ} [سورة البقرة: ٦٢].
إنَّ كلَّ مَن آمنَ بحقّ، منَ اليهود، والنصارَى، والصابئة، وهم قومٌ أصحابُ ديانةٍ بالعراق، أو مَن لم تَبلُغْهُم رسالةٌ، آمنَ باللهِ وحدَه، وبيومِ القيامة، وأَتْبَعَ إيمانَهُ بعملٍ صالحٍ موافقٍ للحقّ، فإنَّ لهمُ المثوبَةَ الحُسنَى بما قدَّموه، فلا خوفٌ عليهم فيما يستقبلونَهُ مِن أحداث، ولا هم يَحزنونَ على ما يَتركونَهُ ويَخلُفونَه.
فالعبرةُ بِصِحَّةِ العقيدةِ واتِّباعِ النبيِّ في وقتِه.
وهذا كلُّهُ قبلَ البعثة، أمَا وقد خُتمتِ النبوَّة، فلا دينَ إلا الإسلام {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [سورة آل عمران: ٨٥].

وقالَ سبحانه:
{الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ} [سورة الأنعام: ٨٢].
معناه: إنَّ الذينَ آمَنوا حقَّ الإيمان، ولم يَخلِطوا إيمانَهم بشائبةٍ مِن شِرك، فهمُ الآمِنونَ مِن عَذابِ اللهِ يومَ القيامَة، وهمُ المهتَدونَ إلى العَقيدةِ الصَّحيحَة، ومَن عَداهُم في ضَلال، كمنِ ادَّعى الإيمانَ وهوَ يتَّخِذُ الطَّواغيتَ شُفَعاءَ إلى الله، ويَعتبِرُ ذلكَ مِن تَتِمّات الإيمانِ بالله!

الفصل الثاني
الصفات والأحوال الحسنة

الاصطفاء

ويعني اختيارَ شخصٍ من بين الناسِ لصفةٍ أو صفاتٍ عظيمةٍ فيه، ويُقالُ له (مُصطفى)، و(مخلَص) بفتحِ اللام، و(مجتبَى)، و(مختار). وغالبًا ما يكونُ للأنبياءِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلام.

قالَ الله تعالَى في كتابهِ الكريم:

{إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى العَالَمِينَ. ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [سورة آل عمران:٣٣-٣٤]

معناه: لقدِ اختارَ الله لحَمْلِ رسالةِ الإسلامِ وتبليغِ دعوتهِ آدَم، ونُوحاً، وآلَ إبراهيم، وآلَ عِمْران، مِن بينِ سائرِ الناس.

فآدمُ خَلَقَهُ بيدهِ وأسجدَ لهُ ملائكته، ونوحٌ جعلَهُ أوَّلَ رسولٍ إلى أهلِ الأرض، وآلُ إبراهيمَ منهم صاحبُ المِلَّةِ الحنيفيَّةِ خليلُ اللهِ إبراهيمُ نفسُه، ومُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم مِن ذُرِّيته، وهوَ أفضَلُ الخلقِ وأكرمُهم على الله، وخاتمُ أنبيائه، وآلُ عِمران، وعِمرانُ والدُ مريمَ أمِّ عيسى، نبيِّ اللهِ الكريم.

وهؤلاءِ ذُرِّيةٌ مُبارَكةٌ بعضُها مِن بعضٍ في الدِّينِ والتَّناصُر، يجمَعُهم وحدةُ العَقيدة، وتَبليغُ الرسَالة، والدعوةُ إلى الحقّ.

وهوَ يَسمَعُ مِن عبادهِ ما يدعونَ بهِ ويُسِرُّونَ ويُظهِرون، عليمٌ بهم وبأعمالِهم، فيَختارُ مَن يشاءُ منهم لحَمْلِ رسالتِه.

وقالَ في نبيِّهِ إبراهيمَ عليهِ السَّلام:

{اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} [سورة النحل: ١٢١].

أي: اختارَهُ اللهُ واصطفَاهُ مِن بينِ عِبادِهِ نَبيًّا ورَسُولاً عَظيمًا، وأرشدَهُ ووفَّقَهُ إلى التَّوحيدِ الخالِص، وعِبادَةِ اللهِ وحدَه.

وقالَ في موسى عليه السَّلام:
{وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي} [سورة طه: ٤١].
معناه: قدِ اصطَفَيتُكَ رَسولاً لنَفسي إلى خَلقِي، وجعَلتُكَ القائمَ بحُجَّتي.

وقالَ أيضًا:
{إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاَتِي وَبِكَلاَمِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ} [سورة الأعراف: ١٤٤].
يعني: إنِّي اخترتُكَ على النَّاسِ الموجودينَ في زمانِك، بأنْ أنزلتُ عليكَ أسفارَ التَّوراة، وبتَكليمي إيّاك، فخُذْ ما أعطيتُكَ مِن شَرفِ الاصطفاءِ والتَّفضيل، واشكرْ للهِ جليلَ نِعمَتهِ عَليك.

وقالَ في مُؤمِني بني إسرَائيل:
{وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ} [سورة الدخان: ٣٢].
معناه: أكرَمْنا مُؤمِني بَني إسْرائيلَ واصطفَيناهم في ذلكَ الوَقتِ على العالَمين، عِلمًا منَّا باستِحقاقِهم ذلك.

وقالَ نبيٌّ لبني إسرائيلَ عندَما طلبوا ملِكًا يَحكمُهم، فاختارَ لهم الله طالوت:
{إِنَّ اللهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي العِلْمِ وَالجِسْمِ وَاللهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ} [سورة البقرة: ٢٤٧].
أي: قالَ لهم نبيُّهم: إنَّ اللهَ قدِ اختارَهُ من بينِكم ليكونَ مَلِكاً عليكم، وقد آتاهُ عِلماً كثيراً، وقوَّةً في الجسم، وصَبراً في الحرب. ومَعرفةً بها أكثرَ منكم. واللهُ يُعطي مَن يَشاءُ ما يَشاء، فهوَ الحاكمُ لا أنتُم.

وفي الصدِّقةِ مريمَ عليها السَّلام:

{وَإِذْ قَالَتِ المَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ العَالَمِينَ} [سورة آل عمران: ٤٢].
تفسيره: قالتِ الملائكةُ لمريمَ عليها السَّلام: إنَّ اللهَ اختارَكِ لكثرةِ عبادتِكِ وشَرَفِك، وجعلَكِ طاهرةً عَفيفةً كَريمة، وفضَّلكِ على نِساءِ العالَم.

العزة

عندَما يَعرفُ المؤمنونَ أنَّ العزَّةَ للهِ تعالَى:
{مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً} [سورة فاطر: ١٠].
أي: مَن أرادَ أنْ يَكونَ قَويًّا عَزيزًا، مُهابًا مَنيعًا، فليتَعزَّزْ بطاعَةِ الله، وليَتقَوَّ بالتقرُّبِ إليهِ والالتِزامِ بأوَامرِه، فإنَّهُ بذلكَ يَحصُلُ لهُ مَقصُودُه، فإنَّ العِزَّةَ كُلَّها لله، فهوَ المالِكُ والمتصَرِّفُ في شُؤونِ خَلقِه، فيُعِزُّ مَن يُطيعُه، ويُذِلُّ مَن يُخالِفُه، إنْ عاجِلاً أو آجِلاً.

ووصفَ اللهُ تعالَى المؤمنينَ بأنَّهم أعزَّةٌ على الكافرين:
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ} [سورة المائدة: ٥٤].
أي أنَّهم يَكونونَ أشدّاءَ مُتَعزّزينَ على أعداءِ اللهِ وخُصَماءِ الدِّين، منَ الكفّارِ الجاهلين، فيُعادُونَهم ويُغالِبونَهم، ويُقاتِلونَهم لنُصرةِ دينِ اللهِ وإعلاءِ كلمتِه، لا يَهابونَ أحداً مِن أعدائه، ولا يَحسَبونَ حِساباً للَومِ مُناصِريهم وخِذلانِ مواليهم، ولا يَرُدُّهُم عن هدفِهم وغايتِهم شَيء.

وقالَ ربُّنا ذو العَظمةِ والجلالِ والإكرام:
{وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [سورة آل عمران: ٢٦].
معناها: تَجعلُ مَن تشاءُ مِن عبادِكَ عَزيزاً كريماً، وتَجعلُ مَن تشاءُ منهم ذَليلاً مَهيناً، بالقِسطِ والعَدل، فميزانُ الحقِّ بيدِك، وكلُّ شيءٍ عندَكَ بميزان، والخيرُ كلُّهُ بيدِكَ وفي مُلكِك، وأنتَ قادرٌ على كلِّ شَيء، فتُعطي مَن تشاء، وتَمنعُ مَن تشاء، وما شِئتَ كان، وما لم تَشأ لم يَكن.

القوة

لا بدَّ من القوةِ لتخويفِ العدوِّ وكفِّ شرِّهِ عن المسلمين. قالَ اللهُ تعالَى:
{وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ} [سورة الأنفال: ٦٠].

أي: أعِدُّوا لأعدائكم مَهما أمكنَكم مِن كلِّ ما يُتَقوَّى بهِ في الحَرب، مِن سِلاحٍ وغَيرِه... وما استَطعتُم من رَبطِ الخَيلِ واقتنائها للغَزو، وما يُلائمها في الحروبِ الحديثة، لتُخوِّفوا بهِ أعداءَ اللهِ الذينَ يُخالِفونَ أمرَه، وأعداءَكمُ الذينَ يتربَّصونَ بكم.

ووصفَ اللهُ المؤمنينَ بأنَّهم أشدَّاءُ عَنيفُونَ على الكُفَّارِ أعداءِ الدِّين، كما في قولِهِ تعالَى:
{مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ} [سورة الفتح: ٢٩].

ووصفَ اللهُ تعالَى أمرَ ذي القرنين بقوله:
{إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً} [سورة الكهف: ٨٤]
معناه: إنَّا جَعَلنا لهُ قُدرَةً وتَمكُّنًا في الأرض، وحَصافَةً في الرأي، وحُسْنَ تَدبير، وجُنودًا وأعوانًا، ومَهَّدنا لهُ الأسبَاب، وأعطَيناهُ مِن كُلِّ شَيءٍ يَحتاجُ إليهِ في تَدبيرِ مُلكِهِ وفُتوحاتِهِ عِلمًا ومُكنَةً يَصِلُ بها إلى مَقصُودِه.

وقالَ ذو القرنينِ لقومٍ طَلبوا منه المساعَدةَ بأجر:
{قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ} [سورة الكهف: ٩٥].
أي: ما قَوَّاني اللهُ عَليهِ وأعطاني مِنَ المُلْكِ والتَّمكينِ خَيرٌ وأفضَلُ مِنَ الذي تَجمَعونَهُ لي مِنَ المال.

وأُثنِيَ في القرآنِ الكريمِ على طالوتَ عليه السَّلامُ بأنهُ أُوتيَ علمًا واسعًا وقوةً في الجسم، فقالَ سبحانهُ على لسانِ أحدِ أنبياءِ بني إسرائيل:
{إِنَّ اللّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي العِلْمِ وَالجِسْمِ} [سورة البقرة: ٢٤٧].

وذكرَ اللهُ منَّتَهُ على عادٍ قومِ هود، بأن ميَّزَ أجسادَهم بالطُّولِ والقوَّة، فقال: {وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُواْ آلاء اللهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [سورة الأعراف: ٦٩].

وقالتْ ابنةُ شُعيبٍ لأبيها، في أمرِ موسى عليه السَّلام:
{قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ} [سورة القصص: ٢٦]:
قالت: يا أبتِ، اتَّخِذْهُ أجيرًا ليَرعَى أغنامَنا ويَقومَ بأمرِها، فإنَّهُ قَويٌّ أَمين، وإنَّ خَيرَ مَنِ استُؤجِرَ مَن جمَعَ بينَ القُدرَةِ والأمانَة.
قالَ صاحبُ "تيسيرِ الكريمِ الرحمنِ في تَفسيرِ كلامِ المنَّان": وهذانِ الوَصفانِ يَنبَغي اعتبارُهما في كُلِّ مَن يَتوَلَّى للإنسَانِ عمَلاً، بإجارَةٍ أو غَيرِها، فإنَّ الخَلَلَ لا يَكونُ إلاّ بفَقدِهما، أو فَقدِ أحَدِهما، وأمّا باجتِماعِهما فإنَّ العمَلَ يَتِمُّ ويَكمُل. اهـ. يَعني القوَّةَ والأمانة.

الثبات

الثباتُ من صفاتِ المؤمنين، الذينَ يوفِّقُهم اللهُ إليها:
{يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ} [سورة إبراهيم: ٢٧].
معناه: يُثَبِّتُ اللهُ عِبادَهُ المؤمنينَ على كَلمَةِ التَّوحيد، فيُمَكِّنُها في قُلوبِهم في الحَياةِ الدُّنيا جَزاءَ صَبرِهم وإيمانِهم، فلا يُزالُونَ عَنها إذا فُتِنوا في دِينِهم، ولا يَرتابونَ بالشُّبُهات. كما يُثَبِّتُهم عَليها بعدَ الموتِ في القَبر، وهوَ أوَّلُ مَنزِلٍ من مَنازِلِ الآخِرَة.
ويُضِلُّ اللهُ الظَّالمينَ بظُلمِهم وشِركِهم وإعراضِهم عنِ الحقّ، فلا يَهديهم إلى الجوابِ الصَّحيحِ في القَبر...
ويَفعَلُ اللهُ ما يَشاء، مِن تَوفيقِ البَعضِ وتَثبيتِهم، وإضلالِ آخَرينَ وخِذلانِهم، بما يَستَحِقُّون، بحسَبِ ما توجِبُهُ مَشيئةُ اللهِ وحِكمتُه. {وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً} [سورة الكهف: ٤٩].

والثباتُ يدلُّ على قوةِ الإيمانِ والصبرِ عند اللأواء. وقد دعا المؤمنونَ أن يثبِّتَهم الله عندَ اللقاءِ بعدوِّهم:
{وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} [سورة البقرة: ٢٥٠].

وهو من توفيقِ الله تعالَى، فليدْعُ المرءُ ربَّهُ أن يثبِّته. قالَ الله تعالَى لنبيِّهِ محمدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم:
{وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً} [سورة الإسراء: ٧٤].
أي: لو لم نُثَبِّتْكَ على الحَقِّ لَكِدْتَ أنْ تَميلَ إليهم شيئًا قليلًا، لشِدَّةِ كَيدِهم واحتيالِهم.

طلب الذرية وحب الأولاد

حبُّ الذرّيةِ متأصِّلٌ في الفِطَرِ السَّليمة، فقد دعا به أنبياءُ ورسُلٌ كرام، فقالَ إبراهيمُ عليه الصَّلاةُ والسَّلام:
{رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ. فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ} (الصافات: ١٠٠-١٠١].
معناه: اللهمَّ ارزُقني ذُرِّيَّةً صالحَةً تُعينُني على تَبليغِ رِسالتِك.
فوَهَبنا لهُ على الكِبَرِ إسماعِيل، وكانَ عاقِلاً حَليمًا، مُطيعًا.

ولما رُزِقُ الذرّيةَ شكرَ ربَّهُ على هذه النعمة:
{الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ} [سورة إبراهيم: ٣٩].
أي: الشكرُ للهِ والثناءُ الطيِّبُ عليهِ وَحدَه، الذي رزَقَني على كِبَرِ سِنِّي ويأسِي منَ الولَدِ إسماعيلَ وإسحاق، إنَّ رَبِّي وخالِقي مُجيبُ الدُّعاء.

وعندَما رَأى زَكريّا عليهِ السَّلامُ في مريمَ الصَّلاحَ والولاية، والتعبُّدَ والقُنوت، تحرَّكَ في قَلبِهِ حبُّ الذرّيةِ الصَّالحَة، لتَكونَ امتداداً لهُ ولعملِه، وكانَ شيخاً كبيراً قد وهنَ منهُ العَظم، وزوجُهُ كبيرةٌ

عاقِرٌ لا تُنجِب، ومعَ ذلكَ لم يَيأس، فاللهُ قادرٌ على كلِّ شَـيء. فدعا في استِكانةٍ وخُشـوع، وقال بصوتٍ ضَعيف:

{رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ} [سورة آل عمران: ٣٨].

معناه: اللهمَّ إني أسألُكَ أنْ تَرزُقَني ولداً صالحاً تَقَرُّ بهِ عَيني، وأنتَ تَسمَعُ مُناجاتي بينَ يديك، وتَضرُّعي إليك، ورَغبتي في الذريَّةِ الطيِّبة.

والمؤمنونَ يدعونَ ويقولون:

{رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً. أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَاماً. خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً} [سورة الفرقان: ٧٤-٧٦].

أي: وهمُ الذينَ يَدعُونَ رَبَّهم، ويَطلُبونَ منهُ أنْ يَرزُقَهم الذرِّيَّةَ المؤمِنَة، الطيِّبَةَ المبارَكَة، وأنْ يُقِرَّ عُيونَهم ويُفرِحَ قُلوبَهم بأزواجِهم وذُرِّياتِهم، بتوفيقِهم لطاعَتِه، ويَقولون: اللهمَّ واجعَلنا أئمَّةً يُقتَدَى بِنا في الخَير، وهُداةً يُهتَدَى بنا. وبهذا يَكونُ أجرُهم مُتَواصِلاً، ومُضاعَفًا.

فهؤلاءِ المتَّصِفونَ بصِفاتِ "عبادِ الرحمن"، ينالُونَ جنَّةَ اللهِ الدَّائمَة، وتَبتَدِرُهمُ الملائكةُ بالتحيَّةِ والسَّلامِ مِن كُلِّ باب، معَ التَّقديرِ والإكرام.

ويُقيمونَ في الجنَّةِ على الدَّوَام، لا يَموتونَ فيها ولا يَخرجُونَ منها، وما أحسَنَها وأجملَها مَوضِعًا، وما أطيَبَها مَنزِلاً ومُقامًا.

وليَكنْ حبُّ المالِ والولَدِ في توسُّطٍ واعتدال، فإنَّهم فتنةٌ في الدُّنيا:

{إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ} [سورة التغابن: ١٥].

معناه: إنَّما أموالُكم وأولادُكم ابتِلاءٌ واختِبارٌ مِنَ اللهِ لكم، فيترتَّبُ عَليهما كثيرٌ مِنَ التصرُّفاتِ والمَواقفِ والالتِزامَات، ليَعلمَ اللهُ بذلكَ مَن يُطيعُهُ ويُنفِقُ مِن مالِهِ فيما يُرضِيه، ومَن يُقَدِّمُ مَصلحةَ مالِهِ وأولادِهِ على دِينِ اللهِ والجِهادِ في سَبيلِه. ومَن آثرَ الباقي على الفاني فقد فازَ ونَجا، وما عندَ اللهِ خَيرٌ وأبقَى.

الاستبشار والفرح

الفرحُ الحقيقيُّ هو الفرحُ بفضلِ اللهِ تعالَى:

{قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ} [سورة يونس: ٥٨].

معناه: لِيَفرَحِ النَّاسُ بدينِ اللهِ والقُرآنِ الكريم، وبالإيمانِ واتِّباعِ الحقّ، فإنَّهُ أفضَلُ وأحسَنُ من هذا الذي يَحرِصُونَ عليهِ ويَجمعونَهُ من حُطامِ الدُّنيا وزخارِفِها وزَهرَتِها الفَانية.

ووصفَ اللهُ تعالَى الشهداءَ بأنهم (فرحون)..

{فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ. يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ} [سورة آل عمران: ١٧٠-١٧١].

أي أنَّهم فَرِحُونَ مُغتَبِطونَ بفَضلِ اللهِ عَليهم ورِضائهِ عَنهم، ويَستَبشِرونَ بإخوانِهِمُ الذينَ يُقتَلونَ بعدَهم في سبيلِ اللهِ ألاّ خوفٌ عليهم فيما يَستَقبِلونَه، فهم أمامَ نِعمةٍ وفَضلٍ يَفِيضُ عَليهم، ولا هم يَحزنونَ على ما فاتَهُم مِنَ الدُّنيا، فالآخِرةُ لهم خَيرٌ وأبقَى.

إنَّهم يَستَبشِرونَ ويُسَرُّونَ بما رأوا ما وُعِدوا بهِ مِن جَزيلِ الثَّوابِ مِن فَضلِ اللهِ ونِعمتِه. وهذا شَأنُ اللهِ معَ المؤمِنينَ الصَّادقين، فيُكرِمُهم، ويُجزِلُ لهم الثَّواب.

والذين آمنُوا واتقَوا لهم البُشرَى:

{الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ. لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [يونس: ٦٣-٦٤]:

وهمُ الذينَ آمَنوا حقَّ الإيمان، بكلِّ ما جاءَ مِن عندِ الله، ويَتَّقونَه، فيَمتَثِلونَ ما أمرَ به، ويَجتَنِبونَ ما نَهَى عنه، ويَستَقيمونَ على الطَّاعةِ والامتِثال. وكلُّ مَنْ كانَ تَقيًّا فهوَ وَلِيّ.

لهمُ البُشرَى الطيِّبةُ في الدُّنيا العَاجِلة، وفي الأخرَى الآجِلة.

وبُشراهُم في الدُّنيا "هيَ الرؤيا الصَّالِحة، يَراها الرجُلُ أو تُرَى له" كما في الحديثِ الصَّحيحِ الذي رَواهُ الحاكمُ وغَيرُه. و"رؤيا المؤمنِ جُزءٌ من ستَّةٍ وأربعينَ جُزءاً منَ النبوَّة". رواهُ البُخاريُّ في صَحيحه.

والرُّؤيا الصَّالِحةُ خَيرٌ وبَركة، ودَلالةٌ على التَّوفيقِ والفَوز، إنْ شاءَ الله.
وبُشراهُم في الآخِرةِ عندَما تَتلقّاهمُ الملائكةُ وتُبَشِّرُهم بالجنَّة: {بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [سورة الحديد: ١٢].
ولا تَغييرَ لِقَولِ اللهِ تعالَى، ولا خُلْفَ لوَعدِه. وما وُعِدَ بهِ أولياءُ اللهِ منَ البُشرَى هوَ الفَلاحُ والنَّجاح، وهوَ الفَوزُ العَظيم، الذي لا فوزَ وراءَه.

الزينة والتجمل

والزينةُ في حدودِ الشرعِ أمرٌ مباح. قالَ الله تعالَى:
{قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِي لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ} [سورة الأعراف: ٣٢].
أي: مَن حرَّمَ الزِّينةَ التي خلقَها اللهُ لعِبادهِ منَ اللِّباسِ وكلِّ ما يُتَجمَّلُ به، ومَن حرَّمَ ما طابَ واستلذَّ منَ المآكلِ والمشارِب؟ قلْ هيَ مخلوقةٌ للمؤمِنينَ لكرامَتِهم على الله، ويشارِكُهم فيها الكفّار، وهيَ خالصةٌ للمؤمنينَ يومَ القيامَة، لا يشاركهم فيها مَن كفرَ وأشرَك.

وقالَ سبحانهُ في الطَّاعات:
{يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ} [سورة الأعراف: ٣١].
معناه: البَسوا أحسنَ ثيابِكم عندَ كلِّ طَوافٍ أو صَلاة، ولا تَكونوا كقَومٍ منَ الجاهليِّينَ الذينَ يَطوفونَ بالبَيتِ عُراة.

السمعة الطيبة، الذِّكر الحسن، الثناء الجميل

وهذا ما كانَ عليهِ الأنبياءُ عليهمُ الصلاةُ والسَّلام، وينبَغي أن يكونَ عليه المسلِمون، وخاصَّةَ العلماءَ والدعاة.
قالَ اللهُ تعالَى في نبيِّهِ نوحٍ عليهِ السَّلام:
{وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ. سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ. إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} [سورة الصافات: ٧٨-٨٠]

معناه: وأبقَينا لهُ الذِّكرَ الطيِّب، والثَّناءَ الحسَن، فيمَن بعدَهُ مِنَ الأنبِياءِ والأُمَم.
سَلامٌ مِنَ اللهِ على نَبيِّهِ نُوح، وسَلامٌ عَليهِ مِن جَميعِ الطَّوائفِ والأُمَم.
وهكذا نُثيبُ مَن أحسَنَ، فصبَرَ على الدَّعوَة، وجاهدَ أعداءَ اللهِ دَهرًا.

وهكذا في موسى وهارونَ عليهما السَّلام [سورة الصَّافَّات: ١١٩].

وقد دعا أنبياءُ بأن يستمرَّ ذكرُهمُ الحسنُ حتى بعدَ مماتهم، وفي أجيالٍ قادمة، فقالَ إبراهيمُ عليه السَّلام:
{وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ} [سورة الشعراء: ٨٤].
أي: واجعَلْ لي ذِكرًا جَميلاً، وثَناءً حسَنًا، وقَبولاً عامًّا في الأُمَمِ التي تَجيءُ بَعدي.

وذكرَ سُبحانهُ أنبياءَ وقال:
{وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيّاً} [سورة مريم: ٥٠].
أي: جعَلنا النَّاسَ يُثْنُونَ عَليهم ثَناءً حسَنًا، في كُلِّ الأديان، وهم مُستَحِقُّونَ لذلك، فقد كانوا صَادِقينَ في دَعوَتِهم، مُخلِصِينَ في طاعَتِهم.

ورسولُنا محمدٌ صلَّى الله عليهِ وسلَّم يُذكَرُ كلَّ يوم، وعلى لسَانِ الملايينِ من المسلِمين.
قالَ الله تعالى:
{وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ} [سورة الشرح: ٤].
أي: ورفَعنا ذِكرَكَ بالنبوَّةِ في الوجُودِ كُلِّه، فأرسَلناكَ للنَّاسِ كافَّة، وأعلَينا قَدْرَكَ في القُرآن، وجعَلنا اسمَكَ مَقرونًا باسمِ اللهِ تَعالَى في شَهادَةِ التَّوحيد، وتُذكَرُ في كُلِّ أذانٍ وإقامَة، وفي الخُطبَةِ على المَنابِر، وفي الصَّلوات، حتَّى قيامِ السَّاعَة.

السعادة، العافية، راحة البال

وصفَ الله أهلَ السعادةِ بقوله، وهم المؤمنونَ العاملون:

{وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ عَطَاء غَيْرَ مَجْذُوذٍ} [سورة هود: ١٠٨]:

وأمّا السُّعَداءُ مِن أهلِ الإيمانِ وأتْباعِ الرسُل، فمَأواهمُ الجنَّة، مادامتِ السَّماواتُ والأرض، في دَلالَةٍ على الدَّوام، يَعني خالِدينَ فيها أبدًا. إلاّ ما شاءَ الله.

ومعنَى الاستِثناءِ هاهُنا أنَّ دوامَهم فيما هُم فيهِ منَ النَّعيمِ ليسَ أمرًا واجِبًا بذاتِه، بل هوَ مَوكولٌ إلى مَشيئتهِ تعالَى، فلَهُ المِنَّةُ عَليهم... قالَهُ ابنُ كثير.

ولا شَكَّ في خُلودِ أهلِ الجنَّة، ولهذا طَيَّبَ اللهُ القُلوبَ وثبَّتَ المقصودَ بقَولهِ في آخِرِ الآية: {عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ} أي: إحسَانًا ونَعيمًا لا يَنقَطِعُ عن أهلِ الجنَّةِ أبَدًا.

واللهُ يُجازي بالإحسانِ إحسانًا:

{وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ} [سورة محمد: ٢].

يعني أنَّ الذينَ آمَنوا بإخلاص، وعَمِلوا الأعمَالَ الحسَنةَ الموافِقةَ للشَّريعَة، وآمَنوا بما أنزلَ اللهُ على رَسُولِهِ محمَّدٍ مِنَ القُرآن، وهوَ الحقُّ الذي لا يَتغيَّرُ ولا يُنسَخ، غفرَ لهم ذُنوبَهم، وأصلحَ حالَهم في الدِّينِ والدُّنيا بالتَّوفيقِ والتَّأييد، والهِدايَةِ والسَّداد.

الطمأنينة، السكينة

دعا إبراهيمُ عليه السلامُ ربَّهُ أن يريَهُ كيفَ يحيي الموتَى، حتَّى يطمئنَّ بذلكَ قلبه، فإنَّهُ يَسْكنُ إذا عاينَ شيئاً وشاهدَه، وليسَ الخبرُ كالمعَايَنة.

{قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي} [سورة البقرة: ٢٦٠].

وأعادَ اللهُ موسى إلى أمِّهِ وهو طفلُ لتقرَّ عينُها وتطمئن:

{فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ} [سورة طه: ٤٠].

أي: لتَقَرَّ عَينُها بلِقائك، ولا تَحزَنَ على فِراقِك.

ودعا موسَى ربَّهُ أن يشرحَ صدرَهُ في دعوةِ فرعَون:
{قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي} [سورة طه: ٢٥]:
اللهمَّ وسَّعْ صَدْري، وألهِمني الصَّبر، وجمِّلني بالحِلم، وثَبِّتني بالحُسنَى.

وأمدَّ الله المجاهدينَ بالملائكةِ يومَ بدرٍ ليطمئنُّوا:
{وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ} [سورة آل عمران: ١٢٦].
لتَطمئنَّ قلوبُكم، وتَطيبَ نُفوسُكم، ويَثبُتَ جأشُكم..

وألقَى الله السَّكينةَ في قلوبِ الصَّحابَةِ يوم الحديبيةِ لتطمئنَّ بالصلح، وكانوا يتوقونَ إلى قتالِ المشركين!
{هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَّعَ إِيمَانِهِمْ} [سورة الفتح: ٤].
أي: هوَ الذي أنزلَ الطُّمأنينةَ والثَّباتَ في قُلوبِ المؤمنينَ الذينَ شَهِدوا صُلحَ الحُدَيبيَة، فاستَجابوا لحُكمِ اللهِ ورَسُولِه، واطمأنَّتْ قُلوبُهمْ به؛ ليَزدادوا يَقينًا معَ يَقينِهم، برُسوخِ العَقيدَةِ والرِّضا بحُكمِ اللهِ ورَسولِهِ في قُلوبِهم.
وكانوا قد عاهدوا الله على القتالِ حتى الموت، فقبِلَ الله مبايعتَهم، وأرادَ لهم الصُّلح، ونزلَ قولهُ تعالَى:
{لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً} [سورة الفتح: ١٨].
معناه: لقد رَضيَ اللهُ عنِ المؤمنينَ الذينَ شَهِدوا معكَ الحُدَيبيَة، إذْ يُبايعونَكَ تحتَ شجَرَةِ سَمُرَة – وهيَ الطَّلْحُ – بأرضِ الحُدَيبيَة، على مُناجزَةِ قُرَيشٍ وعَدَمِ الفِرارِ مِنَ المعرَكة، إذا حدَثَتِ الحَرب، فعَلِمَ ما في قُلوبِهم مِنَ الصِّدقِ والوَفاءِ في مُبايَعَتِهم، فأنزَلَ الطُّمأنينَةَ والأمنَ عَليهم، وثبَّتَهم على الرِّضا والقَبول، وجَزاهُم فَتحًا قَريبًا يَنالونَه، وهوَ الصُّلح، الذي تَبِعَهُ خَيرٌ عَظيم، فأسلَمَ كثيرٌ مِنَ النَّاس، وانتشرَ العِلمُ والإيمان.

والمرءُ يرتاحُ في بيتِهِ أكثرَ من أيِّ مكانٍ آخر:

{وَاللهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَناً} [سورة النحل: ٨٠].
معناه: وجعلَ اللهُ لكم منَ البيوتِ التي تَبنُونَها وتأوونَ إليها سَكنًا وطُمأنينةً تأمَنونَ فيها وتَرتاحُون.

وخاطبَ الله النفسَ المطمئنَّةَ بقوله:
{يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ. ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً. فَادْخُلِي فِي عِبَادِي. وَادْخُلِي جَنَّتِي} [سورة الفجر: ٢٧-٣٠].
تفسيرها:
أيَّتُها النَّفسُ المؤمِنةُ بما قالَ الله، المصَدِّقَةُ بما وعدَ به، السَّاكنَةُ إلى حُبِّه، المطمَئنَّةُ إلى ذِكْرِه، ارجِعي إلى ما أعدَّهُ اللهُ لكِ مِنَ الثَّوابِ الجَزيلِ في جنَّتِه، راضيَةً بما أعطاكِ مِنَ النَّعيم، مَرضيَّةً عندَ اللهِ بما قدَّمتِ مِن طاعَةٍ وعمَلٍ صالح.
فادخُلي في زُمرَةِ عباديَ المؤمِنينَ الصَّالحين،
وادخُلي جنَّتي في كنَفي ورَحمَتي.
اللهمَّ اجعَلنا منهم.

السيادة والوجاهة
وصفَ الله تعالَى نبيَّهُ يَحيى عليهِ السَّلامُ بالسِّيادة، وتعني الرئاسةَ الجليلةَ في العلمِ والعبادة، فقالَ سبحانه:
{فَنَادَتْهُ المَلاَئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي المِحْرَابِ أَنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ} [سورة آل عمران: ٣٩].

كما وصفَ نبيَّهُ عيسى عليه السلامُ بالوجاهة، فقالَ جلَّ جلاله:
{إِذْ قَالَتِ المَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ المَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ المُقَرَّبِينَ} [سورة آل عمران: ٤٥].

أي: سيكونُ ذا وَجاهةٍ وَمكانةٍ عندَ اللهِ في الدُّنيا والآخِرَة، فيَجعلُهُ نبيّاً عَظيماً من أولي العَزمِ منَ الرُّسُل، ويُنَزِّلُ عليهِ كتاباً جليلاً هوَ الإنجيل، وكذا سيَكونُ في الآخِرَةِ ذا مَنزلةٍ عندَ ربِّه، فيَشفَعُ عندَهُ لمن يأذنُ لهُ به، ويَقبَلُ منه، وسيَكونُ مُقَرَّباً عندَ اللهِ معَ سائرِ إخوانهِ النبيّينَ عليهمُ الصلاةُ والسَّلام.

التفاوت والاختلاف بين البشر

من أحوالِ البشرِ المستمرَّةِ تفاوتُهم في مداركهم، ومعيشتهم، وأطوالهم، وألوانهم، ولغاتهم، وتنوعِهم... لتكتملَ جوانبُ الحياة، وما يُرادُ من حكمةِ الله في خَلقه.

قالَ الله تعالَى:

{وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ} [سورة الروم: ٢٢].

تفسيرها: مِن آياتِ اللهِ اختِلافُ لُغاتِكم، فلكُلِّ قَومٍ لُغَتُه، ولكُلِّ قَبيلَةٍ لَهجَتُها، وهيَ بالآلاف، ولا يَفهمُ قَومٌ مِن قَومٍ إلاّ أنْ يَتعَلَّموا لُغتَهم، أو تُتَرجَمَ لهم!

ومِن آياتِهِ كذلكَ اختِلافُ ألوانِكم، بينَ أبيضَ وأسوَد، وأحمرَ وأصفَر، وكُلُّكم أبناءُ رَجُلٍ واحِد. وفي ذلكَ كُلِّهِ بَراهينُ على قُدرَةِ اللهِ وكمَالِ إبداعِه، لمن أُوتيَ عِلمًا وفَهمًا وتدَبُّرًا.

ومن هذا التفاوتِ طبقاتُ الناسِ في الجاهِ والغنَى والفقر، قالَ الله تعالَى:

{نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً} [سورة الزخرف: ٣٢].

أي: هوَ الذي فاوَتَ بينَ البشَرِ في كثيرٍ مِنَ الأمُور، فهوَ العالِمُ بمَن يَصلُحُ للرِّسالَة. نحنُ وزَّعنا بينَهم أرزاقَهم وأسبابَ مَعيشَتِهم في الحيَاةِ الدُّنيا، وجعَلنا بَعضَهم فوقَ بَعضٍ درَجاتٍ في الغِنَى والجَاهِ وما إليه، ليَستَخدِمَ بَعضُهم بَعضًا في مِهَنِهم ومَصالحِهم، هذا بمالِهِ وذاكَ بعمَلِه، وهذا بإدارَتِهِ وذاكَ بقوَّتِه، وكُلٌّ يَحتاجُ إلى الآخَر.

وفي تنوعِهم:

{لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ}
{أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ} [سورة الشورى: ٤٩-٥٠].
أي أنَّ اللهَ يَخلُقُ في السَّماواتِ والأرضِ ما يَشاء، ويَرزُقُ مَن يَشاءُ مِن عِبادِهِ البناتِ دونَ البَنين، ويَرزُقُ مَن يَشاءُ منهمُ البَنينَ دونَ البَنات.
أو يَجمَعُ لهم بينَ الذُّكورِ والإناث، ويَجعَلُ مَن يَشاءُ منهم عَقيمًا لا يُولَدُ له، وهوَ عَليمٌ بأحوالِ عِبادِهِ وبِمَن يَستَحِقُّ منهم هذا دُونَ ذاك، قادِرٌ على ما يَشاءُ مِن ذلك، ولهُ الحِكمَةُ العُليا في الخَلقِ والتَّدبير.

التعارف والتعاون على البر والتقوى

حثَّ اللهُ تعالَى المؤمنينَ على التعارفِ والتعاونِ على البرِّ والتقوَى في أكثرَ من موضعٍ في كتابهِ الكريم، فقالَ جلَّ مِن قائل:
{يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا} [سورة الحجرات: ١٣]:
فهو نداءُ اللهِ إلى النَّاس، لقد خَلقناكم مِن آدمَ وحوَّاء، فأنتُم سَواءٌ في النَّسَب، وجعَلناكم شُعوبًا وأُمَمًا، وقَبائلَ وبُطونًا، ليَعرِفَ بَعضُكم بَعضًا، فتَجتَمِعوا على الخَير، وتَصِلوا الأرحَام، وتَعاوَنوا على البِرِّ والتَّقوَى، لا التَّفاخُرِ والعصَبيَّة...

وقالَ سُبحانهُ وتعالَى:
{وَتَعَاوَنُوا عَلَى البِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالعُدْوَانِ} [سورة المائدة: ٢].
أي: لِيُعِنْ بعضُكم بعضاً على فعلِ الخَيرات، وعلى الحِلْمِ والعَفو، وعلى الطَّاعةِ والخَشية، وفي التقوَى رضا الله، وفي البِرِّ بالناسِ رِضاهُم، وأجمِلْ بذلك إذا اجتَمعا في المرء.
ولا تَتعاوَنوا على الإثمِ والكفر، والظُّلمِ والمعصية، والمنكرِ والباطِل.

ودعَا موسى ربَّهُ أن يشرِكَ معهُ أخاهُ في الدعوة؛ ليكونَ عونًا له:

{وَاجْعَل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي. هَارُونَ أَخِي. اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي. وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي. كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً. وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً. إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيراً} [سورة طه: ٢٩-٣٥].

معناه: اجعَلْ لي مُساعِدًا مِن أهلي، يَتحمَّلْ مَعي أعباءَ الدَّعوَة.

وهوَ هارُونُ أخي. وكانَ أكبرَ من موسَى، وأفصحَ منهُ لِسانًا.

قَوِّ بِهِ ظَهري، وأحكِمْ بهِ عَزيمَتي.

وأشْرِكْهُ في الرِّسالَةِ والتَّبليغ.

كي نوَحِّدَكَ ونُقَدِّسَكَ كثيرًا.

ونَذكُرَكَ كثيرًا، بدَعوتِنا النَّاس، وأدائنا الرِّسالَة، وبطاعَتِكَ وعِبادَتِك.

إنَّكَ كُنتَ عالِمًا بأحوَالِنا وضَعفِنا، وبعِظَمِ ما دعَوتَنا إليه، وإنَّهُ لا تَوفيقَ إلاّ بك، ولا تأييدَ إلاّ منك.

الخيرية

يتصفُ المسلمُ بالخيرِ دائمًا، ليحققَ قصدَ الله من تديُّنِ المسلمين بدينِ الإسلام، ويكونوا بذلك أفضلَ الأمم. قالَ الله تعالَى:

{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً} [سورة البقرة: ١٤٣].

أي: جَعلناكم - يا أمَّةَ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم - خيارَ الأُمَم، لتَكونوا شُهداءَ عَليهم يومَ القيامة، بأنَّ اللهَ أرسلَ الرسلَ إليهم فبلَّغوا ونصَحوا، ولأنَّ دينَكم هوَ الحقُّ مِن بينِ أديانِ الأممِ ومَذاهبِها؛ فقد وجَّهكمُ اللهُ إلى قِبلةِ إبراهيمَ أبي الأنبياء، وخصَّكم بأكملِ الشرائع، وأقومِ المناهج، وأوضَحِ المذاهب. ثمَّ يكونُ الرسولُ صلى الله عليه وسلم شهيداً عليكم يومَ القيامة، بأنَّهُ بلَّغكمْ رسالةَ ربِّه.

وأمرَ اللهُ تعالَى أنبياءَهُ أن يفعَلوا الخير:

{وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ} [سورة الأنبياء: ٧٣].

معناه: أوحَينا إليهم أنْ يَعمَلوا بالشَّرائعِ المنْزَلَةِ عَليهم، ففِيها الخَيرُ والفَلاح، والبِرُّ والصَّلاح، مِن حُقوقِ اللهِ وحُقوقِ العِباد.

وذكرَ اللهُ أنبياءَ لهُ وأثنَى عليهم، ووصفَ حالَهم، ثمَّ قال:
{إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ} [سورة الأنبياء: ٩٠].
معناه: كانَ الأنبياءُ المذكورونَ عابِدينَ صالِحين، يُسارِعونَ في عمَلِ الطَّاعاتِ وأنواعِ القُرُبات، حُبًّا في اللهِ وما عندَهُ مِنَ الثَّواب، وخَوفًا ورَهبَةً مِن نِقمَتِهِ وعذابِه، وكانوا مُتضرِّعينَ إلى رَبِّهم، مؤمِنينَ مُخبِتين.

وذكرَ عيسى عليهِ السَّلامُ أنَّ اللهَ جعلَهُ مباركًا، نَفّاعًا، مُعَلِّمًا للخَير، أينَما كان:
{وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنتُ} [سورة مريم: ٣١].

وقد ذكرَ الله صفاتِ الذينَ يبادرونَ إلى فعلِ الخيرات، فقالَ سبحانهُ وتعالَى:
{إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ. وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ. وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ. وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ. أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ} [سورة المؤمنون: ٥٧-٦١]:
إنَّ الذينَ هم حَذِرونَ وَجِلونَ خَوفًا مِنَ اللهِ ورَهبَةً منه، معَ إيمانِهم وعمَلِهِمُ الصَّالِح،
والذينَ يُصَدِّقونَ بآياتِ اللهِ المنْزَلَة، وبِشواهِدِ الكَونِ المعجِزَة، الدالَّةِ على قُدرَةِ الخالِقِ وعظمَتِه،
والذينَ لا يُشرِكونَ برَبِّهم شَيئًا، بل يوَحِّدونَهُ ويُخلِصونَ لهُ في العِبادَةِ والعمَل،
والذينَ يُعطُونَ العَطاءَ وقُلوبُهم خائفَة، خَشيَةَ أنْ لا تُقبَلَ منهم صدَقاتُهم، وخَوفًا مِن أنَّ ذلكَ قد لا يُنجِيهم مِن عَذابِ الله، عندَما يُبْعَثونَ إليهِ ويُحاسِبُهم على أعمالِهم،
أولئكَ المتَّصِفونَ بتلكَ الصِّفاتِ الجَليلَة، يُبادِرونَ إلى الأعمالِ الصَّالِحَة، وهم سابِقونَ إلى نَيلِها والظَّفَرِ بها.

الأخوَّة

{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ} [سورة الحجرات: ١٠].

وأخوَّتُهم في الدِّين، فهم يَنتَسِبونَ إلى أصلٍ واحِدٍ في العَقيدَة، وهيَ أهمُّ شَيءٍ في الحيَاة.

المؤمنونَ إخوة، يجمعُهم أعلَى نسبٍ عند الله، وهو الإيمانُ والتقوى. قالَ اللهُ تعالَى:

{وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا} [سورة آل عمران: ١٠٣].

تفسيرها: اذكُروا فَضلَ اللهِ عليكم عندَما كنتُم أعداءً يَقتُلُ بعضُكم بَعضاً في حُروبٍ مُستَمِرَّة، فجمعَ بينَ قلوبِكم بهذا الدِّينِ الحقّ، فصِرتُم بفَضلهِ ونعمَتهِ إخواناً مُتآلِفين، يَنصرُ بعضُكم بعضاً، ويَعطِفُ عليهِ ويَرحمُه، بعدَ أنْ كنتُم على وشكِ الدُّخولِ في النارِ بسببِ كُفرِكم، فأنقذَكمُ اللهُ بهذا الدِّينِ وهداكم للإيمان، وأنقذَكم منَ النار، ويُبَيِّنُ اللهُ لكم دلائلَهُ لتَثبُتوا على الهِداية، وتَزدادوا إيماناً.

العلم

قالَ الله تعالَى في فضيلةِ العلمِ والأدب:

{وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} [سورة المجادلة: ١١].

أي: إذا قيلَ لكمُ انهَضوا إلى خَيرٍ فأجيبُوا ولا تَتكاسَلوا، كالقيامِ إلى الصَّلاة، والجِهاد، ومَجالسِ الخَير.

ولا تَظنُّوا أنْ تَكونَ إجابتُكم لفِعلِ خَيرٍ نَقصًا في حقِّكم، بل هوَ فَضيلَةٌ فيكم، فإذا فعَلتُم ذلكَ فإنَّ اللهَ يُثيبُكم على تَواضُعِكم وامتِثالِكم لأمرِه، ويَرفَعُ الذينَ آمَنوا منكم بطاعَتِهم واستِجابَتِهم لأدَبِ الإسلام، والذينَ أُوتوا العِلمَ بفَضلِ عِلمِهم وسابقَتِهم وامتِثالِهم أمرَ الله، درَجاتٍ كبيرَة، تَكريمًا لهم. وأهلُ العِلمِ هم أكثَرُ النَّاسِ مَعرفَةً بآدَابِ الإسلامِ وأحكامِه، وتَعليمِها، والعمَلِ بها. واللهُ عَليمٌ بأحوالِكم، خَبيرٌ بما تُسِرُّونَ وتُعلِنون.

وأرشَدَ الله رسولَهُ محمدًا صلَّى الله عليه وسلَّمَ إلى أن يستزيدَ من العلمِ النافِع: {وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً} [سورة طه: ١١٤].
وهكذا تقولُ أمَّته، فهو النبيُّ الأُسوة.

وأُثنِيَ في القرآنِ الكريمِ على الملكِ طالوتَ عليه السَّلامُ بأنهُ أُوتيَ علمًا واسعًا، فقالَ سبحانهُ على لسانِ أحدِ أنبياءِ بني إسرائيل:
{إِنَّ اللهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي العِلْمِ وَالجِسْمِ} [سورة البقرة: ٢٤٧].

كمَا أثنَى الله على دَاودَ علَيهِ السَّلام، بأنْ زادَهُ نِعمَةً وتَفضُّلاً، فآتاهُ النبوَّة، وخَصَّهُ بعلمٍ كثيرٍ مِن عندِه، فقال:
{وَآتَاهُ اللهُ المُلْكَ وَالحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ} [سورة البقرة: ٢٥١].

وندبَ إلى التفقهِ في الدين، ولو كانوا في حالةِ حرب، فقالَ سبحانه:
{وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ} [سورة التوبة: ١٢٢].
أي: وما صَلَحَ الأمرُ ولا استَقامَ أنْ يَخرُجَ جميعُ المؤمنينَ إلى الغَزو، لأنَّ هناكَ مَصالِحَ أخرَى تَتعطَّلُ بذلك، فهَلاّ خرجَ مِن كلِّ جَماعةٍ كبيرةٍ منهم عُصبَةٌ تَحصُلُ بهِمُ الكفاية، ويُقيمُ الباقُونَ فيَتعلَّموا أحكامَ الدِّين، وما أُنْزِلَ مِن وحي على رَسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم، فإذا رَجَعَ المجاهِدونَ من كلِّ قَومٍ علَّموهم ما تَعلَّموا، ليَتذَكَّروا ويَحذَروا ويَعرِفوا أحكامَ الدِّين، وما أمرَ اللهُ بهِ ونَهَى عنه.

التعقل، التفكر، التفهم، التدبر

ومن الصفاتِ الحسَنة، الواجبة، التي ينبغي أن يتحلَّى بها الإنسان: التعقل، والتفكرُ، وتركُ التبلُّدِ واللامبالاة. قالَ الله تعالَى في عدِّ بعضِ آياتِهِ ونعمهِ وتسخيرها للإنسان:

{إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخِّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} [سورة البقرة: ١٦٤].

فمَشاهدَ الخلقِ في الكونِ عَظيمةٌ دَقيقة، يَنبغي أنْ يَنظرَ فيها الإنسانُ بتَعمُّقٍ من جوانبِها العلميَّةِ والحِكْمية، ليَستدلَّ بها على الخالقِ الأعظمِ ووحدانيَّته، وقُدرتِهِ وحكمتِه، وأن يُلقيَ عنْ عقلهِ بَلادةَ الأُلفةِ وغِشاوةَ الغَفلة، ويَنظرَ في هذهِ المخلوقاتِ بفكرٍ وحِسٍّ مُتَجَدِّد، وقلبٍ مُتَطلِّعٍ إلى الحقّ.

وقالَ أيضًا جلَّ جلاله، وعلَتْ حكمتُه:

{قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ} [سورة يونس: ١٠١].

أي: قُلْ لهؤلاءِ الكافِرين: تَفَكَّروا في خَلْقِ السَّماواتِ والأرض، وما بثَّ فيهما مِن بَديعِ صُنعِه، وعَجائبِ حِكمتِه، فهذهِ الأقمارُ والنُّجوم، واختِلافُ اللَّيلِ والنَّهار، والسَّحابُ والهَواء، والمطَرُ والثَّلج، والبَراري والبِحارُ وما فيها، والزُّروعُ والثِّمار، وأصنافُها وفوائدُها... ثمَّ الحيَوانُ وتَكوينُهُ، والأرواحُ السَّاكنةُ فيه، والإنسانُ وتَفكيرُهُ وفَهمه، وجوارِحهُ وحواسُّهُ وحركاتُه...، وما لا يُحصَى مِن خَلقِ الله، وما فيهِ مِن حِكَمٍ وأسْرار... لكنَّ كلَّ هذا الكونَ وما فيه، والطبيعَةَ وما تَحكيه، والرُّسُلَ وما يُنذِرون، لن يُفيدَ قومًا لا يُريدونَ الإيمان.

وقالَ سبحانهُ بعد تذكير:

{وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ} [سورة آل عمران: ٧].

أي: وما يَذكرُ هذا حقَّ التذكُّر، ولا يتَّعِظُ بما في القُرآن، ولا يَفهَمُ ويَتدبَّرُ معانيَ الآياتِ على وجهِها، إلاّ الألبّاءُ والأسوياءُ مِن ذَوي العقولِ الراجحةِ المستَقيمَة، الذينَ لا يَزيغُونَ ولا يتَّبعونَ الأهواء.

ومثلهُ قولهُ تعالَى:

{إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الأَلْبَابِ} [سورة آل عمران: ١٩٠].

إنَّ في خَلْقِ السماوات، بارتفاعِها واتِّساعِها، وما فيها من نُجومٍ وأفلاك، والنظامِ الدقيقِ في سَيرِها، وتكامُلِ أنظمتِها وتنسيقِها، وعُمومِ نَواميسِها، والأرضِ وما فيها من أحياءٍ ونباتاتٍ شتَّى، وجِبالٍ شاهِقات، وبِحارٍ عَظيمة، ومَعادِنَ ومَنافِع، وفي تَعاقُبِ اللَّيلِ والنّهار، وكونِ كلٍّ منهما يَخْلُفُ الآخَر، بحسَبِ طُلوعِ الشَّمسِ وغُروبِها، أو في تَفاوتِهما بازديادِ أحدِهما وانتِقاصِ الآخَر، كلُّ ذلكَ آياتٌ وأدِلّةٌ عَظيمةٌ على أُلوهيَّةِ اللهِ ووَحدانيَّتِه، لمن عَقَلَ منَ النَّاسِ وأدركَ الأشياءَ على حقائقِها، وتجرَّدَ من شَوائبِ الوَهمِ والتَّقليد، فتَفكَّرَ، وصَدَّق، واعتَبر، وآمَن، واستَسلمَ للحَقّ.

وقالَ في الآيةِ التالية:

{وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ}.

بمعنَى أنهم يَتفكَّرونَ في عظمةِ خَلْقِ الله، الدالَّةِ على علمهِ وقُدرتهِ وعَظمتهِ وحِكمتِهِ سُبحانه، ويَتأمَّلونَ فيما خلقَ وبَثَّ في السَّماواتِ والأرضِ مِن بَديعِ صُنعِه، ويَقولون: ربَّنا ما خَلقتَ هذا الكونَ عَبَثاً وهَزْلاً، فأنتَ مُنَزَّهٌ عنِ النقائصِ والعَيْبِ والعَبَث، بل هوَ لحِكَمٍ عَظيمةٍ وأمورٍ جَليلَة، ليَعرِفَ الناسُ ربَّهُمُ العَظيم، وليَعرِفوا بَديعَ صُنعِه، وليَعبُدوه، وليَجزيَ مَن آمنَ بالحقّ بالحُسنى، ومَن كفرَ وأساءَ بالسُّوء.

وقالَ ربُّنا العَليمُ مذكِّرًا أيضًا:

{أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ} {وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ} {وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ} {وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ} [سورة الغاشية: ١٧-٢٠].

تفسيرها: أَلَا يَنظرُ هؤلاءِ المكذِّبونَ بالبَعث، إلى هذهِ الإبِلِ العَظيمَةِ كيفَ خلَقها الله؟ فهيَ قَويَّةٌ شَديدَة، يتناسَبُ تَركيبُها العَجيبُ معَ بيئتِها ووَظيفَتِها، وتُحمَلُ عليها الأحمَالُ الثَّقيلَة، وتَصبِرُ على الجوعِ والعطَشِ والسَّيرِ أيَّامًا، ويُؤكَلُ لَحمُها، ويُشرَبُ مِن لبَنِها، ويُنتَفعُ بوبَرِها...

وإلى السَّماءِ العاليَةِ المحكمَةِ كيفَ رَفعَها اللهُ بدُونِ عمَد، وهم يُشاهِدونَها ليلاً ونَهارًا؟ فمَنِ الذي رفعَها هكذا، ومَنِ الذي بثَّ فيها الكوَاكبَ والنُّجومَ الكثيرَةَ وزيَّنَها للنَّاظِرين، ووضعَ لها نواميسَ دَقيقَةً ثابتَة...؟

وإلى الجِبالِ كيفَ أُرسِيَتْ وأُثبِتَتْ في الأرضِ لئلاَّ تَضطَرِبَ بأهلِها، وفيها مِنَ المعادِنِ والمنافِعِ الكثيرَةِ التي لا يُستَغنَى عنها؟

وإلى الأرضِ كيفَ بُسِطَتْ وسُوِّيَتْ ومُهِّدَت، ليُمكِنَ العَيشُ عَليها والتَّنَقُّلُ فيها، والاستِفادَةُ منها، وفيها مِنَ الحيَوانِ والنَّباتِ والجَمادِ ما فيها، أفلا يَنظُرونَ إليها ويَتدَبَّرونَ ما فيها وهم يَسيرونَ عَليها؟

وإنما يستجيبُ لنداءِ الإيمانِ أهلُ التفكرِ والتدبُّر:

{إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ} [سورة الأنعام: ٣٦].

أي: إنَّما يَستَجيبُ لكَ ويَقبَلُ منكَ دعوتَكَ مَنِ استمعَ إليكَ بوعي وفَهمٍ وتَدَبُّر. أمّا الكفّارُ الجَهَلةُ موتَى القُلوب، فسوفَ يَبعثُهمُ اللهُ مِن قبورِهم إلى المحشَر، ليكونَ مَرجِعَهم إلى الله، ويُعَذِّبَهم بأعمالِهم.

وقالَ الله تعالَى مبيِّنًا ومحذِّرًا:

{قَدْ جَاءكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ} [سورة الأنعام: ١٠٤].

معناه: قد جاءَتكم آياتٌ واضِحاتٌ وحُجَجٌ باهِراتٌ مِن عندِ الله، بلَّغَكم إيّاها رَسُولهُ في القُرآنِ والسنَّة، فمن وعَى وآمنَ فلنَفسهِ تعودُ الفائدة، ومَن أغمضَ عَينيهِ عنها وأغلقَ قلبَهُ فلم يأبَهْ بها فعلى نَفسهِ تَعودُ الخَسارة، قلْ لهم: لستُ حافظاً عليكم ولا رَقيباً على أعمالِكم، بلِ اللهُ يحفَظُها عليكم ويُجازيكم عليها، وإنَّما أنا مبلِّغٌ نَذير.

وقالَ أيضًا:

{أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا} [سورة محمد: ٢٤].

بمعنى: أفلا يَتفهَّمونَ القُرآن، ويتَمعَّنونَ في آياتِه، ومَواعظِهِ وأحكامِه، وزَواجرِهِ ونَواهيه، حتَّى لا يَقعوا فيما وَقعَ فيهِ الجاهِلون؟ بل هذهِ القُلوبُ مُغَطَّاةٌ بحُجُبٍ كثيفَة، ومُقفَلَةٌ بأقفالٍ ثَقيلَة، لا تَخترِقُها الكلِماتُ مَهما كانت مُؤَثِّرَة، ولا تَنتَهي إليها الأنوارُ مَهما كانت مُشِعَّة!

والتفكيرُ المستَقلّ، البعيدُ عن القيودِ والتقالِيد، هو الذي ينفع:

{قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ} [سورة سبأ: ٤٦].

معناه: قُلْ للمشرِكينَ أيُّها الرسُول: إنِّي أنصَحُكم بخَصلَةٍ واحِدَةٍ لتَصِلوا بها إلى مَعرِفَةِ الصَّواب، أنْ تَطلُبوا الحقَّ بإخلاصٍ لأجلِ الله، مُتفرِّقين: اثنَينِ اثنَين، ووَاحِدً واحِدًا، مِن غَيرِ ارتباطٍ بأحَد، بل بتَفكيرٍ مُستَقِلّ، ثمَّ تتَفكَّروا مِن جَديدٍ في حالِ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلَّم: هلْ أحوالُهُ ودَعوَتُهُ وما يَتلُوهُ يَدُلُّ على أنَّهُ مجنُون؟ ما هوَ إلاّ رَسُولٌ إليكم، يُنذِرُكم مِن عَذابٍ شَديدٍ في الآخِرَة.

الفصاحة والطلاقة

والفصاحةُ مطلوبة للخطيبِ والداعيةِ خاصَّة، فإنها تحملُ معانيَ الكلماتِ بمعانيها المطلوبة، وبلاغتِها الجميلة.

وكان نبيُّنا محمدٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ فصيحًا، بل أفصحَ العرب، وأبلغَهم، وقد أُوتيَ جوامعَ الكَلِم، كما في الحديثِ الصحيح.

وهارونُ كانَ فصيحًا أيضًا، وقد طلبَ موسى عليه السَّلامُ من ربِّهِ أن يجعلَ أخاهُ رسولًا مثله، حتى يكونَ مساعِدًا قويًّا لهُ في الدعوةِ والتبليغ. واستجابَ الله له...

{وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءاً يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ. قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَاناً} [سورة القصص: ٣٤-٣٥].

معناه: وأخي هارونُ هوَ أكثرُ فَصاحَةً منّي، فاجعَلْهُ نَبيًّا مِثلِي، وأرسِلْهُ مَعي إلى فِرعَونَ ليَكونَ مُعينًا لي، يُبيِّنُ لهم ما أقول، ويُجادِلُهم بكَلامي، فإنِّي أخافُ أنْ يُكَذِّبوني فيما أقُول، ولا يُفصِحُ لِساني كثيرًا عندَ مُحاجَجتِهم. وكانتْ في لسانِهِ حُبْسَة، عَليهِ الصَّلاةُ والسَّلام.

فاستَجابَ لهُ رَبُّهُ وقالَ له: سنُقَوِّي أمرَكَ بأخِيك، ونُؤيِّدُ جانبَكَ به، ونَجعَلُ لكُما حُجَّةً وبُرهانًا عَليهم.

وعُرفتِ الفصاحةُ والبلاغةُ في نبيِّ الله شعيبٍ أيضًا، وقد سُمِّيَ خطيبَ الأنبياءِ لذلك، كما في الحديثِ الشريف.

الحكمة

والحكمة فضيلةٌ عظيمة، وصفةٌ جليلة، يتحلَّى بها العقلاءُ الأسوياء، والأولياءُ الصالحون. قالَ ربُّنا سبحانه:

{يُؤْتِي الحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الأَلْبَابِ} [سورة البقرة: ٢٦٩].

أي أنَّ واللهَ يُؤتي مَن يَشاءُ مِن عِبادهِ ممَّن أرادَ بهم خيراً: العقلَ السويَّ والعلمَ النافع، والفِقهَ في الدِّين، والإصابةَ في القولِ والفِعل، والقصدَ والاعتدال، والبصيرةَ المستنيرة، فيُدرِكُ الأشياءَ على حقيقتِها، ويَفهمُ الأمورَ على واقعِها كما يَنبغي، فيَهتدي ويُصيب.

والذي يؤتَى هذا كلَّهُ في خَيرٍ عَظيم، وهِبَةٍ جَليلة، فإنَّهُ أُخرجَ مِن ظُلُماتِ الجَهلِ فكانَ في نورِ الهُدى، ومنَ الانحرافِ إلى الاستقامةِ والرزانةِ والسَّداد.

ولا يَعرِفُ قَدْرَ هذا العَطاءِ الجليلِ والنِّعمةِ الكبيرةِ إلا أولو الأحلامِ والنُّهى، الذينَ يَعرِفونَ النافعَ فيَعملونَ به، ويَعرِفونَ الضارَّ فيَتجنَّبونَه.

ومنَّ الله على نبيِّهِ عيسى بالحكمة، فقال:

{وَيُعَلِّمُهُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ} [سورة آل عمران: ٤٨].
أي: يُؤتيهِ الحِكمة، فيُدرِكُ الصَّوابَ ويتَّبِعُه، ويَضعُ الأمورَ في مواضعِها، فيكونُ منَ العقلاءِ الأسوياءِ الألبَّاء.

وممَّن اشتُهِرَ بالحِكمَةِ لقمانُ الحكيم:
{وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ} [سورة لقمان: ١٢].
معناه: لقد آتَينا لُقمانَ العَقلَ والفَهْمَ والفِطنَة، والإصابَةَ في الأمُورِ والعملَ بها، أنِ اشكُرْ للهِ على ما منحَكَ مِن فَضلِه، ووَهبَكَ مِنَ الحِكمَة، ومَن يَشكُرْ للهِ يَعُدْ نَفعُهُ عَليه، فإنَّهُ يَستَجلِبُ لهُ المزيدَ مِنَ الخَيرِ في الدُّنيا، ويَزيدُ مِن أجرِهِ في الآخِرَة.

الرشد، التدبير وحسن التصرف

ويشيرُ معنَى الرشدُ إلى درجةٍ كبيرةٍ من الوعي والصلاح. وقد أمرَ الله عبادَهُ أن يَعبدوهُ ويَدعوهُ حتى يكونوا راشدين:
{فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ} [سورة البقرة: ١٨٦].
معناه: ليَمتَثِلوا أوامِري إذا شَرَعتُ لهمُ الأحكام، وليَثْبُتوا على الإيمان، وليُداوِموا على الطَّاعة، لعلَّهم بذلكَ يَهتدونَ ويَعملونَ الأعمالَ الصالحة.

وقالَ سُبحانهُ في نبيِّهِ داودَ عليهِ السَّلام:
{وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ} [سورة ص: ٢٠].
أي: آتيناهُ النبوَّةَ والفَهمَ والفِطنَة، والتبصُّرَ في الحُكمِ والقَضاءِ بينَ المتنازِعين.

وقالَ سُبحانهُ فيمن بلغَ الرشدَ من اليتَامَى:
{وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ} [سورة النساء: ٦].

تفسيرها: إذا أرَدتُم أنْ تُمكِّنوا اليَتامَى مِن أموالِهم فجرِّبوهم واختَبِروهم أوَّلاً، فإذا رأيتُم أنَّهم بَلغوا سِنَّ الزواج، وعَلِمتُم منهم صَلاحاً في الدِّين وقُدرةً على التدبيرِ والتَّصريف، فأعطُوهم أموالَهم.

التثبت والتأكد

قالَ الله تعالَى، في نداءٍ للمؤمنين:
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ} [سورة الحجرات: ٦].
أيُّها المؤمِنون، إذا جاءَكم فاسِقٌ – وهوَ العاصِي – بخَبَرٍ، فتَبيَّنوا ممَّا يَقول، ولا تُسَلِّموا بكلامِه، حتَّى يَتبيَّنَ لكمُ الحقّ، لئلاَّ تُصيبوا قَومًا بقَتلٍ وأنتُم تَجهَلونَ حَقيقَةَ حالِهم، فتَصيروا نادِمينَ مُتَحَسِّرينَ على ما فعَلتُم بهم إذا ظَهرَتْ بَراءَتُهم.

الحذر والحيطة

نبَّهَ الله تعالَى رسولَهُ الكريمَ إلى أن يكونَ حذِرًا في مفاوضَاتهِ مع المشرِكين، وألَّا يلينَ لهم، ولا يتنازلَ عن شيءٍ من أمورِ الدِّين، فقالَ سُبحانه:
{وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ} [سورة القلم: ٩].
أي: تَمنَّوا أنْ تَلينَ لهم وتُصانِعَهم في دِينِك، فيَلينُونَ لكَ ويُصانِعونَكَ في دِينِهم.

ونبَّهَ المجاهدين في صلاةِ الخوفِ إلى أن يكونوا على حذرٍ إذا وضعوا أسلحتَهم، حتى لا يباغتهم عدوُّهم ويَقضُوا عليهم، نبَّهَ إلى هذا مرتَين في آيةٍ واحدة {فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ}، {وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَى أَن تَضَعُواْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ} [سورة النساء: ١٠٢].
أي: ولا حرجَ عليكم إنْ أصابَكم مَطرٌ أو كنتُم مرضَى أنْ تَضَعوا أسلحتَكم على الأرض، معَ التيقُّظِ والحَيْطَة، لتَكونُوا على أُهْبَةٍ إذا احتَجتُم إليها، ولئلَّا يَهجُمَ عليكمُ العدوُّ غِيْلَة.

الإصلاح

وهو رسالةُ الأنبياءِ أولًا، عليهم صلواتُ الله ورسوله، ثم ورثتهم من أهلِ العلمِ والدعوةِ والجهاد.

قالَ شعيبٌ عليهِ السَّلامُ لقومه:

{إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ} [سورة هود: ٨٨].

أي: لا أريدُ مِن وراءِ تَبليغِكم وإرشادِكم سِوَى إصلاحِ نفُوسِكم وأحوالِكم، على قَدْرِ جُهدي وطاقَتي، وما تَوفيقي في الإصابةِ والإصلاحِ إلاّ بتأييدِ اللهِ ومَعونتِه، عَليهِ اعتَمدتُ في جَميعِ أمُوري، وإليهِ أرجِعُ وأتوب، فلا تَيسيرَ ولا فَرَجَ إلاّ منه، ولا تأييدَ ولا تَوفيقَ إلاّ به.

الأمن

الأمنُ نعمةٌ للإنسان، ولا سعادةَ له من دونِ أمن، ولا راحة.

قالَ يوسفُ لوالديهِ وإخوتهِ عندما وصلوا إليه:

{ادْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَاء اللّهُ آمِنِينَ} [سورة يوسف: ٩٩].

أي: ادخُلوا مِصرَ واستَقِرُّوا فيها آمِنينَ مُطمَئنّين.

وقالَ إبراهيمُ لأبيه، وقد هجَره:

{سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي} [سورة مريم: ٤٧].

أي: سَلامٌ عَليك، لن تَنالَ منّي أذًى ومَكروهًا يا أبي، وسأدْعو اللهَ أنْ يَهديَكَ إلى الحقّ، ويُوَفِّقَكَ للتَّوبَة، ويَغفِرَ ذَنبَك، ما دُمتَ حَيًّا.

وقالَ عيسى عليه السَّلام:

{وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً} [سورة مريم: ٣٣]

معناه: السَّلامُ والأمانُ عَليَّ يومَ وُلِدتُ: فلم يَنَلني الشَّيطانُ بسُوء، ويَومَ أموتُ: أَسلَمُ مِن عَذابِ القَبر، ويَومَ أُبْعَثُ حَيًّا: أَسلَمُ مِن هَولِ القيامَةِ وعَذابِ جَهنَّم.

وللأمنِ صور، كما في حالِ المجاهدينَ يومَ أُحُد. قالَ الله تعالَى:
{ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ} [سورة آل عمران: ١٥٤].
ثمَّ مَنَّ اللهُ عليكم بعدَ هذا الحزنِ بنُعاسٍ يَغشَى جَماعةً منكم وهم في لِباسِ الحَرب، ليكونَ سَكَناً لهم وأمناً.

ووُصِفَ مَن دخلَ البيتَ الحرامَ بأنهُ آمِن، فلا يُتعرَّضُ له بسوء:
{وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آَمِنًا} [سورة آل عمران: ٩٧].

وذكرَ اللهُ منَّتهُ على قريشٍ في رحلتَيها التجاريَّتينِ فقال:
{الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ} [سورة قريش: ٤].
أي: أنعمَ عَليهم بنِعمَةِ الأمَانِ في الرحلتَين، فلا يَتعرَّضُ لهم أحَدٌ في أسفارِهِمُ الطَّويلَة، ولا يُغِيرُ عَليهم أحَدٌ في بلَدِهم، وهم يرَونَ النَّاسَ يُتَخَطَّفونَ مِن حَولِهم!

التبشير والإنذار

وهذا من مهمّاتِ الرسلِ خاصَّة، عليهم الصلاةُ والسلام، قالَ ربُّنا الجليل:
{وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ} [سورة الأنعام: ٤٨، الكهف: ٥٦].
أي: ليسَ الهدفُ من إرسالِ الرسُلِ إلى الناسِ إلاّ أنْ يُبَشِّروا النَّاسَ بالخَيرِ والثوابِ الجَزيلِ لمن أطاعَه، ويُنذِروهم ويخوِّفوهم بالعِقابِ والعَذابِ لمن عصَى وأبَى.

وقالَ لنبيِّهِ محمدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم:
{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً. وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً} [الأحزاب: ٤٥-٤٦].
تفسيره: لقد أرسَلناكَ شاهِدًا على أنَّ الرُّسُلِ قامُوا بتبليغِ رِسالَةِ رَبِّهم، وشاهِداً على مَن بُعِثتَ إليهم، تُشاهِدُ أحوالَهم ومَواقِفَهم مِنَ الرِّسالَة، ومُبَشِّرًا للمؤمنينَ المطيعِينَ بالجنَّة، ومُنذِرًا للكافِرينَ والعاصِينَ بالنَّار.

وداعيًا الخَلقَ إلى تَوحيدِ اللهِ وطاعَتِهِ بأمرِهِ لك، وكالسِّراجِ المضيءِ الذي يُنيرُ الطَّريقَ في الظَّلامِ الدَّامِس، فيُهتدَى بكَ في ظُلُماتِ الجَهلِ والضَّلال.

وقال:
{إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ} [سورة الرعد: ٧].
معناه: لستَ أيُّها النبيُّ سِوَى نَذير، تُبلِّغُهم رِسالةَ اللهِ التي أمرَكَ بها، فتُبَصِّرُهم بالحقّ، وتُنذِرُهم سُوءَ عاقِبةِ مَن لم يتَّبعْ دِينَ الله. ولكلِّ قَومٍ دَاعٍ إلى الحقّ، وأنتَ داعيَتُهم إليه، مِثلُ سائرِ الرُّسُلِ مِن قَبلِك.

وأمرَهُ أن يقولَ ذلكَ للنَّاس:
{وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ} [سورة الحجر: ٨٩].
معناه: إنِّي أُرسِلتُ إليكم لأُنذِرَكم وأُخَوِّفَكم من عَذابٍ إنْ أنتُم رفَضتُم دَعوةَ الله، وإنذَاري لكم حَقٌّ لا يُنكَر، ووَاضِحٌ بَيِّنٌ لا يَخفَى.

التيسير

قالَ اللهُ تعالَى:
{لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا} [سورة البقرة: ٢٨٦].
أي: لا يُكلِّفُ اللهُ نفساً فوقَ طاقتِها، فلا يُؤمَرُ أحدٌ بأمرٍ لا يَقدِرُ عليه.

وقالَ لنبيِّهِ الكريمِ محمدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم:
{خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ} [سورة الأعراف: ١٩٩].
معناه: اِرْضَ أيُّها النبيُّ بما سَهُلَ من أخلاقِ الناس، واقبَلْ ما تيسَّرَ من أعمالِهم، ولا تَطلُبْ ما يَشُقُّ عليهم حتَّى لا ينفِروا منك، وأمُرْهُم بالمستَحسَنِ منَ الأفعالِ - ويَدخلُ فيهِ جميعُ الطَّاعات - وأعرِضْ عنِ السُّفهاءِ ولا تُكافِئهم بمثلِ سَفَهِهِم، واحلُمْ عليهم.

وطلبَ موسى عليه السَّلامُ من ربِّهِ أن ييسِّرَ أمرَهُ في دعوتِهِ فرعَون:
{وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي} [سورة طه: ٢٦].
معناه: سَهِّلْ عليَّ ما أمَرتَني به، لأتحمَّلَ مشاقَّ الدَّعوَة، وأؤدِّيَها كما تُحِبّ.

الوسطية والاعتدال

مثالهُ في الإنفاق:
{وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً} [سورة الإسراء: ٢٩]
أي: لا تَبخَلْ بما رزَقكَ اللهُ وكأنَّ يدَيكَ مُقَيَّدتانِ إلى عُنُقِك، ولا تَبسُطْهُما كذلكَ وتَدَعْهما مَفتوحَتَينِ لا تُمسِكانِ شَيئاً، فيَذهَبَ كُلُّ مالِكَ وتَقعُدَ نادِمًا كَئيبًا، عاجِزًا ضَعيفًا.
والمطلوبُ الاقتِصادُ في العَيش، والوسَطيَّةُ في الإنفَاق، والتوازُنُ بينَ التَّقتيرِ والتَّبذير.

ومن صورها، كما وعظَ لقمانٌ ابنَه:
{وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ} [سورة لقمان: ١٩].
معناه: توَسَّطْ في مَشيكَ واعتَدِلْ فيه، لا سَريعًا ولا بَطيئًا، ولا تَرفَعْ صَوتِكَ فيما لا حاجةَ لكَ فيه، فإنَّ خَفضَ الصَّوتِ أدَبٌ وثِقَةٌ بالنَّفس، والزَّعْقُ بهِ ورفعُهُ عاليًا سُوءُ خُلُقٍ وصِفَةٌ مَذمومَة وغايةٌ في الكَراهة. إنَّ أقبَحَ الأصواتِ وأوحشَها على السَّمعِ نَهيقُ الحَمير.

وممَّا وُصِفَ به عبادُ الرحمن:
{وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً} [سورة الفرقان: ٦٧].
أي: همُ الأخيارُ المعتَدِلون، الذينَ إذا أنفقوا لم يَزيدوا فَوقَ الحاجَة، ولم يتَجاوَزوا حدَّ الكرَم، وكذلكَ لم يَبخَلوا ولم يُمسِكوا أيديهم عنِ الإنفاق، بل كانوا وسَطًا وعَدْلاً.

الفصل الثالث

الدعوة والوعظ والتوجيه

الدعوة والتبليغ

قالَ اللهُ تعالَى في صفةٍ جامعةٍ للدعوة:

{ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [سورة النحل: ١٢٥].

أي: ادعُ إلى الإسلامِ بالكَلِمَةِ الطيِّبَة، والحُجَّةِ المقنِعَة، والأسلوبِ الحسَن، برِفق، معَ مُراعاةِ أحوالِ المخاطَبينَ وبيئاتِهم وتَخَصُّصاتِهم، وناظِرِ المخاصِمينَ وجادِلْهُم بالوَجهِ الحسَن، في حِلمٍ وتأنٍّ، ورَحمَةٍ مَشفوعَةٍ بالنُّصح، إلاّ مَن عاندَ وتعَدَّى.

والدعوةُ إلى دينِ الله من وظيفةِ الأنبياء والعلماءِ والدعاة، وقد قالَ اللهُ تعالَى لرسولِهِ محمدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم:

{يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ} [سورة المائدة: ٦٧]:

أيُّها الرسُولُ الكريم، المبعوثُ إلى العالَمين، أوصِلْ إلى النّاسِ جميعَ ما أنزلَهُ اللهُ إليك، فإذا لم تُوصِلِ الرسَالةَ التي أُرسِلْتَ بها إليهم فما بلَّغت.

وقد أدَّى الرسُولُ عليه الصلاةُ والسلامُ الأمانةَ التي اؤتمنَ عليها أتمَّ أداء، وما كتمَ شيئاً، كما جاءَ في حديثِ عائشةَ الصحيح.

وبيَّنَ الله دعوةَ رسولِهِ محمدٍ صلى الله عليهِ وسلَّمَ فقال:

{قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي} [سورة يوسف: ١٠٨].

أي إنَّ هذا الذي أدعُوكُم إليهِ منَ الإيمانِ والتوحِيد، هوَ المسْلَكُ الحَقّ، والطريقُ المستَقيم، الذي لا عِوَجَ فيهِ ولا شُبهَةَ عليه، وأنا على نُورٍ وهِدايَةٍ منَ اللهِ بما يوحِيهِ إليَّ ويُسَدِّدُني فيه، وعلى عِلمٍ ويقينٍ من ذلك، أنا والذينَ اتّبعوا هذا الدِّينَ منَ المؤمنين، لا نَلتَوي ولا نَزيغُ عنه.

ومَن أحسنُ من الدُّعاة؟

{وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ} [سورة فصلت: ٣٣].

معناه: ليسَ هُناكَ أحسَنُ ممَّن دَعا إلى دِينِ اللهِ وتَوحيدِهِ وطاعَتِه، معَ الالتِزامِ بالعمَلِ الصَّالِحِ الموافِقِ للدِّين، والإخلاصِ فيهِ للهِ وَحدَه، واعتَزَّ بإسلامِهِ وعَمِلَ بهِ وأعلنَهُ مُفتَخِرًا به.

والدعوةُ تكونُ سرًّا وجهرًا. قالَ نوحٌ عليهِ السَّلام:

{ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً. ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً} [سورة نوح: ٨-٩].

معناه: دعَوتُهم جَهرَةً بينَ النَّاس.

ثمَّ كرَّرتُ فأعلَنتُ لهمُ الدَّعوَة، ونوَّعتُ في الأُسلُوبِ فدعَوتُهم سرًّا بَيني وبينَهم، فقد يَكونُ ذلكَ أدعَى لاستِجابتِهم.

والأنبياءُ عليهم الصلاةُ والسَّلامُ يبتغونَ الأجرَ من الله وحدَهُ في دعوتِهم. قالَ نوحٌ عليهِ السلامُ لقومه:

{وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللهِ} [سورة هود: ٢٩].

يعني: لا أطلبُ مِنكم على تَبليغِ الرِّسالةِ والنُّصحِ لَكم أُجرَةً تؤدُّونَها إليّ، إنَّما أطلبُ ثوابَ ذلكَ منَ اللهِ وحدَه.

وكذا قالَ هودٌ لقومهِ عاد:

{يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلاَ تَعْقِلُونَ} [سورة هود: ٥١]:

ويا قَومي لا أطلبُ مِنكُم مالاً على هذا الذي أُبَلِّغُكُم، حتَّى لا تَظنُّوا أنَّني أبتَغي ثَراءً مِن وَرائه، إنَّما أطلُبُ ثوابَ ذلكَ مِنَ الذي خَلقَني ووَهبَني النِّعَم، أفلا تتدبَّرونَ ما أقولُ لكم؟

وقالَ اللهُ تعالَى لنبيِّهِ محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم:

{أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ} [سورة المؤمنون: ٧٢].

معناه: أم تَسألُهم على تَبليغِ الرِّسالَةِ أجرًا فلأجلِ ذلكَ يَبتَعِدونَ عنكَ ولا يؤمِنونَ برِسالَتِك؟ وما يُعطيكَ اللهُ مِن رِزقٍ في الدُّنيا وثَوابٍ في الآخِرَة، خَيرٌ لكَ مِن مِنَّةِ النَّاس، وهوَ أفضَلُ مَن يُعطي ويَتكرَّم، وما عِندَهُ خَيرٌ ممّا عندَ غَيرِه.

الوعظ، التذكير، النصائح

قالَ اللهُ تعالَى في أمرِ التذكير:

{وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ} [سورة الذاريات: ٥٥].

يَعني ذَكِّر، وعِظْ بالقُرآن، فإنَّ الوَعظَ والتَّذكيرَ يَنفَعُ مَن كانَ مِنَ المؤمِنين، أو مَن عَلِمَ اللهُ فيهِمُ الاستِعدادَ للإيمَان.

وقالَ أيضًا سُبحانَه:

{فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ} [سورة الغاشية: ٢١].

أي: فذَكِّرِ النَّاسَ وعِظْهم بالكونِ وما فيهِ مِن آيات، وبما أرسلَكَ اللهُ بهِ مِنَ الحقّ، ولا تُلِحَّ عَليهم أيُّها الرسُول، فإنَّ وظيفتَكَ الدَّعوةُ والبَلاغ.

وقالَ نوحٌ عليه السَّلامُ لقومِهِ وهو يبيِّنُ مهمَّتَهُ الجليلةَ بينهم:

{أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ} [سورة الأعراف: ٦٢].

أي: أبلِّغكم ما أمرَني اللهُ بتَبليغهِ إليكم، وأنا ناصِحٌ لكم بأمانةٍ وإشفاق، فأتحرَّى ما فيهِ خيرُكم وصلاحُكم، وأرغِّبُكم في قَبولِ أوامرِه، وأحذِّرُكم مِن نَواهيه، حتَّى لا يُصيبَكم عِقابُه، وأنا أعلمُ أشياءَ لا علمَ لكم بها، فاتَّقوا ربَّكم، واسمَعوا نَصيحَتي، ولا تكونوا مِنَ الكافِرينَ المتكبِّرين.

وما يُذكَرُ من قصصِ الأنبياء فإنَّهُ للتذكرةِ والعبرةِ والتأسِّي:

{وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءكَ فِي هَـذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ} [سورة هود: ١٢٠].

أي: نقُصُّ عَليكَ كُلَّ ما تحتاجُ إليهِ من أخبَارِ الرسُلِ والأُمَمِ المتَقَدِّمين، وما جَرَى لَهم مِن تَصديقٍ وتَكذيب، ونَصْرٍ للرسُلِ والمؤمنين، وهَلاكٍ للكافِرينَ المكَذِّبين، لنُثَبِّتَ بهِ قلبَك، فتَزدادَ يَقينًا وطُمأنينة، وثَباتًا على أداءِ الرسَالة، وتَحَمُّلاً لأذَى الكافِرين، أُسوَةً بمَن سَبقَكَ من إخوانِكَ المرسَلين.

وجاءَكَ في هذهِ السُّورةِ الحقُّ مِن عندِ الله، منَ النبأ الصَّادقِ والقَصَصِ الحقّ، ليَتَّعِظَ بهِ المؤمنون، ويَرتَدِعَ بهِ الكافِرون، ويَكونَ لهم جَميعًا عِبرَةً بما سَبق.

ومثلُها الأمثالُ القرآنية:

{وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} [سورة الزمر: ٢٧].

أي: لقد بيَّنَّا للنَّاسِ في هذا الكتابِ المبين، من كُلِّ الأمثالِ النَّافِعَةِ التي يَحتاجُونَ إليها، والأحدَاثِ والوَقائعِ المعتبَرَة منها، لعلَّهم بذلكَ يتَّعِظونَ ويَتدَبَّرون.

والتذكيرُ من أركانِ الوعظ، وهو ينفعُ إذا لاقَى قلوبًا مؤمنةً حيّة، ومن ذلك تذكيرُ موسى قومه:

{وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاء وَجَعَلَكُم مُّلُوكاً وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِّن الْعَالَمِينَ} [سورة المائدة: ٢٠]:

واذكرُوا يا بَني إسرائيلَ عندما قالَ لكم نبيُّ اللهِ موسى عليه السَّلام: اذكروا فضلَ اللهِ ونِعمتَهُ عليكم عندما أرسلَ إليكم أنبياءَ كثيرينَ يُذَكِّرونَكم ويَدعونَكم إلى الحقّ، وجعلَكم في حالِ سَعةٍ وتَرَفُّه، وخَدَمٍ وحَشَم، وجعلَكم أفضلَ أهلِ زمانِكم، وأعطاكم آنذاكَ ما لم يُعطِ أحداً منَ الناس، مِن إغراقِ مَن ظلمَكم، وتَظليلِ الغَمامِ عليكم، وانفِجارِ الحجرِ لكم بالماء، وإنزالِ المنِّ والسَّلوَى...

والوعظُ وظيفةُ العلماء، وإذا لم يقوموا بمهمَّتِهم فإنهُ يترتَّبُ عليهِ فسادٌ كبير. قالَ الله تعالَى مشنِّعًا على علماءِ اليهود:

{لَوْلاَ يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ} [سورة المائدة: ٦٣].

أي: هلاّ نَهاهُم عن هذهِ الأعمالِ الشَّنيعةِ علماءُ اليهودِ والنَّصارَى، ووعَظوهم بالكفِّ عنِ الكذِبِ والافتِراء، والامتناعِ عن أكلِ المالِ الحرام؟ فإنَّ هذهِ وظيفتُهم ليُبصِّروا الناسَ بما يَجهلونَهُ مِن حلالٍ وحرام. فبئسَ ما يُقْدِمونَ عليه، وبئسَ ما هم عليهِ قائمون.

وابتلَى اللهُ آلَ فرعَونَ ليتذكَّروا ويتَّعظوا:

{وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَونَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّن الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ} [سورة الأعراف: ١٣٠]:

وقد ابتَلينا قومَ فِرعونَ بالقَحطِ والجوعِ، ونقَصنا مِن مَحصولِ زِراعاتِهم وثَمراتِ أشجارِهم، بالآفاتِ وقلَّةِ الإنتاج؛ ليتذكَّروا بذلكَ ويتَّعِظوا ويتضرَّعوا إلى الله، ويَتركوا ما هم عليهِ من شِرك.

وأعرضَ نبيُّ اللهِ صالحٌ عليهِ السَّلامُ عن قومهِ بعدَ هلاكهم، وهوَ مُتحسِّرٌ على ما فاتَهُمْ منَ الإيمان، فخاطَبَهُمْ كما خاطبَ رسولُنا صلى الله عليهِ وسلم موتَى المشرِكينَ في غَزوةِ بدر، وقال:

{يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ} [سورة الأعراف: ٧٩]:

يا قوم، لقد أبلغتُكم رسالةَ ربِّي كما طَلَبَ منِّي، وكانَ فيها فوزُكم ونجاتُكم لو أطعتُم ولم تُعانِدوا، ونَصحتُكم كما ينبغي، وأنا مُشفِقٌ عليكم، ووددِتُ لو آمنتُم عن آخِرِكم، ولكنَّكم لا تَوَدُّون الناصِحين، وتُعادونَ المخلِصين، فكانَ هذا جزاءَكم، وفي الآخِرةِ عذابٌ أشدُّ وأبقَى.

وكذلكَ كانَ قولُ شُعيبٍ عليهِ السَّلامُ لقومه:

{فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ} [سورة الأعراف: ٩٣]:

ثمَّ أعرضَ عنهم نبيُّهم وهم هَلْكَى بينَ الأنقاض، موبِّخاً إيَّاهم على كُفرِهم وعِنادِهم، مخاطِباً إيّاهم بقوله: لقد بلَّغتُكم ما أُمِرتُ بهِ من قِبَلِ ربّي، واجتَهدتُ في نُصحِكم وتَحذيرِكم، ولكنَّكمُ استَكبرتُم ورَفضتُم؛ فكيفَ أحزَنُ عليكم وقد كفرتُم بما جئتُكم به، وجحَدتُم رسالةَ ربِّكم؟!

ووصفَ اللهُ تعالَى الإنجيلَ الذي أنزلَهُ على عيسى عليه السلامُ بقوله:
{وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ} [سورة المائدة: ٤٦].
أي: فيهِ هِدايةٌ إلى الحقّ، ونورٌ يُفَرِّقُ بينَ الحقِّ والباطِل، ويُزيلُ الشبُهات، ويَحُلُّ المشكِلات، مثلَ التوراة، فهوَ متَّبِعٌ لها، حاكمٌ بها، غيرُ مخالِفٍ لِما فيها، إلا القليلَ ممّا نُسِخَ بهِ بعضُ أحكامِ التَّوراة. والإنجيلُ كلُّهُ هِداية، وتَخويفٌ وزَجرٌ عنِ ارتكابِ المعاصي، لمنِ اتَّقَى اللهَ وخافَ عِقابَه.

والقرآنُ الكريمُ عظةٌ وتذكرة:
{وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ} [سورة الحاقة: ٤٨].
معناه: إنَّ هذا القُرآنَ مَوعِظَةٌ للمُؤمنينَ الصَّالحين، يَنتَفِعونَ بِهِ فيَهتَدون، ويَعمَلونَ بِهِ فيَفوزُون.

وأنزلَ اللهُ القرآنَ على رسولِهِ محمدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ ليعِظَ به من يخشَى:
{مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى. إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى} [سورة طه: ٢-٣].
أي: ما أنزَلنا هذا القُرآنَ عَليكَ لتتعَبَ وتَتكبَّدَ الشَّدائدَ في مُحاوَرَةِ المشرِكينَ وتتَحسَّرَ على كُفرِهم.
ولكنْ لتُبَلِّغَ آياتِه، وتُذَكِّرَ بها مَن يَخشَى اللهَ ويتأثَّرُ لسَماعِها ويَنتَفِعُ بها.

وأمرَهُ أن يعِظَ المنافقينَ وعظًا بليغًا، فقالَ سبحانه:
{أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا} [النساء:٦٣]

أي: أولئكَ النَّفرُ مِنَ النَّاسِ همُ المنافِقون، قد عَلِمَ اللهُ أنَّ ما في قلوبِهم خِلافُ ما على ألسنَتِهم، لا تَخفَى عليهِ خافِية، وسيَجزيهم على ذلك، فلا تُعَنِّفهُم عمّا أبطَنوهُ في قلوبِهم، وعِظْهُم في الملأ، وانهَهُم عنِ النِّفاق، وانصَحْهُم بكلامٍ مُؤثِّرٍ عميقٍ رادِعٍ لهم.

وليسَ هناكَ أظلمُ ممن وُعِظَ بالحقِّ ولكنهُ أعرضَ عنه:

{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ} [سورة الكهف: ٥٧].

أي: ليسَ هُناكَ أظلَمُ ممَّن وُعِظَ بآياتِ الله وحُجَجِهِ، ومنها القُرآنُ الكريم، فأعرضَ عنها ولم يَتدَبَّرْها، ونَسِيَ ما جنَتْ يَداهُ مِنَ الكُفرِ والمعاصِي ودَفعِ الحقِّ بالجِدالِ الباطِل.

وإنما يتذكَّرُ من يخشَى، ويبتعدُ عن التذكرةِ مَن أبَى:

{فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى. سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى. وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى. الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى} [سورة الأعلى: ٩-١٢]:

فعِظِ النَّاسَ بهذا القُرآن، وذَكِّرْهم بدينِ الله، مادامَتِ التَّذكرَةُ مَقبُولَة، والموعِظَةُ مَسمُوعَة.

سيَتَّعِظُ بدَعوتِكَ مَن يَخشَى غضَبَ اللهِ وعَذابَه، ويَحسُبُ حِسابَ الثَّوابِ والعِقابِ يَومَ الجَزاء.

ويَبتَعِدُ عَنها الشَّقيُّ الخَائب، المصِرُّ على الكُفر، المنكِرُ للمَعادِ والجَزاءِ على الأعمَال، الذي يُلقَى في جهنَّم، ويَذوقُ حرَّها وسَعيرَها المتَّقِد.

ومن تشخيصِ القرآنِ الكريمِ للوعظِ قولهُ تعالَى:

{أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} [سورة الحج: ٤٦].

معناه: أفلا يَسيرونَ في الأرض، ويَقرَؤونَ التَّاريخ، ويَنظُرونَ إلى الآثار، ويَتفَكَّرونَ في أحوالِ الأُمَمِ والحضَارات، ويَعتَبِرونَ مِن مَصارِعِهم، وما حَلَّ بهم مِنَ الفَجائعِ والنِّقَم، فتَكونَ لهم قُلوبٌ خاشِعَةٌ تَفقَهُ وتَعتَبِر، وآذانٌ تَسمَعُ وتَعِي؟ وليسَتِ المشكِلَةُ في عُيونِهِمُ التي يُبصِرونَ بها، ولكنَّها في بَصيرَتِهم التي عَميَت، وقُلوبِهم التي انغَلَقَت، فلا يَدخلُها نورُ الإيمان، ولا تَنفُذُ إليها الآياتُ والعِبَر.

الجدال والحوار الهادف

قالَ اللهُ في دعوةِ أهلِ الكتاب:

{وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} [سورة العنكبوت: ٤٦].

أي: لا تُجادِلوا أهلَ الكتاب، مِنَ النَّصارَى وغَيرِهم، إلاّ بالأسلوبِ الحسَن، والحوارِ الهادِئِ المشفُوعِ بالنُّصح، كمُقابَلةِ الخُشونَةِ باللِّين، والغضَبِ بالحِلمِ والأناة، إلاّ مَنِ اعتدَى منهم وعانَد، وكابرَ وخاصَم، ولَم يَنفَعْ فيهِمُ الرِّفق، ولا قَبولُ الحُجَّةِ المقنِعَة، والدليلِ القاطِع، فيُدافَعونَ بما يَليقُ بهم، وقُولوا لهم: آمَنَّا بما أُنزِلَ إلينَا مِنَ القُرآن، وبما أُنزِلَ إليكم مِنَ التَّوراةِ والإنجِيل، وإلهُنا وإلهكم واحِدٌ لا شَريكَ له، ونحنُ مُخلِصونَ لهُ في عِبادَتِه، مُطيعونَ لأوامرِه.

التربية الحسنة

التربيةُ السليمةُ مركزٌ لتوليدِ كثيرٍ من الصفاتِ الحسنة، وقد قالَ اللهُ تعالَى في حُسنِ نشأةِ مريمَ عليها السَّلام، التي اصطَفاها لتَكونَ أمًّا لأحدِ أُولي العزمِ من الرسُل:

{فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا} [سورة آل عمران: ٣٧].

أي أنَّ اللهَ ربَّى مريمَ تربيةً حسَنةً منذُ نَشأتِها، ويسَّرَ لها أسبابَ القَبول، وجعلَ نبيَّ اللهِ زَكريّا كافِلاً لها وأميناً عَليها، وكانَ المسؤولَ الأوَّلَ في مركزِ العبادةِ ببيتِ المقدِس، فتعلَّمَتْ منهُ عِلماً جَمًّا وعَملاً صَالحاً، فنشأتْ مُبارَكةً مُهَيَّأةً لأمرٍ جَلَل.

التزكية

تزكيةُ النفسِ يخلِّصُها من الأوضارِ والأخلاقِ الفاسِدة. قالَ سبحانهُ وتعالَى:

{كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ} [سورة البقرة: ١٥١].

أي: اذكروا أيُّها المسلمونَ بعثةَ الرسولِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ فيكم، يقرأ عليكم كلامَ اللهِ العظيم، ويُطَهِّرُكم من رذائلِ الأخلاق، وأفعالِ الجاهليَّة، ودنَسِ النفوس، ويُخرجُكم منَ الظُّلماتِ إلى النور، بإذنِ رَبِّه.

وذكرَ الله منَّتهُ على نبيِّهِ يَحيى بأنهُ آتاهُ زكاة، وهي طَهارَةَ النفس:
{وَحَنَاناً مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيّاً} [سورة مريم: ١٣].

ومنفَعةُ التزكيةِ تعودُ إلى صَاحبِها:
{وَمَن تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ} [سورة فاطر: ١٨].
أي: مَن أصلحَ نَفسَهُ وعَمِلَ عملاً حسَنًا، فإنَّ نَفعَهُ وثَوابَهُ يَعودُ عَليه، وإلى اللهِ المرجِعُ والحِساب، فيُجازي كُلاًّ بما عَمِل، وبما يَستَحِقُّ مِن نَعيمٍ أو عَذاب.

ولذلك:
{قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى. وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى} [سورة الأعلى: ١٤-١٥].
أي: قد فازَ ونَجَا مَن تَطهَّرَ مِنَ الشِّركِ والمعاصي ومَساوئِ الأخلاقِ والآدَاب، وأخلصَ العملَ لله.
وذكرَ عَظمَةَ رَبِّهِ وجَلالَه، فصلَّى ما فرَضَ عليه، مُمتَثِلاً أمرَه، مُبتَغياً رِضوانَه.

ولا يزكِّي المرءُ نفسَه:
{فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى} [سورة النجم: ٣٢].
أي: فلا تُثنُوا على أنفُسِكم ولا تُبرِئوها مِنَ الآثام، هوَ أعلَمُ بمَن أطاعَ وأخلصَ لهُ العمَل، واجتنبَ ما نَهَى عنه.

الزهد في الدنيا

حبُّ الشهواتِ والملذّات الدُّنيَوية، وما هو خيرٌ من ذلك.
هناكَ أمورٌ مبَاحة، يَستعملُها المسلمُ على وجهِها الحَلال، ويُسيءُ استخدامَها الفاسقُ ويَعصي بها الله. مثالهُ في قولِهِ تعالَى:

{زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالبَنِينَ وَالقَنَاطِيرِ المُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ وَالخَيْلِ المُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ المَآبِ} [سورة آل عمران: ١٤].

بمعنى: زُيِّنَ في نُفوسِ الناسِ مُشتهَياتٌ مُستحَبَّةٌ مُستلَذَّة، منَ النساءِ اللواتي لا صبرَ للرجالِ بدونهن. والرغبةُ فيهنَّ للشهوةِ والعِفَّة، والسكَنِ والرحمة، والودِّ والولَد.

ومنَ البَنين، حيثُ التفاخرُ والنسلُ والزينَة.

والمالِ الكثير، منَ الذَّهبِ والفِضَّة، الذي قد يكونُ تَكديسهُ للخُيَلاءِ والتكبُّرِ والسيطَرة، وقد يكونُ تَخزينهُ وتَنميتهُ ليُنْفَقَ في وجوهِ الخيرِ والطاعَة.

والخيولِ المحجَّلةِ الحِسان، التي قد تُقتنَى للقِتال، أو للهوايةِ والرياضة، فهيَ زينةٌ مُشتَهاةٌ على كلِّ حال.

والأنعام، من إبِلٍ وبقَرٍ وغَنَم.

والأراضي الزراعيةِ والحدائقِ والحقُول، التي تُزَوِّدُ الإنسانَ بالقُوتِ والطعَام، وتَدُرُّ عليهِ المالَ الوَفير.

وهذهِ الشهواتُ كلُّها منْ مَتاعِ الدنيا ولذائذِها المحبَّبة، وهيَ من زَهرتِها الذابِلة، وزينتِها الزائلة، فهيَ إلى فَناءٍ قريباً، وإلى حِسابٍ مُستَقبَلاً.

والذي عندَ اللهِ منَ اللذَّةِ والنَّعيمِ المقيم، وأكبرُ مِن ذلكَ رضوانُ الله، هوَ خيرٌ مِن ذلكَ كلِّه.

قالَ الله بعده:

{قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ وَاللهُ بَصِيرٌ بِالعِبَادِ} [سورة آل عمران: ١٥].

أي: فهل عَلمتُم ما هوَ خيرٌ مِن هذهِ الشهواتِ الفانِية، ولو كانت ممّا يُعجِبُ الإنسانَ ويَتمسَّكُ بها؟

إنَّهُ مِن نَصيبِ عبادِ اللهِ المتَّقين، الذينَ آمنوا باللهِ وقامُوا بالأعمَالِ الصَّالحة، فهؤلاءِ لهم عندَ ربِّهم جِنانٌ جَميلة، واسعةٌ رائعة، تَجري مِن تحتِها جداولُ المياهِ والأنهارُ العَذبة، ومنها ما يَجري بالعسلِ واللبنِ وأنواعِ الأشربِة، وفيها ما لم يَرَهُ الإنسانُ وما لم يَسمعْ به، معَ حياةٍ دائمةٍ هَنيئة، لا نَغْصَ فيها ولا انقِطاع.

ولهم فيها أزواجٌ مُطَهَّراتٌ مِنَ الأذَى الذي يَعتري نساءَ الدنيا، وحُورٌ عِيْنٌ جَميلاتٌ مُحَبَّباتٌ إلى النُّفوس، وفوقَ كلِّ ذلكَ رضوانُ الله، فلا سَخَطَ عليهم بعدَهُ أبداً.
واللهُ بصيرٌ بأعمالِ عبادهِ ونيّاتِهم وتوجُّهاتِهم في الدنيا، خبيرٌ بميولِهم ونوازِعِهم. وهوَ يُعطي كلاًّ بحسبِ ما عَمِلَ واجتهدَ وأخلَص.

فالعمَلُ الصَّالحُ يبقَى، وتفنَى زينةُ الدنيا:
{الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً} [سورة الكهف: ٤٦]
أي: الأموالُ والأولادُ زينَةُ الدُّنيا وزَهرَتُها، وكُلُّ ذلكَ يَفنَى ويَزول، ولا تُوزَنُ قيمَةُ الإنسَانِ بالزِّيناتِ الفانيَاتِ - معَ عَدَمِ النَّهي عنِ المباحِ منها في حُدودِ الشَّرعِ - ولكنَّ القِيمَةَ الحَقيقيَّةَ لِما هوَ صالِحٌ باقٍ مِنَ الأعمَالِ والأقوالِ والعِبادات، فهيَ أفضَلُ عندَ رَبِّكَ جَزاءً، وأحسَنُ ما يؤمَلُ في الآخِرَة.

التقوى

أمرَ الله بالتقوى:
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ} [سورة المائدة: ٣٥].
أي: أقبِلوا على طاعةِ اللهِ وذَروا ما نَهاكُم عنه، واطلُبوا القُربَ منهُ بالعملِ بما يُرضيه، مِنِ امتِثالٍ وضَراعة، وقُرَبٍ وطاعة.

وأكرمُ الناسِ أتقَاهم لله:
{إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [سورة الحجرات: ١٣].
فالأكرَمُ عندَ اللهِ والأرفَعُ مَنزِلَةً لديهِ هوَ الأتقَى، وليسَ الأرفَعَ نسَبًا، فإذا تَفاخَرتُمْ فتَفاخَروا بالتَّقوَى، والنَّسَبُ ليسَ مُكتَسبًا بعمَل، فلا يَكونَ مَدارًا للثَّوابِ عندَ الله. إنَّ اللهَ عَليمٌ بأقوالِكم في مَجالسِكم، خَبيرٌ بنيَّاتِكم وأحوالِكم.

والله مع المتَّقين:

{إِنَّ اللّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ} [سورة النحل: ١٢٨].

أي: إنَّ اللهَ وليُّ عِبادِهِ المتَّقينَ وراحِمُهم، الذينَ يُطيعونَهُ ويَخشَونَهُ في سِرِّهم وعَلانيَتِهم، والذينَ يُحسِنونَ عمَلَهم معَ الله، كما يُحسِنونَ إلى خَلقِهِ ويُشفِقونَ عَليهم.

ووصفَ الله المتَّقين بالخشية:

{الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ} [سورة الأنبياء: ٤٩].

فهمُ الذينَ يَخافونَ ربَّهم وإنْ لم يَرَوهُ ولم يَرَوا عَذابَه، وهم مِن حِسابِ وأهوالِ يَومِ القيامَةِ خائفونَ وَجِلون، يَرجُونَ رَحمةَ رَبِّهم ويَخافونَ عَذابَه.

وقالَ سبحانه:

{وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ} [سورة البقرة: ٢٠٣].

أي: كُونوا على تَقوًى منَ الله وخَشيةٍ منه، بامتِثالِ الأوَامرِ وتَركِ المحظوراتِ.. وتيقَّنوا بأنَّكم ستَعودونَ إلى الحياةِ بعدَ موتِكم، فيحاسِبُكمُ اللهُ على أعمالكم ويجازيُكم عَليها.

وقالَ أيضًا:

{وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُواْ اللّهَ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللّهُ غَنِيّاً حَمِيداً} [سورة النساء: ١٣١].

معناها: أمَرْنا الذينَ أوتوا الكتابَ بتقوَى اللهِ وطاعتِهِ كما أمَرْناكم بها يا أهلَ القُرآن، فإنْ تُعرِضوا عمّا وصّاكمُ اللهُ بهِ وتَكفُروا، فإنَّهُ لا يَضُرُّهُ شَيءٌ مِن إعراضِكم، كما لا يَنفَعُهُ شيءٌ مِنْ شُكرِكم وتَقواكُم، فهوَ مالكُ السَّماواتِ والأرضِ وما بينَهما، وهوَ غَنيٌّ عن خَلْقِهِ وعبادتِهم، مَحمودٌ في ذاتِه، إنْ حَمِدوا أو كَفَروا.

وقد طلبَ الله تعالَى من بني إسرائيلَ أن يتَّقوه؛ ليرحَمَهم، فقالَ سبحانه:

{وَلاَ تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ} [سورة البقرة: ٤١].

معناه: أطيعوني رجاءَ رَحمَتي بكم، وهدايَتِكُم، وإنقاذِكُم مِنَ العذاب.

وأنكرَ عليهم اشتغالَهم بالسِّحر، في قصَّةِ هَاروتَ ومَاروت، وذكرَ أنَّهم لو آمَنوا واتقَوا لما فعَلوا ذلك:
{وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُواْ واتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّه خَيْرٌ لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ} [سورة البقرة: ١٠٣].
أي: لو أنَّهم آمَنوا واتَّقَوُا اللهَ فاجتَنبوا ما حرَّمَهُ مِن سِحْرٍ وشِرك، ومُخالفةٍ للأنبياء، لكانَ أجرُهم عندَ اللهِ خيراً مِن هذا الذي رَضُوا بهِ لأنفسِهم مِن باطِلٍ وشَرّ. ولو كانوا يَعلَمونَ مَثوبةَ اللهِ لما اشترَوا السِّحر.

والتقوَى خيرُ زادٍ للمؤمن، وأفضلُ ما احتفظَ به لنفسِه. قالَ الله تعالَى:
{فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ} [سورة البقرة: ١٩٧].
أي: خيرُ ما تزوَّدتم بهِ هو ما ينفعُكم في الآخِرَةِ منَ التقوَى والعملِ الصالحِ والطَّاعة. واخشَوا عِقابي إذا خالفتُمْ ما أمرتُكم بهِ يا ذَوي الأفهامِ وأهلَ العقولِ الراجِحة.

والتقوى مستمرَّةٌ في وجدانِ المسلم..
{لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُواْ إِذَا مَا اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ ثُمَّ اتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [سورة المائدة: ٩٣].

ومَن خَشِيَ اللهَ ولم يَتَجاوَزْ حُدودَه، سهَّلَ لهُ أمرَه، وجعَلَ لهُ فرَجًا ومَخرَجًا، كما قالَ سُبحانه:
{وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً} [سورة الطلاق: ٤].

ونتيجةُ التقوى عظيمةٌ وافية:
{يِا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إَن تَتَّقُواْ اللّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} [سورة الأنفال: ٢٩].

معناه: إنَّكم إنِ اتَّقيتُمُ الله، بالقيامِ بطاعتهِ والانتهاءِ عن مَعصيتِه، يُوَفِّقْكم لمعرفةِ الحقِّ مِنَ الباطلِ، ويَجعَلْ في قُلوبِكم نُوراً تُفرِّقونَ بهِ بينَ الخطأ والصَّواب، ويكونُ هذا سَبباً لنَجاتِكم وسَعادتِكم، وغُفرانِ ذُنوبِكم. ونِعَمُ اللهِ كثيرة، وفَضلُهُ عَظيم، يَخُصُّ بهِ عبادَهُ المؤمِنينَ المتَّقين.

وإذا عَلمنا أنَّ أمرَ التقوَى عظيم، فإنَّنا نتَّقي اللهَ بما نَستطيعُ من جُهد:
{فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا} [سورة التغابن: ١٦].
أي: فابذُلوا جُهدَكمْ لامتِثالِ أمرِ اللهِ وعدَمِ مُخالفَتِه، واسمَعوا مَواعِظَ الله، وتَمسَّكوا بسنَّةِ نَبيِّهِ صلى الله عليه وسلم...

الربَّانية

أمرَ اللهُ تعالَى عبادَهُ أن يكونُوا ربَّانيِّين:
{كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ} [سورة آل عمران: ٧٩].
أي: كونُوا حُكماءَ علماءَ حُلَماء، مُتَمسِّكينَ بطاعةِ اللهِ ودينِه، بمتابعتِكم ومثابرتِكم على تعليمِ الكتابِ وقِراءتهِ وحِفظِه.

ومما وصفَ الله به الربّانيّين قولهُ تعالَى:
{وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ} [سورة آل عمران: ١٤٦].
أي: هناكَ أنبياءُ كُثرٌ قاتلَ معهُ جماعاتٌ مِنَ الصَّابرينَ الأبرارِ الأتقِياء، فما ضَعُفَت نُفوسُهم مِنَ الكَرْبِ والبَلاء، وما وَهَنوا لِما أصابَهم منَ الشدَّةِ والجِراح، وما توَقَّفوا عن متابعةِ الجهادِ في سبَيلِ الله، وما استَسلموا لأعداءِ اللهِ ولا ذَلُّوا، بل قاتَلوا على ما قاتلَ عليهِ أنبياؤهم حتَّى لَحِقوا بهم، واللهُ يُحِبُّ المدافِعينَ عن دينِه، المتَّبِعينَ لأوامرِ أنبيائه، الصَّابرينَ في أوقاتِ الشدَّةِ والحَرب.

الاستقامة، الالتزام والاعتصام بحبل الله

أمرَ الله رسُولَهُ وأمَّتَهُ بالاستِقامة، فقال:

{فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلاَ تَطْغَوْاْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [سورة هود: ١١٢].
معناه: الْزَمِ النَّهجَ المستَقيمَ في الدِّينِ أيُّها الرسُول، من غَيرِ إفراطٍ ولا تَفريط، في ثَباتٍ ودَوام، كما أمرَكَ اللهُ بذلك، أنتَ ومَن تابَ منَ الشِّركِ معَك، ولا تتجاوَزوا ما حَدَّهُ اللهُ لكم ولا تَنحَرِفوا عنه، فإنَّ مُجاوزةَ الحقِّ والتَّقصيرَ فيهِ طُغيانٌ وظُلم. فمَن أحلَّ ما حرَّمَ اللهُ في القُرآنِ فقد ظَلم، ومَن أشركَ كذلك، أو زَنَى، أو عَقَّ والِدَيه. ولا يَخفَى عليه شَيء، فيُجَازيكم على ما عَمِلتُم، فاتَّقوهُ في المحافظةِ على حُدودِه.

فالأمرُ بالاستِقامةِ عامّ:
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً. يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً} [سورة الأحزاب: ٧٠-٧١].
معناه: اخشَوا اللهَ وأطيعُوهُ ولا تُخالِفوا أمرَه، وقُولوا قَولاً مُستَقيمًا لا اعوِجاجَ فيه، غَيرَ جائرٍ ولا باطِل.
فإنْ تَفعَلوا ذلكَ يُثِبْكُم ويُزَكِّ أعمالَكمُ الحسَنة، ويُضاعِفِ الأجرَ لكم، ويَتقَبَّلْها منكم، ويُوَفِّقْكُم للتَّوبَة، ويَغفِرْ ذُنوبَكم، ومَن يُطِعِ اللهَ ورَسُولَهُ فقد ظَفَرَ بالنَّعيمِ المقيم، وأُجيرَ مِنَ العَذابِ الأَليم.

ومن استَقامَ فقد فاز:
{إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ} [سورة فصلت: ٣٠].
معناه: إنَّ الذينَ آمَنوا وقالوا: ربُّنا اللهُ وَحدَه، ثمَّ ثبَتوا على إيمانِهم وإخلاصِهم، ولم يَخلِطوهُ برِياءٍ وشِرك، تَتنَزَّلُ عَليهمُ الملائكةُ بأمرِ رَبِّهم عندَ الموتِ وعندَ البَعث، ألاَّ تَخافوا ولا تَتوَقَّعوا مَكروهًا مِمَّا يأتي مِن أمرِ الآخِرَة، ولا تَغتَمُّوا ولا تَحزَنوا على ما خلَّفتُم في الدُّنيا مِن أهلٍ ومَال، وأبشِروا بالجنَّةِ والنَّعيمِ الدَّائمِ الذي كانَ يَعِدُكم بهِ اللهُ على ألسِنَةِ رسُلِه.

ومن صفاتِ المؤمنين الالتزامُ بأحكامِ الشرعِ وتطبيقُها. قالَ ربُّنا سُبحانه:
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً} [سورة البقرة: ٢٠٨].

أي: خُذوا بجَميعِ عُرَى الإسلامِ وشَرائعهِ وشُعَبِ إيمانِه، والتزمُوا بجميعِ أوامرِهِ وأحكامِه، وانتهوا عن جميعِ زَواجرِه..

وأمرَ الله تعالَى بني إسرائيلَ أن يَكونوا جادِّين في تديُّنِهم، وأن يَكونوا ذا همةٍ وعزيمةٍ للالتزامِ بأحكامِ الدين، فقالَ سُبحانه:
{خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [سورة البقرة: ٦٣].
أي: خُذوا ما في التَّوراةِ واعمَلوا بأحكامِها بقوَّةٍ وعَزم، فلا مُهادَنَةَ ولا مُجامَلَةَ في أمرِ الدِّينِ والعقيدة. وتذكَّروا ما في هذا العهد، أو ما أُنزلَ عليكم في التوراةِ ولا تَغفُلوا عنه، ليَكونَ لكم سُلُوكاً وخُلُقاً وعَقيدَة، ولعلَّكم بذلكَ تَنْزِعونَ عمّا أنتُم عليهِ وتتَّقونَ العُقوبَة.

وقالَ سُبحانه:
{وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [سورة آل عمران: ١٠١].
أي: مَنْ تَمسَّكَ بحبلِ اللهِ وتوكَّلَ عليهِ حقَّ التوكُّل، فإنَّهُ يَهديهِ إلى طَريقهِ المستقيم، ويُثَبِّتهُ عليه، ويُسَدِّدُه.

وقالَ جلَّ جَلاله:
{وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا} [سورة آل عمران: ١٠٣].
أي: تمسَّكوا بعهدِ اللهِ والقُرآنِ الذي أنزلَهُ عليكم، الذي بهِ هُدِيتُم، وكُونوا جَميعاً إخوةً مُجتَمعينَ مُتحابِّين، ولا تَختَلِفوا مثلَ اليهودِ والنصارَى فتتفرَّقوا وتَتباغَضوا.

والمسلمُ يستسلمُ لأمرِ اللهِ وينفِّذه:
{فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [سورة النساء: ٦٥].
خطابٌ للرسولِ عليهِ الصَّلاةُ والسّلام، بأنَّ المنافقينَ لا يُؤمِنونَ حتَّى يَجعلوهُ حَكَماً فيما اختلَفوا فيهِ والتبَسَ عليهم حُكمُه، فما حَكمَ بهِ هوَ الحقُّ الذي يَجِبُ أنْ يُتَّبع، ثمَّ لا يَجِدونَ في أنفسِهم

وقلوبِهم شكًّا أو ضِيْقاً ممّا حَكمَ به، فانقَادوا إلى حُكمِهِ وأذعَنوا لهُ ظَاهِراً وبَاطِناً، وسَلَّموا بذلكَ تَسليماً كُلِّياً، مِن غيرِ مُمانَعةٍ ولا مُنازَعة. وكما جاءَ في الحديثِ الشريفِ الذي وثَّق رجالَهُ ابنُ حجرٍ في الفَتْح: "لا يُؤمِنُ أحدُكم حتَّى يَكونَ هَواهُ تَبَعاً لِمَا جِئتُ به".

الخوف والخشية

- الرهبة من الله

عندما هدَّدَ قابيلُ أخاهُ بالقتل، رفضَ هابيلُ أن يقابلَهُ بذلك؛ خوفًا من الله:

{لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ} [سورة المائدة: ٢٨].

معناه: إذا مَددتَ إليَّ يدكَ يا قابيلُ لتَقتُلَني، فلن أمدَّ يَديَ إليكَ لأقتُلَك، ولن أقابِلَ ما تَهُمُّ بهِ مِن فِعلٍ شَنيعٍ بمثلِه، بل أصبِرُ وأحتَسِب، وأستَسلِمُ خَوفاً منَ اللهِ ومن عقوبتِه.

وطلبَ الله تعالَى من بني إسرائيلَ أن يَخشَوه، ويُطيعوه، حتَّى لا يُنزِلَ بهم نقمَته:

{يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ} [سورة البقرة: ٤٠].

أي: إذا وَفيتُم بالعهدِ الذي في أعناقِكم، رَضِيتُ عنكم وأدخلتُكمُ الجنَّة، وإنْ لم تَفعَلوا فاذكروا ما أنزلتُ بآبائكم مِنَ النِّقم، كالمسخِ وغيره، فإنِّي قادرٌ على أنْ أُنزلَ بكم ما أنزلتهُ بهم.

وقالَ سبحانهُ وتعالَى في أمرِ التحوُّلِ إلى القِبلةِ وشَائعاتِ المشركِين:

{فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي} [سورة البقرة: ١٥٠].

أي: فلا تَحسُبوا حِساباً لهم ولا لأقاويلِهم، فلا سلطانَ لهم عليكم ولن يضرُّوكم، بلِ اتَّقُوا ربَّكم واخشَوْهُ في السرِّ والعَلَن، فهو الضارُّ النافِع، وأهلٌ لأنْ يُخشَى، وبيدِهِ الأمرُ كلُّه.

وقالَ في صفةِ المؤمنين:

{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} [سورة الأنفال: ٢].

أي: إنَّما المؤمِنونَ المخلِصونَ في إيمانِهم، الذينَ إذا وردَ ذِكْرُ اللهِ وما أَمرَ به، خافَتْ قلوبُهم وخَشَعَت؛ استِعظاماً لشأنِهِ الجليلِ وتَهَيُّباً منهُ سُبحانه، وإذا تُلِيَتْ عليهم آياتُ كتابهِ الكريمِ زادَتهُم تَصديقاً ويَقيناً، فبادروا إلى فعلِ ما يأمر، وتركِ ما يَنهى، ويفوِّضونَ أمورَهم إلى ربِّهم، لا يَرجونَ غيره، ولا يَقصِدونَ إلاّ إيّاه، ولا يَرغَبونَ إلاّ إليه.

وقالَ أيضًا سُبحانه:

{وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ. الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ} [سورة الحج: ٣٤-٣٥]

معناه: بشِّرِ المؤمِنينَ الخاشِعينَ لله، الرَّاضينَ بحُكمِه، بالمثوبَةِ الحُسْنَى.

الذينَ إذا ذُكِرَ اللهُ عندَهم خافَتْ وخشَعَتْ لهُ قُلوبُهم، والصَّابرينَ على ما أصابَهم مِنَ البَلايا والمِحَنِ والتَّكاليف، والمواظبينَ على الصَّلاةِ في أوقاتِها، فلا يَصرِفُهم عنها شَيء، والذينَ يُنفِقونَ ممّا آتاهمُ اللهُ في وجُوهِ البِرِّ والإحسَان.

وإنَّما تُرتَجى طاعةُ الذينَ يَخشَونَ ربَّهم:

{إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ} [سورة فاطر: ١٨].

أي: إنَّما يَنفَعُ الوَعظُ والإنذارُ مَن يَخافونَ اللهَ وهم لم يروه، ويَخشَونَ عَذابَهُ وهوَ غائبٌ عَنهم، وواظَبوا على إقامَةِ الصَّلاةِ كما فرَضَها عَليهم.

والعالِمُ المخلِصُ يخشَى الله:

{إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ} [سورة فاطر: ٢٨].

معناه: إنَّما يَخشَى اللهَ حقَّ الخَشيَةِ العُلَماءُ العارِفونَ به، الذينَ يُديمُونَ التفَكُّرَ في خَلقِهِ وبَديعِ صُنعِه، ويَعلَمونَ أنَّهُ قادِرٌ على كُلِّ شَيء وأنَّهُ سُبحانَهُ لم يَخلُقْهم عبَثًا.

يَقولُ ابنُ مَسعودٍ رَضيَ اللهُ عنه: "ليسَ العِلمُ عنْ كَثرَةِ الحَديث، ولكنَّ العِلمَ عنْ كَثرَةِ الخَشيَة".
يَعني أنَّ العالِمَ الحقيقيَّ هوَ الذي يَخافُ اللهَ ويَتَّقيه، فمَنْ لم يَكنْ كذلكَ فإنَّ عِلمَهُ غَيرُ مَقبولٍ عندَه.

- الخوف من الحساب

والمؤمنُ يخافُ من الحِساب؛ خشيةَ أن تكونَ سيِّئاتهِ غلبَتْ حسَناته. قالَ اللهُ سبحانه:
{وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} [سورة البقرة: ٢٨١].
تفسيرها: واخشَوا اللهَ حقَّ الخَشية، وانتَظِروا ذلكَ اليومَ الذي تُرجَعونَ فيهِ إليهِ وقد تركتمُ الدُّنيا وما فيها مِن أموال، وسوفَ يُحاسِبُكم على ما كسبتُم من طرقٍ حَلالٍ أو حَرام، ويُحَذِّرُكم من عُقوبتِه، كما يُرَغِّبُكم في مَثوبتِه، ولن يُظلَمَ أحدٌ في ذلكَ اليومِ والمحاسِبُ هوَ الله.

وإنما يخافُ من آمنَ بالحشرِ والحسَاب:
{وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُواْ إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ} [سورة الأنعام: ٥١].
معناه: أنذِرْ وعِظْ بهذا القُرآنِ مَن يؤمِنُ بيومِ القيامَة، الذينَ يخافونَ حِسابَ ربِّهم، يَرجُونَ ثوابَهُ ويَخافونَ عِقابَه، ليسَ لهم وليٌّ ينصرُهم ولا شَفيعٌ يَتوسَّلونَ بهِ سِوَى الله، ليتَّقوا ربَّهم بهذا التذكير.

وقالَ أيضًا:
{فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ} [سورة ق: ٤٥].
معناه: عِظْ بالقُرآنِ مَن يَخافُ اللهَ ووَعيدَه، فإنَّهُ لا يَنتَفِعُ بهِ غَيرُهم، واللهُ يَهدي مَن يَشاء.

وجزاءُ من آمنَ وأطاع، وخافَ الحسَاب:
{وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى. فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى} [سورة النازعات: ٤٠-٤١].

أي: مَن خافَ مقامَهُ بينَ يدَي رَبِّهِ يَومَ الحِسَاب، وزجَرَ نَفسَهُ ونَهاها عنِ الهوَى والمعاصِي، وردَّها إلى طاعَةِ الله، ووَطَّنَها على فِعلِ الخَيرات،
فإنَّ الجَنَّةَ هيَ مَصيرُهُ ومَسكنُه.

- الخوف من العذاب

والمؤمنونَ المصلُّون يؤدُّونَ واجباتِهم الدينيَّةَ خوفًا من عذابِ الله، وهم يعلَمونَ أنَّهم معرَّضون للعقوبةِ إذا عصَوا اللهَ في أوامره. قالَ ربُّنا سُبحانه:
{وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ. إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ} [سورة المعارج: ٢٧-٢٨].
إنَّهم يَخافونَ على أنفُسِهم مِن عَذابِ الجَحيم، فهمْ وَجِلونَ مُشفِقون، يَطمَعونَ في رَحمَةِ رَبِّهم، ويَخافونَ عُقوبَتَه. ولا يأمَنَنَّ عَذابَ اللهِ أحَدٌ، ولو كانَ مُبالِغًا في الطَّاعَة، فلا يَخلو أحَدٌ مِن ذُنوبٍ عَمِلَها، ولا يَدري أيُغفَرُ لهُ أمْ لا؟

وكما وُصِفَ عبادُ الرحمن:
{وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً. إِنَّهَا سَاءتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً} [سورة الفرقان: ٦٥-٦٦].
أي: هم الذينَ يَقولونَ في رَهبَةٍ وخُشوع: رَبَّنا أبعِدْ عنَّا عَذابَ جهنَّم، إنَّ عَذابَها مُلازِمٌ مُستَمِرّ، غَيرُ مُفارِق.
إنَّها بئسَ الموضِع، وبئسَ المكانُ المقامُ فيه.

وفي إهلاكِ أممٍ سابقةٍ ترهيبٌ وتحذيرٌ وعظةٌ للآخرين:
{إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ} [سورة هود: ١٠٣].
أي أنَّ في إهلاكِ الأُمَمِ الكافِرةِ عِظَةً وعِبرَةً لمن آمَنَ باللهِ واليومِ الآخِر، ففيهِ مِن تَعذيبِ الكافِرينَ الظَّالِمينَ بالنَّارِ في الآخِرَةِ ما يُشبِهُ إهلاكَهم في الدُّنيا، فكِلاهُما عَذاب، لكنَّ عَذابَ الآخِرَةِ

أشَدُّ وأبقَى، ذلكَ اليومُ الذي يَجتَمِعُ النَّاسَ فيهِ كلُّهم، أوَّلُهم وآخِرُهم، للمُحاسَبةِ والجَزاء، إنَّهُ يَومٌ مَشهودٌ عَظيم، يَشهَدُهُ أهلُ السَّماءِ والأرْض.

الخشوع، التضرع، التذلل

أمرَ اللهُ تعالَى بالتضرُّعِ إليهِ والتذلُّلِ له في الدُّعاءِ خاصَّة، فقال:
{ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً} [سورة الأعراف: ٥٥].
أي: ادعوا ربَّكم واسألوهُ في تذلُّلٍ وخُضوع، وفي السرِّ وبخَفضِ الصَّوتِ؛ ففي ذلكَ استِكانةٌ وخُشوعٌ وإخلاص.

والتضرُّعُ طريقُ الأوبةِ والإيمان:
{وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ} [سورة الأعراف: ٩٤].
أي: ما أرسَلنا نبيًّا في بلدٍ مِنَ البُلدانِ المهلَكة، يدعو إلى دينِ اللهِ وينهاهُم عنِ الشرِّ والمنكرِ الذي هم فيه، فيُكذِّبونَه، إلاّ ابتَليناهم - قبلَ الإهلاكِ - بالفَقرِ والحاجة، والسَّقَمِ والمرَض، لعلَّ نفوسَهم تَخضَعُ وتَلين، ليَلتجِؤوا إلى الله، ويَستَجيبوا لأمرِه، ويَتوبوا من ذنوبِهم، فيَكشِفَ ما نَزلَ بهم.

وأثنَى الله تعالى على عبادِهِ الذين يخشعونَ له، فقال:
{وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ. الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاَقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيهِ رَاجِعُونَ} [سورة البقرة: ٤٥-٤٦].
أي: استعينوا أيُّها المؤمنونَ على طَلَبِ الخيرِ في الآخِرةِ والدنيا، بالصبرِ على طاعةِ الله، والصَّلاة. فإنَّ الصبرَ لابدَّ منهُ في كلِّ أمرٍ شاقّ، والصلاةُ تُعِينُ على الثباتِ على الأمر، وهي شاقَّةٌ وثقيلةٌ إلاّ على المتَواضِعينَ المطيعينَ لله، الذينَ يؤمنونَ بوعدِ اللهِ ووعيده، وبأنَّهم محشورونَ إليهِ يومَ القيامة، وأنَّ أعمالَهم معروضةٌ عليه. وهذا الإيمانُ هوَ الذي يدفعُهم إلى طاعتِه، وتجنُّبِ معاصيه.

ووصفَ مَن آمنَ من أهلِ الكتَابِ بقَوله:
{وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ للهِ} [سورة آل عمران: ١٩٩].
أي: هناكَ طائفةٌ مِن أهلِ الكِتابِ يؤمنونَ باللهِ حَقَّ الإيمان، ويؤمِنونَ بما أُنزِلَ على النبيِّ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم إضافةً إلى إيمانِهم بالكُتُبِ المتقدِّمة، مثلَ المسلِمين، معَ خُشوعٍ وخَشيةٍ منَ الله، وطاعةٍ لهُ وتَذَلُّل.

وقالَ لنبيِّهِ محمدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم:
{وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلاَ تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ} [سورة الأعراف: ٢٠٥].
معناه: واذكرِ اللهَ في نفسِك، مُخلِصاً له، مُتضَرِّعاً إليه، مُتذلِّلاً بينَ يَديه، خائفاً منه، مُستَحضِراً عَظَمتَه، وفي صَوتٍ خَفيض، بينَ الجهرِ والمخافَتة، بما يُناسِبُ الخُشوعَ والرَّهبة، أوَّلَ النَّهارِ وآخِرَه. ولعلَّ المقصودَ مُداومةُ الذكرِ والمواظَبةُ عليه، ليَبقَى القلبُ مَوصولاً بالله. ولا تَكنْ ممَّن يَنسَونَ الله، ويَبتعِدونَ عنْ ذِكْرِه، فإنَّ الفوزَ في ذِكْرِه، والخَيبةَ في الإعراضِ عنه.
قالَ الفَخرُ الرازيّ: يدلُّ على أنَّ الذكرَ القلبيَّ يجبُ أنْ يَكونَ دائماً... بقَدرِ الطاقةِ البشريَّة.
والمسلمونَ تَبَعٌ لِما خُوطِبَ بهِ النبيُّ صلى الله عليه وسلم.

وقالَ لعِبادِهِ المؤمنِين:
{أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ} [سورة الحديد: ١٦].
معناه: ألَمْ يَحِنْ للمؤمِنينَ أنْ تَلينَ وتَرِقَّ قُلوبُهم لذكرِ اللهِ ومَواعِظِه، وعندَ سَماعِ القُرآنِ والإنصاتِ له، فيُطيعوا ربَّهم، ولا يَكونوا كاليَهودِ والنَّصارَى، الذينَ طالَ الزَّمانُ بينَهم وبينَ أنبِيائهم، فبدَّلوا كتُبَهم، واشترَوا بآياتِها ثَمَنًا قَليلاً، ومالُوا إلى الدُّنيا، واتَّبَعوا أهواءَهم، وأعرَضوا عنِ الموعِظَة، فقسَتْ قُلوبُهم فلم تَقبَلِ التَّذكير، ولم تَلِنْ بوَعدٍ ووَعيد، وكثيرٌ منهم خارِجونَ عن حُدودِ دينِهم، بَعيدونَ عن طاعَةِ ربِّهم، فقُلوبُهم فاسِدَة، وأعمالُهم باطِلَة.

الرقة والبكاء

وصفَ الله تعالَ صنفًا من النصارَى بالرقَّةِ والتواضع، فكانوا أقربَ إلى المسلمينَ من غيرِهم من مللِ الكفر:

{وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُوَاْ إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ. وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ} [سورة المائدة: ٨٢-٨٣]

أي: إذا سَمِعَ هؤلاءِ وأمثالُهم ما نزلَ على الرسُولِ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلمَ مِن آياتِ القُرآن، تَرَى الدموعَ تَسيلُ مِن عُيونِهم، وذلكَ لما عَرَفوا مِنَ الحقّ الذي عندَهم، منَ البِشارةِ ببعثةِ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم، مثلَما حدثَ للنجاشيِّ وقسِّيسينَ مِن حَولِه، ولم يَكونوا مثلَ اليهودِ بُهْتاً مُعانِدينَ ومُكَذِّبينَ مُحَرِّفين، بل قالوا في تواضُعٍ وخُشوع، وأوبَةٍ وإيمان: اللهمَّ إنّا آمنّا بما أنزلت، فاكتُبنا معَ مَن يَشهدُ بصحَّةِ هذا، واجعَلنا عندَكَ معَ أمَّةِ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم، وممَّن يَشهَدونَ معهم بالحقّ.

ووصفَ الله المؤمنينَ بقوله:

{وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً} [سورة الإسراء: ١٠٩].

أي أنَّهم يَقعونَ على وُجوهِهم ساجِدينَ لله، خضوعًا لهُ وشُكرًا لإنجازِ الوَعد، يَبكونَ مِن خَشيَةِ الله، ويَزيدُهم سَماعُ القُرآنِ إيمانًا وتَسليمًا، وعِلمًا ويَقينًا.

وبكى صحابةٌ لما لم يَجدوا مركبًا لأجلِ الجِهاد:

{وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلاَّ يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ} [سورة التوبة: ٩٢].

معناه: ليسَ هناكَ مُعاتبةٌ كذلكَ على مَن لم يَخرُجْ مَعكَ منَ الذينَ جاؤوكَ يَطلُبونَ أنْ تَحمِلَهم على الدوابِّ ليُجاهِدوا مَعك، فقلتَ لهم: لا أجدُ ما تَركَبونَ عليه، فرَجَعوا وأعينُهم تَسيلُ منَ الدمع، حَزينينَ مَغمُومِين، لأنَّهم لا يَجدونَ ما يَشتَرونَ بهِ مستَلزَماتِ الجِهاد، ليُقاتِلوا في سبيلِ الله.

التوبة والاستغفار

أمرَ اللهُ الناسَ بالاستغفارِ والتوبة، فقالَ سبحانه:

{وَأَنِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعاً حَسَناً إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ} [سورة هود: ٣].

معناه: اطلُبوا المغفِرةَ منَ اللهِ لذُنوبِكم، وتوبُوا إليهِ منها، ولا تَعودوا إليها، ليَمنحَكمْ حياةً طيّبة، فيها أمنٌ وعافِية، وسَكَنٌ وراحَة، حتَّى يأتيَ أجَلُكم المقدَّرُ لكم، وليُعطيَ كلَّ ذي فَضلٍ وحسَنةٍ في الدُّنيا جَزاءَ فَضلِهِ وإحسانِهِ في الآخِرَة.

وقالَ أيضًا:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحاً عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} [سورة التحريم: ٨].

أي: توبوا إلى اللهِ مِن ذُنوبِكم وسَيِّئاتِ أعمالِكم تَوبةً صادِقَةً جازِمَة، تَنصَحونَ بها أنفُسَكم، فتَندَمونَ على أخطائكم، وتَعزِمونَ على عدَمِ العَودَةِ إليها، عسَى أنْ يَغفِرَ اللهُ بذلكَ سَيِّئاتِكم، ويُكرِمَكم يَومَ القيامَةِ فيُدخِلَكم جنَّاتٍ واسِعات، تَجري مِن تَحتِها الأنهارُ الكثيرة.

كما أمرَ رسولَهُ بالاستغفارِ فقال:

{وَاسْتَغْفِرِ اللّهَ إِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً} [سورة النساء: ١٠٦].

أي: اطلبِ المغفِرَةَ مِنَ الله؛ لهَمِّكَ بالحُكمِ على ما لم تَتثبَّتْ منه، فإنَّ اللهَ يَغفِرُ لك، فهوَ كثيرُ المغفِرَةِ والرَّحمَة.

ومن صفاتِ المؤمنِينَ الأتقيَاءِ أنهم يستغفرونَ ربَّهم، وخاصةً في وقتِ السَّحرِ وقد نامَ الناس، فيَلتَجِؤونَ إليه، ويَطلبونَ منهُ العفوَ والغُفران. قالَ الله تعالَى معدِّدًا بعضَ صفاتِهم:

{الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ} [سورة آل عمران: ١٧].

وأمرَ اللهُ النصارَى بأن يتوبُوا من شِركِهم، ليَتوبَ عليهم:
{أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [سورة المائدة: ٧٤].
بمعنى: أفلا يتوبُ النَّصـــارَى مِن هذا الإفكِ العَظيمِ، ويَســـتَغفِرونَهُ من هذا القَولِ الأثيم، ويَعودونَ إلى القَولِ الحقّ؟ هلاّ انتهَيتُم ممّا نَسبتُموهُ إلى ربِّكم وتُبتُم إليهِ ليتوبَ عليكم، ويمنحَكم مِن فَضلهِ ورحمتِه؟

وبيَّنَ أمرَ التوبةِ بشكلٍ واضحٍ في آيتين:
{إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا. وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الموْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا} [النساء: ١٧-١٨].
معنى الآيتين: إنَّما يَتقبَّلُ اللهُ التوبةَ مِنَ الذينَ يَعملونَ المعاصيَ جهالةً وسفَهًا وهم يَعلَمُونَ سُوءَ عاقبتِها. وسُمِّي مُقترِفُ الذنبِ جاهِلاً لأنَّهُ يُقْدِمُ عليهِ وهوَ يَعلَمُ مَغَبَّته! فهؤلاءِ إنْ تابوا قبلَ سَكراتِ الموتِ قَبِلَ اللهُ توبتَهم، واللهُ عَليمٌ بخَلقِه، حَكيمٌ فيما يَصنَعُ بهم.
ولا تُقبَلُ التَّوبةُ مِنَ الذينَ يَرتَكبونَ الذنوبَ حتَّى إذا عايَنوا الموت، وغَرْغَرَ الحَلْق، وجاءَتْ سَكرةُ الحَقّ، قالَ أحدُهم إنِّي تُبْتُ الآن، وكذا الكفّارُ الذينَ يَموتونَ على كفرِهم، لا يَنفعُهم نَدمُهم ولا تَوبتُهم عندَ الموت، فهؤلاءِ هيّأنا لهم عَذاباً شَديداً ومُؤلماً دائماً.

والمؤمنُ توّاب، كلَّما أحدثَ ذنبًا استغفرَ وتاب، وما يزالُ هكذا..
قالَ اللهُ تعالَى:
{إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ المتَطَهِّرِينَ} [سورة البقرة: ٢٢٢].
أي أن اللهَ يحبُّ التوّابينَ منَ الذنوبِ وإنْ تكرَّرَ ذلكَ منهم.

واللهُ يغفرُ الذنوبَ لمن تابَ وأناب:
{وَمَن يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللّهَ يَجِدِ اللّهَ غَفُوراً رَّحِيماً} [سورة النساء: ١١٠].

أي: مَن يَقتَرِفْ ذَنباً، كبيراً كانَ أو صَغيراً، يَسُوءُ بها غَيرَه، كسَرِقَتِه، أو يَظلِمُ بها نفسَه، كحَلِفٍ كاذِب، ثمَّ يَتُبْ منهُ ويَعُدْ إلى الحقّ، ويَطلبِ المغفِرَةَ مِن ربِّه، فإنَّهُ عَفُوٌّ حَليم، يَقبَلُ تَوبتَهم، ويَغفِرُ لهم ويَرحَمُهم.

ورغَّبَ الله تعالَى عبادَهُ في الاستغفارِ حتَّى يغفرَ لهم ذنوبَهم، فقالَ عزَّ مِن قائل:
{وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [سورة آل عمران: ١٣٥].
أي أنَّهم إذا أذنَبوا ذَنباً، كبيراً كانَ أو صَغيراً، لم يُصِرُّوا على ما فَعلوا، ولم يَفتَخِروا بالمعصِية، بل تذكَّروا اللهَ وما أعَدَّ للعاصِينَ من عِقاب، وما وعدَ بهِ التائبينَ المستغفِرينَ منَ العَفوِ والمغفِرة، فاستغفَروا لذنوبِهم، وتابُوا إلى رَبِّهم وأنابوا إليه، وهم يَعلَمونَ أنهُ لا يَغفِرُ ذنوبَهم إلا هو، ولا يَرحمُهم إلاّ هو، وأنَّ مَن تابَ تابَ اللهُ عليه، مادامَ مُعترِفاً بذَنبِه، نادماً غيرَ مُصِرٍّ عَليه، عازِماً على تركِه.

ثمَّ بيَّنَ ثوابَ من استغفرَ وأناب، فقال:
{أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ العَامِلِينَ} [سورة آل عمران: ١٣٦].
أي: أولئكَ همُ المتَّقون، وجَزاؤهم على هذهِ الصِّفاتِ الطيِّبةِ أنْ يَغفِرَ اللهُ لهم، ويُدخِلَهم جَنّاتٍ تَجري خلالَ أشجارِها وفي أسافلِها الأنهار، ماكثينَ فيها أبداً، ونِعْمَتِ الجنَّةُ جزاءَ أعمالِهمُ الحسَنة.

وبُشرَى لمن آمنَ وتاب. قالَ الله لرسولِهِ الكريم، عليه أفضلُ الصلاةِ والسلام:
{وَإِذَا جَاءكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [سورة الأنعام: ٥٤].
أي: إذا أتاكَ المؤمِنونَ الصَّالحون، فبشِّرْهُم بالسَّلامِ والأمانِ مِن عندِ الله، وقد أوجبَ اللهُ سُبحانَهُ على نفسهِ المقَدَّسة، تَفضُّلاً منهُ وإحساناً، أنَّ منِ اقترفَ منكم ذَنْباً وهوَ جاهِل، ثمَّ استغفرَ

منهُ وتابَ إلى الله، وأقلعَ عنهُ وعَزمَ عَلى عَدمِ العَودةِ إليه، فإنَّ اللّهَ يَغفِرُ له، ويَرحَمُهُ برَحمتهِ الواسِعَة.

وقالَ سُبحانهُ في جزاءِ التائبِ المنيب:
{هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ. مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ وَجَاء بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ} [سورة ق: ٣٢-٣٣].
أي: هذا النَّعيمُ المقيمُ هوَ ما وعدَ اللهُ بهِ كُلَّ مؤمنٍ مُطيع، تائبٍ إلى الله، مُحافِظٍ على أمرِه، أمينٍ على عَهدِه.
مَن خافَ اللهَ في سِرِّهِ وأطاعَهُ بالغَيبِ حيثُ لا يَراهُ أحَدٌ إلاّ هو، ولَقيَ اللهَ بقَلبٍ تائبٍ مُقبِلٍ على طاعَتِه.

الصلاح، العمل الصالح
حثَّ الله تعالَى عبادَهُ على أن يعملوا صالحًا، وأثنى على أهلِهِ (الصالحين)، ووعدَهم بالثوابِ الجزيل، قالَ سبحانهُ وتعالَى:
{وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [سورة البقرة: ٨٢].
أي: الذينَ آمنوا بالله ورسُولِهِ وعَمِلوا الأعمالَ الصالحة، الموافقةَ للشريعة، الخالصةَ لله، فإنَّهم مِن أهلِ الجنَّة، المخَلَّدينَ فيها أبداً.

وأثنَى الله على النساءِ الصالحاتِ ووصفَهنَّ بقوله:
{فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللّهُ} [سورة النساء: ٣٤].
أي: الصالحاتُ مِنهُنَّ مُطيعاتٌ للهِ تَعالَى وقائماتٌ بحقوقِ أزواجِهنّ، ويَحفظْنَ أنفسَهنَّ عمّا يَشينُها أثناءَ غيابِ أزواجِهِنَّ عَنهنّ، ويَحفَظْنَ أموالَهم، وكلَّ ما يَجِبُ عليهنَّ حِفظُه، وذلكَ بما حَفِظَ اللهُ لهنَّ عليهم منَ المهرِ والنفَقة، والقيامِ بحفظِهنَّ والذبِّ عنهنّ.

وقالَ أيضًا سُبحانه، بعدَ الأمرِ بعدمِ التعامُلِ بالرّبا:

{إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآَتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [سورة البقرة: ٢٧٧].
أي: إنَّ الذينَ آمَنوا وأتْبَعُوا إيمانَهم بالأعمالِ الصالحة، فأطاعُوا ربَّهم، وشَكروا لهُ نِعَمَهُ عَليهم، ورَضُوا بما قَسَمَ لهم منَ الحلال، وأحسَنوا إلى خَلْقه، وداومُوا على صلواتِهم، وأعطَوا زكاةَ أموالِهم للفقراءِ والمحتاجين، لهم جميعاً الجزاءُ العَظيمُ عندَ ربِّهم، ولا خوفٌ عليهم يومَ الحِساب، في مقابلِ التخبُّطِ والهَلَعِ الذي يُصيبُ المرابي، ولا هم يَحزَنونَ على ما فاتَهم منَ الدُّنيا، فهم في مكانٍ أجلّ، ونَعيمٍ أعظم، وسعادةٍ لا تُوصفُ ولا تُقارَنُ بما في الدنيا.

وقد أثنَى على عَبدِهِ ونبيِّهِ عيسى عليهِ السلامُ بأنهُ من الصالحينَ المقبولين، فقالَ سبحانه:
{وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ} [سورة آل عمران: ٤٦].

كما أثنَى على مَن آمنَ مِن اليهود، وذكرَ الصفاتِ التي استَحقُّوا بها أن يَكونوا صَالحين، فقال:
{لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آَيَاتِ اللهِ آَنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ. يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ. وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ} [آل عمران:١١٣-١١٥]
أي أنَّ أهلَ الكتابِ ليسُوا كلُّهم هَكذا، فقد آمنَ منهم خَلْقٌ فاستَقاموا على طَريقِ الحقّ، وأطاعُوا شَرعَ الله، واتَّبعُوا نبيَّه، وصَاروا يَتلُونَ آياتِ القُرآنِ الكريم، ويَقومُونَ الليل، ويَتهَجَّدونَ في تَبتُّلٍ وخُشُوع.
يُؤمنونَ باللهِ الواحِدِ الأحَد، وباليَومِ الآخِر، ويأمُرونَ الناسَ بالخيرِ والحقِّ والعَدل، ويَنهونَهم عنِ الشرِّ والأذَى والظُّلم، ويَتسابَقونَ في الأعمالِ الخيِّرة، ويَبَرُّونَ إخوانَهُمُ المؤمنين، في تعاونٍ وطاعةٍ وتَقوَى، وهؤلاءِ همُ الصَّالحون، الذينَ أتْبَعوا إيمانَهم بالأعمالِ الطيِّبةِ المبارَكة.
وكُلُّ ما يفعلونَهُ من خيرٍ وبِرٍّ وإحسانٍ لن يُبْخَسُوا حقَّه، ولن يُكْفَروا أجرَه، بل يَجزيهمُ اللهُ عليها أوفرَ الجزاء، فهوَ عليمٌ بمنِ اتَّقاهُ وطلبَ رِضاه، لا يَخفَى عليهِ عَملُ أحَد.

المبادرة إلى الخير والتنافس فيه

وهي صفةٌ جليلةٌ يتَّصفُ بها أهل العزيمةِ والإيمانِ القويّ. قالَ سبحانه:

{فَاسْتَبِقُواْ الْخَيْرَاتِ} [سورة البقرة: ١٤٨، سورة المائدة: ٤٨].

أي: فسارِعوا إلى الخيرات، وبادِروا إلى الحسناتِ والأعمالِ الصَّالحات، بطاعةِ اللهِ واتِّباعِ شرعِه، والتصْديقِ بكتابِه، واتِّباعِ أوامرِه. وما على المسلمينَ سِوَى التوجُّهِ إلى عَملِ الخَير، والتنافسِ في رِضَا الله، والانصرافِ إلى ما يُفيدُ ويُثمِر.

وقالَ أيضًا:

{وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ} [سورة آل عمران: ١٣٣].

أي: تَسابَقوا في فعلِ الخَيرات، وسَارِعوا إلى نَيلِ القُرُبات، لتَنالوا جائزةَ ربِّكم: مغفرةَ ذنوبِكم، وجنَّةً واسِعةً عَرْضُها السَّماواتُ والأرض، هُيِّئتْ لعبادِ اللهِ المؤمنينَ الصَّالحين.

وقالَ ربُّنا في صفةِ أمَّةِ محمدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم:

{فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ} [سورة فاطر: ٣٢].

معناه: مِن هذهِ الأمَّةِ مَن هوَ مُقَصِّرٌ في العمَلِ بالقُرآن، وبما أوجبَهُ اللهُ عَليه، فيُضِرُّ بنَفسِه عندَما يُعرِّضَها للعُقوبَة، ومنهم وسَطٌ في الأمر، فيُطيعُ تارَةً ويُخالِفُ أُخرى، ومنهم مَن يُحرِزُ الفَضلَ ويَسبِقُ إلى الجَنَّة، بإذنِ اللهِ وتَوفيقِه، فيَعمَلُ الواجِباتِ ويَترُكُ المحرَّمات، وإذْ خَصَّ اللهُ هذهِ الأُمَّةَ بالقُرآن، فإنَّهُ فَضلٌ عَظيمٌ منهُ عَليهم.

وقد مضَى موسى إلى ميعادِ ربِّهِ في الطُّورِ قبلَ أن يحينَ وقته، قالَ الربُّ الجليل:

{وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَى. قَالَ هُمْ أُولَاء عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى} [سورة طه: ٨٣-٨٤].

أي: ما الذي جعلَكَ تتَقَدَّمُ على قَومِكَ وتُسارِعُ إلى حُضورِ ميعادِ المناجاةِ قبلَهم يا موسَى؟

قالَ موسَى عَليهِ السَّلام: إنَّهم قادِمونَ وقَريبونَ مِنَ الطُّور، وقد سارَعتُ إلى الميعَادِ للمُبادَرَةِ إلى رِضاكَ يا رَبّ، وشَوقًا إلى مُناجاتِك.

وللسَّابقينَ والمبادرينَ إلى فعلِ الخيراتِ والطاعاتِ ثوابٌ كبير:
{وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ. أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ. فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ} [سورة الواقعة: ١٠-١٢].
معناه: المبادِرونَ إلى الإيمَانِ والطَّاعَةِ عندَ ظُهورِ الحقِّ قَبلَ غَيرِهم، أو السَّابِقونَ إلى الخَيراتِ والطَّاعات، همُ السَّابِقونَ إلى دارِ الكرَامةِ والرِّضوان.
أولئكَ الذينَ نالُوا الحُظوَةَ والمنزِلَةَ العَالية عندَ اللهِ تَعالَى.
في جَنَّاتٍ عاليَة، ونَعيمٍ دَائم.

الدرس والعبرة

قالَ الله تعالَى في آخرِ سورةِ يوسُف:
{لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}
معناه: لقد كانَ في خبَرِ الأنبياءِ معَ أُمَمِهم، ومِن ذلِكَ قِصَّةُ يوسُفَ معَ إخوتِهِ وأبيه، ثمَّ سَجنُهُ، ومَآلُ أمرِه، تَذكِرةٌ وعِبرَةٌ لذَوي العُقول، أهلِ الفِكرِ والاعتِبار.
وما كانَ هذا القُرآنُ العَظيم، الذي احتَوَى على قَصَصِ الأنبياءِ وغيرِها ممّا فيهِ فائدةٌ وعِبرَة، ما كانَ كلامًا مُختَلَقًا، ولا حِكايةً شَعبيَّةً تُسرَد، فإنَّ الكذِبَ لا يُحَقِّقُ هِداية، ولا يَطمَئنُّ إليهِ النَّاس، ولكنَّهُ كِتابُ هِدايةٍ وتَوجيه، صدَّقَ الكتُبَ السَّماويةَ السَّابِقة، وشَهِدَ لها بالصحَّةِ إذا وافقَتِ الوحي. وفيهِ بيانُ ما يَحتاجُهُ النَّاس، مِن عِبادات، ونِظامِ حياة، وتَربيَةٍ وأخلاق، وهوَ هِدايةٌ منَ الغَيِّ والضَّلالِ إلى الحقِّ والرَّشَاد، ورحمَةٌ لهم مِن ربِّ العِباد، يَنالونَ بها خَيرَ الدُّنيا والآخِرة. هذا لمن صدَّقَ بكتابِ الله، وآمنَ بالإسلامِ كُلِّه، واتَّبعَ هُداه.

ومن صفاتِ المؤمنينَ أنهم يتَّعظون ويعتبرونَ من التاريخِ والسيرِ والأحداث. والعقوباتُ التي قدَّرها الله تعالَى على الأممِ السابقةِ فيها عظاتٌ وعبرٌ لمن اعتبر.

وقد أمرَنا الله بالاعتبار، لنستفيد من تجاربِ غيرنا ومآلهم، ونكونَ على حذر، فقالَ تعالَى: {قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المكَذِّبِينَ. هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ} [سورة آل عمران:١٣٧-١٣٨].

أي: ما أُصِبْتُم بهِ في غزوةِ أُحُدٍ قد جَرَى مثلُهُ لأُممٍ مِن قبلِكم من أتباعِ الأنبياءِ وغيرِهم، فانظُروا في آثارِ الهالِكين، وفي السِّيَرِ والتواريخِ والوقائع، واعتَبِروا، فعَليكم بالإيمانِ والصَّبر، فإنَّ العاقبةَ لكم أهلَ الإيمانِ والحقّ، والدائرةَ على المكذِّبينَ بآياتِ اللهِ ورسُلهِ أهلِ الكفرِ والضَّلال، إنَّما هي سُنَّةُ اللهِ أنْ تُصيبُوا وتُصابُوا، وكانَ ما حدثَ ابتلاءً وتَمحيصاً لتَعتَبِروا.

وفيما ذُكِرَ مِن أمورِ الكفّارِ والمتَّقينَ والتائبين، وفيما سَلفَ مِن أحوالِ مَن قبلَكم، إيضاحٌ لسُوءِ عاقبةِ المكذِّبينَ ليتَدبَّروا، وهِدايةٌ ومَوعظةٌ للمؤمِنينَ المتَّقين، الذينَ يَعتَبِرونَ بها ويَهتدون.

وقالَ سُبحانه:

{أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَواْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ} [سورة يوسف: ١٠٩]:

أفلا يَسيرُ هؤلاءِ المكَذِّبونَ في الأرض، ليَرَوا بأعيُنِهم آثارَ الغابِرين، أو يَسألوا النَّاسَ ويَقرَؤوا التَّاريخ، كيفَ كانت عاقِبةُ المكَذِّبينَ بالرسُل، كيفَ أهلكَهمُ اللهُ بسَبَبِ تَكذيبِهم وإصرارِهم على الكُفر؟

وإنَّ الدارَ الآخِرةَ الباقيَة، والجنَّةَ ونَعيمَها، خَيرٌ لمن ثبَتَ على طاعَةِ اللهِ وتَقواه، مِنَ الدُّنيا الفانيَةِ ومُنَغِّصاتِها، أفلا تَعقِلونَ وتَتَدبَّرونَ سُنَنَ اللهِ في الأقوامِ السَّابِقين، لتُمَيِّزوا الصَّحيحَ مِنَ السَّقيم، وتُفَضِّلوا الباقيَ على الفَاني؟

ومن ذلك مسخُ جماعةٍ من بني إسرائيلَ لمخالفتهم وتحايلِهم على أمرِ الله؛ ليكونَ ذلك عبرةً وعظةً للعُصاةِ. قالَ تعالَى:

{فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ} [سورة البقرة: ٦٦].

أي: كانتْ عقوبةُ أهلِ تلكَ القَريةِ عِبرةً لِما حولَها مِنَ القُرى، وعِظةً لمن يَحذَرُونَ نقمةَ اللهِ وسُخطَهُ، لئلا يستَحِلُّوا محارمَ اللهِ بأدنى الحِيَل.

وأمرَ اللهُ رسولَهُ أن يقولَ لمشركي قَومه:
{قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ} [سورة النمل: ٦٩].
معناه: قُلْ لهم: امشُوا في الأرضِ وانظُروا في الآثار، واقرَؤوا التَّاريخ، لتَعرِفوا ما آلَ إليهِ أمرُ المشركِينَ المكذِّبينَ بالرسُل، واعتَبِروا مِن ذلك، حتَّى لا تَكونَ عاقِبتُكم مثلَ عاقِبَتِهم.

وقالَ ربُّنا سُبحانهُ في شأنِ مَن كفرَ ولم يَعتبر:
{وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ} [سورة إبراهيم: ٤٥].
أي: استَوطَنتُم بلادَ الأُمَمِ المكَذِّبَةِ مِن قَبلِكم، وعرفتُم أخبارَهم، وكيفَ أهلكناهُم وعاقَبناهم، ولكنَّكم لم تَعتَبِروا بما حَلَّ بهم، بل فعَلتُم فِعلَهم، وتمادَيتُم في الظُّلمِ والفَساد، وبيَّنَّا لكمُ وقائعَ، وأورَدنا لكم أخبارًا، وسَرَدنا قِصَصًا، وضرَبنا أمثالًا؛ لتتَذكَّروا وتَعتَبِروا.
وما زالتِ الأخبارُ والآثارُ موجودة، في كتُبِ التَّاريخِ ومَشاهدِ الآثار، ولكنَّ المؤرِّخينَ والآثاريِّينَ لا يَعتَبِرون، ولا يَذكرونَ لطُلاَّبِهِمُ العِبَرَ والإرشاداتِ الدينيَّةَ، بل يَدرُسونَ ويحلِّلونَ ويُنقِّبونَ للعلمِ والثقافَةِ ومَعرفَةِ الأخبار...

وحثَّ اللهُ عبادَهُ على أن يتَّعِظوا ويَعتبِروا قبلَ فواتِ الأوان:
{وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشاً فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ. إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ} [سورة ق: ٣٧].
معناه: قد أهلَكنا كثيرًا مِنَ الأقوامِ الذينَ سبقوا قَومَك، وكانوا أكثرَ منهم قوَّةً ومَنَعَة، وأشَدَّ بأسًا وفَتكًا، فسَاروا في الأرضِ وطافُوا بها، لابتِغاءِ الرِّزقِ وغَيرِه، ولم يَجِدوا مفرًّا مِنَ الموتِ الذي كانَ لهم بالمرصَاد، أينَما كانوا.
وفي ذلكَ عِظَةٌ وتَذكِرَة، لمن كانَ لهُ قَلبٌ يَفقَهُ به، أو أصغَى إلى ما يُتلَى عَليهِ مِنَ القُرآنِ وهوَ لا يَرَى أولَى منه، وهوَ حاضِرُ القَلب، ليسَ بغافِل.

الفصل الرابع
الآداب والأخلاق

الأخلاق الحسنة

دعا القرآنُ الكريمُ إلى التحلّي بالأخلاقِ المرضيَّة، والتخلّي عل الأخلاقِ الرديَّة، ولعلَّ أجمعَ آيةٍ تَذكرُ هذا هو:

{إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} [سورة النحل: ٩٠].

معناه: إنَّ اللهَ يأمرُ عِبادَهُ بالعَدلِ والإنصَاف، لِيَكونَ ذلكَ قاعِدَةً أساسيَّةً في الحُكمِ والتَّعامُل، لا تَميلُ معَ هوًى ومَنصِب.

ويأمرُ بالإحسَانِ في الأعمَالِ معَ العِباد، والإحسَانِ في العِبادَةِ لله.

ويأمرُ بصِلَةِ الأرحَام، وإعطاءِ الأهلِ والأقرِباءِ حَقَّهم منَ البِرّ والصِّلة.

ويَنهَى عنِ المحرَّمات، وكُلِّ ما تُنكِرُهُ الفِطرَةُ والشَّريعَة، منَ الأقوالِ والأفعالِ التي يَشيعُ بها الفَساد.

ويَنهَى عنِ الظُّلمِ والتعَدّي على النَّاسِ والتجَبُّرِ عَليهِم.

يَعِظُكمُ اللهُ بهذا ويُنَبِّهُكم إلى أمرِهِ ونَهيه، لتَتَذكَّروا بِهِ وتُطيعوا.

ووصفَ اللهُ رسولَهُ بصفةٍ عظيمةٍ عندَما قال:

{وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ} [سورة القلم: ٤].

معناه: إنَّكَ لعَلَى أدبٍ عَظيم، وأخلاقٍ كريمَةٍ عالية، لا يُدرِكُ شَأْوَها أحَدٌ مِنَ الخَلق.

وعندَما سُئلَتْ أُمُّنا عائشَةُ رضِيَ اللهُ عَنها عن أخلاقِهِ صلى الله عليه وسلم قالتْ للسَّائل: ألَستَ تَقرأُ القُرآن؟ قال: بلَى. قالت: فإنَّ خُلُقَ نَبيِّ اللهِ صلى الله عليه وسلم كانَ القُرآن. رَواهُ مُسلمٌ في صَحيحِه.

قالوا: يَعني أنَّ ما في القُرآنِ كُلِّهِ مِن مَكارِمِ الأخلاقِ كانَ فيهِ صلى الله عليه وسلم، وما فيهِ مِنَ النَّهيِ عن سَيِّءِ الأخلاقِ كانَ مُنتهيًا عنه. هذا على ما طَبعَهُ اللهُ مِنَ الأخلاقِ العَظيمَة، كالحِلم، والعَفو، والكرَم، والحيَاء، والشَّجاعَة، وكُلِّ خُلُقٍ جَميل.

الإحسان

الإحسانُ يكونُ في كلِّ شيء.

قالَ صاحبُ "روح البيان" في معناه: أن تُحسنوا الأعمالَ مطلقًا؛ لقولهِ عليه السلام: "إن الله كتبَ الإحسانَ في كلِّ شيء" ... ويدخلُ فيه العفوُ عن الجرائم، والإحسانُ إلى من أساء، والصبرُ على الأوامرِ والنواهي، وأداءُ النوافل...

وقد أمرَ اللهُ عبادَهُ بالإحسانِ في كتابهِ الكريم، فقالَ في محكمِ كتابه:

{إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ} [سورة النحل: ٩٠].

معناه: اللهُ يأمرُ بالإحسَانِ في الأعمَالِ معَ العِباد، والإحسَانِ في العِبادَةِ لله.

والإحسانُ من أعظمِ الأخلاقِ التي حثَّ عليها الإسلام. والله يحبُّ المحسنين، كما وردَ في أكثرَ من آية:

{وَأَحْسِنُوَاْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [سورة البقرة: ١٩٥].

أي: فأحسِنوا أعمالَكم وأخلاقَكم، وأنفِقوا على الجهادِ وأهلِ الحاجة، فإنَّ اللهَ يُريدُ الخيرَ بالمحسنين.

وقالَ أيضًا سُبحانه، في وصفِ عِبادهِ المتَّقين:

{الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالكَاظِمِينَ الغَيْظَ وَالعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ المحْسِنِينَ} [سورة آل عمران: ١٣٤].

فالذينَ أنفقوا، وكَظَموا غَيظَهم، وعفَوا، هُم مُحسِنون، واللهُ يُحِبُّ المحسِنين، الذينَ يَنشُرونَ الودَّ والسَّماحةَ والبِشْرَ بينَ الناس.

والمحسنُ يدفعُ السيِّئةَ بالحسنة:

{وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ} [سورة الرعد: ٢٢].

أي أنهم يُجازُونَ الإسَاءةَ بالإحسَان، ويَدفَعونَ الشرَّ ما استَطاعُوا، ويَدرَؤونَ الأذَى والقَبيحَ مِنَ القَولِ والفِعلِ بخُلُقٍ جَميل، وكَلمَةٍ طيّبة، وعَفو.

والإحسانُ إلى الأقرباءِ من آكدِ آدابِ الإسلام، وبه تتأكَّدُ صِلةُ الرَّحِم. قالَ سُبحانهُ مخاطبًا بَني إسرائيل:
{وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً} [سورة البقرة: ٨٣].

ومن ذلك الإحسانُ إلى اليتامَى والمسَاكين، فإنه موصًى به في القرآنِ والسنَّة، وهو قائمٌ في النظامِ الاجتماعيّ في الإسلام، حتى تتَماسكَ جوانبهُ وتتضَامنَ في نَسيجٍ واحد. قالَ الله سبحانهُ لبني إسرائيل:
{وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ} [سورة البقرة: ٨٣].
أي: أحسِنوا إلى اليتَامَى، والمسَاكِينِ الذينَ لا يَجدونَ ما يُنفِقُونَ على أنفُسِهم وأهليهم.

والله معَ المحسِنين:
{وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ} [سورة العنكبوت: ٦٩].
معناه: إنَّ اللهَ معَ المحسِنين، الذينَ جاهَدوا وتحمَّلوا مشَاقَّ الدَّعوَة، وصبَروا على تَكاليفِ الدِّين، فيُؤيِّدُهم ويُعِينُهم في الحيَاةِ الدُّنيا، ويَجزيهم ثَوابًا عَظيمًا يَومَ القيامَة.

ولمن اتَّصفَ بالإحسانِ ثوابٌ عظيم:
{إِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} [سورة التوبة: ١٢٠].
أي أنَّ اللهَ لا يُضِيعُ إحسانَهم وحِرصَهم وتَفانيهم في إعلاءِ كلمةِ الله.

وقالَ الله لبني إسرائيل:

{إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيراً} [سورة الإسراء: ٧].

معناه: إنَّ ثَمَرَةَ صَلاحِكم وطاعَتِكم تَعودُ بالخَيرِ والنَّفعِ عَليكم، فإنَّكم إذا أحسَنتُم في أنفُسِكم وأعمالِكم، صَلَحَتْ أحوالُكم، وأعقبَكم ذلكَ نَصرًا وعِزًّا، وإذا انحرَفتُم وأفسَدتُم كانتْ عاقِبَةُ ذلكَ شرًّا وفَسادًا، وخَرابًا وهَلاكًا.

الألفة، المحبة، المودة

قالَ اللهُ تعالَى في أهميةِ التآلفِ والتحَابِ بين المسلِمين:

{وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [سورة الأنفال: ٦٣].

أي أنَّ اللهَ هوَ الذي ألَّفَ بينَ قُلوبِ المسلِمين، على ما كانَ بينهم في الجاهليَّةِ مِن عداوةٍ وضَغينة قاتِلة، ومِن حَميَّةٍ وعَصَبيَّةٍ عَمياء، وخاصَّةً الأوسَ والخزرجَ منَ الأنصار، الذينَ كادتِ الحربُ أنْ تُهلِكهم، فكانتِ الحروبُ بينهم لا تَنقَطِع، فجَمعهمُ الإسلامُ وصاروا إخوَةً يَتناصَرونَ في الحقّ، ويَتناصَحونَ على الخَير، ولو أنَّكَ أنفقتَ ما في الأرضِ من أموالٍ لتوثّقَ بَينهمُ المحبَّة، وتؤلّفَ بينَ قُلوبهم، لما استطَعت، لتَناهي العَداوةِ بينَهم، وتَمكُّنِ رُوحِ الانتِقامِ فيهم، ولكنَّ اللهَ بلُطفهِ ورَحمَتهِ أوجدَ هذا التآلفَ بينَهم، ووطَّدَ روحَ المحبَّةِ والتآخي بينَهم، وهوَ سُبحانَهُ قَديرٌ على ذلك، عَزيزٌ لا يَصعُبُ عليهِ شَيء، حَكيمٌ، يدبِّرُ الأمورَ على أحسنِ وجه، وأفضَلِ مَقام.

والمودَّةُ تكونُ بين الزَّوجَين:

{وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} [سورة الروم: ٢١].

أي: مِن آياتِ اللهِ العَظيمَةِ أنْ خلقَ لأجلِكم، إناثًا مِن جنسِكم، تتزوَّجونَ بهنَّ، لتَميلوا إليهِنَّ وتتآلَفوا معَهنَّ وتَطمَئنُّوا، وجعلَ بينَكم وبَينَهُنَّ محبَّةً ورأفَة، ولو لم تَكنْ بينَكم صِلَةُ رَحِم. وفي ذلكَ آياتٌ وعِبَر، لمن أُوتيَ فِكرًا ووَعيًا، وتَدبُّرًا وفَهمًا.

والمودَّةُ بين الناسِ تؤولُ إلى حَسرَة، إلا من اتَّقى، فأحَبَّ في الله:
{الْأَخِلَّاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ. يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ} [سورة الزخرف: ٦٧-٦٨].
أي أنَّ الأصدِقاءَ المحِبّينَ في يَومِ القيامَةِ يَكونُ بَعضُهم أعداءً لبَعض، إلاّ المتحابّينَ في طاعَةِ الله، فإنَّها باقيَة، ومُثابٌ عَليها.
يا عِباديَ المؤمنينَ المتحابّينَ في الله، لا خَوفَ عليكمُ اليَومَ ولا بَأس، فلا تَجزَعوا ممَّا تَرونَهُ مِن أهوالِ يَومِ القِيامَة، ولا تَهتَمُّوا ولا تَغتَمُّوا، فإنَّ أمامَكم ما يَسرُّكمْ ويُفرِحُ قُلوبَكم.

حسن المعاشرة والتودد

وصفَ الله تعالَى المؤمنين بقوله:
{أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ} [سورة المائدة: ٥٤].
بمعنَى أنَّهم يَتواضَعونَ لإخوانِهم المؤمنين، ويُوالُونَهم، ويَرحَمونَهم، ويَتعاطَفونَ مَعهم، ويَتعاوَنونَ معهمْ على البِرِّ والخَيرِ والتقوَى.

وأمرَ الله نبيَّهُ أن يُقبِلَ على مجالسةِ أهلِ الذكرِ والتقوَى، ويُحسِنَ صُحبتَهم، فقالَ سُبحانه:
{وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} [سورة الكهف: ٢٨].
معناه: احبِسْ نفسَكَ أيُّها النبيُّ معَ المؤمِنينَ الذينَ يَعبُدونَ ربَّهم، ويَدعونَهُ ويَذكُرونَهُ صَباحَ مَساء، لا تَمَلَّ مُجالسَتَهم، ولا تَستَعجِلِ الخُروجَ من عندِهم، فإنَّهم يُريدونَ بذلكَ وجهَ الله، ويَبتَغونَ رِضاه. ولا تَصرِفْ عَينَكَ عنهم إلى غَيرِهم طالِبًا مُجالسَةَ الأشرافِ والأغنياءِ مِن أهلِ الدُّنيا.

وعاتبَ اللهُ نبيَّهُ محمَّدًا صلَّى الله عَليه وسلَّمَ عندَما أعرضَ عن الصَّحابيِّ الأعمَى ابنِ أُمِّ مَكتوم،

وقد أتَاه، فجعَلَ يَقولُ له: يا رسُولَ اللهِ أرشِدْني، وعندَهُ عَليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ رَجُلٌ مِن عُظَماءِ المشرِكين، فجعلَ رسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم يُعرِضُ عنهُ ويُقبِلُ على الآخر، وقد طَمِعَ في إسلامِه، فنزلَ قولهُ تعالَى:

{عَبَسَ وَتَوَلَّى. أَن جَاءهُ الْأَعْمَى. وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى. أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى} [سورة عبس: ١-٤].

واللطفُ والرفقُ محمودٌ مع النَّاس. وقد طُلِبَ من أحدِ أهلِ الكهفِ أن يترفَّقَ في ذهابهِ وإيابهِ عندَ شراءِ الطعام، حتى يتلافَى أيَّ مصَادمةٍ مع المجتمَع:

{فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ} [سورة الكهف: ١٩].

الحنان

وصفَ الله تعالَى نبيَّهُ يحيى بأنهُ آتاهُ الحنان، وهو الشفقَةُ العظِيمة:

{وَحَنَاناً مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيّاً} [سورة مريم: ١٣].

برّ الوالدين

وبرُّ الوالدين من أحسنِ القُرَب، وقد أمرَ الله تعالَى به وكرَّرَهُ في كتابه، وشدَّدتْ عليه السنَّة، قالَ سبحانه:

{وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً} [سورة البقرة: ٨٣].

أي: اذكُروا ما أَمَرناكُم بهِ وأخذنَا ميثاقَكمْ عليه، وهو الإحسانُ إلى الوالدَين، وطاعتُهما في غيرِ مَعصِيَة.

وقالَ سُبحانهُ يوصِي بالوالدين:

{وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً. وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً} [سورة الإسراء: ٢٣-٢٤].

معناه: أمرَ اللهُ أنْ توَحِّدوهُ بالعِبادَة، فلا تُشركوا بهِ أحَدًا، ووَصَّاكم بالإحسانِ إلى الوالِدَينِ وبرِّهما، فإذا كَبِرا عِندَك، الأبَوانِ أو أحَدُهما، وقد أسقيَاكَ مِن روحَيهما حتَّى ضَعُفا، وكَدَّا مِن أجلِكَ حتَّى ذَبُلا وكادا أنْ يَفنَيا، وصِرْتَ أنتَ القَويَّ الذي تَكدَحُ وتُنفِق، فلا تتَأفَّفْ مِنهما، ولا تَقُلْ لهما قَولاً سَيِّئاً تَجرَحُ بهِ شُعورَهما، ولا تَضِقْ بهما ولا تُهِنهُما، وقد ضَعُفا واحتَميا بك، بل طَيِّبْ خاطِرَهما، وقُلْ لهما كلامًا ليِّنًا طَيِّبًا محفوفًا بالأدبِ والتَّوقير.

وتَواضَعْ لهما وتَلَطَّفْ معَهما، وادْعُ لهَما بالخَيرِ والرَّحمَة، وقلْ: اللهمَّ ارحَمْ والدَيَّ في كِبَرِهما وعندَ وفاتِهما كما رَبَّياني ورَحِماني وأنا صَغير.

ووصفَ نبيَّهُ يحيى بأنهُ كانَ مطيعًا لوالِدَيه، مُحسِنًا إلَيهما:

{وَبَرّاً بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّاراً عَصِيّاً} [سورة مريم: ١٤].

صلة الرحم

أمرَ اللهُ بصلةِ الرحِم، وإعطاءِ الأهلِ حقَّهم من البرِّ والصِّلة، فقالَ سبحانه:

{إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى} [سورة النحل: ٩٠].

ووصفَ المؤمنينَ بقوله:

{وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ} [الرعد: ٢١].

معناه: مِن صِفاتِ المؤمِنينَ الإحسانُ إلى أهليهِم وإخوانِهم وطِيبُ مُعاشَرتِهم، فيَصِلونَ أرحامَهم ولا يَقطَعونَها، ويُحسِنونَ إلى أهلِ الحاجَة، ويَتكافَلونَ معَ إخوانِهِمُ المسلِمينَ في أنواعِ البِرِّ والمعروف، ويَخافونَ وعيدَ اللهِ بحَقّ، فلا يَقرَبونَ ما نَهى عنهُ وزجَر، ويَخافونَ عُسْرَ الحِسابِ يومَ المَعاد، ويَعرِفونَ مآلَ المخالِفِ والمرتاب.

وعندَما رأى يوسُفُ شقيقَهُ حنَّ إليه..

{وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَاْ أَخُوكَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} [سورة يوسف: ٦٩]

أي: لما قَدِمَ إخوةُ يوسفَ إليهِ رَحَّبَ بهمْ وأكرمَ نُزُلَهم، وضَمَّ إليهِ شَقيقَهُ بِنيامِين – وهوَ مِن أُمِّهِ دونَ الآخَرينَ – وقالَ لهُ بلُطفٍ وحَنان: أنا أخُوكَ يوسُف، فلا تَحزَنْ بما فَعَلُوهُ مَعي، ولا تأسَفْ على صَنيعِهم وسُوءِ مُعاملتِهم، واكتُمْ خبرَنا عَنهم. واتَّفقا على خُطَّةٍ لإبقائهِ عِندَه.

وعندما وصلَ أهلهُ إليهِ آوَى إليهِ والديه..

{فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ} [سورة يوسف: ٩٩].

أي أنَّهُ ضَمَّ إليهِ أبوَيهِ واعتنَقَهُما بشَوقٍ وحَنان.

الحِلم

الحِلمُ من صفاتِ عبادِ الرحمنِ الطَّيِّبين:

{وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً} [سورة الفرقان: ٦٣].

معناه: إذا قالَ لهمُ السُّفهاءُ كلامًا لا يَليق، لم يُقابِلوهم بمِثلِه، فعفَوا وصَفَحوا، وحَلُمُوا ولم يَجهَلوا، ولم يَقولوا إلاّ خَيرًا.

وممّا وصفَ اللهُ المؤمنينَ المتوكِّلينَ على ربِّهم قولُه:

{وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ} [سورة الشورى: ٣٧].

أي أنَّهم إذا ثارُوا وغَضِبوا لم يَظلِموا النَّاسَ ولم يَنتَقِموا، ولكنْ أنابُوا إلى رَبِّهم وعَلِموا ما عندَهُ مِنَ الثَّوابِ فكظَموا غَيظَهم، وحَلُمُوا وعفَوا عنهم.

كظم الغيظ

من الأوصافِ التي وصفَ بها اللهُ تعالَى عبادَه المتَّقين: كظمُ الغيظ، فإنَّهم يَكتُمونَ غَيظَهم وغَضَبَهم عنِ الناسِ ولا يؤذونَهم، قالَ سبحانه:

{الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالكَاظِمِينَ الغَيْظَ} [سورة آل عمران: ١٣٤].

الكلام الحسن، اللطف، الحوار الطيب.

أمرَ الله تعالَى بالإحسانِ في الكلام، واللطفِ في الحديث، فإنهُ بهذا يسودُ السَّلام، وتَشيعُ المحبَّة.
قالَ الله تعالَى في سياقِ مخاطبتهِ بني إسرائيل:
{وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً} [سورة البقرة: ٨٣].
أي: قولوا الكَلامَ الطيِّبَ والقولَ الحسَن، في حِلْمٍ وعَفوٍ ولِينِ جانب، وخاصَّةً الأمرَ بالمعروفِ والنهيَ عنِ المنكر.

والكلامُ الطيّبُ هو المقبولُ عندَ الله:
{إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ} [سورة فاطر: ١٠].
معناه: واللهُ يَقبَلُ منكمُ الكَلامَ الطيّبَ المبارَك، وإليهِ سُبحانَهُ يَصعَدُ الذِّكرُ، والتِّلاوَة، والدُّعاء. والعمَلُ الحسَنُ الموافِقُ للشَّرعِ هوَ الذي يَرفَعُ الكَلامَ الطيِّب، الذي يَدلُّ على الإخْلاص، وعلى مُوافقَةِ ما شرَعَ اللهُ لعِبادِهِ مِنَ القَولِ والعمَل.

وقالَ سُبحانهُ منبِّهًا ومحذِّرًا:
{وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوّاً مُّبِيناً} [سورة الإسراء: ٥٣].
معناه: قُلْ لِعباديَ المؤمنينَ يَتَحلَّوا باللِّينِ والحِلمِ في كلامِهم وحِوارِهم معَ الآخَرين، ويَقولوا الكَلِمَةَ الطيِّبَة، ويَختاروا أحسَنَ الكلامِ ومُهذَّبَه، ليَكونَ أوقعَ في النَّفس، وأكثرَ تأثيرًا، وأفضلَ استِجابَة. والشَّيطانُ يَتحيَّنُ الخَطأَ ليَنفُخَ فيهِ ويَجعلَهُ سببًا للعَداوَةِ والبَغضاءِ بينَ المؤمنين، وهوَ ظاهِرُ العَداوَةِ لهم. والكَلِمَةُ الطيِّبَةُ تُبعِدهُ عن مجلسِ أصحابِها وأحاديثِهم، فيَكونونَ مُتآلِفينَ مُتوادِّين، بَعيدينَ عن هَمَزاتِهِ ونزَغاتِه.

وقالَ ربُّنا الحكيمُ لموسى عليه السَّلام:
{اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى. فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى} [سورة طه: ٤٣-٤٤].
أي: اذهَبا إلى فِرعَونَ فقد تجبَّرَ وعصَى، حتَّى قالَ أنا ربُّكمُ الأعلى!

وارفُقا بهِ عندَما تَدعُوانِه، خاطِباهُ باللُّطفِ واللِّينِ ولا تُعَنِّفاه، ليَكونَ ذلكَ أوقعَ في نَفسِه، وأكثرَ قَبولاً لدَيه، ولعلَّهُ بذلكَ يتأمَّلُ ويَتدَبَّر، أو يَخافُ منَ اللهِ ويَحذَرُ عِقابَه.

وقالَ لرسولهِ محمدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم:
{وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} [سورة الشعراء: ٢١٥].
وأَلِنْ جانبَك، وتَواضَعْ لمنِ اتَّبعَكَ مِن صَحابتِكَ المؤمنين.

ومن اللطف: الدفعُ بالتي هيَ أحسَن، قالَ اللهُ لرسُوله:
{ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ. وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ} [سورة فصلت: ٣٤-٣٥].
أي: إذا أساءَ إليكَ أحَدٌ فادفَعْهُ عنكَ بالإحسَانِ إليه، فإذا فعَلتَ ذلكَ خضعَ لكَ خَصمُك، وانقلَبَتِ الحالَةُ بينكَ وبينَهُ إلى سَكينَةٍ بعدَ هِياج، وإلى هُدوءٍ بعدَ ثَوران، وصارَ كأنَّهُ مِنَ الأصدِقاءِ المقرَّبينَ إليك، بعدَ أنْ كانَ شَديدَ العَداوَةِ لك.
ولا يَفوزُ بهذهِ الخَصلَةِ العَظيمَة، ولا يَحصُلُ على هذا الخُلُقِ السَّمحِ العالي، وهوَ دَفعُ السيِّئةِ بالحسَنة، إلاّ الصَّابِرون، الذينَ يَكظِمونَ غَيظَهم، ويَتحمَّلونَ المكرُوهَ منَ النَّاس، ولا يَقدِرُ عَليهِ إلاّ مَنْ كانَ مُتَّصِفًا بمكارِمِ الأخلاقِ ومَعاليها، وذَا نَصيبٍ كبيرٍ من خِصالِ الخَير.

التغاضي والإعراض عما يؤذي

وهذا من الحِلمِ والعفوِ والخُلقِ المتين، بأن يلمِّحَ المرءُ إلى ما بدرَ من خطأ تجاهَه، ولا يذكرَهُ كلَّه، حتى لا يُؤذي مشاعرَ صَاحِبه، كمَا حَكَى ذلكَ سُبحانهُ في قصَّةِ العَسلِ بين رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ وزَوجَاته:
{وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثاً فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ} [سورة التحريم: ٣].
تفسيرها: واذكُرْ إذْ أسرَّ النبيُّ إلى بَعضِ زَوجاتِهِ حَديثًا. ذكرَ المفَسِّرونَ أنَّها حَفصَةُ رَضيَ اللهُ عنها، وهوَ في مَوضوعِ شُربِ العسَل، فقد قالَ لها عَليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ في روايَةٍ للبخاريّ:

"ولنْ أعُود، وقد حلَفتُ، فلا تُخبِري بذلكَ أحَدًا"، فأخبرَتْ بهِ عائشةَ رَضيَ اللهُ عَنها، وكانَتا مُتصادِقتَين. فلمَّا أطْلَعَ اللهُ عَليهِ نبيَّهُ صلى الله عليه وسلم أعلَمَها ببَعضِ الحديثِ الذي أفشَتْه، ولم يُخبِرْها بهِ كُلِّه، تَكريمًا لها، حتَّى لا يَزدادَ خَجَلُها. فلمَّا أخبرَها به، خَشِيَتْ أنْ تَكونَ عائشَةُ قد فضَحَتْها، فقالَتْ له: مَن أخبرَكَ بهذا؟ فقالَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام: أخبرَني العَليمُ الذي يَعلَمُ السرَّ وأخفَى، الخَبيرُ الذي لا تَخفَى عَليهِ خافيَة.

العفو

حثَّ الله تعالَى رسولَهُ الكريمِ صلى الله عليه وسلمَ على العفو، فعفا في مواقفَ صعبَةٍ وشديدَة، وكان بذلكَ معلِّمًا وأُسوةً لأمَّتهِ في الدعوةِ والإصلاح. قالَ ربُّنا الجليل:
{فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ} [سورة آل عمران: ١٥٩].
أي: اعْفُ عنهم ما صدرَ منهم مِن تَقصيرٍ في حقِّكَ كما عَفا اللهُ عنهم، واستَغفِرْ لهم فيما يَتعلَّقُ بتَقصيرِهم في حقِّ اللهِ إكمالاً للبرِّ بهم.

وطلبَ منَ مُحسِني الصَّحابةِ أن يَعفُوا عمَّن صدَرَتْ منهم الإساءَةِ والأذَى في حادثةِ الإفك، فقال:
{وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [سورة النور: ٢٢].

ومن أوصافِ المؤمنينَ التي ذكرها الله تعالى في كتابهِ الكريم: العفو. قالَ ربُّ العزَّة:
{وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ} [سورة الشورى: ٣٧].
أي: الذينَ إذا ثارُوا وغَضِبوا لم يَظلِموا النَّاسَ ولم يَنتَقِموا، ولكنْ أنابُوا إلى رَبِّهم، وعَلِموا ما عندَهُ مِنَ الثَّوابِ فكظَموا غَيظَهم، وحَلُمُوا وعفَوا عنهم.

ووصفَ عبادَهُ المتَّقينَ في موضعٍ آخرَ بقوله:
{وَالعَافِينَ عَنِ النَّاسِ} [سورة آل عمران: ١٣٤].

فهم يَعفُونَ ويَصفَحون، ويَحتَسِبونَ ذلكَ عندَ الله.

الحياء

والحياء خُلقٌ عظيم، وخاصَّةً في المرأة.

وقد وصفَ اللهُ تعالَى ابنةَ شعيبٍ بالحيَاء، عندما مشَتْ إلى نبيِّ اللهِ موسى، تدعوهُ ليَأتيَ ويقبضَ أجرتَهُ من أبيها:

{فَجَاءتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاء قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا} [سورة القصص: ٢٥].

وذكرَ اللهُ خُلقَ الحيَاءِ عندَ رسولهِ محمدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ في شأنِ الضيوفِ والإطعام، فقالَ سبحانه:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ} [سورة الأحزاب: ٥٣].

معناه: لا تَدخُلوا مَنازِلَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم إلاَّ أنْ تُدْعَوا إلى طَعامٍ فيُؤذَنَ لكم لِتأكُلوه، غيرَ مُنتَظِرينَ نُضْجَهُ واستِواءَه، ولكنْ إذا دُعِيتُم فادخُلوا وكُلُوا، فإذا أكَلتُم فتفَرَّقوا واخرُجوا مِن مَنزِلِه، ولا تَجلِسوا لتَستأنِسوا بالحَديث، فإنَّ ذلكَ يَشُقُّ على النبيِّ لأُمورٍ تَخصُّهُ وأهلَه، وهوَ يَستَحيي أنْ يَطلُبَ منكمُ الانصِراف، واللهُ لا يَترُكُ تأديبَكم وبيانَ الحَقِّ حيَاءً.

العفاف

ومن صِفاتِ المؤمنينَ العَفاف، بمعنى حفظِ العِرض، قالَ الله تَعالى في واحِدةٍ من عدِّ صِفاتِهم في أوائلِ سُورةِ المؤمنون:

{وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ. إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ. فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاء ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ} [سورة المؤمنون: ٥-٧، وسورة المعارج ٢٩-٣١].

فهم الذينَ يُحافِظونَ على فُروجِهم مِنَ الحَرام، إنَّهم أعِفَّةٌ، لا يَرتَكِبونَ الفَواحِش. ولا يَقربونَ سِوَى ما أحَلَّ اللهُ لهم مِن أزوَاجِهم، أو ما مَلَكَتْ أيمانُهم منَ الإماء، فلا حرَجَ عَليهم في ذلكَ ولا لَوم. فمَن طلبَ غَيرَ زَوجاتِهِ وإمَائه، فهوَ مِنَ المعتَدين، المتجاوزينَ الحَلالَ إلى الحَرام.

وكما قالَ سُبحانه:
{قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ} [سورة النور: ٣٠].
أي: وَلْيَحفَظوا فروجَهم عمَّا لا يَحِلُّ لهم، كالزِّنا واللِّواطِ وغَيرِه، فإنَّ غَضَّ البصَرِ وحِفظَ الفَرْجِ خَيرٌ لهم وأطهَرُ لقُلوبِهم، وأصلَحُ لنفُوسِهم، واللهُ عَليمٌ بما يَفعَلون، وسيُجازي كُلاً بما عَمِل.
وكذلك المؤمنات... كما في الآيةِ التي بعدَها.

ويتعفَّفُ الشابُّ قبلَ أن يتزوَّج...
{وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحاً حَتَّى يُغْنِيَهُمْ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ} [سورة النور: ٣٣].
معناه: والذينَ هم فُقَراءُ ولا يَجِدونَ ما يتزَوَّجونَ به، فليَتَعَفَّفوا عنِ الحَرام، وليَصونُوا أنفُسَهم عنِ الشُّبُهاتِ والشَّهوات، حتَّى يوَسِّعَ اللهُ عليهم مِن رزقِه.

وقالَ جلَّ جلاله:
{وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ} [سورة النور: ٢٦].
معناه: الطيِّباتُ العَفيفاتُ مِنَ النِّساءِ مُختَصَّاتٌ بالطيِّبينَ مِنَ الرِّجال، والطيِّبونَ منهم مُختَصُّونَ بالطيِّباتِ منهنّ.

وبمعنى الامتناعِ عمّا لا يَليق، كالتعفُّفِ عن السُّؤال، قالَ الله تعالَى:
{لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحصِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ} [سورة البقرة: ٢٧٣].

أي: المهاجِرونَ الذينَ تَركوا أموالَهم وأهليهِم، وسَكنوا المدينةَ المنوَّرةَ مُنقطِعينَ إلى اللهِ ورسولِه، يَبتغونَ نُصرةَ الإسلامِ والجهادَ في سبيلِ الله، ولا يَجدونَ ما يُغنيهم، ولا يَستطيعونَ سَفراً للتجارةِ والتكسُّب، فهم على أُهبَةٍ إذا نُوديَ للجِهاد.

ومعَ ما هم فيهِ مِن فَقرٍ وحاجة، يَظنُّ مَن لا يَعرفُ حقيقةَ حالِهم أنَّهم أغنياءُ مَكفيُّونَ في المعَاش، مِن تَعفُّفِهم في لباسِهم وحالِهم ومَقالِهم، فيَتجمَّلونَ ظاهراً حتَّى لا يُعرَفوا ولا تَظهرَ حاجتُهم، لكنَّ اللبيبَ ذا البصيرةِ يُدركُ ما وراءَ هذهِ الحال، ويَعرِفُ أنَّ هذا العَفافَ يُخفي فَقراً واستِكانَة.

وإذا بدا لبَعضِهم أنْ يَطلبوا شيئاً فلا يُلِحّونَ في المسألة، ولا يُكلِّفونَ الناسَ ما لا يَحتاجونَ إليه. إنَّهم فقراءُ كِرامٌ بَرَرة، ذَوو حَياءٍ وتَجلُّدٍ وصَبر، ودِيْنٍ قَويمٍ وخُلق، فلا تنسَوا هؤلاءِ أيُّها المؤمِنون، وإذا أعطَيتُموهم شيئاً فليكنْ ذلكَ في سرٍّ وتَلطُّف، لا يَخدِشُ إباءَهم ولا يَجرَحُ كرامتَهم.

وإنَّ ما تُنفقونَهُ مِن مالٍ عَليهم لا يَخفَى على اللهِ منهُ شَيء، ولا يَضيعُ عندَهُ الخَير، ولسوفَ يَجزي عليهِ أوفرَ الجزاءِ وأوفاه.

ووُصفتِ مريمُ عليها السَّلامُ في كتابِ الله تعالَى بالطُّهرِ والعَفاف، فقالَ سُبحانه:
{وَإِذْ قَالَتِ المَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ العَالَمِينَ} [سورة آل عمران: ٤٢].

الصدق، قول الحق

أمرَ اللهُ تعالَى بالصدقِ فقال:
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ} [سورة التوبة: ١١٩]:
أيُّها المؤمِنون، احذَروا مخالَفةَ أمرِ الله، وتَجنَّبوا ما لا يَرضاه، والزَموا الصدقَ لتَكونوا من أهلهِ وتَنجُوا منَ المهالِك، وليَجعلَ اللهُ مِن أمرِكم فرَجًا ومَخرَجًا.

ووصفَ عبادَهُ المؤمنينَ المتَّقينَ بصفاتٍ عالية، منها الصدقُ في وعودِهم. قالَ سُبحانه:

{مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً} [سورة الأحزاب: ٢٣].

معناه: مِنَ المؤمِنينَ المخلِصينَ رِجالٌ صَدَقوا ما وعَدوا اللهَ به، مِنَ الثَّباتِ على العَهد، والجِهادِ في سَبيلِه، فمنهم مَن ماتَ شَهيدًا في سَاحَةِ الجِهاد، ومِنهم مَن يَنتَظِرُ فُرصَةً للجِهادِ ليُقاتِلَ طلبًا للشَّهادَة، وما غَيَّروا عَهدَهم معَ الله، ولا نَقَضوهُ أبَدًا.

وقالَ تعالَى في صدقِ الإيمان:

{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ} [سورة الحجرات: ١٥].

معناه: إنَّما المؤمِنونَ حقًّا، الذينَ آمَنوا باللهِ رَبًّا، وبمحمَّدٍ رسُولاً، ولم يَشُكُّوا في ذلكَ أبدًا، وبادَروا إلى طاعَةِ الله، فجاهَدوا بأموَالِهم وأنفسِهم في سَبيلِه، فأولئكَ همُ الصَّادِقونَ في إيمانِهم.

وقالَ موسى عليه السَّلامُ لفِرعَون:

{حَقِيقٌ عَلَى أَن لاَّ أَقُولَ عَلَى اللهِ إِلاَّ الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ} [سورة الأعراف: ١٠٥].

أي: جديرٌ بي، وواجبٌ عليّ، ألاّ أُخبرَ عنِ اللهِ إلاّ الحقَّ والصِّدْق، وقد جئتُكم من عِندهِ بمُعجِزةٍ ظَاهرةٍ لتكونَ دَليلاً على صِدقي.

الأمانة

المسلمُ يجبُ أن يكونَ أمينًا، فهذا ما يأمرُ به دينه، وكتابُ ربّه:

{إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا} [سورة النساء: ٥٨]:

إنَّ اللهَ يوجِبُ عليكم أنْ تؤدُّوا الأماناتِ إلى أصحابِها، أيَّ أمانةٍ كانت، وهيَ الأماناتُ الواجبةِ على الإنسان، مِن حُقوقِ اللهِ على عِبادِه، ومِن حُقوقِ العِبادِ بعضِهم على بَعض. فمَن لم يَفعل ذلكَ في الدُّنيا أُخِذَ منهُ في الآخِرَة، كما في الحديثِ الصَّحيح.

وقالَ جلَّ مِن قائل: {وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ} [سورة المؤمنون: ٨، والمعارج: ٣٢].

فمن صفاتِ المؤمنين أنهم مؤتَمَنونَ على أماناتِهم وعُهودِهم، حافِظونَ لها ومُوفُونَ بها، فلا يَخونونَ ولا يَغدِرون.

وقالَ في أمانةِ وغدرِ أهلِ الكتاب:

{وَمِنْ أَهْلِ الكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [سورة آل عمران: ٧٥].

أي: هناكَ مِن أهلِ الكتابِ مَن إذا ائتمَنتَهُ على مَبلغٍ مهما كانَ كثيراً فإنَّهُ يَردُّهُ إليكَ بأمَانة، لا ينقُصُ منهُ شيئاً، ومنهم مَن إذا ائتمَنتَهُ على مبلغٍ قَليلٍ يَجحَدُهُ ولا يَردُّهُ إليك، إلاّ إذا لازمتَهُ بالمطالبةِ وكرَّرتَها عليه، وهذا لأنَّهم قالوا إنَّهُ لا حرجَ علينا أن نغُشَّ وندلِّسَ ونأكلَ أموالَ العَرب، وأنَّ دينَهم يَسمَحُ لهم بذلك. وهذا مِن خُلُقِ اليَهود، وهم يَتعاملونَ بهذا معَ كلِّ مَن لم يكنْ يهوديًّا وليسَ معَ العربِ وحدَهم. وقد كذَبوا على اللهِ وعلى كِتابِه، وهم يَعلَمونَ ذلك، فإنَّ اللهَ لا يأمرُ بالفَحشاء، ولم يُحِلَّ لأحدٍ أنْ يأكلَ مالَ آخَرَ بالباطِل، وإنَّما اليهودُ همُ الذينَ اختَلقوا هذا القَول، وهم أهلُ زُورٍ وبُهتان.

الوفاء، وصدق الوعد

أمرَ اللهُ تعالَى بالوفاءِ بالعهد، وعدمِ نقضه، فقالَ سبحانه:

{وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلاَ تَنقُضُواْ الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ} [سورة النحل: ٩١].

أي: التَزِموا بما عاهَدتُمُ اللهَ عَليه، ونَفِّذوا العُهودَ والمواثيقَ كما أُمِرتُم، وحافِظوا على ما أقسَمتُم عَليهِ منها ولا تَنقُضوها بعدَ تأكيدِكم عَليها، وقد جَعلتُمُ اللهَ شاهِدًا ورَقيبًا على الوَفاءِ بها، واللهُ يَعلَمُ ذلكَ مِنكم، ويُجازيكم عليه.

وطلبَ من بني إسرائيلَ أن يكونوا أوفياءَ بما عاهَدوا الله عليه، فقال:
{يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ} [سورة البقرة: ٤٠].
أي: أوفوا بالعهدِ الذي طَلبتُ منكمُ الإيفاءَ به، وهوَ اتِّباعُ دينِ الإسلامِ ومتابعةُ النبيِّ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم إذا أُرسِل، فإذا وَفيتُم بالعهدِ الذي في أعناقِكم، رَضِيتُ عنكم وأدخلتُكمُ الجنَّة.

ولما طلبتْ زوجةُ العزيزِ من يوسفَ أن يواقعَها قال:
{مَعَاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ} [سورة يوسف: ٢٣]:
قالَ يوسُفُ عليهِ السَّلام: أعوذُ باللهِ وأعتَصِمُ بهِ ممّا تُريدينَ منّي، إنَّ زَوجَكِ سيّدي العَزيزَ أحسَنَ مَنزِلي وأكرَمَني، فكيفَ أُسِيءُ إليهِ وأخونُهُ في زَوجَتِه؟! إنَّ الذينَ يُجازُونَ الحسَنَ بالسيّءِ لا يُفلِحون، ولا يَفوزونَ ولا يَسعَدونَ في الدُّنيا وفي الآخِرَة.

وحثَّ الله المؤمنينَ على الوفاءِ بعهودِهم، كما في أولِ سورةِ المائدة:
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالعُقُودِ}.
معناه: أوفُوا بالعُهودِ الموجِبةِ عليكم، ممّا أحلَّ اللهُ وحرَّم، وما فَرَضَ وحَدَّ، وما تعامَلتُم بهِ معَ الناس.

والوفاءُ من التقوى:
{بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ المتَّقِينَ} [سورة آل عمران: ٧٦].
بمعنى أنَّ أهلَ الوفاءِ بالعَهدِ والتُّقَى همُ الذينَ يُحِبُّهمُ اللهُ تَعالى، لا غيرُهم. ولو وفَى أهلُ الكتابِ بعُهودِهم وتركوا الخِيانةَ في أمرِ دِينِهم، فإنَّهم يكتِسبونَ بذلكَ محبَّةَ الله، وإذا وَفَوا بالعُهود، فإنَّ أبرزَها وآكدَها هوَ ما أخذَ اللهُ عَليهم في كتابِهم منَ الإيمانِ بمحمَّدٍ صلى اللهُ عليه وسلم. وتَقواهُم هوَ تَركُ الخِيانة، وعَدمُ الكذِبِ على الله، وتجنُّبُ تحريفِ التوراة.

وعدَّدَ اللهُ سُبحانهُ صفاتٍ حسنةً للمؤمنين، من بينها الوفاءُ بالعهد:
{وَالموفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا} [سورة البقرة: ١٧٧].
أي أنَّهم منَ الأوفياءِ بعهودِهم إذا عاهدوا، فلا يَخونُونَ ولا يَغدِرُونَ كالمنافقينَ ومَن حَذا حَذْوَهم.

وقالَ أيضًا:
{يُوفُونَ بِالنَّذْرِ} [سورة الإنسان: ٧].
أي أنَّهُمْ مُستَجيبونَ لأمرِ ربِّهم، وإذا نذَروا طاعَةً كانوا أوفيَاء، ففَعلُوا ما أوجَبوهُ على أنفُسِهم.

ووصفَ اللهُ تعالَى نبيَّهُ إسماعيلَ بأنهُ كانَ {صَادِقَ الْوَعْدِ} [سورة مريم: ٥٤]، فلم يَعِدْ أحَدًا إلاّ وفَى له. وقد صدقَ في أحرجِ الظروفِ وأقسَاها، عندَما وعدَ والدَهُ بأنْ يستجيبَ لأمرِهِ في تنفيذِ المنامِ الذي رآه، فقال: {افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ} [سورة الصَّافَّات: ١٠٢] فصَدَق، وكانت عاقبةُ طاعتِهما عظيمةً في ثوابِها.

العدل

أمرَ اللهُ بالعدل:
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ} [سورة النساء: ١٣٥].
أي: كونُوا عادِلينَ في أمورِكم دائماً، لا يَصرِفْكم عنِ العَدلِ صارِف، وابتَغُوا بذلكَ وجهَ الله، لا غَرَضاً دُنيويًّا ومَصلحةً شَخصيَّة، سواءٌ كانَ قيامُكم بالعدلِ أو قولُكمُ الحقَّ لصالحِكُم أو لغيرِ صالحِكُم، فإنْ كانَ الأوَّلُ فذاك، وإنْ كانَ الثاني فقد جعلَ اللهُ لكم مَخرَجاً وعوَّضكم خَيراً.
وحتَّى لو كانتِ الشهادةُ على الوالدَينِ والقَرابة، فإنَّ الحقَّ حَقّ، يَحكمُ على كلِّ أحَد، ويُقَدَّمُ على كلِّ شَيء.

وكما قالَ سبحانه:
{وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى} [سورة الأنعام: ١٥٢].

معناه: إذا قلتُم قولاً في شَهادةٍ أو حُكمٍ فاصدُقوا، ولو كانَ المحكومُ والمشهودُ عليهِ ذا قَرابةٍ منكم.

وأمرَ اللهُ نبيَّهُ داودَ أن يَحكمَ بالعدل:
{يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ} [سورة ص: ٢٦].
معناه: يا داودُ، إنَّا استَخلَفناكَ على الملكِ في الأرضِ لتُدَبِّرَ أمورَ العِبادِ بأمرِنا، فاحكُمْ بينَهم بالحقِ والعَدلِ كما شرَعَ الله، ولا تتَّبِعْ هوَى النَّفسِ وشَهوتَها في الحُكم، فيَكونُ ذلكَ سبَبًا لصَرفِكَ عن شَريعَةِ الله، إنَّ الذينَ يَزيغُونَ عنِ الحقّ، لهم عَذابٌ مؤلِمٌ قاس، لأنَّهم تركوا الحُكمَ بالحقِ والعَدل، ولم يَعمَلوا ليَومِ الحِساب.

والمسلمُ يعدلُ في جميعِ الظروف، سلمًا وحربًا، ولو كانَ المحكومُ عليهِ عدوًّا:
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ للهِ شُهَدَاءَ بِالقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى} [سورة المائدة: ٨].
أي: قُوموا بالحقوقِ اللازمةِ عليكم عَدْلاً وصِدقاً، لا جَوراً وظُلماً، وبإخلاص، لا لرياءٍ وسُمعة، ولا يَحمِلَنَّكم بُغضُ قومٍ على ظُلمِهم وعدمِ إقامةِ العدلِ فيهم، بلِ اعدِلوا فيهم وإنْ أساؤوا إليكم، وأنصِفوا فيهم وإنْ مَالوا وظَلموا، فإنَّ عدلَكم معهم أقربُ إلى رِضا اللهِ واتِّقاءِ عَذابِه.
قالَ الفخرُ الرازيُّ رحمَهُ الله: وفيهِ تَنبيهٌ عَظيمٌ على وجوبِ العَدلِ معَ الكفّار، الذينَ هم أعداءُ اللهِ تعالَى، فما الظنُّ بوجوبهِ معَ المؤمنين، الذينَ هم أولياؤهُ وأحبّاؤه؟!.

وينبغي أن يكونَ المسلمُ عادلًا في حيَاته، إذا حكمَ أو تعاملَ أو نَصح.. وهو أمرٌ من الله في محكمِ كتابه:
{إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ} [سورة النحل: ٩٠].

أي: إنَّ اللهَ يأمرُ عِبادَهُ بالعَدلِ والإنصَاف، ليَكونَ ذلكَ قاعِدَةً أساسيَّةً في الحُكمِ والتَّعامُل، لا تَميلُ معَ هوًى ومَنصِب.

وقالَ سبحانه:
{وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالعَدْلِ إِنَّ اللهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا} [سورة النساء: ٥٨].
إنَّ اللهَ يأمرُكم أنْ تَحكُموا بالعَدلِ إذا حَكمتُم بينَ الناس، ونِعمَ الشيءُ الذي يَعِظُكمُ اللهُ به، وهوَ الحُكْمُ بالعَدل. وكانَ اللهُ سميعاً لجميعِ أقوالِكم، بَصيراً بكلِّ أفعالِكم.

والجزاءُ والعقوبةُ تكونُ بالعدلِ كذلك:
{وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرينَ} [سورة النحل: ١٢٦].
أي: إذا أرَدتُم مُعاقبَةَ أحَد، فلْتَكنْ مُعاقبَتُكم لهم بمثلِ ما عُوقِبتُم به، فافعَلوا بهم مثلَ ما فعَلوا بكم، ولا تَزيدوا، وإذا صبَرتُم عنِ المعاقبَةِ بالمِثْلِ وعَفَوتُم، فهوَ فَضْلٌ منكم وحُسْنُ خُلُق، وللصَّبرِ ثَوابٌ عَظيم.

الصبر
المؤمنُ يصبرُ على ما يُصِيبهُ من أذًى ومِحَن، وينتظرُ الثوابَ من عندِ الله.
وقد صبرَ الأنبياءُ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ على تبليغِ دينِ الله:
{وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ} [سورة الأنبياء: ٨٥].
معناه: واذكُرْ إسماعيلَ، وإدريسَ، وذا الكِفْلِ. وكُلٌّ هؤلاءِ كانوا ثابِتينَ على إيمانِهم وعُهودِهم معَ الله، أقوياءَ في عَزائمِهم، صابِرينَ على تَكاليفِ الدَّعوةِ والتَّبليغ.

وقالَ يعقوبُ عليه السلامُ لما عرفَ مؤامرةَ إخوةِ يوسفَ عليه:
{فَصَبْرٌ جَمِيلٌ} [سورة يوسف: ١٨].
أي: فسأصبِرُ صَبراً حَسَنًا على ما ابتَلاني اللهُ به، حتَّى يُفَرّجَ عنّي بعَونِهِ ولُطفِه.

وأثنَى اللهُ على نبيِّهِ أيوبَ لصَبره، فقال:
{إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ} [سورة ص: ٤٤].
معناه: لقد وجَدْنا أيُّوبَ صابِرًا فيما ابتلَيناهُ بهِ في نَفسِهِ وأهلِهِ ومالِه، فما أحسَنَه، وما أكرَمَ أدبَهُ وخُلُقَه، إنَّهُ مُنيبٌ إلى ربِّه، كثيرُ الرُّجوعِ إليه.

وقالَ السَّحَرةُ الذين آمَنوا لفرعَون، وقد هدَّدَهم بالقَتلِ والتَّعذِيب:
{رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ} [سورة الأعراف: ١٢٦]:
اللهمَّ صبِّرْنا على التمسُّكِ بدينِكَ والثَّباتِ عليه، وتوفَّنا على الإسلام، مُتَّبعينَ نبيَّكَ موسَى عليهِ السَّلام.

وأوصَى اللهُ تعالَى نبيَّهُ محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالصبرِ على أذَى المشركين، أسوةً بالأنبياءِ السَّابقين، فقال:
{وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَى مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ وَلَقدْ جَاءكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ} [سورة الأنعام: ٣٤].
أي: لستَ أوَّلَ رَسُولٍ يُكَذَّبُ مِن قِبَلِ قومِه، فقد سَبقَكَ رُسلٌ كُذِّبوا فصَبروا على تكذيبِهم لهم، وثَبَتوا وبلَّغوا رِسالاتِ ربِّهم، وأُوذوا نتيجةَ ذلكَ حتَّى أتاهُم نصرُنا الذي وعَدناهم، ولا ناقضَ لِما حَكمَ بهِ اللهُ مِن نَصرِ أنبيائهِ على أعدائهم، وقد عرفتَ مِن خَبَرِهِمْ كيفَ مُنِحوا النصرَ بتأييدهِ وقوَّتِه، فتأسَّ بهم واصبِرْ كما صبرَ أُوْلو العَزمِ منَ الرسُل، فلكَ فيهم أُسْوَة، وبهم قُدْوَة، حتَّى يأتيَ نصرُ اللهِ الموعُود.

وقالَ لهُ أيضًا:
{وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللّهِ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ} [سورة النحل: ١٢٧].

أي: اصبِرْ على أذَى النَّاسِ وإعراضِهم، وخاصَّةً في شُؤونِ الدَّعوَة، وما صَبرُكَ وثباتُكَ إلاّ بمَعونَةِ اللهِ وتَوفيقِه، فهوَ الذي يُعِينُ على الصَّبر، ويُثَبِّتُ العَزيمَةَ في القَلب، ويُزَيِّنُ هذا الخُلُقَ الجَميلَ في النَّفسِ المؤمِنَةِ للدُّعاةِ الصَّادقينَ المخلِصين، ولا تَحزَنْ على مَن خالفَكَ وأعرضَ عن دَعوَتِك، ولا يَضِقْ صَدرُكَ بما يَكيدونَ لك، فاللهُ حافِظُكَ ومُؤيِّدُك.

وقالَ الله تعالَى حاثًّا عبادَهُ على الصَّبر:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [سورة آل عمران: ٢٠٠].

معناها: اصبِروا على دينِكم الذي ارتَضاهُ اللهُ لكم، في الشدَّةِ والرَّخاء، حتَّى تَموتوا عليه، فهوَ زادُكمُ الذي تَتمسَّكونَ بهِ حتَّى يَبْلُغَكمُ المَقِيل.

وصابِروا أعداءَكمُ الذينَ يُحاولونَ دائماً أنْ يُزَعزِعُوا إيمانَكم ويَقضُوا عَليكم، فكونُوا أصبرَ منهم وأقوَى حتَّى تَغلِبوهُم.

ورابِطوا في مواقعِ الجهادِ وفي الثغورِ المعرَّضةِ لهجومِ الأعداء، لا تَغفُلوا عن هذا ولا تَستَسلِموا للرُّقاد.

ويأتي معنَى المرابطةِ هُنا أيضًا - مِن بابِ التنوُّعِ في التَّفسير -: المداومةُ على العبادةِ والثباتُ على طاعةِ الله.

واتَّقوا اللهَ في جميعِ أمورِكم وأحوالِكم، ولا تَغفُلوا عمّا أُمِرتُم به، حتَّى تَكونوا بهذا كلِّهِ منَ الفائزين، مُعَزَّزين في الدُّنيا، ومُكرَّمينَ في الآخِرَة.

والصبرُ يكونُ في الجهادِ خاصة:

{وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} [سورة الأنفال: ٤٦].

معناه: اصبِروا على هَولِ الحَرب، وكُونوا أشدَّ عَزماً وبأساً مِن عدوِّكم، إنَّ اللهَ يُمِدُّ الصَّابرينَ بقوَّةٍ مِن عندِهِ ويُعينُهم على ما هم فيه.

وقالَ سبحانهُ في الصَّلاةِ له والاتصافِ بصفةِ الصبر:

{وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ} [سورة البقرة: ٤٥].
أي: استعينوا أيُّها المؤمنونَ على طَلَبِ الخيرِ في الآخِرةِ والدنيا، بالصبرِ على طاعةِ الله، والصَّلاة. فإنَّ الصبرَ لابدَّ منهُ في كلِّ أمرٍ شاقّ، والصلاةُ تُعِينُ على الثباتِ على الأمر، وهي شاقَّةٌ وثقيلةٌ إلاّ على المتَواضِعينَ المطيعينَ لله.

وقالَ سُبحانه:
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} [سورة البقرة: ١٥٣].
أي أنَّ الصبرَ مِن آدابِ المؤمنين، ولا بدَّ لهمْ منه، فإنَّهُ خَيرُ صِفةٍ يتحلَّونَ بها لتحمُّلِ البلايا والرزايا ومشاقِّ الدعوة، والعزمِ على الطاعةِ والقرُبات، وتركِ المآثِمِ والمحرَّمات.
ذلكَ أنَّ اللهَ معَ الصابرين، يؤنِسُهم، ويُؤيِّدُهم، ويُثبِّتُهم، ويَزيدُ مِن قوَّتِهمُ الضَّعيفة.

وقالَ أيضًا، في بيانٍ أوسع:
{وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ. الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ. أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ} [سورة البقرة: ١٥٥-١٥٧].
أي: سوفَ نختبرُكم ونمتَحِنُكم أيُّها المسلمون، لتَظهرَ حقيقةُ إيمانِكم ومدَى ثباتِكم على أمرِ دينِكم، سيُصيبُكم شَيءٌ منَ الخوفِ وأنتم تَخوضونَ معاركَ ضدَّ الباطل، وشيءٌ منَ الجوعِ كالفَقرِ، ونَقصٌ مِنَ الأموالِ، كأنْ يصيبَها جائحةٌ أو غَرَقٌ أو ضَياع، ويُقْتَلُ أو يموتُ منْ أهلِكم وأحبابِكم، ويَقِلُّ شيءٌ منْ زروعِكم وثمارِكم، ببَردٍ أو حَرْقٍ أو آفةٍ سماويَّة. فإذا صبَرتُمْ ورَضِيتُم بقضاءِ اللهِ فزتُم وحُزتُمُ الأجْر.
إنَّ الحائزينَ على درجةِ الصبرِ بحقٍّ همُ الذين إذا ابتُلوا بمصِيبةٍ آمَنوا فصَبروا، وتسلَّوا واسترجَعوا، وقالوا: {إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ}، لعلمِهم بأنَّهم مُلْكٌ لله، يتصرَّفُ في عبيدِه كما يَشاء، وأنَّهُ لا يَضِيعُ عندهُ شَيءٌ يومَ القيامة.
فعلَى هؤلاءِ الصابرينَ ثناءُ الله، ولهم مغفرتهُ وعليهم رحمتُه، فهمُ الذينَ اهتدَوا إلى الحقِّ والصَّواب، بصبرِهم واسترجاعِهم.

وقالَ تعالَى مبيِّنًا صفاتٍ للمؤمن:
{وَالصَّابِرِينَ فِي البَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ البَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ المتَّقُونَ} [سورة البقرة: ١٧٧].
أي أنهُ منَ الصابرينَ إذا أصابَهُ مَكروه، كفَقرٍ أو مَرض. وكذلكَ في حالِ القِتالِ ولقاءِ العدوّ.

والصبرُ صفةٌ للمؤمنِ فيما يلزمُ من شُؤونه، ويَبتغي به وجهَ اللهِ سُبحانه:
{وَالَّذِينَ صَبَرُواْ ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِمْ} [سورة الرعد: ٢٢].
أي أنَّ عبادَ اللهِ المؤمنينَ همُ الذينَ قَوِيَتْ عَزائمُهم، فصبَروا على التَّكاليفِ التي أُمِروا بها، وصبَروا عمّا نُهوا عنه، كما صبَروا على الجِهادِ والدَّعوة، وعلى البَلاء، وفي السرَّاءِ والضرَّاء، وهذَّبوا شَهواتِهمُ النفسيَّةَ والبدنيَّةَ بتَوجيهاتِ الدِّينِ الحَنيف، ولم يَنتَقِموا لأنفسِهم عن هوًى وعَصَبيَّة، بل صَبَّروا أنفُسَهم وتأدَّبوا بأدَبِ الإسلام، طَلبًا لرِضاءِ الله، وطَمَعًا في جَزيلِ ثوابِه.

ويبشِّرُهم الملائكةُ بالجنَّةِ جزاءَ صبرِهم على طاعةِ الرحمنِ في الدُّنيا:
{سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ} [سورة الرعد: ٢٤].
أي أنَّهم يَقولونَ لهم وهُم يَطوفونَ بهم في لِقاءٍ حافِلٍ وتَكريمٍ جَميل: "سلامٌ عَليكم"، بِشارَةً لهم بدَوامِ السَّلامَةِ والأمَان، في دارِ السَّلام، بجِوارِ الصِّدِّيقينَ والأنبياءِ والرسُلِ الكِرام، جَزاءَ صبرِهم على طَاعةِ ربِّهم، فنِعمَتِ العاقِبةُ الحسَنةُ الجِنانُ العالية، والإقامَةُ الدائمةُ فيها.

الشكر

والله تعالَى يُحسِنُ إلى عبادهِ ويرحمُهم ويَعفو عنهم ليكونَ باعثًا لهم على شُكره. قالَ ربُّ العزَّةِ والجلال:
{ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [سورة البقرة: ٥٢].
٥٢- ومعَ هذا فقدْ عفا اللهُ عنكم، لعلَّكم تشكرونَه، وتَعرفونَ نعمتَهُ عَليكم.

وقالَ سبحانه:
{فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ} [سورة البقرة: ١٥٢].
أي: اشكروا لي هذهِ النعمَ ولا تجحدوها، أزِدْكم بذلكَ نعمةً وفضلاً.

وقالَ ذو الجلالِ والإكرام:
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُواْ لِلّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ} [سورة البقرة: ١٧٢].
أي: كُلوا منَ الحلالِ الطيِّبِ الطاهرِ المستلَذِّ الذي رزقَكمُ الله، واشكروا لهُ ذلكَ إنْ كنتُم تعبدونَهُ حقَّ العبادة، فإنَّ الشكرَ منَ العبادة، وإنَّهُ من أسبابِ قبولِها والجزاءِ عليها.

وقالَ في كلامٍ جامع، سبحانه:
{وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ. وَقَالَ مُوسَى إِن تَكْفُرُواْ أَنتُمْ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ} (إبراهيم: ٧-٨].
معناه: اذكُروا إذْ أعلَمَكمْ ربُّكم أنَّكم إذا شَكرتُم نِعَمَهُ التي أسبغَها عَليكم، وقابَلتُموها بالإيمانِ والطَّاعة، لَأُثبِتَنَّها لكم، ولأزِيدَنَّكمْ منها. وإذا جَحَدتُم نِعمَتي ولم تَشكرُوها، فإنَّ العَذابَ المعَدَّ للعَاصِينَ شَديد، وهوَ إمّا بسَلبِ النِّعمَةِ مِنكم، أو بمَحقِ بركَتِها، أو بمُعاقَبتِكم، في الأُولَى أو في العُقبَى.
وقالَ موسَى عَليهِ السَّلامُ لقَومِه: اللهُ غَنيٌّ عن شُكرِكم وطاعَتِكم كُلِّها، وإذا كفَرتُم نِعَمَه، أنتُم ومَن في الأرضِ منَ النَّاس، فإنَّهُ غَنيٌّ بذاتِه، لهُ مُلْكُ السَّماواتِ والأرضِ وما فيهما، لا يَضُرُّهُ جَحْدُ مَن كفَر، ولا ينقُصُ مِن مُلكهِ ولا يَزيدُ منها إيمانُ أحَدٍ أو كُفرُهم، وهوَ حَميدٌ مُستَوجِبٌ للحَمدِ بذاتِه، لنِعَمِهِ العَظيمَةِ المتتاليةِ على خَلقِه. وثَوابُ الحَمدِ والشُّكرِ يَعودُ عَليكم، فيَزيدُكم مِن فَضلِه، ويُصلِحُ بِهِ حالَكم، ويَستَقيمُ بِهِ أمرُكم، ولكم عَليهِ أجرٌ في اليَومِ الآخِر.

ووصفَ اللهُ نبيَّهُ نوحًا بأنهُ عبدٌ شكور:
{ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً} [سورة الإسراء: ٣]:

شَكورًا لرَبِّه، يَحمَدُهُ على ما رزَقَهُ مِن طَعامٍ وشَراب، وعلى كُلِّ حَال.

وعندما فهَّمَ اللهُ نبيَّهُ سليمانَ كلامَ النملةِ شَكرَهُ ودعا، فقال:
{رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ} [سورة النمل: ١٩].

ولما قالَ جنيٌّ إنَّ بإمكانهِ أنْ يُحضِرَ عرشَ بلقيسَ في طَرفةِ عَين، قالَ سُليمانُ عليه السَّلام:
{هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ} [سورة النمل: ٤٠].
أي أنهُ قالَ في خَضوعٍ وخُشوع: إحضارُ السَّريرِ في هذهِ المدَّةِ المتناهيَةِ في القِصَر، مِن فَضلِ اللهِ ونِعمَتِهِ عَليّ، وليَختَبِرَني: أأشكُرُ فضلَهُ على ذلكَ وأعتَرِفُ بأنَّهُ مِن مِنَّتِهِ وحُسنِ تَدبيرِهِ ولُطفِه، أم لا أشكرُهُ عَليه؟
ومَن شكَرَ اللهَ على نِعَمِهِ فإنَّما يَنفَعُ نفسَهُ بذلك، لأنَّهُ يُعرِّفُها الحقّ، ويَستَجلِبُ لها المزيدَ مِنَ الخَيرِ والنَّفع، ومَن لم يَشكُرْ، فإنَّ اللهَ غَنيٌّ عن شُكرِه، وعن عبادَةِ النَّاسِ وشُكرِهم أجمَعين. وهوَ سُبحانَهُ كَريم، فيُنعِمُ على مَن لم يَشكُرْهُ أيضًا، ولا يُعَجِّلُ في عُقوبتِهِم.

وذكرَ اللهُ أنَّ القليلَ من العبادِ يَقومُ بحَقِّ الشُّكرِ في كُلِّ أحوالِه، قلبًا ولِسانًا:
{وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ} [سورة سبأ: ١٣].

الرحمة

وصفَ الله تعالَى نبيَّهُ الكريمَ بالرأفةِ والرحمَة، فقال:
{لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ} [سورة التوبة: ١٢٨].
أي: لقد بعثَ اللهُ فيكم رسُولاً رفيعَ القَدْر، عظيمَ الشَّأن، تَعرِفونَ حسَبَهُ ونسَبَه، وهوَ مِن أشرَفِكم وأفضَلِكم، شاقٌّ وصَعبٌ عليهِ أنْ يَرَى أذًى وضررًا يلحَقُكم، أو عَذابًا يُصيبُكم،

حريصٌ على هدايتِكم وصَلاحِكم، وما يَنفَعُكم في دُنياكم وآخِرَتِكم، كثيرُ الرَّحمةِ بالمؤمنين، رَحيمٌ بالمطيعينَ منكم والمذنِبين.

ودعا إبراهيمُ عليه السَّلامُ أن يُميلَ قلوبَ عبادٍ له إلى ولدهِ إسماعيلَ وأمِّهِ هاجر، اللَّذَين ترَكهما في وادٍ بمكَّة؛ ليَرحَموهما:

{رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ} [سورة إبراهيم: ٣٧]:

ووصفَ اللهُ المؤمنينَ بأنَّهم رُحَماءُ مُتوادُّونَ بين بعضِهم، كما في قولهِ تعالَى:

{مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ} [سورة الفتح: ٢٩].

والمؤمنُ يكونُ رحيمًا، ويوصي بالرحمَة:

{ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ} [سورة البلد: ١٧].

أي الرَّحمَةِ بالنَّاس، بالتَّعاونِ على البرِّ والتَّقوَى، وبَيانِ سبُلِ الخَيرِ لهم.

وكان الحواريُّون ذوي رأفةٍ ورحمَة، ورِقَّةً وخَشيَة، ورَحمَةً بالخَلق. وهم أتباعُ عيسى المصطفَون. قالَ الله تعالَى:

{وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً} [سورة الحديد: ٢٧].

الإيثار

والإيثار خُلقٌ عال، أجلُّ من الكرَم، فصاحبهُ يفضِّلُ المحتاجَ على نَفسه، وهوَ مُحتاج!

وقد وصفَ الله بعضَ الأنصارَ بهذا الخُلقِ الرائع، فقالَ سُبحانه:

{وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ} [سورة الحشر: ٩].

أي: ويُفَضِّلونَ المهَاجرينَ الفقراءَ على أنفُسِهم في كُلِّ شَيء، ولو كانَ بهم حاجَة.

وقالَ أيضًا:
{وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً} [سورة الإنسان: ٨]
أي أنَّهم يُطعِمونَ الطَّعامَ معَ اشتِهائهم لهُ وحاجَتِهم إليه، للمِسكينِ الذي لا يَجِدُ شَيئًا، وللصَّغيرِ الذي فقدَ والِدَه، وللأسيرِ، أيًّا كان.

إكرام الضيف

جاءتْ ملائكةُ اللهِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ تبشِّرهُ بإسحاق، وظنَّهم ضيوفًا، فقد كانوا على صورةِ البشر، فأكرمَهم...
{وَلَقَدْ جَاءتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُواْ سَلاَماً قَالَ سَلاَمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاء بِعِجْلٍ حَنِيذٍ} [سورة هود: ٦٩].
تفسيره: لقد جاءَتْ ملائكتُنا إبراهيمَ تُبشِّرُهُ بإسحاق، أو بإهلاكِ قَومِ لوط، وهوَ لا يَعرِفُهم، قالوا لهُ مُحَيِّين: سلامًا عَليك، فأجابَهم: سلامٌ عَليكم. وذهبَ سَريعًا ليأتيَهم بالطَّعام، ولم يُبطِئ، فجاءَهُم بعِجْلٍ مَشْوِيّ.

وقالَ لوطٌ عليه السَّلامُ لرهطٍ من قومه، وقد جاؤوا بنيَّةٍ سيِّئةٍ إلى ضيوفه، ثمَّ تبيَّنَ له أنَّهم كانوا ملائكة:
{فَاتَّقُواْ اللّهَ وَلاَ تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ} [سورة هود: ٧٨].
معناه: اتَّقوا اللهَ بتَركِ الفَواحِش، ولا تَفضَحوني في شَأنِ ضُيوفي ولا تُخجِلوني أمامَهم، أليسَ بينَكم رَجُلٌ فيهِ خَير، ويَهتدي إلى الحقِّ والصَّواب؟

وبتفصيلٍ أكثر:
{وَجَاء أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ. قَالَ إِنَّ هَؤُلاء ضَيْفِي فَلاَ تَفْضَحُونِ. وَاتَّقُوا اللّهَ وَلاَ تُخْزُونِ} [سورة الحجر: ٦٧-٦٩].
معناه: جاءَ قَومُ لُوطٍ منَ المدينَةِ جَماعاتٍ فَرِحين، يُبَشِّرُ بَعضُهم بَعضًا، ليَعمَلوا الفاحِشَةَ بضُيوفِ نَبيِّهم، في فُجورٍ ورَذالَةٍ مَكشوفَة، وارتِكاسَةٍ في الحَياءِ وشُذوذ.

فقالَ لهم لوطٌ عليهِ السَّلام، وكأنَّهُ يتلمَّسُ منهم ولو شَيئاً منَ الأدَب: إنَّ هؤلاءِ الذينَ جِئتُم إليهم ضُيوفٌ عِندي – قبلَ أنْ يَعرِفَ أنَّهم ملائكةٌ – فدَعُوا هذا الذي عزَمتُم عَليهِ ولا تَفضَحُوني أمامَهم، فإنَّهم سيُفاجَؤونَ بما يُنكِرونَهُ أشَدَّ الإنكار، ويَقولونَ إنَّني لم أستَطِعْ أنْ أحميَهم، ومِن حقِّ الضَّيفِ أنْ يُكرَمَ لا أنْ يُهان!

فخافُوا اللهَ وابتَعِدوا عن ضُيوفي، ولا تَنتَقِصوني وتُخجِلوني أمامَهم، فإنَّهم في دَاري وذِمَّتي، وأنا مَسؤولٌ عَنهم.

الإنفاق والصدقة في وجوه الخير

أمرَ اللهُ تعالَى عبادَهُ بالإنفاقِ ممّا آتاهُم من مَال، فقالَ سُبحانه:

{وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ} [سورة الحديد: ٧].

أي: أنفِقوا مِنَ المالِ الذي ملَّكَكُم إيَّاهُ واستَخلفَكم فيه، فقد كانَ لغَيرِكم ووَقعَ في أيدِيكم، وسيَخرجُ مِن مُلكِكمْ إلى غَيرِكم، فالذينَ آمَنوا وأخلَصوا في إيمانِهم، وأنفَقوا أموالَهم في طاعَةِ ربِّهم، لهم ثَوابٌ عَظيم.

ثمَّ قالَ في الآيةِ (١٠) من السُّورةِ نفسِها:

{وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}؟

أي: ما الذي يَصرِفُكم عنِ الإنفَاقِ فيما يُقرِّبُكم إلى الله، وأنتُم ميِّتونَ تارِكونَ أموالَكم، واللهُ يَرِثُ كُلَّ شَيءٍ ممَّا في السَّماواتِ والأرض، فلا يَبقَى لأحدٍ مالٌ فيهما، فأنفِقوا ولا تَخشَوا فَقرًا، فإنَّ الذي أنفَقتُم في سَبيلِهِ هوَ مالِكُ الكونِ كُلِّه، وعندَهُ خَزائنُ السَّماواتِ والأرض.

وأمرَ الجليلُ بإنفاقِ الأموالِ في الجهادِ وسُبلِ الخيرِ عامَّة، كما في قولهِ تعالى:

{وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ} [سورة البقرة: ١٩٥].

وقالَ جلَّ جَلاله:

{مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً} [سورة البقرة: ٢٤٥].
بمعن أنَّ الذي يُعطي مِن مالِهِ للجهادِ أو لأيِّ عملٍ صالح، إعطاءً حلالاً مقروناً بالإخلاصِ وطِيْبِ النفس، فإنَّ اللهَ يَقبَلُ منه، ويُضاعِفُ لهُ الأجرَ والثوابَ أضعافاً كثيرةً بما لا يَتوقَّعه.

وقالَ أيضًا:
{مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [سورة البقرة: ٢٦١].
أي: إنَّ مَثَلَ الذينَ يُنفِقونَ أموالهم في سَبيلِ اللهِ وابتغاءَ مرضاتِه، منَ الإنفاقِ في الجهاد، أو غيرِه من وجوهِ الخيرِ والطَّاعة، هوَ كَمثَلِ حبَّةٍ زُرِعَتْ فأعطَتْ سَبعَ سَنابل، في كلِّ سُنبُلةٍ منها مِئةُ حبَّة. واللهُ يُضاعفُ أجرَ مَن أنفقَ في سَبيلهِ بمثلِ هذا وزِيادة، لمن شاء، بحَسَبِ حالِ المنفقِ وإخلاصهِ وتَعبِه.

وأثنَى سبحانهُ على المؤمنينَ الذين ينفقونَ أموالَهم في وجوهِ الخَير، وحدَّدَ بعضَ هذه الوجوهِ لتبصِيرِهم بها، فإنهم أظهرُ وأشدُّ حاجةً من غيرهم:
{وَآتَى المَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي القُرْبَى وَاليَتَامَى وَالمسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ} [سورة البقرة: ١٧٧].
بمعنى أن المؤمنَ الصادقَ هوَ مَن أنفقَ مِن مالِهِ وهوَ محبٌّ لهُ راغِبٌ فيه، فأعطاهُ لأهلِهِ وأقربائه، ولليتامَى الذينَ فَقدوا آباءَهم وكانوا صِغاراً ضُعَفاء، والمساكينِ الذينَ لا يَجدونَ ما يكفيهم، وابنِ السبيلِ الذي نَفِدَتْ نفقتُهُ وهوَ بعيدٌ عن وطنه، والسائلينَ الذينَ ألجأتهمُ الحاجةُ والضرورةُ إلى السؤال، وفي الرِّقاب: العبيدِ الذينَ يُريدونَ أن يُصبِحوا أحَراراً ولا يجدونَ المبلغَ الكافيَ لإعطائهِ أسيادَهم من أجلِ ذلك.

وبيَّنَ أنَّ الإنفاقَ يكونُ ممّا يُحَبُّ من الأموال:
{لَنْ تَنَالُوا البِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ} [سورة آل عمران: ٩٢].

أي: لن تَنالوا البِرَّ، وهوَ العَمَلُ الصَّالِح، أو ثوابُه، وهوَ الجنَّة، إلاّ إذا أنفَقتُم ما تُحِبُّونَهُ مِن أموالٍ في سبيلِ الخَير، مِن صَدَقةٍ، أو غَيرِها منَ الطَّاعات؛ رَغبةً فيما عندَ الله. وما تُنفِقوا مِن شيءٍ كائناً ما كان، صَغيراً أو كَبيراً، طيِّباً أو خَبيثاً، حَلالاً أو حَراماً، فإنَّ اللهَ عليمٌ بهِ وبنيَّاتِكم فيه، فيُجازي كلاًّ بحَسَبِه.

وذكَّرَ الله عبادَهُ بالإنفاقِ قبلَ فواتِ الأوان، فقالَ سُبحانه:
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ} [سورة البقرة: ٢٥٤].
معناها: إنَّ الدُّنيا فرصةٌ للعَملِ الصَّالحِ أيُّها المؤمِنون، فأنفِقوا ممّا تفضَّل اللهُ بهِ عليكم مِن رِزق، قبلَ أنْ تُغلَقَ صفحةُ الدُّنيا فلا يُقبَلُ من أحدٍ عَمَل، وإنَّ أمامَكم يومَ القيامَة، الذي لا يوجدُ فيهِ بَيعٌ ولا شِراءٌ حتَّى تُجَرِّبوا رِبحاً، فلا مالَ يَبذلهُ المرءُ ليَفديَ بهِ نفسَه، ولا تَنفعُ صداقةُ أحدٍ ولا قَرابتُهُ لمسامحتِكم، ولا وَساطاتٌ جاريةٌ لتَشفَعَ لكم وتَعفوَ عنكم، بلِ الأمرُ كلُّه يومَئذٍ لله.

وقالَ في ثوابِ من أنفَق:
{وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ} [سورة البقرة: ٢٧٢].
معناها: وما تُنفِقوا مِن مالٍ فإنَّ فائدتَهُ تعودُ عَليكم، وكأنَّكم بذلكَ أنفقتُم على أنفسِكم، ولا يَضرُّكم كفرُ مَن أنفقتُمْ عليهم، فلا تَمنَعوا الناسَ خيرَكم، فإنَّ ثوابَهُ مَحفوظٌ لكم عندَ الله، مادامَ إنفاقُكم ابتغاءَ مرضاتِه، وليسَ رياءً ولا هوَ عن هَوى.
ولنْ تُظلَموا، فاللهُ يُعطي جزاءَ الحسنةِ أضعافاً مُضاعَفة.
قالَ البغَويُّ في تفسيرِه: وهذا في صدقةِ التطوُّع، أباحَ اللهُ تعالى أنْ تُوضَعَ في أهلِ الإسلامِ وأهلِ الذمَّة، فأمّا الصَّدقةُ المفروضة، فلا يجوزُ وضعُها إلا في المسلِمين.

وقالَ أيضًا:

{إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ} [سورة الحديد: ١٨].

تفسيره: إنَّ المتصَدِّقِينَ والمتصَدِّقاتِ بأموالِهم على الفُقَراءِ وأهلِ الحاجَة، بإخلاصٍ وطِيبِ نَفس، يُضاعَفُ لهمُ الأجرُ والثَّوابُ أضعافًا كثيرَة، ولهم عندَ ربِّهم جَزاءٌ حسَنٌ وثَوابٌ مَرضيّ.

والذين ينفقونَ أموالَهم سرًّا كانَ أو علانيَة، لهم أجرٌ عظيم:

{الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [سورة البقرة: ٢٧٤].

أي أنَّ الذينَ يَفعلونَ الخيراتِ ويَتصدَّقونَ مِن أموالِهم في سَبيلِ اللهِ في كلِّ أوقاتِهم وأحوالِهم، لَيلاً ونَهاراً، سِرّاً وعَلانية، حتَّى مَن أنفقَ على والدَيهِ وعِيالِه وخَدَمِهِ الفقراءِ وأقربائِه... فلهم عندَ اللهِ الثوابُ العظيم، ولا خَوفٌ عليهم يومَ الحسابِ عندما يَخافُ البُخلاءُ الأشِحَّاء، ولا يَحزنونَ إذا تأسَّف المفرِطونَ المسرِفون.

وإخفاءُ الصدقةِ أفضلُ من إظهَارِها. قالَ اللهُ تعالَى في كتابِهِ الكريم:

{إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} (البقرة: ٢٧١)

أي: إذا أظهرتمُ الصَّدقاتِ أمامَ الناسِ فهوَ أمرٌ مَرغوبٌ ولا حرجَ فيه، وخاصَّةً إذا ترتَّبَ على إظهارِها مصلحةٌ راجِحة، كأنْ يَكونَ أداءً للزكاة، فإنَّ إظهارَها فيهِ معنَى الطَّاعة، وانتشارُ هذا الأمرِ وظهورُهُ خَير، وإذا أخفَيتم صدقاتِكم فهوَ أفضل، لأنَّهُ أبعدُ عنِ الرياءِ وشوائبِ النَّفس، وأقربُ إلى الإخلاصِ وطلبِ مرضاةِ الله. ويَمحو اللهُ بها سيِّئاتِكم.

ويلاحظُ أنَّ الذي يُنفِقُ لا يطلبُ به استزادةَ مالٍ من صاحِبه. قالَ اللهُ لرسُوله:

{وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ} [سورة المدّثر: ٦].

أي: لا تُعطِ مالكَ وأنتَ تَطمَعُ أنْ يُعطَى لكَ أكثرُ منه.

وقالَ أيضًا سُبحانه:

{الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى. وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى. إِلَّا ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى. وَلَسَوْفَ يَرْضَى} [سورة الليل: ١٨-٢١].

أي: الذي يُنفِقُ مالَهُ في وجُوهِ البرِّ والخَيرِ؛ ليُطهِّرَ بهِ نَفسَه.

ولا يَقصِدُ ببَذلِ مالِهِ مُكافَأةَ مَن أسدَى إليهِ مَعروفًا،

ولكنَّهُ يُعطي ابتِغاءَ وجهِ ربِّهِ العَليِّ الأعلَى، وطلَبًا لرِضَاه.

ولسَوفَ يَرضَى بالثَّوَابِ العَظيمِ الذي يُجازيهِ اللهُ بهِ في الآخِرَة.

التواضع

التواضعُ من صفاتِ عبادِ اللهِ المؤمنينَ المتَّقين:

{وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً} [سورة الفرقان: ٦٣].

معناه: مِن صِفاتِ عِبادِ اللهِ المؤمنينَ المتَّقين، أنَّهم يَمشُونَ على الأرضِ بتُؤدَةٍ وسَكينَة، فهم متَواضِعونَ هَيِّنون، غَيرُ مُستَكبِرينَ ولا مُتجَبِّرين.

الاعتدالُ في المشي

كما نصحَ لقمانُ ابنَهُ فقال:

{وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ} [سورة لقمان: ١٩].

أي: توَسَّطْ في مَشيكَ واعتَدِلْ فيه، لا سَريعًا ولا بَطيئًا.

خفض الصوت

من آدابِ الإسلامِ خفضُ الصوت، إلا عندَ الحاجة. وقد أُمِرَ الصحابةُ رضيَ اللهُ عنهم بخفضِ أصواتِهم عندَ نداءِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أو الحديثِ معه.

وقد التزموا بهذا، واستمرَّ المسلمونَ عليه حتى بعدَ وفاتِهِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام، وذلك عندَ زيارةِ قبرِهِ الشريف، فلا تسمعُ منهم إلا همسًا.

قالَ اللهُ تعالَى:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ. إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ} [سورة الحجرات: ٢-٣].

معناه: لا تُعلُوا أصواتَكم في حَضرَةِ النبيّ صلى الله عليه وسلم، ولا تَرفَعوها فَوقَ الحَدِّ الذي يَبلُغُهُ صَوتُه، ولا يَكنْ جَهرُكم لهُ بالحَديثِ كجَهرِ بَعضِكم لبَعض، بلِ اجعَلوهُ أخفَضَ مِن صَوته، حتّى لا تَبطُلَ أعمالُكم وأنتُم لا تَدرون.

إنَّ الذينَ يَخفِضُونَ أصواتَهم عندَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم إجلالاً له، أولئكَ الذينَ أخلصَ اللهُ قُلوبَهم للتَّقوَى، وجعلَها مَحلاً للطّاعَةِ والخَشيَة، لهم في الآخِرَةِ مَغفِرَةٌ لذُنوبِهم، وثَوابٌ كبيرٌ على طاعَتِهم.

وقد نصحَ لقمانُ ابنَهُ فقال:

{وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ} [سورة لقمان: ١٩].

أي: لا تَرفَعْ صَوتَكَ فيما لا حاجةَ لكَ فيه، فإنَّ خَفضَ الصَّوتِ أدَبٌ وثِقَةٌ بالنَّفس، والزَّعْقُ بهِ ورَفعُهُ عاليًا سُوءُ خُلُقٍ وصِفَةٌ مَذمومَة وغايةٌ في الكَراهة. إنَّ أقبَحَ الأصواتِ وأوحشَها على السَّمعِ نَهيقُ الحَمير.

الاستئذان

الإذنُ بالدخولِ إلى البيوتِ من آدابِ الإسلامِ المؤكَّدِ عليها في القرآنِ الكريم، قالَ اللهُ جلَّ جلاله:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ. فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَداً فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ} [سورة النور: ٢٧-٢٨].

تفسيره: لا تَدخُلوا بيوتًا – ماعدا بيوتَكم – حتَّى تَستأذِنوا مِن أهلِها (ثَلاثًا)، وتُسَلِّموا على السّاكنينَ فيها، فإنَّ الاستِئذانَ خَيرٌ لكم مِنَ الدُّخولِ فَجأة.

فإنْ لم تَجِدوا في البُيوتِ أحدًا يأذَنُ لكم بالدُّخول، فاصبِروا ولا تَدخُلوها حتَّى يُسمَحَ لكم به، لأنَّ فيهِ تَصَرُّفًا في مُلْكِ الغَيرِ بغَيرِ رِضاه، والدُّخولُ بغَيرِ إذنٍ سبَبٌ للقِيلِ والقَال. وإذا طُلِبَ مِنكمُ الرُّجوعُ فارجِعوا ولا تُلِحُّوا في الدُّخول، فإنَّهُ أطهَرُ لقُلوبكم، وأنفَعُ لدينِكم ودُنياكُم. واللهُ عَليمٌ بما تأتونَ وما تَتركونَ ممّا كَلَّفَكم به، ومنهُ الدُّخولُ بإذنٍ أو بغَيرِ إذن.

وفي الآيتينِ (٥٨-٥٩) من السورةِ نفسِها تفصيلٌ لأحكامِ الاستئذان.

ولا يذهبُ المرءُ إلى طعامٍ إلا بعدَ إذنٍ من صَاحبِه، ولا يكونُ طُفيليًّا:
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا} [سورة الأحزاب: ٥٣].
أي: لا تَدخُلوا مَنازِلَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم إلاَّ أنْ تُدْعَوا إلى طَعامٍ فيُؤذَنَ لكم لِتأكُلوه، غَيرَ مُنتَظِرِينَ نُضْجَهُ واستِواءَه، ولكنْ إذا دُعِيتُم فادخُلوا وكُلُوا.

الفصل الخامس
العبادات

العبادة، التهجد

أمرَ اللهُ الخلقَ بعبادتِه فقال:
{وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} [سورة الذاريات: ٥٦].
معناه: إنَّما خلَقتُ الجِنَّ والإنسَ لغايَةٍ مُعيَّنة، وليُؤَدُّوا وَظيفَةً مهمَّةً مُحدَّدَة، هيَ سبَبُ وجودِهم في هذا الكون، وهوَ عِبادَتي.

وقالَ أيضًا:
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [سورة الحج: ٧٧].

أي: صَلُّوا لله، واخضَعوا في صَلاتِكم لهُ جَلَّ جَلالُه، وخَرُّوا لهُ سُجَّدًا، ووَحِّدوهُ في عِبادَتِكم له، ولا تُشرِكوا بهِ شَيئًا، وصِلُوا أرحامَكم، وتمَسَّكوا بمكارِمِ الأخلاق، لكي تَسعَدوا وتَفوزوا برِضَا اللهِ وجنَّتِه.

وقالَ سُبحانه:
{ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ} [سورة الأنعام: ١٠٢]
أي: ذلكمُ اللهُ ربُّكم، مالِكُ أمرِكم، الواحِدُ الذي لا شَريكَ له، خالِقُ كلِّ شَيء، ممّا كانَ وسيَكون، فاعبُدوهُ ولا تُشرِكوا بهِ شَيئاً، فهوَ وحدَهُ المستَحِقُّ للعِبادة، وهوَ الحفيظُ والرَّقيبُ على كلِّ الأشياء، يَعرِفُ أحوالَها ويُدَبِّرُ شُؤونَها، ويتولَّى جَميعَ أمورِها.

وعبادةُ الله تعالَى أمرٌ مطلوبٌ من كلِّ المؤمنين، وقد أمرَ الله عبادَهُ أن يَعبدوهُ وحدَه، وكما قالَ لبني إسرائيل:
{وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللّهَ} [سورة البقرة: ٨٣].
أي: اذكُروا أيضاً يا بَني إسرائيلَ ما أَمَرناكُم بهِ وأخذنا ميثاقَكم عليه، وهوَ ألاّ تَعبدوا إلا اللهَ ولا تُشرِكُوا بهِ شيئاً، وهذا ما أُمِرَ به جميعُ الخَلق، وهو حقُّهُ سبحانَهُ عليهم.

وعبادتهُ سبحانهُ من صفاتِ عبادِ الرحمنِ الطيبين:
{وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً} [سورة الفرقان: ٦٤].
أي: همُ الذينَ يُحيونَ اللَّيلَ أو بَعضَه، فيَسجُدونَ للهِ ويَخشَعون، ويَقومونَ في صَلاتِهم قارِئينَ عابِدين.

وهيَ تؤدِّي إلى التقوى. قالَ الله تعالَى:
{يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [سورة البقرة: ٢١].

أي: اعبُدوا الربَّ الذي خلقَكم ومَن قبلَكم، وَحِّدُوهُ بالعبادةِ ولا تُشرِكوا بهِ شيئًا؛ فإنَّ الذي تَفرَّد بالخَلقِ هو الذي يُفْرَدُ بالعبادة، ولعلَّكُم بهذهِ العبادةِ الصافيةِ تكونونَ منَ المطيعينَ المهتَدِين.

وفي آيةٍ عظيمةٍ مؤثِّرةٍ وصفَ الله عبادَهُ المؤمنينَ المتَّقِينَ بقوله:
{تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً} [سورة السجدة: ١٦].
أي: تَتباعَدُ أطرافُهم عنِ الفُرُشِ وتَنبو عن مَواضِعِ النَّوم، فيَقومونَ اللَّيلَ يتهَجَّدون، يَعبدُونَ اللهَ ويَدعُونَهُ خَوفًا مِن عَذابِه، وطَمعًا في كرَمِهِ وجنَّتِه.

ومثلهُ قولهُ جلَّ جلالُه:
{كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ. وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ} [سورة الذاريات: ١٧-١٨].
كانوا يَنامُونَ قَليلاً مِنَ اللَّيل، فيُصلُّونَ للهِ ويَذكرونَهُ ويَدْعُونَهُ أكثرَ اللَّيل.
وفي وَقتِ السَّحَرِ حيثُ يُستَجابُ الدُّعاء، يَستَغفِرونَ اللهَ ويَتوبونَ إليهِ مِن ذُنوبِهم، ليَغفِرَ لهم، ويَرضَى عَنهم.
قالَ صاحِبُ الظِّلالِ رَحِمَهُ الله: فهمُ الأيقاظُ في جُنْحِ اللَّيلِ والنَّاسُ نيام، المتوَجِّهونَ إلى ربِّهم بالاستِغفارِ والاستِرحام، لا يَطعَمونَ الكرَى إلاّ قَليلاً، ولا يَهجَعونَ في لَيلِهم إلاّ يَسيرًا، يأنَسونَ بربِّهم في جَوفِ اللَّيل، فتَتجافَى جُنوبُهم عنِ المضاجِع...

ووصفَ صحابةَ رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ بقوله:
{تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ} [سورة الفتح: ٢٩].
أي: تَراهم راكِعينَ ساجِدينَ لكثرَةِ صَلاتِهم ومُداوَمَتِهم عَليها، يَطلُبونَ الثَّوابَ والرِّضا مِنَ الله، عَلامَةُ الخُشوعِ والتَّواضُعِ ظاهِرَةٌ على وجوهِهم مِن أثَرِ السُّجود، فالشَّيءُ الكامِنُ في النَّفسِ يَظهَرُ أثَرُهُ على صَفَحاتِ الوَجه. كانَ ذلكَ وَصفَهم في التَّوراة.

وأمرَ مريمَ بمتابعةِ العبادةِ له، فقالَ سبحانه:

{يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ} [سورة آل عمران: ٤٣].
أي: أكثِري العِبادةَ لربِّكِ، وداومي على طاعتِهِ والخُشوعِ والخُضوعِ له، واسجُدي لهُ ونزِّهيه، واركعِي لهُ معَ الراكعين، تمهيداً لأمرٍ عَظيم.

وعبادةُ الله تكونُ حتى آخرِ لحظاتِ الإنسانِ في الحياة. قالَ اللهُ لرسوله:
{وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ} [سورة الحجر: ٩٩].
معناه: دُمْ على عِبادَةِ ربِّكَ وطاعَتِه، حتَّى يأتيَكَ الموتُ المتيَقَّنُ منه.

الطهارة

ومن الأمورِ التي يحبُّ اللهُ أن يتَّصِفَ بها المؤمنون: الطهارة، فيتنظَّفونَ في أحوالِهم، ويتطهَّرونَ للعباداتِ خاصَّة، فإذا فعلوا فإنَّ اللهَ يُكرِمُهم، ويُجزِلُ ثوابَهم.
قالَ اللهُ تعالَى: {وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ} [سورة التوبة: ١٠٨].

والمؤمنُ يكونُ طهورًا، بعيدًا عن النجَاسَاتِ والأقذَار. قالَ سبحانهُ في آخرِ آيةِ النهي عن إتيانِ الزوجةِ عندما تكونُ حائضًا:
{إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ} [سورة البقرة: ٢٢٢].
أي أنهُ يُحِبُّ المتَنزِّهينَ عنِ الأذَى والأقذار، مِن إتيانِ الحائض، أو مجامعتِها في غيرِ مكانِ النكاح.

إقامة الصلاة والخشوع فيها

فرضَ اللهُ تعالَى الصلاةَ على المسلمين، وأمرهم بالمحافظةِ عليها، وإقامتِها في أوقاتِها، وهي أعظمُ شعائرِ الإسلام. قالَ سبحانه:
{إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَّوْقُوتاً} [سورة النساء: ١٠٣].
أي أنَّ الصَّلاةَ مَفروضةٌ على المؤمنينَ ومَحدودَةُ الأوقات، لا يَجوزُ إخراجُها عن أوقاتِها، ولا بدَّ مِنْ إقامتِها حَضَراً وسَفَراً، وفي وقتِ الخَوف...

وقالَ لرسولهِ محمدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم:
{وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا} [سورة طه: ١٣٢]
معناه: وَأمُرْ أهلَ بيتِكَ وأُمَّتَكَ بالصَّلاةِ المفروضَةِ والمواظَبَةِ عَليها، واصبِرْ على أدائها، فإنَّها صِلَةٌ بينَ العَبدِ وربِّه.

وقالَ الجليلُ الكريم:
{قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُواْ يُقِيمُواْ الصَّلاَةَ} [سورة إبراهيم: ٣١].
معناه: قُلْ لعِبادِيَ المؤمِنينَ يَلتَزِموا جانِبَ الطَّاعَة، ويُحافِظوا على صَلواتِهم، بشُروطِها وأركانِها وفي أوقاتِها.

ومن الصفاتِ الكُبرى والأسَاسيةِ للمؤمِنينَ أنَّهم يقيمون الصلاةَ ويحافظونَ عليها، ولا يَترُكونَها، فلا تَفوتُهم. قالَ ربُّنا سبحانهُ وتعالَى:
{وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ} [سورة الشورى: ٣٨].

وبيَّن في أولِ سورةِ البقرةِ أنَّ إقامةَ الصلاةِ من شأنِ المتَّقين، فقالَ جلَّ جلاله:
{ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِّلْمُتَّقِينَ. الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ}.

وقالَ سبحانه:
{حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا للهِ قَانِتِينَ} [سورة البقرة: ٢٣٨].
أي: حافِظوا على أداءِ الصَّلواتِ في أوقاتِها، بأركانِها وشُروطِها، وخاصَّةً صلاةَ العصر، أقيمُوها خاشِعينَ مُستَكينينَ بينَ يدي الله، مُتَجَرِّدينَ لذكرِه.
وفي الصحيحينِ أنَّهُ صلى الله عليه وسلم سُئلَ عن أفضلِ الأعمالِ فقال: "الصلاةُ على وقتِها".

وأثنَى على عبادهِ المصلِّينَ فقال:
{الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ} [سورة المعارج: ٢٣].
أي: الذينَ يُقيمونُ الصَّلاةَ في أوقاتِها ويُحافِظونَ عَليها، ولا يَنشَغِلونَ عنها بشَيءٍ مِن أُمورِ الدُّنيا.

كما أثنَى على المؤمنِينَ الخاشِعينَ في صَلاتِهم، ووصَفَهم بقَوله:
{قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ. الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ} [سورة المؤمنون: ١-٢]
أي: سَعِدَ المؤمِنونَ وفازوا ببُغيَتِهم، الذينَ هم ساكِنونَ خائفُونَ في صَلاتِهم، قدْ خشَعَتْ قُلوبُهم وخضَعَتْ جَوارِحُهم.

وقالَ سبحانه:
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ} [سورة البقرة: ١٥٣].
فإنَّ الصلاةَ تشدُّ العزيمة، وتجدِّدُ الطاقة، وتملأُ القلبَ نُوراً، ولذلكَ كانَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إذا حَزَبَهُ أمرٌ - أي هجمَ عليهِ أو غلبَهُ - صلَّى، كما في حَديثٍ حسنٍ رواهُ أحمدُ وأبو داود.

وبيَّنَ فائدتَها فقال:
{وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ} [سورة العنكبوت: ٤٥].
أي: حافِظْ على إقامَةِ الصَّلاةِ أيُّها الرَّسولُ الكَريم، فإنَّ المداوَمةَ عَليها تُعِينُ على تَركِ المنكَراتِ والفَواحِش.

الصوم

والمسلمُ يمتثلُ أمرَ الله تعالَى فيصوم، فإنَّ أجرَهُ عظيم، وهو يؤدِّي إلى التقوَى. قالَ الله تعالَى:
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [سورة البقرة: ١٨٣].

معناها: لقد فُرِضَ عليكمُ الصيامُ كما فُرِضَ على الذينَ مِن قَبلِكم من أهلِ الكتاب؛ ليكونَ ذلكَ عوناً لكم على طاعةِ اللهِ وخَشيتِهِ والبُعدِ عن مَناهيه، فإنَّ الصومَ فيهِ تَربيةٌ وتَزكية، وتَعليمٌ على الطاعةِ والامتثال.

وقالَ أيضًا:
{فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ} [سورة البقرة: ١٨٥].
أي: فمَن حضَرهُ وكانَ مُقيماً سالماً وجبَ عليهِ صيامُهُ كلِّه.

الزكاة

ومن صفاتِ المؤمنين المفلحينَ أنهم يؤدُّون فَريضةَ الزكَاة، التي فرَضَها عليهم ربُّهم، فقالَ سبحانهُ فيهم، كما في أوائلِ الآياتِ من سُورةِ المؤمنون:
{وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ} [سورة المؤمنون: ٤]
أي: الذينَ يؤَدُّونَ زَكاةَ أموالِهم للفُقَراءِ والمحتاجِين، كما افترَضَهُ اللهُ عليهم.

وعدَّهُ سبحانهُ من صفاتِ المتَّقين، في أولِ سورةِ البقرة، فقالَ سبحانه:
{الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ} [سورة البقرة: ٣]

وقالَ سبحانهُ في آيةٍ أخرى:
{وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ. لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ} [سورة المعارج: ٢٤-٢٥].
المعنى: والذينَ في أموَالِهم نِسبَةٌ مُحدَّدَة فيؤدُّونَها، وهيَ الزَّكاة. أو نَصيبٌ مُعيَّنٌ يَتبرَّعونَ بهِ للفُقراءِ وفي وجُوهِ البِرّ والإحسَان، يُعطُونَهُ للفَقيرِ الذي يَتكفَّفُ النَّاس، والمحرومِ الذي ذَهبَ مالُهُ ولا يَستَطيعُ العمَل، أو يَعِفُّ فلا يَسأل.

وقالَ في مانعي الزكاة:

{وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} [سورة التوبة: ٣٤].

أي أنَّ الذينَ يجمَعونَ الأموالَ، مِن ذَهَبٍ وفِضَّةٍ ونُقود، ويَحرِصونَ على حِفظِها عندَهم، ولا يَدفعونَ المستَحقّاتِ المترتِّبَةَ عليها للفقراءِ واليتامَى والمعوِزينَ كما حدَّدَهُ الشَّرع، فبشِّرهم بعِقابٍ شَديدٍ مؤلِم.

الزيادة في السعي

يسعَى الحاجُّ سبعةَ أشواطٍ بين جبلَي الصفا والمروة، فمن زادَ فهو أفضل، وثوابهُ أكبر. قالَ ربُّنا سبحانه:

{إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ} [سورة البقرة: ١٥٨].

أي: مَن زادَ في السعي بينَهما، أو زادَ مِن نَفْلٍ، فإنَّ اللهَ يُثيبُهُ عليه، وهوَ عليمٌ بما يَستحِقُّهُ منَ الجزاء، ولا يَنقُصُ أحداً ثوابَ عَملِه.

ذكر الله

ذكرُ الله حالةٌ مستَمرةٌ عند المسلِم، وملازمَةٌ له، حتى قالَ الله تعالَى في كتابهِ الكريم:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْراً كَثِيراً. وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً. هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً} [سورة الأحزاب: ٤١-٤٣].

معناها: اذكُروا الله بالتَّسبيح، والتَّحميد، والتَّكبير، والتَّهليل، والتَّمجيد، والتَّقديس، ذِكْرًا كثيرًا، يَعُمُّ أغلبَ الأوقَاتِ والأحوَال، على ما هداكم إلى الإيمَان، وأنعمَ عَليكم بأنوَاعِ النِّعَم.

وقَدِّسُوهُ ونَزِّهوهُ مِنَ الشِّركِ والنَّقصِ وكُلِّ ما لا يَليقُ بجَلالِه، صَباحًا ومَساءً.

واللهُ يَذكرُكم ما ذَكرتُموه، ويَرحَمُكم بذلك، ويُثني عَليكم عندَ مَلائكتِه، وهم يَدعونَ ويَستَغفِرونَ لكم كذلك، ليُخرجَكم اللهُ مِن ظُلُماتِ الجَهلِ والمعاصِي إلى نُورِ العِلمِ والإيمانِ والطَّاعَة، وكانَ رَحيمًا بالمؤمنينَ إذْ هَداهُم للحَقِّ في الحيَاةِ الدُّنيا، وأعدَّ لهم ما يَسُرُّهم في الآخِرَة.

وقالَ جلّ جلاله:
{فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ} [سورة البقرة: ١٥٢].
أي: فلا تنسَوا النِّعَمَ العظيمةَ التي أنعمتُ بها عَليكم، اذكرُوني بالطَّاعةِ أذكُرْكم بالثواب.

وأثنَى على عِبادهِ الذَّاكِرين، فقال:
{الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ} [سورة آل عمران: ١٩١].
إنَّهمُ المؤمِنونَ إذاً، الذينَ لا يَكِلُّونَ ولا يَمَلُّونَ مِن ذكرِ الله، ولا يَغفُلونَ عنهُ في عامَّةِ أوقاتِهم، لمعرفتِهم بأنَّهُ الحقُّ الذي يَنبَغي ألاّ يُنسَى، ولخُشوعِهم، واطمئنانِ قلوبِهم بذكرِه، فيَذكرونَهُ قائمين، وقاعِدين، ومَضطَجِعين، ويَتفكَّرونَ في عظمةِ خَلْقِ الله، الدالَّةِ على علمه.

كما أثنَى على الذين يذكُرونَ الله في المسَاجد:
{فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ. رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ} [سورة النور: ٣٦-٣٧].
فالمساجِدُ أحَبُّ البِقاعِ إلى اللهِ في الأرْض، وقد أمرَ اللهُ أنْ تُطَهَّرَ مِنَ الدَّنَسِ والقَذَرِ والكلامِ اللَّغْوِ وكُلِّ ما لا يَليقُ بها، يَذكرُ فيها ويَتلو كِتابَهُ أوَّلَ النَّهارِ وآخِرَه،
رِجالٌ مُؤمِنونَ مُخلِصون، هم عُمَّارُ بيوتِه، فلا تَشغَلُهمُ التِّجارَةُ بأرباحِها، ولا بَيعٌ ولا شِراءٌ عنِ التَّسبيح، والتَّحميد، وطاعَةِ رَبِّهم ومحبَّتِه، وعنِ الصَّلاةِ في مَواقيتِها، وإعطاءِ حُقوقِ الفُقَراءِ مِنْ أموالِهم، فالطَّاعَةُ مَقصِدُهم أينما كانوا، يَخافونَ يومَ الحِسابِ والجزاءَ، حيثُ تَضْطَرِبُ القُلوبُ والأبصَار، وتتَغيَّرُ مِنَ الفزَعِ ومِن شِدَّةِ هَولِ ذلكَ اليَومِ وأحوالِه.

وقالَ مذكِّرًا الحاجّ:
{فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا} [سورة البقرة: ٢٠٠].

أي: فإذا أنهيتُم مناسكَ الحجّ فاحمَدوا اللهَ واشكروهُ على توفيقهِ إيّاكم، وادعوهُ وزِيدوا من ذِكرهِ كما يَلهَجُ الصبيُّ بذكرِ أمِّهِ وأبيه، وكما تَذكرونَ آباءَكم في مفاخرِهم وأيّامِهم، بل أكثرَ ذكراً، فإنَّهُ ربُّكم وربُّ آبائكم والمنعِمُ عليكم جميعاً.

وقالَ سبحانه:
{فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاَةَ فَاذْكُرُواْ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِكُمْ} [سورة النساء: ١٠٣].
معناها: إذا أدَّيتُم صَلاةَ الخَوفِ وفَرَغتُم منها، فأكثِروا مِن ذكرِ اللهِ وداوِموا عليه، في جميعِ أحوالِكم، قائمِين، وقاعِدين، ومُضطَجِعين، فذِكرُ اللهِ مَطلوبٌ في هذهِ الأحوالِ أكثر، وهوَ مَشروعٌ ومَرغوبٌ فيه مِن قَبل.

وذكرُ اللهِ يكونُ حتى في الجهادِ والالتحامِ مع العدوّ:
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ وَاذْكُرُواْ اللّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلَحُونَ} [سورة الأنفال: ٤٥].
أي: كونُوا شُجعَاناً إذا حارَبتُم جَماعةً كافِرة، فاصبِروا واثبُتوا لقِتالِهم، واذكرُوا اللهَ كثيراً أثناءَ القِتال، فاستَعينُوا به، وكبِّرُوه، وادعوهُ ليَنصرَكم ويُلقيَ الرُّعبَ في قلوبِ أعدائكم، لِتَفوزوا بالنَّصرِ والثَّواب.

وبذكرِ اللهِ تطمئنُّ القلوبُ وتهدأُ النفوس:
{الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} [سورة الرعد: ٢٨].
إنَّهُمُ الذينَ ثبتَ الإيمانُ في قُلوبِهم، فتَطِيبُ وتَسكُنُ بذِكرِ اللهِ وكَلامِهِ المعجِز، وتَرضَى بهِ إلهاً رحيمًا ومولًى كريمًا، ألا بذِكرِ اللهِ وحدَهُ تَطمَئنُّ القُلوب، وتَرتاحُ النُّفوسُ المؤمِنة، دونَ غَيرِهِ مِنَ الأمُورِ الدُّنيَويَّة.

وأمرَ الله نبيَّهُ صلَّى الله عليه وسلَّمَ أن يقرِّبَ الذاكرينَ العابدين:
{وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ} [سورة الأنعام: ٥٢].

معناه: لا تُبعِدْ عنكَ المؤمِنينَ الذينَ يَعبدونَ ربَّهم ويَذكرونَهُ ويَسألونَهُ صَباحَ مساء، يَبتغونَ بذلكَ وجهَهُ الكريم، في إخلاصٍ تامّ، لا رياءً ولا سُمعَة، بل قرِّبْهُم إليكَ وجالِسْهُم.

وحذَّرَ سُبحانهُ من الإلهاءِ عن الذكر، فقال:
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} [سورة المنافقون: ٩].
معناه: لا يَشغَلَنَّكم أموالُكم ومَصالحُكمُ الدنيَويَّةُ ولا أولادُكم عنِ الصَّلاةِ وسائرِ العِباداتِ والطَّاعات، ومَن يَشغَلْهُ التلهّي بالدُّنيا عن ذِكرِ اللهِ وطاعَتِه، فأولئكَ همُ الخاسِرونَ الخائبون، الذينَ باعُوا الجَليلَ الباقي بالقَليلِ الفاني.

أما المشركونَ فبعِيدون عن هذا، فقد:
{اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ} [سورة المجادلة: ١٩].
أي: غلبَ على قُلوبِهمُ الشَّيطان، واستَولَى على عُقولِهم بوَسوَسَتِهِ وكَيدِهِ حتَّى وافقوهُ واتَّبَعوه، فأنساهُم ذِكْرَ اللهِ بما زيَّنَ لهم مِنَ الشَّهواتِ وألهاهُم بهِ منَ الدُّنيا وزينَتِها، فأولئكَ جُنودُ الشَّيطانِ وأتباعُه، ألَا إنَّ أتْباعَهُ همُ الخاسِرونَ المغبونون، الذينَ فوَّتوا على أنفُسِهمُ النَّعيمَ المقيم، واستَعاضُوا بهِ العَذابَ الأليم.

والمنافقونَ لا يَذكرونَ اللهَ إلّا زمانًا قَليلًا، وهم يُراؤونَ النَّاسَ بذلك، كما قالَ ربُّنا العَليم:
{وَلاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاَّ قَلِيلاً} [سورة النساء: ١٤٢].

الدعاء

المسلمُ مأمورٌ بالدعاء، فإنه من العِبادة. قالَ ربُّنا سبحانه:
{وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} [سورة غافر: ٦٠].

تفسيره: وقالَ اللهُ ربُّكم: اسألُوني يا عِبادي أُعطِكم، واعبُدوني وَحدي أُثِبْكم على طاعَتِكم.
والدُّعاءُ والعِبادةُ تَذَلُّلٌ وخُضوعٌ للهِ تَعالَى، واللهُ يُحِبُّ أنْ يُسأَلَ، ويُحِبُّ أنْ يُعطِي.
إنَّ الذينَ يَستَكبِرونَ عن عِبادَتي ودُعائي، يَدخُلونَ جهنَّمَ أذِلَّةً صاغِرين.

وقالَ أيضًا، جلَّ جلاله:
{فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ} [سورة غافر: ١٤].
معناه: فاعبُدوا اللهَ وَحدَهُ ولا تُشرِكوا بهِ شَيئًا، وادعُوهُ وَحدَه، ولو أبغضَكمُ المشرِكونَ في هذا وكَرِهوا إخلاصَكمْ في العِبادَة.

وقال:
{وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ} [سورة الأعراف: ٥٦].
أي: لا تُفسِدوا في الأرضِ بالمعَاصي والتعدِّي على حُقوقِ الناسِ، وتَغييرِ الأنساب، والكذبِ على الله، وسائرِ أنواعِ الفَساد، بعدَ أنْ أصلحَها اللهُ ببَعثِ الرسُل، والشَّريعةِ المحكَمة. وادعوهُ خوفاً من غضَبِهِ وعِقابِه، وطمَعاً في رَحمتِهِ ومَغفِرَتِهِ وثَوابِه، فإنَّ ثوابَ اللهِ قَريبٌ مِنْ عِبادِهِ المتَّبِعينَ لأمرِه، الخائفينَ مِن عذابِه.

ووصفَ اللهُ خليلَهُ إبراهيمَ بأنهُ أوَّاه، وهو مَن يكثرُ التضَرُّعِ والدُّعاء، وأنهُ يؤوبُ إلى ربِّهِ سَريعًا:
{إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ} [سورة هود: ٧٥].

وقالَ الجليلُ الكريم:
{وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ. أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللهُ سَرِيعُ الحِسَابِ} [سورة البقرة: ٢٠١-٢٠٢].
أي: هناكَ مَن يَدعو فيُحْسِنُ الدُّعاء، ويَجمَعُ فيهِ بين خَيرَي الدُّنيا والآخِرَة، فيَقول: ربَّنا أعطِنا جِماعَ الخَيرِ في الدنيا والآخِرَة.

وهوَ كأنْ يدعوَ لنفسهِ بالرزقِ الواسع، والزوجةِ الصالحة، والمركبِ الهنيء، والثناءِ الطيّب، والعلمِ النافِع.

كما يدعو لنفسهِ بحُسنِ الخاتمة، والأمنِ يومَ الحشرِ والحِساب، ودخولِ الجنَّةِ معَ الأبرار، والوقايةِ من عذابِ النار.

فهؤلاءِ سنُعطيهم نَصيبَهمُ الذي دَعَوا به، مِن قَبولِ حجٍّ وغيرِه، واللهُ سريعٌ في الحِساب، يُحاسِبُ عبادَهُ بسُرعةٍ فائقة، على كثرتِهم وكثرةِ أعمالِهم.

وممّا قالَهُ زكريّا عليه السلامُ في دعائه:

{وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً} [سورة مريم: ٤].

أي: لم أكنْ بدُعائي إيَّاكَ خائبًا في وَقتٍ مِنَ الأوقات، ولم تَرُدَّني فيما سَألتُك.

ودعا قومُ موسى عليهِ السَّلامُ فقالوا:

{عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ. وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} [سورة يونس: ٨٥-٨٦].

قولُهم: اعتَمَدنا على الله، وأخلَصنا لهُ العِبادةَ والدُّعاء. اللهمَّ لا تُمَكِّنْ أعداءَنا منّا، ولا تُسَلِّطْهُم عَلينا، فيُعَذِّبونا ويَصرِفونا عن دينِنا، فإنَّهم جبَّارونَ ظَالِمون، لا يَعرِفونَ رَحمَة، ولا يُراعُونَ حقًّا. وخلِّصْنا برَحمَتِكَ وإحسانِكَ منَ القَومِ الكافِرين، الذينَ لا يَتَّصِفونَ بإيمانٍ يَردَعُهم، ولا إحسانٍ يَمنَعُهم.

والإنسانُ يدعو اللهَ في وقتِ الحاجةِ خاصَّة:

{إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ} [سورة النحل: ٥٣].

أي: إذا أصابَتْكُم مُصيبَة، مِن مَرَضٍ ومَجاعَة، وكَرْبٍ وبَلاء، فإليهِ وحدَهُ تَضِجُّونَ بالدُّعاءِ ليَكشِفَ ما بكم، فتَنطِقُ فِطرَتُكم وتَفقَهُ قُلوبُكم آنذاكَ أنَّهُ لا أحدَ يَسمعُكم أو يُنقِذُكم ممّا أنتُم فيهِ سِوَاه.

الفصل السادس
المعاملات وما إليها

توفية الكيل والميزان

أمرَ اللهُ بعدمِ الغشّ في المكاييلِ والموازين، فقالَ سُبحانه:

{وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ} [سورة الرحمن: ٩].

معناه: أقيموا لِسانَ الميزَانِ بالعَدلِ عندَ البَيعِ والشِّراء، ولا تَنقُصوا الميزانَ بالكَيلِ والوَزن.

ونصحَ نبيُّ الله شعيبٌ أهلَ مَدين بالعدلِ في الشِّراءِ والبَيع، وعدمِ تطفيفِ الميزان:

{وَلاَ تَنقُصُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّيَ أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ. وَيَا قَوْمِ أَوْفُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ. بَقِيَّةُ اللّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ} [سورة هود: ٨٤-٨٦].

أي: لا تُطَفِّفوا في الكَيلِ والوَزنِ عندما تَبيعونَ وتَشتَرون، فإنَّ هذا غِشٌّ وخِيانة، وأكلٌ لأموالِ النَّاسِ بغَيرِ حَقّ، وإنِّي أراكُم في سَعَةٍ وغِنًى، ويَنبغي أنْ تُقابَلَ نِعمةُ اللهِ بالشُّكرِ والإنفاق، لا كما تَفعلون، وإنِّي أخشَى إنِ استمرَرتُم على ذلكَ هَلاكًا يَحصُدُكم جَميعًا.

ويا قَومي أَتِمُّوا المِكيالَ والميزانَ بالعَدلِ والقِسطِ بيَعاً وشِراءً، حتَّى لا يُظْلَمَ أحَد، ولا تَنقُصُوا النَّاسَ حَقَّهم في أيِّ شَيء، ولا تكونوا ممَّن يُفسِدونَ في الأرضِ فيَظلِمونَ النَّاس، ويُهلِكونَ الحَرْثَ والنَّسْل.

وما أبقاهُ اللهُ لكم مِن رزقٍ حَلالٍ في بَيعِكم، خَيرٌ لكم ممّا يَعودُ إليكم بالغِشِّ والخِيانَة، إذا كنتُم مُؤمنينَ بالله، مُصَدِّقينَ بي، ولستُ عَليكم برَقيب، ولا أحفَظُكم مِن فعلِ الحَرام، وإنَّما أنا رَسولٌ مُبَلِّغ، وأخٌ ناصِح.

وفي موضعٍ آخر:

{فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ} [سورة الأعراف: ٨٥].

معناه: أتِمُّوا المِكيالَ ولا تَنقُصوا مِن مَقاديرِ مَقاييسِ الوَزنِ والكَيْل، واعدِلوا في وَزنِ الميزان، ولا تَنقُصوا الناسَ حقوقَهم، ولا تَخونُوهم في أموالِهم ومُبايعاتِهم خُفْيَةً وتَدليساً.

والويلُ لمن طفَّف:

{وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ. الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ. وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ. أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ}؟ [سورة المطففين: ١-٤]:

الهَلاكُ والعَذابُ الشَّديدُ لمن نقصَ مِنَ المِكيَالِ والميزانِ إذا بَاع، أو زادَ فيهما إذا اشترى.

الذينَ إذا اشترَوا مِنَ النَّاسِ أخَذوهُ وافيًا وافِرًا.

وإذا باعُوا لهم شَيئًا، فوَزَنوا لهم حَبًّا، أو كالُوا لهم طَعامًا، يَنقُصونَ منه.

ألا يَعلَمُ أولئكَ المطَفِّفونَ أنَّهم سيُبعَثونَ بعدَ الموتِ ويُحاسَبون؟

انتظارُ المعسر

الدائنُ المسلمُ ينتظرُ أخاهُ المعسِرَ إذا حلَّ وقتُ أداءِ دَينه، ولا يُلِحُّ عليهِ أو يَكبتِه. قالَ الله تعالَى:

{وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [سورة البقرة: ٢٨٠].

معناها: إذا كان المَدينُ مُعسِراً لا يَستطيعُ أنْ يَفيَ دَيْنَه، فيُنْظَرُ حتَّى يَيْسَرَ ويَدفعَ إليكم رؤوسَ أموالِكم، لا كما يفعلُ المُرابي الجَشِعُ بوضعِ المزيدِ منَ الرِّبا إذا لم يَدفع!

وإذا تصَدَّقتُمْ بها عليهِ وسامَحتُموهُ فإنَّهُ خَيرٌ لكم وأفضَل، هذا إذا عَلمتُمُ الثوابَ الكبيرَ الذي يَنتظرُكم من فَضلِ التيسيرِ على المعسِر.

المعاشرة بالمعروف

أمرَ الله تعالَى الزوجَ أن يعاملَ زوجتَهُ بالمعروف، فقالَ سبحانه:

{وَعَاشِرُوهُنَّ بِالمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا} [النساء:١٩]

معناها: وأجمِلوا مَعَهُنَّ في القَول، وطَيِّبوا خاطِرَهُنّ، وأحسِنوا مَعَهنَّ في المبيتِ والنفقةِ وما إليها. فإذا سَئِمتُم صُحبَتَهنَّ مِن غَيرِ إساءةٍ مِن طَرَفِهِنَّ، فاصْبِروا على معاشَرَتِهِنّ، فلعَلَّ لكم فيما تَكرَهونَهُ خَيراً كَثيراً يَبدو في المستقبل، كولَدٍ صالحٍ في الدُّنيا، وأجرٍ كبيرٍ لكم في الآخرةِ جزاءَ صبرِكم.

وفي الحديثِ الصحيح: "لا يَفْرَكْ - أيْ لا يَكرهْ - مؤمِنٌ مؤمِنة، إنْ سَخِطَ منها خُلقاً رضيَ منها آخَر".

استقامة الصفوف

وهذا في الجهادِ خاصَّة. قالَ الله تعالَى:

{إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَّرْصُوصٌ} [سورة الصف: ٤].

معناه: إنَّ اللهَ يُحِبُّ الذينَ يَصُفُّونَ أنفُسَهم عندَ القِتالِ صَفًا مُستقيمًا، مُتكامِلاً ومُتَناسِقًا، كأنَّهم بُنيانٌ مُلتَصِقٌ بَعضُهُ ببعض، قد رُصَّ وأُحكِمَ في بِنائهِ فليسَ فيهِ فُرجَةٌ ولا خَلَل.

أكل الطعام الحلال الطيب

أمرَ الله تعالَى عبادَهُ بأن يأكلوا مما حلَّ وطابَ من الأطعِمة، دونَ ما حَرُمَ وخَبُث، فقالَ سبحانه:

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّباً} [سورة البقرة: ١٦٨].

أي: كلُوا ممّا خلقَ اللهُ لكم في الأرضِ منَ الحلالِ الطيِّب، الذي لا يَعتلُّ بهِ جِسمٌ ولا يَختلُّ بهِ عقل.

وكذا قالَ لرسُلهِ عليهمُ الصَّلاةُ والسَّلام:

{يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ} [سورة المؤمنون: ٥١].

معناه: كُلُوا مِن رزقِ اللهِ الحلالِ الطيِّبِ النافِع، واعمَلوا الأعمالَ الحسَنَةَ المرضيَّة عندَ رَبِّكم، إنِّي عَليمٌ بما تَقومونَ بهِ من عمَل.

قالَ ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ الله: دَلَّ هذا على أنَّ الحلالَ عَونٌ على العمَلِ الصّالِح.

السياسة والتدبير

لما قالَ ملكُ مصرَ ليوسفَ إنه سيكونُ ذا مكانةٍ رفيعةٍ في مملكته، قالَ لهُ عليه السَّلام:
{اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ} [سورة يوسف: ٥٥].
أي: اجعَلني مَسؤولاً عن خَزائنِ الأرضِ التي تحت تَصَرُّفك، وهيَ مِصر، إنَّني خَازِنٌ أمِين، عَليمٌ بشُؤونِ التصرُّفِ فيها، بَصيرٌ بالحِساب.
قالَ ذلِكَ لِمَا يَستقبِلونَهُ منَ السِّنينَ العِجاف، ليَتَصَرَّفَ على الوَجهِ الأصلَحِ والأرشَد. وكانَ كذلكَ عليهِ السَّلام.
ويَجوزُ للمَرءِ أنْ يُظهِرَ عِلمَهُ لمن يَجهَلُه.

الشورى

قالَ الله تعالَى لرسُولِهِ الكريمِ صلَّى الله عليه وسلَّم، مشرِّعًا أمرَ الشورى في دينِ الإسلام:
{فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ} [سورة آل عمران: ١٥٩].
أي: استَشِرْهم في الأمور، لتُظهِرَ بها آراءَهم، وتُطَيِّبَ قُلوبَهم، وتُمَهِّدَ لسُنَّةِ المشَاورةِ للأمَّة، فإنَّ في الاستشارةِ فوائدَ ومصالحَ كثيرة.

ومن صفاتِ المؤمنِين تشاورُ بعضِهم بين بعض، قالَ الله تعالى:
{وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ} [سورة الشورى: ٣٨].
معناه: شأنُهم أنْ يَتشاورُوا فيما بينَهمْ ولا يَتعَجَّلوا في الأمُور.
وفي الاستِشارَةِ فوائد، في الأسرَة، وفي العمَل، والتِّجارَة، والحَرب، والإدارَة، يَعودُ نَفعُها على الأفرادِ والجَماعاتِ والأُمَم، وما خابَ مَنِ استَشار.
ومنَ الآراءِ الفَرديَّةِ ما تَكونُ الخَسارَةُ فيها كبيرَة، وخاصَّةً في القَضايا المصيريَّة. فلا بُدَّ مِن مُشاوَرَةِ أهلِ الرأي والحَلِّ والعَقد، والاستِبدادُ بالرأي ليسَ مِن صِفاتِ المؤمنين، بل هوَ مُخالَفَةٌ لأمرِ رَبِّ العالَمين.

وأمرُ الشُّورى قديم، فقد قالتْ بلقيسُ لقومِها بعدَ أن تسلَّمتْ رسالةً من نبيِّ الله سليمانَ عليه السَّلام:

{يَا أَيُّهَا المَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ} [سورة النمل: ٣٢].

أي: أشيروا عَليَّ بما عِندَكم مِنَ الرأي والتَّدبيرِ فيما عُرِضَ عَليَّ مِن هذا الأمر، فما كنتُ قاضِيَةً وفاصِلَةً في شَأنٍ حتَّى تَحضرُوني وتُشيروا عَليّ.

أداء الشهادة بحق

ومن صفاتِ المؤمنينَ المحافظينَ على صلاتِهم: المحافظَةُ على أداءِ شهاداتِهم بحقٍّ وصدق. قالَ الله تعالى:

{وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ} [سورة المعارج: ٣٣].

أي أنهم يُحافِظونَ على شَهاداتِهم، فلا يَكتُمونَها، ولا يَزيدونَ فيها، ولا يَنقُصونَ منها، إحياءً لحقُوقِ النَّاس، وتَعظيمًا لأمرِ الله.

الصلح

رغَّبَ الله تعالَى في الصلح، ووعدَ خيرًا بإتمامهِ إذا كانت النيَّةُ سليمَة، من ذلك ما يَحدثُ بين الزوجَين، وهو كثير:

{وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُواْ حَكَماً مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلاَحاً يُوَفِّقِ اللهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً} [سورة النساء: ٣٥].

أي: إذا خِفتُم تَفاقُمَ الأمر، وزيادةَ النزاعِ والخُصومةِ بينَ الزَّوجين، وظهورَ النُّفورِ بَينهما واضحاً، وخِفتُم تَباعُدَ عِشرتِهما وصُحبتِهما، بعدَ فَشلِ الأساليبِ السابقة، فأرسِلوا –للإصلاحِ بينهما – رَجلاً عدْلاً عارِفاً حسَنَ السياسةِ من أهلِ الزَّوج، وآخرَ مثلَهُ مِن أهلِ الزَّوجة. فإذا كانَ في نيّةِ الحكَمَينِ الإصلاحُ وعَزَما عليهِ ورَغِبا فيه، فإنَّ اللهَ سيُسَهّل لهما أمرَ الصلحِ ويوفِّقُ بينهما. واللهُ عليمٌ بظواهرِ الناسِ وبواطنِهم، خَبيرٌ بما يُصلحُ شُؤونَهم ويُوَفِّق بينَهم.

وفي الموضوعِ نفسه:

{وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزاً أَوْ إِعْرَاضاً فَلاَ جُنَاْحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً} [سورة النساء: ١٢٨].

أي: إذا شَعَرتِ المرأةُ باستِعلاءِ زوجِها عليها لسَببٍ منَ الأسباب، أو رأتْ نُفوراً منهُ وانصِرافاً بوجهِهِ عنها، أو تَجافياً عنها قياساً عمّا كانَ عليهِ مِن قبل، مِن تَقليلِ نَفقةٍ أو عَدَمِ مُؤانسةٍ ومُحادثة... فلا حرجَ عليهما أنْ يَتصالحا فيما بَينهما، كأن تُسقِطَ مِن حِقِّها أو بعضَه، مِن نَفقةٍ أو كُسوةٍ أو مَبيت، أو تَهَبَهُ مالاً، أو تُهدِيَهِ ما يُناسبهُ ويُحِبُّه، مِن هذا القَبيلِ ومِن غيرِه، ممّا يَجلُبُ لهما المحبَّةَ ويُعِيدُ إليهما المعاشَرةَ الطيِّبة، والصلحُ في هذا خيرٌ منَ الفُرقةِ وسُوءِ العِشرةِ والخُصُومة.

وقد جُعِلَتْ نفوسُ البشرِ مَطبوعةً على البُخلِ معَ الحِرص، فلا تَكادُ المرأةُ تَسمحُ بحقوقِها للرَّجُل، ولا الرَّجُلُ يَكادُ أنْ يَتنازلَ لها عن حُقوقِه، وهذا يَستَدعي الشِّقاقَ والطَّلاق. فإذا شَحَّ الرَّجُلُ بحقوقهِ استَمالتْهُ المرأة، وإذا شَحَّتْ هي استَمالَها هو، حتَّى يَجدا مَكاناً للصُّلحِ والاتِّفاقِ والمعاشرةِ الطيِّبة.

وإنْ تُحسِنوا في العِشرةِ وتَبتعِدوا عن النُّشوزِ والإعراض، وتَصبِروا على مُراعاةِ الحقوقِ الزوجيَّةِ دونَ اللُّجوءِ إلى قَطعِ حُقوق، فإنَّهُ منَ الإحسانِ والتقوَى الذي يَعلمُ اللهُ بهِ وبمقاصدِكم فيه، فيُجازيكم بهِ ويُثيبُكم عليهِ خَيراً.

وأمرَ الله بالصلحِ بين طائفَتينِ مسلَمتَينِ اقتَتلتَا، بالنُّصحِ والدَّعوَةِ إلى حُكمِ الله، ثمَّ قالَ سُبحانه: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [سورة الحجرات: ١٠].

معناه: إنَّما المؤمِنونَ إخوَةٌ في الدِّين، فهم يَنتَسِبونَ إلى أصلٍ واحِدٍ في العَقيدَة، وهيَ أهمُّ شَيءٍ في الحيَاة، فأصلِحوا بينَ أخوَيكم مِنَ الطَّائفَتَينِ إذا اختَلفا واقتَتلا، واخشَوا اللهَ ولا تُخالِفوا أمرَه، حتَّى تُرحَموا على طاعَتِكم.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

قالَ ربُّنا سبحانه:

{وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [سورة آل عمران: ١٠٤].

أي: ولتكنْ من بينِكم فِرقَةٌ أو جَماعةٌ تَدعو إلى الخَير، وتَنهَى عنِ الشرّ، وتأمرُ بالفضيلةِ والحقِّ والعَدل، وتَنهَى عنِ الرَّذيلةِ والباطلِ والظُّلم. وهيَ مهمَّةٌ ليست يَسيرة، حيثُ الاصطدامُ بطبائعِ ناسٍ ورغائبِهم ومنافعِهم ومصالِحهم. ومن قامَ بهذا التكليفِ فهوَ منَ المفلحينَ الفائزين.

قال ابنُ كثير: والمقصودُ منْ هذهِ الآيةِ أنْ تكونَ فِرقةٌ مِنَ الأمَّةِ مُتَصَدِّيةً لهذا الشَّأن، وإنْ كانَ ذلكَ واجِباً على كلِّ فردٍ منَ الأمَّةِ بحَسَبه، كما ثبتَ في صَحيحِ مسلم، عن أبي هُريرة، قالَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: " مَنْ رَأى منكم مُنكَراً فليُغَيِّرْهُ بيدِه، فإنْ لم يَستطِعْ فبلسانِه، فإنْ لم يَستطِعْ فبقَلبِه، وذلكَ أضعَفُ الإيمان".

وقالَ سبحانه:

{كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ} [سورة آل عمران: ١١٠].

أي: كنتُمْ يا أمَّةَ الإسلامِ خيرَ الأممِ وأفضلَها وأنفعَها للناس، حيثُ تأمرونَ الناسَ بالخير، وتَنشُرونَ الحقَّ والعَدل، وتَحُثُّون على الفضائلِ والآدابِ الحَسَنة، وتَنهونَهم عنِ المنكراتِ والفواحشِ والأخلاقِ المسترذَلة، وتؤمنونَ باللهِ الواحِدِ الأحَد، فتَعبدونَهُ ولا تُشرِكونَ بهِ شيئاً.

ذُكِرَ أنَّ قولَهُ تعالى: {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ} خاصٌّ بعهدِ الرسولِ صلى الله عليه وسلم، وعَمَّهُ آخَرون، فقالوا: الصَّحيحُ أنَّ هذهِ الآيةَ عامَّةٌ في جميعِ الأمَّة، كلُّ قرنٍ بحَسَبِه، وخَيرُ قُرونِهمُ الذينَ بُعِثَ فيهم رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم، وإنَّما حازَتْ هذهِ الأمَّةُ قَصَبَ السبْقِ إلى الخَيراتِ بنبيِّها محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم، فإنَّهُ أشرَفُ خَلقِ اللهِ وأكرمُ الرسُلِ على الله، وبَعثَهُ الله بشرعٍ كاملٍ عَظيمٍ لم يُعطِهِ نبيًّا قبلَهُ ولا رسُولاً منَ الرسُل.

قلتُ: الذي يظهرُ أنَّ خيريَّةَ هذهِ الأمةِ مُرتبطةٌ بكونِها تأمرُ بالمعروف، وتَنهَى عنِ المنكَر، وتُؤمِنُ بالله، كما في الآيةِ نفسِها، فإذا لم تَفعلْ ذلكَ لم تَحُزْ هذهِ الفَضيلة. واللهُ أعلم.

ووصفَ المؤمنينَ بقوله:

{وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ} [سورة التوبة: ٧١].

معناه: المؤمِنونَ والمؤمِناتُ يتَناصَرونَ ويتَعاونونَ على البِرّ والتقوَى، ويتَعاضدونَ على ما فيهِ خيرُهمْ وخيرُ الناس، فيأمرونَ بالإيمانِ والطاعةِ والإصلاح، وينهَوْنَ عنِ الشركِ والمعصِية وما يخالِفُ أحكامَ الشَّرع.

ووصفَ اللهُ تعالَى نبيَّهُ إسماعيلَ بقوله:

{وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيّاً} [سورة مريم: ٥٥]

أي أنهُ كانَ يأمرُ أهلَهُ بطاعَةِ اللهِ سُبحانَه، بإقامَةِ الصَّلاة، وإيتاءِ الزَّكاة. وكانَ رَضيًّا عندَ ربِّه، لاستِقامَةِ أقوالِهِ وأفعالِه.

وممّا وعظَ بهِ لقمانُ ابنَهُ الأمر بالمعروف..

{يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} [سورة لقمان: ١٧].

معناه: وَأْمُرْ بما هوَ خَيرٌ وحسَنٌ مِنَ الأمُور، وانْهَ عمَّا هوَ فاحِشٌ وسَيِّءٌ، بحَسَبِ طاقَتِكَ وجُهدِك، إنِ استَطَعتَ باليَدِ فباليَد، وإلاّ فبِلِسانِك، فإنْ لم تَستَطِعْ فبِقَلبِك، واصبِرْ على ما أصَابكَ مِنَ الأذَى بسبَبِ أمرِكَ بالمعرُوفِ ونَهيكَ عنِ المنكَر، فإنَّ ما تَقومُ بِهِ إصلاحٌ وفَضيلَةٌ عَظيمَةٌ تُوجِبُ منكَ التَّهيُّؤَ لذلكَ والصَّبرَ عَليه، والصَّبرُ مِن قوَّةِ العَزم، والهِمَّةِ العاليَة.

ونبيُّنا محمدٌ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كان موصوفًا في الكتبِ السَّابقةِ بأنهُ يأمرُ بالمعروف...

{الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ} [سورة الأعراف: ١٥٧].

أي: يأمرُ الناسَ بالخَيرِ والتقوى ومكارمِ الأخلاقِ والعَملِ الصَّالح، وينهاهُم عنِ الشرِّ والشِّركِ وقَطعِ الأرحامِ والفَواحِش.

ونتيجةُ عدمِ النهي عن المنكرِ مخيفة:

{وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [سورة الأنفال: ٢٥].

معناه: احذَروا محِنةً وابتلاءً لا تَقتَصِرُ على الظَّالمينَ وأهلِ المعاصي، بل تَعمُّهم جَميعاً. فلا تُقصِّروا في تَغييرِ المنكَر، ولا تَتكاسَلوا عنِ الإجابةِ للجِهاد. واعلَموا أنَّ اللهَ شَديدُ العِقابِ لمن خالَفَهُ.

الفصل السابع

جزاء الصفات الحسنة

أثنَى اللهُ تعالَى في نهايةِ آيةٍ عدَّدَ فيها صفاتٍ جليلةً للمؤمنين، فقالَ جلَّ شأنه:

{أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ المُتَّقُونَ} [سورة البقرة: ١٧٧].

أي: هؤلاءِ الذينَ اتَّصفوا بهذهِ الصفاتِ، همُ الذينَ صدَقوا ربَّهم في إيمانِهم، فاتَّبعوا الحقّ، وتحرَّوا البِرّ، وأحرَزوا الخير، وابتَعدوا عنِ المحارمِ والموبِقاتِ وسائرِ الرذائل، وفعلوا الطاعاتِ المطلوبةَ منهم؛ امتثالاً لأمرِ اللهِ وخَشيةً منه.

وبعدَ أن ذكرَ اللهُ تعالَى في أولِ سورةِ (المؤمنون) بعضَ صفاتِ المؤمنينَ الحسَنة، قالَ في ثوابِ ما ينالونه:

{أُوْلَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ. الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [سورة المؤمنون: ١٠-١١].

أي: أولئكَ المؤمنونَ هم أصحابُ حَقٍّ يَنتَظِرُهم ليَنالوه، الذينَ يَنالُونَ جنَّةَ الفِردَوسِ ويَمكثونَ فيها أبدًا، لا يَموتُونَ فيها ولا يَخرُجونَ منها.

والفِردَوسُ "أعلَى الجنَّة، وأوسَطُ الجنَّة، ومنهُ تَفَجَّرُ أنهارُ الجنَّة، وفَوقَهُ عَرْشُ الرَّحمن"، كما في الصَّحِيحَين.

وبعدَ أن أوضحَ اللهُ تعالَى بعضَ صفاتِ المؤمنينَ المحافظينَ على صلواتِهم في سورةِ المعارج [١٩-٣٤]، قالَ في ثوابِها ايضًا:

{أُوْلَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ} [سورة المعارج: ٣٥].

بمعنى: أولئكَ يُكرِمُهمُ اللهُ، ويُعِدُّ لهم ما يُسعِدُهم في جَنَّاتِ النَّعيم.

وبيَّنَ اللهُ سبحانَهُ أن ما عندَهُ من ثوابٍ وإكرامٍ للمؤمنينَ المتوكِّلينَ على ربِّهم، خيرٌ من مَتاعِ الدنيا ولذّاتِها المؤقتة:

{فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَـــيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} [سورة الشورى: ٣٦].

أي: فما حصَلتُم على شَيءٍ مِن زينَةِ الدُّنيا ونَعيمِها، فمَتاعٌ تتَمتَّعونَ بِهِ مُدَّةَ حياتِكم، وتَزولُ عنكم بزَوالِكم، وما عندَ اللهِ مِنَ الثَّوابِ في الآخِرَةِ أفضَلُ وأدوَم، للَّذينَ آمَنوا برَبِّهِم وأخلَصوا لهُ الطَّاعَة، ويَعتَمِدونَ عليهِ في أُمورِهم كُلِّها.

وبعد أن ذكرَ اللهُ تعالَى صفاتٍ للمتَّقين في أولِ سورةِ البقرة، قال:

{أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [سورة البقرة: ٥].

أي: هؤلاءِ الذين آمنوا بالغيبِ، وأقامُوا الصلاةَ، وأدَّوُا الزكاةَ، وآمَنوا بما أُنزِلَ إليكَ وما أُنزِلَ إلى مَن قَبلِكَ مِنَ الرُّسُل، وأَيقَنُوا بيومِ القيامة، هؤلاءِ على نورٍ وبصيرةٍ مِنَ الله، وعلى استقامةٍ وسَداد، وهمُ الفائزونَ الذينَ أدركوا ما طلبوهُ بإيمانِهم وعملِهم، وفازوا بالثوابِ والخلودِ في الجِنان، ونَجَوا منَ العقابِ برحمةِ ربِّهم.

الباب الثاني
الصفات والأحوال السالبة

هذا البابُ تابعٌ للصفاتِ والأحوالِ الحسنة، وقد أُفرِدَ للتمييزِ والتنويع.

والمقصودُ بالسالبةِ من الصفات: ما لا ينبغي أن يتوفرَ منها في المسلم، فيتجنبُ هذه الصفاتِ والأحوال.

عدم الإعراض عن الحق

من صفاتِ عبادِ الرحمنِ السَّالبة، الواردةِ في كتابِ الله تعالَى:

{وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً} [سورة الفرقان: ٧٣].

معناه: إذا تُلِيَتْ على هؤلاءِ المؤمنينَ آياتٌ مِنَ القُرآنِ الكريم، وما فيها مِنَ المواعِظِ والأحكَام، والوَعدِ والوَعيد، لم يُصِمُّوا آذانَهم عن سَماعِ الحَقّ، ولم يُعْمُوا عُيونَهم عن دلائلِهِ وحقائقِه، بل أَكَبُّوا عَليها مُتدَبِّرينَ بآذانٍ واعِية، وعُيونٍ مُبصِرَة.

عدم الشك

قالَ الله تعالَى لنبيّهِ محمدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم:

{الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ} [سورة البقرة: ١٤٧].

فإنَّ ما أُنزِلَ إليكَ أيُّها الرسولُ هوَ الحقُّ الذي علَّمَكَ ربُّك، لا مِريَةَ فيهِ ولا شكّ، فلا تكنْ منَ الشاكّينَ في ذلك.

وهوَ إيحاءٌ مِن ربِّ العزَّةِ إلى أمَّةِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلمَ بعدمِ التأثُّرِ بأباطيلِ اليهود، وبالتنبُّهِ إلى أحابيلِهم.

وقالَ له أيضًا في بشَريَّةِ عيسى عليه السلام، وولادتهِ من غيرِ أب:

{الحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ المِمْتَرِينَ} [سورة آل عمران: ٦٠].

أي إنَّهُ القَولُ العَدْل، والبُرهانُ الحَقّ، والدليلُ القَويمُ على قُدرةِ اللهِ الخالقِ المصوِّرِ يا نبيَّ الله، وهوَ القولُ الحقُّ الذي لا ثانيَ لهُ في أمرِ عيسى بنِ مريم، وما سِواهُ ضَلال، فلا تَكنْ ممَّن يَشُكُّ في شَيءٍ من ذلك.

وهوَ مِن أسلوبِ التَّثبيتِ على الحقّ، وليَعرِفَهُ المسلمونَ ومَن أرادَ الإيمان، فما كانَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم شاكًّا في شَيءٍ مِن ذلك.

عدم خلط الحق بالباطل

قالَ الله تعالَى لبني إسرائيل:

{وَلاَ تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [سورة البقرة: ٤٢].
ولا تخلِطوا الحقَّ بالباطلِ والصدقَ بالكذب، ولا تسكتُوا عنِ الحقِّ فتكتموهُ وأنتُم تَعلمونَ أنَّهُ الحقّ، فإنَّ عندَكمْ معرفةً برسولي وبما جاءَ به، وهوَ مَكتوبٌ عندَكم، فلِمَ لا تُعلنونَ الإيمانَ به، بل تَكذِبونَ وتَقولونَ إنَّهُ ليسَ بنبيّ؟!

نبذ الشرك

قالَ خليلُ الله إبراهيمُ عليه السَّلام:
{إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [سورة الأنعام: ٧٩].
معناه: إنّي قد توجَّهتُ بعِبادتي وأخلصتُ ديني لمن خلقَ السَّماواتِ والأرض، وما فيهنَّ مِن أجرامٍ وأحياءٍ ونَباتٍ وجَمادٍ وبِحار، مائلاً عن كلِّ باطِلٍ وشِركٍ في الأديانِ والعَقائدِ الفاسِدة، إلى الحقِّ والتوحيدِ الخالِص، ولستُ منَ المشرِكينَ في شَيءٍ منَ الأقوالِ والأفعال.

وحذَّرَ الله عبادَهُ من الشِّرك، فقالَ سبحانه:
{فَلاَ تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [سورة البقرة: ٢٢].
أي: لا تشركوا بهِ أحدًا في عبادتِكم؛ فإنَّهُ وَحدَهُ الخالِقُ الرازِقُ، وأنتم تَعلمونَ أنَّهُ لا ربَّ لكم يرزقُكم غيرُهُ، فهو وَحدَهُ المستحِقُّ للعبادَة.

ووعظَ لقمانُ ابنَهُ فقال:
{يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} [سورة لقمان: ١٣]
معناه: لا تُشرِكْ بالله، فإنَّ عِبادَةَ غَيرِ اللهِ معَهُ ظُلمٌ عَظيم، فإنَّهُ وَضعٌ للشَّيءِ في غَيرِ مَوضِعِه، وتَسويَةٌ للإلهِ بغَيرِه، وشُكرٌ لمن لم يَفعَلْ شَيئًا ولا يَستَحِقُّه.

وقالَ نبيُّ الله صالحٌ وهو يعِظُ قومَه، وقد كفَروا وأشرَكوا:

{وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ} [سورة الأعراف: ٧٣].

أي: اعبُدوا اللهَ وحدَهُ ولا تُشرِكوا في عبادتِهِ أصناماً لا تَنطِقُ ولا تَسمَع، ليسَ لكم من إلهٍ غيرُ الله.

وقالَ سبحانهُ محذِّرًا المسلمينَ من الارتِدادِ إلى الشرك، وقد أُشيعَ قتلُ رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ في غزوةِ أُحد:

{أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ} [سورة آل عمران: ١٤٤].

أي: إذا ماتَ أو قُتِلَ رسولُ اللهِ رَجعتُم إلى ما كنتُم عليهِ من شِركٍ وضَلال؟! إنَّ مَن يَفعلُ ذلكَ فلن يَضُرَّ اللهَ شَيئاً، وإنَّما يَضُرُّ نَفسَه، فاللهُ غنيٌّ عنكم وعن إيمانِكم، والدِّينُ سيَبقَى، والمجاهِدونَ سيَنتَصِرون، ويَجزي اللهُ الذينَ قاموا بطاعتِه، وعَرَفوا قَدْرَ نعمتِه، وقاتَلوا دِفاعاً عن دينِه، واتَّبعُوا رسولَهُ حَيّاً ومَيّتاً، ويُعطيهم مِن رحمتِهِ وكرَمِهِ بحسَبِ شُكرِهم وعَملِهم، ويَزيدُهم مِن فضلِه.

البعد عما يؤدي إلى الضلال

والمؤمنُ يهتدي بهدايةِ الله، ويجاهدُ للبعدِ عن الضلالِ وما يؤدِّي إليه، ويدعو الله تعالَى بذلك.

قالَ سبحانهُ فيما يدعو به المؤمنون:

{رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الوَهَّابُ} [سورة آل عمران: ٨].

أي: يَقولُ الراسخونَ في العلم، ويقولُ مَعهم كلُّ مؤمن: اللهمَّ إنّا نسألُكَ ألاّ تُميلَ قلوبَنا عنِ الحقِّ والهُدَى بعدَ أنْ أقمتَها عليه، ولا تَجعَلْنا مثلَ الذينَ في قُلوبِهم زَيغٌ فيتَّبعونَ ما تشابهَ منَ القُرآنِ ويذَرونَ مُحكَمه، وأعطِنا مِن عندِكَ رحمةً واسِعةً تثبِّتُ بها قُلوبَنا على الهُدَى والصراطِ المستَقيم، فأنتَ الواهبُ المنعِم، الهادي إلى الهُدَى والإيمان.

عدم اتباع خطوات الشيطان

من اتَّبعَ خطواتِ الشيطانِ فقد انقادَ إلى الفواحشِ والمنكرات:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ} [سورة النور: ٢١].

أي: لا تتَّبِعوا مسالِكَ الشَّيطانِ وطُرُقَهُ الخبيثَة، وما يوَسوِسُ بهِ في نفُوسِكم ويُزَيِّنُهُ في قُلوبِكم مِن إشاعَةِ الفاحِشَة، ومَن يَسلُكْ طُرُقَهُ فإنَّهُ يَكونُ ساعيًا وآمِرًا بالأفعالِ القَبيحَة، التي يُنكِرُها الشَّرعُ لضَرَرِها وآثارِها السيِّئة.

ومن صفاتِ المسلمِ الحذرُ من مسالكِ الشيطانِ ومكائده. قالَ الله تعالى:

{وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ. إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاء وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ} [سورة البقرة: ١٦٨-١٦٩].

أي: لا تَقتدوا بالشَّياطين، ولا تتَّبعوا مَسالِكَهُ وطَرائقَهُ التي ضلَّ بها أتباعَه، مِن تحريمِ ما أحلَّ اللهُ وتحليلِ ما حرَّمَ، فإنَّهُ ظاهرُ العداوةِ لكم عندَ أهلِ البَصيرةِ منكم، وقد حذَّركمُ اللهُ منه.

إنَّما يأمرُكمُ الشيطانُ بالمعاصِي وبالأعمالِ السيِّئةِ والفواحشِ الدَّنيئة، وأنْ تَفترُوا على اللهِ الكذِب، بأنْ تقولوا إنَّهُ حرَّمَ شَيئاً، وهوَ ما لا تَعلمونَ أنَّهُ حرَّمَه.

وقالَ سبحانهُ أيضًا منبِّهًا ومحذِّرًا:

{وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ} [سورة الأنعام: ١٤٢].

أي: لا تتَّبِعوا مَكرَ الشَّيطانِ وطرائقَهُ الخادعةِ في تَحليلِ وتَحريمِ ما سخَّرَهُ اللهُ لكم، فهوَ خالقُها وخالقُكم، وهوَ وحدَهُ الذي يَشْرَعُ فيُحِلُّ ويُحَرِّم، والشَّيطانُ عدوٌّ لكم، فلا يسوِّلُ لأوليائهِ إلاّ ما هوَ شرٌّ وفِتنةٌ وما فيهِ ضرَر.

عدم طاعة الكافرين وموالاتهم

قالَ اللهُ تعالَى لرسولِهِ محمدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، في أولِ سورةِ الأحزاب:

{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً} [سورة الأحزاب: ١].

أي: داوِمْ على طاعَةِ اللهِ واثبُتْ عَليها، وابتَعِدْ عن مَعاصيهِ حذَرًا مِن عقوبَتِه، ولا تَسمَعْ مِنَ الكافِرينَ والمنافِقينَ ولا تَستَشِرهم في أَمرٍ مِن أمُورِك، واللهُ عَليمٌ بعَواقبِ الأمُور، حَكيمٌ فيما يأمرُ وينَهى ويُدَبِّر.

والخِطابُ لأمَّتِهِ كذلك، صلى الله عليه وسلم.

وقالَ لعبادهِ المؤمنين:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ} [سورة آل عمران: ١٠٠].

أي أنَّكمْ إذا أطعتُم طائفةً مِن أهلِ الكتابِ منَ اليَهودِ والنصارَى، فإنَّهم سيردُّونَكم إلى الكفرِ بعدَ أنْ كنتُم مؤمنين، حَسَداً منهم على ما آتاكمُ اللهُ من فَضل، ومَنحكم بهِ من رَسول. فلا تَثِقوا بهم وبمناهِجهم، ولا تَتلقَّوا عنهم ولا تَقتَبِسوا منهم، فإنَّ هذا يدلُّ على ضَعفٍ منكم وثقةٍ بهم.

ومثلهُ طاعةُ المشركينَ والمنافقين:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ. بَلِ اللهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ} [آل عمران: ١٤٩-١٥٠].

بيانه: إنَّكم أيُّها المؤمِنون، إنْ أطَعتُم المنافِقينَ والكافِرين، واستَمعتُم إلى وِشاياتِهم، وتأثَّرتُم بما يُشيعُونَهُ ممّا أصابَكم مِنَ القتلِ والجَرحِ يومَ أُحُد، ليُثبِطوا عزائمَكم، ويخوِّفوكم مِن عواقبِ الحَربِ معَ المشركينَ مرَّةً أخرى، فإنَّكم بهذا تُجيبونَهم إلى ما أمَّلوهُ وتَستَسلِمونَ لهم، ليَرُدُّوكم على ما كنتم عليهِ مِنَ الكفرِ والضَّلال، ولتَكونوا بذلكَ مِنَ الخائبينَ النادِمين، في الدُّنيا والآخِرة.

لكنَّ اللهَ وليُّكم، ومثبِّتُكم على دينِكم، وهوَ خيرُ ناصرٍ لكم، فاستَعينوا به، وأحسِنوا تَوكُّلَكم عليه.

وقالَ سُبحانهُ منبِّهًا عبادَهُ المؤمنين إلى أخلاقِ المنافقين:
{هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ} [سورة آل عمران: ١١٩].
أي: ها أنتم تُحِبُّونَ المنافِقينَ لأنَّهم يُظْهِرونَ لكمُ الإيمان، وهم لا يُحِبُّونكم أبداً، بل يَتربَّصونَ بكمُ الشرّ، ويَنقُلونَ أخبارَكم إلى أعدائكم ويُوادُّونَهم، وتؤمِنونَ بكتابِ اللهِ كلِّه، وهم في شكٍّ منهُ وريبَة، ويُصَلُّون أمامَكم أحياناً، لكنَّهم إذا اجتَمعَوا أظهَروا غَيظَهم وعَداوتَهم وكُرهَهم لكم.

إنَّهم يتَّبعونَ هواهم، ولا يعرفونَ الله:
{وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً} [سورة الكهف: ٢٨].
ولا تَكنْ مُطيعًا – في إبعادِ الفُقَراءِ مِن مَجلسِك– للَّذي جعَلنا قلبَهُ غافِلاً عن ذِكرِنا، مَشغولاً عن عِبادَتِنا بالمالِ والثَّروَة، واتَّبَعَ ما يَطلبُهُ هَواهُ منَ الشَّهوات، وكانتْ أعمالُهُ سَفَهًا وضَياعًا، حيثُ آثرَ الهوَى على الهِدايَةِ والإيمان.

وقالَ سبحانهُ وتعالَى في وجوبِ عدمِ موالاةِ الكافرين:
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءكُم مِّنَ الْحَقِّ} [سورة الممتحنة: ١]
أي: لا تتَّخِذوا عَدوِّي وعدوَّكم مِنَ الكافِرينَ أصدِقاءَ تُوالُونَهم، تَمُدُّونَ إليهم يدَ المحبَّةِ والتَّقارُب، وقد كفَروا بالقُرآنِ الموحَى بهِ مِن عندِ الله.

وهكذا يكونُ موقفُ المسلمِ من أهلِ الكتاب:
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [سورة المائدة: ٥١]:
أيُّها المؤمِنون، لا تُوالُوا أهلَ الكتابِ منَ اليهودِ والنَّصارَى، ولا تَبتغوا من عندِهمُ النصرَ والنُّصح، ولا تُصافُوهم ولا تُوادُّوهم ولا تُسِرُّوا إليهم، فإنَّ بَعضَهم أولياءُ بَعضٍ في العَوْنِ والنُّصرَة، فكلُّهم

أعداءٌ للإسلام، ويدٌ واحدةٌ على المسلِمين، يُريدونَ مضرَّتَكم، ويَبغونَ كسرَ شوكتِكم، فكيفَ تُحِبُّونَهُمْ وتُوالُونَهم؟

إنَّ مَن يَتولاّهم، فيُعينُهم ويَنتصرُ لآرائهم، ويَخذُلُ المسلِمين، هوَ في حُكمِهم ومِن جملتِهم، واللهُ لا يَهديَ مَن والَى الكافِرين، وناصرَ أعداءَه، فظلمَ نفسَهُ والآخَرين.

والنهيُ قاطعٌ في موالاتِهم:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} [سورة المائدة: ٥٧]:

أيُّها المؤمِنون، لا تتَّخِذوا أعداءَكم أولياءَ لكم، تُناصِرونَهم وتَبتغونَ العزَّةَ مِن عندِهم، منَ المشرِكينَ ومن أهلِ الكتاب، الذينَ يَستَهزئونَ بعقائدكم ويَسخَرونَ من أحكامِ دينِكم، ويتَّخذونَها لَعِباً وعَبَثاً؛ لخِفَّةِ عقولِهم وطَيشِهم وفسادِ أحلامِهم، واتَّقوا اللهَ بذلك، فلا تُوالُوهم ولا تُصادِقوهم، إنْ كنتُم مؤمِنينَ حقًّا، فإنَّ الإيمانَ يوجِبُ عليكم معاداتَهم لا موالاتَهم.

وقالَ أيضًا سُبحانه:

{لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ...} [سورة المجادلة: ٢٢].

أي: لا تَجِدُ أحدًا مِنَ المؤمنينَ باللهِ واليَومِ الآخِرِ - بصِدقٍ وإخلاصٍ - يُوالُونَ ويُصادِقونَ أعداءَ اللهِ ورَسولِه، ولو كانَ هؤلاءِ الأعداءُ آباءَهم، أو أبناءَهم، أو إخوانَهم، أو قَبيلتَهم وعَشيرتَهم، أو أيًّا مِن أقارِبهم، فالعَقيدَةُ أهَمُّ مِنَ النَّسَب، ومَن وَالاهم فهوَ معَهمْ يَومَ القيامَة.

والذينَ لا يُوادُّونَهم ولو كانوا أقرِباءَهم، فأولئكَ الذينَ أثبتَ اللهُ في قُلوبِهم الإيمانَ وزيَّنَهُ لهم، فهم مُوقِنونَ مُخلِصون، وقَوَّاهم بروحٍ مِن عِندِه، ليَحصُلَ لهمُ الطُّمأنينَةُ والثَّباتُ على الإيمَانِ والعمَلِ الصَّالح، ويُدخِلُهم اللهُ جَنَّاتٍ عاليَاتٍ واسِعات...

عدم الركون إلى الظالمين

أوصَى الله المؤمنينَ بقولهِ سبحانه:

{وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ} [سورة هود: ١١٣].

أي: لا تَسكُنوا إلى أهلِ الظُّلمِ ولا تَرضَوا بظُلمِهم، لا تَميلوا إلى الجبّارينَ الطُّغاةِ الذينَ يَظلِمونَ عبادَ الله، ولا تَستَعينُوا بهم، ولا تَستَنِدوا إليهم، فتَكونوا كأنَّكم قد رَضِيتُم بأعمالِهم، ويكونُ ركونُكم إليهم إقرارًا لهم على ما يُزاوِلونَهُ من ظُلمٍ ومُنكَر.

قالَ القاضي البيضاويُّ في تفسيرِه: لا تَميلوا إليهم أدنىَ مَيل، فإنَّ الركونَ هوَ الميْلُ اليَسير، كالتزَيّي بزيِّهم، وتَعظيمِ ذِكرِهِمْ واستِدامَتِه. اهـ.

عدم الدفاع عن السيئين

مثالهُ قولهُ تعالَى:

{وَلاَ تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيماً} [سورة النساء: ١٠٥].

أي: لا تُجادِلْ عَمَّن عَرَفتَ خيانتَهُ، كمنِ ادَّعَى ما ليسَ له، أو أنكرَ ما هوَ عليه.

ويعني المنافقين، فقد قالَ سبحانُ بعدَ آيةٍ أخرى، مؤَكِّدًا ما سبق:

{وَلاَ تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّاناً أَثِيماً}.

أي: لا تُجادِلْ عمَّن خانَ نفسَهُ وخانَ الآخَرينَ بما جنَى وظَلم، فاللهُ لا يُحِبُّ الخائنينَ الآثِمين، الذينَ يَعصُونَ الله ويُلحِقونَ الأذَى والضَّررَ بالآخَرين.

عدم اتباع الهوى

قالَ الله تعالَى مخاطبًا رسولَهُ الكريمَ صلَّى الله عليه وسلَّم، في تعاملهِ مع اليهودِ والنصارى:

{وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ} [سورة البقرة: ١٢٠].

أي: إذا تابعتَهُم في آرائهمُ الزائفة، ومقولاتِهمُ الفاسدة، وطرائقِهُمُ الملتوية، بعدَ ما نزلَ عليكَ الوحيُ، وعلمتَ أنَّ دينكَ هوَ الصَّحيح، فقد مِلْتَ عنِ الهُدَى، ولن يَكونَ اللهُ والياً أمرَك، ولا ناصرَكَ ومؤيِّدَك، ولن يدفعَ عنكَ عقابَه.

وهذا مِن بابِ التهييجِ والإلهاب، ولا يُتَوَهَّمُ إمكانُ اتِّباعهِ صلى الله عليه وسلم لهم، ولكنَّهُ تنبيهٌ لأمَّتهِ على الحذرِ مِن أهلِ الكتاب، الذينَ لا يُفيدهم أيُّ تنازلٍ بالحوارِ وغيرِه، ولن يَرضَوا إلا بالانضواءِ تحتَ مظلَّةِ دينِهم.

وأمرَهُ أن يقولَ للمشركين:
{قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ قُل لاَّ أَتَّبِعُ أَهْوَاءكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُهْتَدِينَ} [سورة الأنعام: ٥٦].
أي: قلْ لهؤلاءِ المصِرِّينَ على الشِّرك، قَطعاً لأطماعِهِمُ الفاسِدة: إنَّني مُنِعْتُ وصُرِفْتُ عن عبادةِ الآلهةِ المزعُومة، التي لا تَسمعُ ولا تَتكلَّم، ولا تَضرُّ ولا تَنفَع. وقلْ لهم: لا أتَّبع أهواءَكمُ الزائغَة، وأفكارَكمُ الباطِلة، فإذا فَعلتُ ذلكَ كنتُ ضالاًّ، تارَكاً سَبيلَ الحقّ.

وقالَ في آيةٍ أخرى، في قصةِ التوجُّهِ نحوَ القِبلة:
{وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ} [سورة البقرة: ١٤٥].
أي: ولو أنَّكَ اتَّبعتَ مرادَ اليهودِ والنَّصارى بعدَ الذي وجَّهكَ اللهُ إليهِ ورضيَهُ لكَ مِنَ القِبلة، لكنتَ مُؤثِراً الباطلَ على الحقّ.
وهوَ على الفَرَضِ والتقدير، وتحذيرٌ للأمَّةِ من أهواءِ أهلِ الكتابِ وأضاليلِهم.

عدم بغض المؤمن
المؤمنُ لا يحقدُ أخاهُ المؤمن، ولا يحملُ في قلبهِ بُغضًا له، ولو كان بعيدًا عنه.
قالَ الله تعالَى مُثنيًا على هذه الخصلةِ السَّالبةِ في المسلم:
{وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ} [سورة الحشر: ١٠].
أي أنَّ الذينَ جاؤوا بعدَ المهاجرينَ والأنصَار، واتَّبَعوا آثارَهمُ الحسَنة، يَقولونَ في دُعائهمُ الطيِّبِ ما تَفسيرُه: ربَّنا اغفِرْ لنا ذُنوبَنا، ولإخوانِنا في الدِّين، الذينَ سبَقونا بفَضيلَةِ الإيمَانِ بكَ وبرَسُولِك،

ولا تَجعَلْ في قُلوبِنا حسَدًا وبُغضًا للَّذينَ آمَنوا، ربَّنا إنَّكَ كثيرُ الرَّحمَةِ بالنَّاس، قد وَسِعَتْ رَحمَتُكَ كُلَّ شَيء.

عدم التعدي وظلم الناس

المسلمُ لا يَظلم، لأيِّ سببٍ كان. مثالهُ قولهُ تعالَى:

{وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآَنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ المَسْجِدِ الحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا} [سورة المائدة: ٢].

أي: لا يَحملنَّكم عداوةُ وبُغْضُ قومٍ سبقَ أنْ مَنعوكم منَ البيتِ الحرامِ أنْ تَظلِموهم وتَعتَدوا عليهم بالقَتلِ وأخذِ الأموال.

ينبغي على المسلمِ أن يكونَ وقّافًا عندَ حدودِ الله، لا يتجاوزُ ما أمرَ به. من ذلك في الحرب. قالَ تعالَى:

{وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ المُعْتَدِينَ} [سورة البقرة: ١٩٠].

أي: قاتِلوا في سبيلِ اللهِ وإعلاءِ دينِهِ الذينَ يُقاتِلونَكم منَ الكفّار، ولا تَعتَدوا في ذلك، كقتلِ النساءِ والصبيانِ والشيوخِ والرهبان، وكالتمثيلِ بالقتلَى، وكحرقِ الأشجارِ وقتلِ الحيواناتِ لغَيرِ مَصلحة، فإنَّ اللهَ لا يُحِبُّ المتجاوزينَ حدودَ ما شُرِعَ لهم.

وقالَ في الحدودِ التي حدَّها للحلالِ والحرام:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحَرِّمُواْ طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ} [سورة المائدة: ٨٧].

أي: لا تُحَرِّموا ما أحلَّ اللهُ لكم مِنَ اللَّذائذِ والمشتَهيات، ولا تَتعدَّوا حدودَ ما أحلَّ لكم إلى ما حَرَّمه، واللهُ لا يُحِبُّ الظَّالمينَ المعتَدينَ حُدودَه، ولكنْ قِفوا عندَها والتزِموا بها.

ونَهَى سبحانهُ عن الاعتداءِ على حقوقِ النساء، فإمّا معاشرةٌ بمعروف، أو طَلاق:

{وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ} [سورة البقرة: ٢٣١].

أي: لا يجوزُ لكم أنْ تُمسِكوهنَّ في البيوتِ وتُطوِّلوا عِدَّتَهنَّ بقصدِ الإضرارِ بهنَّ وأنتم تعلمونَ أنَّكم ستُطلِّقوهنّ، فإنَّ مَن يَفعلْ ذلكَ فقد خالفَ أمرَ الله.

وقالَ سبحانهُ بعدَ الأمرِ بالإحسانِ في الطلاق:

{تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [سورة البقرة: ٢٢٩].

أي: هذا منَ الحدودِ التي شرعَها اللهُ لكم فلا تَتجاوَزوها بالمخالفةِ والرَّفض، ومَن تَجاوَزها ولم يعملْ بها فإنَّهُ ظالمٌ قد عرَّضَ نفسَهُ لسَخَطِ اللهِ وعقابِه.

عدم سفك الدماء

نَهى الله المسلِمين أن يَسفكَ بعضُهم دماءَ بَعض، وحرَّمَهُ بينهم. قالَ الله تعالَى مخاطبًا بني إسرائيل:

{وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءكُمْ} [سورة البقرة: ٨٤].

أي: اذكرُوا أيضاً أنّا أخَذنا إقرارَكم وعهدَكم في التوراةِ بأنْ لا يَقتُلَ بعضُكُم بعضاً.

تجنب السفه

وعندَما وصفَ عادٌ قومُ هودٍ نبيَّهم بالسفه قالَ لهم:

{قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ. أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَاْ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ} [سورة الأعراف: ٦٧-٦٨].

معناه: قالَ لهم هودٌ عليهِ السَّلام: يا قوم، لستُ في جَهالةٍ وضَلالةٍ كما تَزعُمون، ولكنّي مُرسَلٌ إليكم مِن ربِّ العَالمين، ورُسُلهُ متَّصِفونَ بالرُّشدِ والصِّدق، والأمانةِ والنُّصح، والبَلاغةِ والبَيان. أبلِّغُكم ما أمرَني اللهُ بتَبليغهِ إليكم، وأنا أنصحُكم بأمانةٍ وإخلاص، لا أكذِبُ على الله، ولا أكذِبُ عليكم، فلماذا تتَّهمونَني بالجَهلِ والسَّفه؟.

تجنب الإفساد

ونصحَ الله تعالَى بني إسرائيلَ بألّا يفسدوا، فقالَ سبحانه:

{كُلُواْ وَاشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ} [سورة البقرة: ٦٠].

فكُلُوا المنَّ والسَّلوى، واشرَبوا مِن هذا الماءِ المعين، الذي جاءَكم بدونِ كدٍّ ولا تَعب، واعبدوا اللهَ الذي سخَّرَ لكم كلَّ هذا ويسَّره، ولا تُقابِلوهُ بالجُحُودِ والعِصيانِ فتُسْلَبُوها.

ولما مضَى موسى إلى ميقاتِ ربِّهِ أمرَ أخاهُ هارونَ بأن يكونَ خليفتَهُ في قومه، ولا يتَّبعَ آراءَ المفسدينَ من حوله:

{وَقَالَ مُوسَى لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ} [سورة الأعراف: ١٤٢].

أي: كُنْ مُرشِداً لهم إلى الطَّاعةِ والامتِثال، بالرِّفقِ والحِلمِ والإحسانِ ونبذِ الاختِلاف، ولا تُطِعْ سَبيلَ مَن سَلكَ الفسَادَ وعَصَى الله، ولا توافقْهُ على هَواه، بل اثبُتْ على ما فيهِ رضا الله، والتَزِمِ الصِّراطَ المستَقيم.

وأمرَ عبادَهُ عمومًا بعدمِ الإفساد، فقالَ جلَّ مِن قائل:

{وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا} [سورة الأعراف: ٥٦]

أي: لا تُفسِدوا في الأرضِ بالمَعاصي والتعدِّي على حُقوقِ الناسِ، وتَغييرِ الأنساب، والكذبِ على الله، وسائرِ أنواعِ الفَساد، بعدَ أنْ أصلحَها اللهُ ببَعثِ الرسُل، والشَّريعةِ المحكَمة.

اجتناب الذنوب والمعاصي، الكبائر، المحرمات عمومًا

قالَ الله تعالى لنبيِّهِ محمدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم:

{قُلْ إِنِّيَ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} [سورة الأنعام: ١٥].

أي: قُلْ للمشركِينَ في خَوفٍ وتَضرُّعٍ إلى ربِّكَ: إنَّني أخافُ ربِّي وأخشَاهُ إذا عَبدتُ غيرَه، وخالَفتُ أمرَهُ ونَهيَه، أنْ أُعذَّبَ عَذاباً عَظيماً في يومٍ عَظيم، هوَ يومُ القيامَة.

وهوَ صلى اللهُ عليه وسلَّمَ مَعصومٌ من هذا، لكنَّهُ تَذكيرٌ ووَعيدٌ للناسِ بغَضَبِ اللهِ وعِقابهِ لمن كفرَ وعصَى.

ووصفَ الله عبادَهُ المؤمنين المحسنينَ بأنَّهم يجتنبون المعاصي:
{الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ} [سورة النجم: ٣٢].
أي: مِن صِفاتِ المحسِنينَ أنَّهم يبتَعِدونَ عنِ الذُّنوبِ الكبيرَةِ التي تَستَحِقُّ العِقابَ القاسي، وعمَّا تَفاحَشَ عمَلُهُ واستُنكِر، إلاّ ما صَغُرَ مِنَ الذُّنوب. واللهُ عَظيمُ المغفِرَة، وَسِعَتْ رَحمَتُهُ كُلَّ شَيء، فيَغفِرُ لمن تابَ وأنَاب، ويَغفِرُ الصَّغائرَ إذا اجتُنِبَتِ الكبائر...
ولا يُستَهانُ بالصَّغائر، وهذا تَذكيرٌ بحديثِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم: "إيَّاكم ومُحقَّراتِ الذُّنوب، فإنَّهنَّ يَجتَمِعْنَ على الرَّجُلِ حتَّى يُهْلِكْنَه". رواهُ أحمدُ بإسنادٍ صَحيح.

وأمرَ اللهُ باجتنابِ المحرَّماتِ والمعاصي، فقال:
{وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} [سورة النحل: ٩٠].
بمعنَى: يَنهَى عنِ المحرَّمات، وكُلِّ ما تُنكِرُهُ الفِطرَةُ والشَّريعَة، منَ الأقوالِ والأفعالِ التي يَشيعُ بها الفَساد. ويَنهَى عنِ الظُّلمِ والتعَدِّي على النَّاسِ والتجَبُّرِ عَليهِم.
يَعِظُكمُ اللهُ بهذا ويُنَبِّهُكم إلى أمرِهِ ونَهيه، لتَتَذكَّروا بهِ وتُطيعوا.

وقالَ سبحانهُ في وصفِ المؤمنين:
{وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ} [سورة الشورى: ٣٧].
أي: الذينَ يَجتَنِبونَ كبائرَ الذُّنوب، وما تَفاحَشَ عمَلُهُ واستُنكِر. والذينَ إذا ثارُوا وغَضِبوا لم يَظلِموا النَّاسَ ولم يَنتَقِموا، ولكنْ أنابُوا إلى رَبِّهِمْ وعَلِموا ما عندَهُ مِنَ الثَّوابِ فكظَموا غَيظَهم، وحَلُمُوا وعفَوا عنهم.

وحذَّرَ سبحانهُ من عصيانِهِ فقال:

{وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ} [سورة النساء: ١٤].

أي: مَنْ عصَى وتَحايل، أو عَمِلَ بغيرِ قِسْمةِ اللهِ في الميراث، مُؤثِراً إيّاهُ عليها، ويَكونُ بذلكَ غيَّرَ ما حكَم اللهُ بهِ وضَادَّهُ في حُكمِه، وغيرَ راضٍ مِن قِسمتِه، فإنَّ اللهَ يُدخِلهُ ناراً مُحرِقةً خالِدًا فيها، ويُعَذَّبُ فيها عَذاباً شديداً، معَ ذُلٍّ وهَوان.

ويتجنبُ المسلمُ الكبائرَ والمحرَّماتِ عمومًا، كما في صفاتِ عبادِ الرحمنِ السَّالبة:

{وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً} [سورة الفرقان: ٦٨].

أي: همُ المؤمنونَ الموَحِّدونَ المخلِصون، الذينَ لا يُشرِكونَ في عِبادَتِهم معَ اللهِ أحَدًا.

ولا يَقتُلونَ النَّفسَ التي حرَّمَ اللهُ قَتلَها، إلاّ بسَبَبٍ مِنَ الأسبابِ التي تُزيلُ هذهِ الحُرمَة، كالردَّة، والزِّنا بعدَ الإحصَان، وقَتلِ النَّفسِ عَمدًا.

ولا يَقرَبونَ الزِّنا، {إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً} [سورة الإسراء: ٣٢].

ومَن يَفعَلْ ما ذُكِرَ مِنَ المحرَّمات، فسيُلاقي عُقوبَةً ونَكالاً يُناسِبُ عملَهُ السيِّءَ.

ومن الكبائرِ التي تُتَجنَّبُ أيضًا:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [سورة المائدة: ٩٠]:

أيُّها المؤمنون، اعلمُوا أنَّ الخمرَ وكلَّ ما هوَ مُسكِر، والقمار، والأصنامَ التي تُنْصَبُ للعِبادَةِ وتُذبَحُ عندَها القَرابين، والقِداحَ التي يُستَقْسَمُ بها، كلَّ هذا خبيثٌ مُسْتَقذَرٌ وشرٌّ مِن عملِ الشيطان، فهوَ مِن تزيينهِ وتَسويلِه، فاتركوهُ لتَفوزوا.

وفي جزاءِ من اجتنبَ الكبائر:

{إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيماً} [سورة النساء: ٣١].

أي: إذا اجتَنبتُم كبائرَ الذنوبِ التي نُهيتُم عنها، غَفرنا لكم صغائرَها، وأدخلناكم مَكاناً حَسَناً، هوَ جنَّةُ اللهِ التي أعدَّها لعِبادهِ المؤمنين.

ونهَى ربُّنا عن الإثم، ظاهرِهِ وباطنه:
{وَذَرُواْ ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُواْ يَقْتَرِفُونَ} [سورة الأنعام: ١٢٠].
أي: اتركُوا مَعصيةَ اللهِ في السرِّ والعَلن، قليلَها وكثيرَها، إنَّ الذينَ يرتَكبونَ المعاصيَ ويَكتَسبونَ الآثام، سيُعاقَبونَ على أعمالِهم هذهِ بما يَستحِقُّونَه.

كما قالَ سبحانه:
{وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ} [سورة الأنعام: ١٥١].
أي: لا تَقرَبوا الفواحِش، ما ظهرَ منها وما خَفي، مثلَ الزّنا في الأماكنِ المعَدَّةِ لها، ومثلَ اتِّخاذِ الأخدانِ والعَشيقات.
ولا تَقتُلوا النفسَ التي حرَّمَ اللهُ قتلَها بسبَبٍ منَ الأسبابِ إلاّ بسبَبِ الحقّ، كالردَّة، والزّنا بعدَ الإحصان، وقتلِ النفسِ عَمداً.

وأكَّدَ للحاجِّ اجتنابَ الفسوقِ في حجِّه:
{فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الحَجِّ} [سورة البقرة: ١٩٧].
أي: لا يجوزُ ارتكابُ المعاصي والفواحشِ والمحظورات، ويعني التأكيدَ على ذلكَ في أثناءِ الحجِّ الذي قُصِدَ لطاعةِ الله.

البعد عن سوء الظن

وهو مرضٌ شائعٌ في المجتمعات، كما يقعُ فيه كثيرٌ من المسلمين، ولذلكَ نبَّهُ الله عبادهُ المؤمنينَ إلى الحذرِ من هذه الصفةِ السيِّة، وأمرَ بتجنُّبِها، فقالَ سُبحانه:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ} [سورة الحجرات: ١٢]
معناه: تَباعَدوا عن كثيرٍ مِنَ الظنّ، فإنَّ بعضَ ظَنِّ المؤمِنِ بأخيهِ ذَنبٌ يَستَحِقُّ عليهِ العُقوبَة، وهوَ أنْ يَظُنَّ بأهلِ الخَيرِ شَرًّا.

وبَيانُ الظنِّ المنهيِّ عنه، هوَ أنْ يقعَ في النَّفسِ شَيءٌ مِن غَيرِ دَلالة. وفي وصيَّةٍ مِنَ السَّلف: "ضَعْ أمرَ أخيكَ على أحسَنِهِ ما لم يأتِكَ ما يَغلِبُك، ولا تَظُنَّ بكَلمَةٍ خرَجَتْ مِن أخيكَ المسلمِ شَرًّا وأنتَ تَجِدُ لها مِنَ الخَيرِ مَحمَلاً". ويَحرُمُ سُوءُ الظنِّ مِمَّن شُوهِدَ منهُ السِّترُ والصَّلاح، أمَّا مَن جاهرَ بالفِسقِ والفُجورِ فلا يَحرُمُ سُوءُ الظنِّ به. ولعلَّ هذا تَعليلٌ لكلمَةِ "بَعض" في الآيَة. وقالَ ابنُ كثير: "لأنَّ بعضَ ذلكَ يَكونُ إثمًا مَحضًا، فَليُجتَنَبْ كثيرٌ منهُ احتياطًا". وقالَ الشَّيخُ عبدُالحميدِ كشك في تَفسيرِه: "هذا أعلَى أُسلوبٍ وأدَقُّه، حيثُ قال: {اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ} فإنَّ مِنَ الظنِّ ما هوَ مَطلوب، كالاحتياطِ في دَفعِ الأذَى عنِ النَّفسِ والمال".

عدم التعلق بالدنيا الفانية أو تفضيلها

طلبَ اللهُ تعالَى من بني إسرائيلَ ألّا يفضِّلوا الدنيا الفانيةَ على الآخرةِ الباقية، فقالَ سبحانه:
{وَلاَ تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ} [سورة البقرة: ٤١].
أي: لا تَستبدلُوا بالإيمانِ وتصديقِ رسولي الدنيا وشهواتِها القليلةَ الفانية.

وقالَ موبِّخًا إيّاهم على معاصِيهم وأفعالِهم الشَّائنة:
{أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآَخِرَةِ فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ} [سورة البقرة: ٨٦].
فَإنَّ جزاءَ مَنِ استَحَبَّ الدنيا والتهَى بزينَتِها ومُتَعِها وفضَّلَهَا على الآخِرَة، هوَ ألاّ يُخَفَّفَ عنهُ العذابُ، ولا يُدافَعَ عنه، ولا يُنْقَذَ منه.

ونبَّهَ اللهُ المسلمينَ إلى عدمِ تفضيلِ الدنيا الزائلةِ على ما عاهَدوا اللهَ عليه، فقال:
{وَلاَ تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ اللهِ ثَمَناً قَلِيلاً إِنَّمَا عِندَ اللهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ} [سورة النحل: ٩٥].

أي: لا تَستبدِلوا بما عاهدتمُ اللهَ عليهِ عَرَضًا قَليلًا يَزولُ سَريعًا، فإنَّ ما أعَدَّ اللهُ لكم من ثَوابٍ على الوَفاءِ بالعَهدِ هوَ أجزَلُ وأعظَم، إنْ كنتُم تَعلَمونَ الفَرقَ بينَ الأمرَين.

وأمرَ الله المجاهدينَ أن يتريَّثوا، ولا يقتلوا المحاربَ إذا أعلنَ إسلامَهُ أثناءَ القتال، ولا يتَّهموهُ بالكذب، ولا يكوننَّ قتلُهم له لأجلِ عرَضٍ من عُروضِ الدُّنيا...
{وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ} [سورة النساء: ٩٤].
أي: لا تَتعجَّلوا في أمرٍ دونَ تَدبيرٍ ورَويَّة، ولا تَقولوا لمن حيّاكم بتحيَّةِ الإسلام، أو استَسلمَ فأظهرَ الانقيادَ لِما دُعيَ إليهِ مِنَ الإسلام: لستَ مؤمناً، بل قلتَ ذلكَ لئلاّ أقتُلَكَ مثلَ بقيَّةِ المحارِبينَ المشرِكين. فهل تُريدُونَ مِنَ الإقدامِ على هذا العملِ دونَ تَثبُّتٍ عَرَضاً مِنَ الدُّنيا قَليلاً وحُطاماً يَنفَدُ بعدَ قليل؟ فإنَّ ما أعدَّهُ اللهُ لكم جزاءَ جهادِكم هوَ خيرٌ من هذا بكثِير.

وقالَ الله جلَّ جلالهُ مذكِّرًا ومحذِّرًا:
{بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا. وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى} [سورة الأعلى: ١٦-١٧].
أي أنَّكم تُقَدِّمونَ الدُّنيا على الآخِرَة، حُبًّا للعَاجِل، وجَهلاً بالبَاقي. والكافِرُ يُعرِضُ عنِ الآخِرَةِ كُفرًا بها، والمسلِمُ إذا فَعلَ فلإيثارِ مَعصيَةٍ وغلَبَةِ نَفس، وقَبلَ ذلكَ لضَعفٍ في الإيمَان.
معَ أنَّ تَقديمَ الآخِرَةِ هوَ الذي فيهِ النَّفعُ والفَلاح، فنَعيمُها أفضَل، وأبقَى دَوامًا وعافيَة، والدُّنيَا شَهواتُها مُكدَّرَة، ولذّاتُها فانيَة، وعَليها حِسابٌ وتَبِعات.

تجنب الجدال العقيم

قالَ اللهُ تعالَى في طبيعةِ الإنسانِ الجدلية:
{وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً} [سورة الكهف: ٥٤].
أي: كانَ الإنسَانُ - بحسَبِ طَبْعِهِ - كثيرَ المخاصَمَةِ والمجادَلة.
وكثيرٌ منَ النَّاسِ يَدفعونَ الحقَّ جِدالاً ولو عرَفوه! وهذا عِنادٌ واستِكبارٌ وجِدالٌ بالباطِل، وصِفَةٌ للمشرِكينَ والمنافِقين.

والجدالُ العقيم، الذي تصَاحبهُ الخصومة، والنيَّةُ السيِّئة، لا يُرتجَى منه خير، بل هو من نفثاتِ الشيطان، ويؤدِّي إلى الضلال:

{وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ} [سورة الأنعام: ١٢١].

معناه: إنَّ الشَّياطينَ ليُلقونَ إلى تابعِيهم وموافِقيهم منَ الإنسِ الكلامَ الباطِلَ ليُجادِلوكم ويُخاصِموكم به، كقولِهم: إنَّ الميْتةَ قتلَها اللهُ فلماذا لا تأكلونَ لحمَها؟! فإذا أطعتُموهم في استِحلالِ ما حرَّمَ الله، كأكلِ الميْتةِ وغيرِ ذلك، فأنتُم مُشرِكون، حيثُ تركتُم طاعةَ اللهِ وشَرعَهُ إلى طاعةِ المشرِكينَ وكلامِهمُ الباطِل، وأحللتُم ما حرَّم اللهُ وآثرتم عليهِ غيرَه، أو جعلتُم معَهُ شَريكاً في الحُكم. قالَ اللهُ تعالى: {اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ} [سورة التوبة: ٣١].

وأمرَ الله الحاجَّ أن يتجنَّبَ الجدالَ الذي يؤدِّي إلى الخصومةِ والنزاع، فقال:

{فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الحَجِّ} [سورة البقرة: ١٩٧].

معناها: لا جِدالَ ولا مُخاصَمةَ في الحجّ، فلا يُماري الحاجُّ أخاهُ حتَّى يُغضِبَه، ولا يسبُّهُ ولا يُنازعُه، وخاصَّةً رفقتَهُ وخدَمَه.

عدم الخوض في الكلام الباطل

ومن صفات المؤمنينَ التنزُّهُ عن الخوضِ في الحديثِ الباطلِ وما لا خيرَ فيه من الكلام، ولا فائدةَ منه. قالَ الله تعالَى تحتَ صفاتِ {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ}:

{وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ} [سورة المؤمنون: ٣].

وكذلكَ وردَ في صفاتِ عبادِ الرحمنِ السالبة:

{وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِراماً} [سورة الفرقان: ٧٢].

معناه: إذا حدَثَ أنْ مَرُّوا بالكَلامِ الذي لا خَيرَ فيه، أعرَضوا عَنه، وأكرَموا أنفُسَهم عنِ الخَوضِ فيه.

وإذا استهزأَ المشركونَ بمن آمنَ من أهلِ الكتاب...
{وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ} [سورة القصص: ٥٥].

أي: إذا سَمِعوا القَبيحَ مِنَ القَول، والأذَى والسبَّ مِنَ المشركِين، أعرَضوا عَنهم، وقالوا في حِلْمٍ وأناة: لَنا حِلْمُنا ولكم سفَهُكم، أو لَنا دِينُنا ولكم دِينُكم، لا نَشتُمُكم كما تَشتُمونَنا، لا نُريدُ مَسلَكَ الجاهِلين، ولا نُحِبُّ صُحبتَهم ولا مُجاورَتَهم.

ونبَّهَ اللهُ سُبحانهُ بعضَ الصحابةِ إلى ما وقَعوا فيهِ من إثمٍ عندَما ردَّدوا كلامًا باطلًا في حادثِ الإفكِ المشهورِ دونَ تثبُّت، فكانَ ممّا قال:
{لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْراً وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ} [سورة النور: ١٢].

أي: هلاّ إذْ سَمِعتُم ذلكَ الكلامَ غيرَ اللاّئقِ بأُمِّ المؤمنين، مِن أُناسٍ غَيرِ مؤتَمَنين، ظَنَنتُم خَيرًا بإخوانِكم وأَخواتِكم أيُّها المؤمنونَ والمؤمنات؟ فالعَدُوُّ دائمًا يَعمِدُ إلى إساءَتِكم. وإذا كانَ هذا الاتِّهامُ لا يَليقُ بكم لكَونِكم مؤمنين، فكيفَ يَليقُ بعِرضِ رَسولِكم؟ فهَلاّ قُلتُم إنَّ ذلكَ خبَرٌ كاذِبٌ ظاهِرٌ مَكشوف؟
وذكرَ اللهُ تعالَى أن الذي تولَّى التخطيطَ لهذا الإفكِ وأشاعَهُ سينالهُ عذابٌ عظيم، وأنَّهُ لولا فضلُ اللهِ على الخائضينَ فيه من غيرِ المنافقينَ لنالَتهُم عقوبةٌ كبيرة.
ثمَّ قال:
{يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} [سورة النور: ١٧].
تفسيره: يَنصَحُكمُ اللهُ في هذا الشَّأن، ويُحَرِّمُ عَليكم أنْ تَعودوا لمثِلِهِ فيما يُستَقبَلُ أبَدًا، إنْ كنتُم مؤمنينَ باللهِ وشَرعِه.

نبذ التنازع والخلاف

قالَ الله تعالَى:

{وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُواْ} [سورة يونس: ١٩].
أي: كانَ الناسُ مُتَّفقينَ على عَقيدَةٍ واحِدة، هيَ عقيدةُ الإسلام، ثمَّ أشرَكَ بعضُهم وشقُّوا عصَا الجَماعة، فصارَ هناكَ مُسلِمونَ وكُفّار، واختَلَفوا.

والتنازعُ بين الجماعةِ يُضعِفُها، ويكونُ مآلهُ غيرَ محمُود، وقد أمرَ الله تعالَى باتِّباعِ الصراطِ المستَقيم، ونبذِ الاختلافِ والتخَاصم، فقالَ جلَّ مِن قائل:
{وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [سورة الأنعام: ١٥٣]:
أيُّها النبيّ: إنَّ الإسلامَ هوَ صِراطي المستَقيمُ الذي لا اعوِجاجَ فيه، فهوَ ما أسلُكهُ وأدعو إليه، فاتَّبِعوا تعاليمَهُ واعمَلوا به، ولا تتَّبعوا الضَّلالات، والبِدَعَ والشُّبهات، فتُفرِّقَكم حسَبَ تَفرُّقِها عن دينِ الله. هذا ما أمرَكمُ اللهُ به، لتَبتَعِدوا عنِ المِراءِ والخصُومات، والاختلافِ والفُرقة، التي أهلكتْ مَن قبلَكم.

وقالَ أيضًا سبحانه:
{وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ} [سورة الأنفال: ٤٦].
معناه: أطيعوا اللهَ فيما أمرَكم به، ونفِّذوا أوامِرَ نبيِّكم وقائدِكم، ولا تَختَلِفوا فتَجبُنوا وتَضْعُفوا أمامَ أعدائكم، ويكونُ ذلكَ سبَباً لتخاذُلِكم وفشَلِكم وذهابِ قُوَّتِكم.

وقالَ الله تعالَى مبيِّنًا أخطاءَ المجاهدينَ في غزوةِ أُحد:
{وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ} [سورة آل عمران: ١٥٢].
لقد صَدقَ اللهُ وعدَهُ معَكم بالنَّصرِ في غزوةِ أُحُد، كما كانَ في أوَّلِ النَّهار، عندَما سلَّطكمُ اللهُ عليهِم، فصِرتُم تَقتلونَهم، وكِدتُم أنْ تَستأصِلوا شأفتَهم، حتَّى إذا جَبُنَ بعضُكم في القِتال، نتيجةَ النزاعِ والخِصامِ الذي دارَ بينَكم، وعصَى بعضُكمُ الآخَرُ – وهمُ الرُّماةُ – قائدَهُم محمَّداً صلى

اللهُ عليه وسلم، وكانَ قد أمرَهم ألاّ يَبرَحُوا مكانَهم، فنزلوا يَنهَبونَ في العَسكرِ، فبقيَ ظهرُ المسلِمينَ مَكشوفاً للعدوّ، أراكمُ اللهُ الفشَلَ بعدَ النصر، فقد شابَ إخلاصَكم مَطامِعُ، فمنكم مَن رَغِبَ في الغَنائمِ عندما رَأى هَزيمةَ العدوّ، ومنكم مَن أرادَ وجهَ اللهِ في جِهادهِ فثَبتَ في مَكانهِ حتَّى يَتلقَّى أوامرَ الرسولِ صلى الله عليه وسلم، فكانَ نتيجةَ ذلكَ أنْ صَرَفَ قوَّتكم واجتماعَكم عنِ العدوّ، ففَشِلتُم، ليَختَبِرَ إيمانَكم، ويَمتحِنَ قوَّةَ صُمودِكم وعَزيمتِكم وتَمسُّكِكم بدينِكم، ولتَعتَبروا ممّا أصابَكم، ولا تُكرِّروه، وغفرَ لكم ضَعْفَكم وتنازُعَكم وعصِيانَكم، وهذا مِن فضلِ اللهِ عليكم ورحمتِهِ بكم.

عدم الضعف والوهن

قالَ الله تعالَى لعبادِهِ المؤمنينَ مذكِّرًا ومقويًّا لمعنويّاتهم:

{وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [سورة آل عمران: ١٣٩].

أي: لا تَضْعُفوا ممّا أصابَكم في غزوةِ أُحُد، ولا يَدخُلَنَّ الوهْنُ إلى قلوبِكم، ولا تَحزَنوا على ما فاتَكم، فأنتُمُ الأعلَونَ بدينِكم، وأنتمُ الغالِبون، ما دمتُم مُؤمنين، فإنَّ الإيمانَ يوجِبُ الثقةَ باللهِ، فلكمُ النصرُ والغَلَبة، وشهداؤكم في الجنَّة، وأمرُ الكافرينَ إلى الدَّمارِ كما كانَ حالُ أسلافِهم، ومصيرُ قَتلاهُم إلى النّار.

وقالَ سبحانهُ بعدَ آيات:

{وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ. وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ. فَآتَاهُمُ اللهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [سورة آل عمران: ١٤٦-١٤٨].

أي: هناكَ أنبياءُ كُثرٌ قاتلَ معهُ جماعاتٌ مِنَ الصَّابرينَ الأبرارِ الأتقِياء، فما ضَعُفَت نُفوسُهم منَ الكَرْبِ والبَلاء، وما وَهَنوا لِما أصابَهم منَ الشدَّةِ والجِراح، وما توَقَّفوا عن متابعةِ الجهادِ في سبَيلِ الله، وما استَسلموا لأعداءِ اللهِ ولا ذَلُّوا، بل قاتَلوا على ما قاتلَ عليهِ أنبياؤهم حتَّى لَحِقوا بهم، واللهُ يُحِبُّ المدافِعينَ عن دينِه، المتَّبعِينَ لأوامرِ أنبيائه، الصَّابرينَ في أوقاتِ الشدَّةِ والحَرب.

وكانوا معَ جهادِهم وطلبِهم رِضاءَ اللهِ يَقولون: ربَّنا اغفِرْ لنا ما اقترَفنا مِن ذنوب، وما تجاوَزنا فيهِ الحدّ، وفرَّطنا من أمر، وأيِّدْنا بتأييدٍ مِن عندِكَ في مَواطنِ الحَرب، وثبِّتنا على دينِكَ الحقّ، وانصُرنا على أعدائكَ وأعداءِ دينِكَ منَ القَومِ الكافِرين.

فكانَ جزاءَ هؤلاءِ المؤمنينَ الصابرينَ وجوابَ دُعائهم، أنْ آتاهُم ثوابَ الدنيا بالنصرِ والعزِّ والعاقِبَةِ الحسَنة، وفي الآخرةِ النعيمُ الدَّائم، واللهُ يُحِبُّ مَن آمنَ وأحسَن، وأتْبَعَ إيمانَهُ بالعملِ الصَّالح.

وقالَ أيضًا جلَّ جلاله:

{وَلاَ تَهِنُواْ فِي ابْتِغَاء الْقَوْمِ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ مَا لاَ يَرْجُونَ} [سورة النساء: ١٠٤].

بمعنى: لا تَضْعُفوا في طلَبِ عدوِّكم ولا تَتوانَوا في التعرُّضِ لهم ومُجاهَدتِهم ومُقاتَلتِهم، فإنْ تَكونوا تألَمونَ مِنَ الجراحِ والآلامِ التي تُصيبُكم، فإنَّهُ يَحْصُلُ لَهم الأمرُ نفسُه، فلماذا لا تَصبرونَ معَ أنَّكم أولَى بالصَّبرِ منهم، فأنتُم تَرجُونَ مِنَ اللهِ المثوبةَ العَظِيمةَ في الآخِرَة، أو النصرَ والعزَّةَ بإظهارِ الإسلامِ فوقَ جميعِ الأديان، وهُم لا يَرجُونَ ذلك، فأنتُم أولَى بالجِهادِ والصَّبرِ منهم.

تجنب الحلف الكاذب

قالَ الله تعالَى:

{وَلاَ تَتَّخِذُواْ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ الْسُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [سورة النحل: ٩٤].

أي: لا تتَّخِذوا حَلِفَكم غِشًّا وخَديعَةً في التعامُلِ بينَ بَعضِكم البَعض، فتَنحَرِفَ نَفسٌ عن طَريقِ الحقِّ بعدَ أنْ كانت ثابتةً عَليه، وتأثَمَ وتُعاقَبَ لأنَّها كانت سبَبًا في صَدِّ النَّاسِ عنِ الدِّين، فإنَّ المسلِمَ إذا حلَفَ للكافرِ ولم يَفِ بوعدِه، لم يَثِقِ الكافِرُ بهِ وبدينِه، فيَكونَ قد لَحِقَهُ الإثمُ بسَببِ ذلك. ومَن فعلَ ذلكَ فلهُ عَذابٌ كبير.

والوفاءُ خُلُقٌ جَميل، وقد دخلَ كثيرٌ منَ النَّاسِ الإسلامَ بسببِ صِدقِ مُعامَلةِ التجّارِ ووَفائهم بعُهودِهم.

عدم الإنفاق من رديء المال

المسلمُ ينفقُ من طيّبِ ماله، وليسَ من رَديئه. قالَ اللهُ تعالَى:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ} [سورة البقرة: ٢٦٧].

أي: إذا تَصدَّقتم بشيءٍ من أموالِكم فليَكنْ ذلكَ مِن طيّبِ ما كسبتموهُ وأجودِه، مِن تِجارةٍ أو غيرِها، ومِن طيّبِ ما أخرجَهُ اللهُ لكم منَ الأرض، مِن تمرٍ أو غيرِه، ولا تَلجَؤوا إلى الرَّديءِ منهُ فتُعطوهُ للناس، فإنَّ اللهَ طيّبٌ لا يَقبَلُ إلا طيّباً، وإنَّكم لو أُعطِيتُم مثلَ هذا المالِ الدنيءِ لَما أخَذتُموه، إلاّ إذا تَغاضيتُم عنهُ وتَسامحتُم فيه، فلا تَجعلوا للهِ ما تَكرهون.

واعلَموا أنَّ اللهَ غنيٌّ عن إنفاقِكم، وإنَّما يأمرُكم بذلكَ لمنفَعتِكم، وهوَ مَستَحِقٌّ للحَمدِ على نِعَمهِ العَظيمةِ عليكم.

وكانَ البعضُ يَقصِدُ الرَّديءَ من مالهِ فيُعطيهِ زكاةً أو صَدقة، فنزلتِ الآيةُ للنهي عن ذلك.

تجنب أكل الحرام

لا يحلُّ للمسلمِ أن يأكلَ من مكسبٍ غيرِ شرعيّ. قالَ ربُّنا تباركَ وتعالَى:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ} [سورة النساء: ٢٩].

أيُّها المؤمنون، لا يأكلْ بَعضُكم أموالَ بعضٍ بما يُخالِفُ الشَّرع، كالرِّبا والقِمار، وأنواعِ المكاسبِ غَيرِ الشرعيَّة، ولكنِ اقصِدوا الطرقَ الشرعيَّة، كالتِّجارة، في تداولِ أموالِكم بينَ بعضِكمُ البعضِ عن تَراضٍ منكم.

وقالَ جلَّ شأنه:

{قُل لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُواْ اللّهَ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [سورة المائدة: ١٠٠].

أي: لا يَتعادَلُ الحَلالُ والحَرام، ولا يَستوي الحسَنُ والرديء، ولا الصَّالحُ والطَّالح، ولو سَرَّكَ كثرةُ الخَبيثِ منه، فالقَليلُ مِنَ الحلالِ النافِع، خَيرٌ مِنَ الكثيرِ الحرامِ الضارّ. وفي الحديثِ الصحيح: "ما قَلَّ وكفَى، خيرٌ ممّا كثرَ وألهَى". فاتَّقوا اللهَ وآثِروا الطيِّبَ على الخَبيثِ وإنْ قَلّ، فالمحمُودُ القَليلُ خَيرٌ مِنَ المذمومِ الكثير، فأقبِلوا على ما أحلَّ اللهُ لكم مِنَ الطيِّباتِ يا أصحابَ العُقولِ الراجِحةِ والأفهامِ المستَنيرةِ واقنَعوا بها، لتَنالوا السَّعادةَ في الدُّنيا والفوزَ في الآخِرَة.

ومن ذلك أكل مالِ اليتيم، قالَ اللهُ تعالَى:
{إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا} [سورة النساء: ١٠].
معناها: إنَّ الذينَ يأكلونَ أموالَ الأيتامِ حَراماً بغَيرِ حقّ، إنَّما يأكلونَ بذلكَ ناراً مِلءَ بُطونِهم يومَ القيامة. وسيَكونُ جزاؤهم أنْ تُسْعَرَ بهمُ النارُ في جهنَّم، فيُحرَقونَ منَ الخارجِ أيضاً، فهيَ مُحيطةٌ بهم ظاهِراً وباطِناً، جزاءَ ظُلمِهم لليَتامَى الضُّعَفاء.

عدم التعامل بالربا

وصفَ اللهُ تعالَى المتعاملينَ بالرِّبا بقوله:
{الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا} [سورة البقرة: ٢٧٥].
أي: إنَّ الذينَ يأكلونَ الرِّبا ويَتعامَلونَ به، يَكونُ مَصيرُهم عندما يَقومونَ مِن قُبورِهم للحَشرِ والحساب، كحالِ المصروعِ عندما يَقوم، فيؤذيهِ الشيطانُ ويَصرَعُه، فتَكونُ حركتهُ هِستيريةً عشوائيةً وكأنَّهُ مجنونٌ يُخنَق، ممّا بهِ مِن جُنونٍ وفَزَع!
وسببُ ما يَنزِلُ بهؤلاءِ المرابينَ عندما يُبعثونَ مِن قبورِهم، هوَ استِحلالُهُمُ الرِّبا وقَولِهم إنَّ البيعَ مثلُ الربا، وقالوا: لماذا أُحِلَّ هذا وحُرِّمَ ذاك؟ فهو اعتراضٌ على أحكامِ اللهِ وشرعِه. وشُبهتُهم الواهيةُ في هذا أنَّ كِلَيهما يجُرّانِ ربحاً! معَ أنَّ العملياتِ الرِّبويَّةَ مُحَدَّدٌ ربحُها وفائدتُها في كلِّ حالة، وتَعودُ إلى مجموعَةٍ منَ المموِّلين المرابِين، والبيعُ والتجارةُ يُخضَعُ فيه للربحِ والخَسارة، في مهاراتٍ شخصية، وظروفٍ جارية، وحركةٍ وعَمل، وتوزيعٍ متنوّعٍ في الأموالِ والأرباح. فالرِّبا يُفْسِدُ الحياةَ

البشريَّة، والبيعُ والتجارةُ تنشِّطُ الحياةَ الاقتصاديةِ وسوقَ العمل. ولهذا وغيرِهِ منَ الاعتباراتِ التي يَعرِفُها الاقتصاديونَ والتجّار، أحلَّ اللهُ البيع، وحرَّمَ الرِّبا تحريماً قاطِعاً.

وقدْ جاءَ التحريمُ لآكلِ الرِّبا لأنَّهُ الغالِب، والمقصودُ هوَ ومَن في حكمه، وفي صحيحِ مسلمٍ قولُ جابرٍ رضيَ اللهُ عنه: "لَعَنَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلمَ آكِلَ الرِّبا، ومُوْكِلَهُ، وكاتِبَهُ، وشاهِدَيْه، وقال: هم سَواء".

ثم قالَ سبحانه:

{يَمْحَقُ اللهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ} [سورة البقرة: ٢٧٦].

أي أنَّ اللهَ يُذهِبُ البَركةَ منَ الأموالِ الرِّبويَّة، فلا يُنتَفَعُ بها، وستَكونُ حسرةً على صاحبِها وعقاباً لهُ في اليومِ الآخِر. وما استوى خَبيثٌ وطيِّب، ولو كانَ هذا الخبيثُ أبيضَ برّاقاً، فإنَّ اللهَ يَركُمُهُ ويَجعَلُهُ في جهنَّم. وهوَ لا يعودُ على المجتمعِ الرِّبويّ إلا بالشقاءِ والنَّكد، على الرغمِ ممّا يُرَى في ظاهرِهِ من غِنىً ومَوارد، فإنَّهُ يَفيضُ بالقلقِ النفسيّ والخوفِ والاضطِراب، وليسَ فيه أمانٌ واطمئنانٌ وسَعادةٌ حقيقيَّة، حيثُ لا بَركةَ ولا تَكافلَ قائمٌ على الحقّ والتقوَى.

أمّا المالُ الطيّبُ والصَّدقات، فإنَّ اللهَ يُنْمِيها ويَزيدُها خيراً وبَركةً ووَفرة، ويَجعلُ في مجتَمعهِ المودَّةَ والاطمئنانَ وراحةَ البال، حيثُ التكافلُ والتعاونُ على الخَير.

واللهُ يَبغُضُ ذلكَ المرابيَ الكَفورَ القَلب، الذي يأثَمُ في قولِهِ وفِعله، فلا يَرضَى بما قسمَ اللهُ لهُ منَ الحلال، ولا يَكتفي بما شَرعَ اللهُ لهُ منَ التكسُّبِ المباح، بل يَسعَى إلى أكلِ أموالِ الناسِ بالباطِل، منَ الرِّبا وغَيرِه.

البعد عن القسوة والغلظة

قالَ الله تعالَى لرسولِهِ الكريمِ صلى الله عليه وسلم، ومعلِّمًا بذلك أمَّته:

{فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ القَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ المتَوَكِّلِينَ} [سورة آل عمران: ١٥٩].

أي: برحمةِ اللهِ لكَ ألنْتَ لأصحابِكَ جانِبَك، وخَفَضْتَ لهم جَناحَك، وحسَّنتَ لهم خُلُقَك، فأحبُّوكَ وفدَوْكَ بأنفُسِهم وآبائهم وأموالِهم، ولو كنتَ جافيَ المعاشَرة، كريهَ الخُلُق، قاسيَ القلب، لنَفروا مِنك، وتَفرَّقوا عنك.

تجنب الكلمات السيئة

ونَهى الله تعالَى المؤمنينَ أن يَنطقوا بكلماتٍ جَارحة، أو غيرِ لائقَة، فقالَ يَعظُهم في كتابهِ الكريم: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقُولُواْ رَاعِنَا وَقُولُواْ انظُرْنَا وَاسْمَعُواْ وَلِلكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [سورة البقرة: ١٠٤].

أيُّها المؤمنون، لا تَتشبَّهوا باليهودِ والمشرِكينَ في مقالِهم وفَعالِهم، ولا يَكنْ في كلامِكم تَوريةٌ فيها تَنقيصٌ، فَلا تَقُولُوا: "رَاعِنَا"، الذي فيه تَوريةٌ بالرعونة، وهوَ الهوَجُ والحُمْق، مثلَما يَقولُ اليهودُ لرسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم، ولو كان قصدَكم أنتُم المراعاةُ والمراقَبةُ والتأنِّي، ولكنْ قولوا: "انْظُرْنا" أي أَنْظِرْنا وَأَمْهِلْنا.

وللِيهودِ الكافرينَ عذابٌ مُوجِعٌ لِما اجترَؤوا عليه وَجَعَلُوا ما يَقولونَ سَبَباً للتهاونِ برسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم.

كما يمنعُ ذكرُ الناسِ بسوءٍ إلّا في حالات..

{لَا يُحِبُّ اللهُ الجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ القَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللهُ سَمِيعًا عَلِيمًا. إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا} [النساء: ١٤٨-١٤٩].

بمعنى: لا يُحِبُّ اللهُ أنْ يُعْلِنَ أحدٌ عن أحدٍ سُوءاً إلاّ إذا ظُلِم. كأنْ يدعوَ على ظالِمه، أو يَشتكيَ عليهِ فيُبيِّنَ سوءَ ما ظَلمَهُ به. وكانَ اللهُ سميعاً لكلامِ الظَّالِمِ والمظلوم، عالِماً بحالِهما.

وإذا أظهَرتُم خَيراً أو أخفيتُموه، أو عَفوتُم عَمَّن أساءَ إليكم وأنتُم قادِرونَ على مؤاخَذتِه، فإنَّ اللهَ يَعفو عنِ العُصاةِ معَ قدرتهِ على عِقابهم، فكيفَ لا تَعفُونَ أنتم معَ ضَعفِكم؟ فاعفُوا واصفَحوا ليُجزِلَ اللهُ لكمُ الثواب.

عدم التجسس

أمرَ اللهُ المؤمنين بعدمِ تجسُّسِ بعضِهم على بعض: {وَلَا تَجَسَّسُوا} [سورة الحجرات: ١٢]، فلا يَبحَثوا عن عَوراتِ المسلِمينَ ومَعايبِهم، ويَستَكشِفوا عمَّا ستَروه.

تجنب الغيبة

الغيبةُ من الكبائر، وقد أمرَ اللهُ بتجنُّبِها، فقالَ سُبحانه:

{وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ} [سورة الحجرات: ١٢]

أي: لا يَذكُرْ بعضُكم بَعضًا بما يَكرَه، فهذا مِنَ الكبائر، وهوَ يؤدِّي إلى التَّباغُضِ والشِّقاقِ في المجتمَعِ المؤمِن. أيُحِبُّ أحَدُكم أنْ يأكُلَ لحمَ أخيهِ وهوَ مَيِّت؟ فإنَّكم تكرَهونَ ذلكَ وتَعافُونَهُ وتَبغُضونَه، فابغُضوا غِيبَتَهُ كذلك، فإنَّ ذِكْرَ المرءِ أخاهُ الغائبَ عنهُ بسُوء، بمَنزلَةِ أكلِ لَحمِهِ وهوَ مَيِّتٌ لا يُحِسُّ به.

واخشَوا اللهَ ولا تُخالِفوا أمرَه، وتُوبوا إليه، فإنَّهُ كثيرُ قَبولِ التَّوبَة، رَحيمٌ بالمؤمِنينَ منهم.

وعليها عُقوبة، كما في أولِ سورةِ الهُمَزة:

{وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ}

أي: الوَبالُ والعَذابُ لكُلِّ مَن يَعِيبُ النَّاسَ ويَغتابُهم، فيَهمِزُهم بقَولِه، أو يَغُضُّ منهم ويَزدَريهم ويَسخَرُ منهم فيَلمِزُهم بفِعلِه، بإشارَةٍ مِن يَدِهِ أو عَينِه... يُحاكي حرَكاتِهم وأصواتَهم، أو يُحَقِّرُ صِفاتِهم وسِماتِهم.

الترهيب من قطع الرحم

حذَّر اللهُ تعالَى عبادَهُ من قطعِ الرحِم، فقال:

{وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ} [سورة النساء: ١].

أي: واحذَروا مِن أنْ تَقطَعوا أرحامَكم، فإنَّ قَطيعتَها ممّا يَجِبُ أنْ يُخشَى ويُتَّقَى.

وقالَ سُبحانهُ منبِّهًا ومحذِّرًا:
{فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ. أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ} [محمد: ٢٢-٢٣].

معناه: لعَلَّكم إنْ أعرَضتُم عن طاعَةِ الله، والجِهادِ في سَبيلِه، أنْ تَعودوا إلى ما كنتُم عَليهِ في الجاهليَّة، تَسفِكونَ الدِّماء، وتَظلِمونَ النَّاس، وتَقطَعونَ الأرحَام.

فأولئكَ المعرِضونَ المفسِدون، قاطِعو الأرحَام، أبعدَهمُ اللهُ مِن رَحمَتِه، فأصَمَّ سَمعَهم عنِ الاستِماعِ للحقّ، وأعمَى أبصارَهم عن رؤيَةِ آياتِهِ الدَّالَّةِ على صِدقِ رسُلِه، فقد عطَّلوا حَواسَّهم عن ذلك، وأبعَدوها عن وَظيفَتِها الأساسيَّة، فكانَ جَزاؤهم مِن جنسِ عمَلِهم.

وقَطعُ الأرحامِ ذَنْبٌ عَظيم، وعَليهِ عُقوبَةٌ كبيرَة، وفي ذلكَ أحاديثُ صَحيحَة.

عدم الاستهانة بضعفاء المسلمين

عيَّرَ الكافِرون من قومِ نوحٍ عليه السَّلامُ نبيَّهم بأنَّ أتباعَهُ من الطبقةِ الدُّنيا في المجتمع، فكانَ هذا الحِوار:

{قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ. قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ. إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ. وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ. إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ} [سورة الشعراء: ١١٥].

تفسيرُها: قالَ الكافِرونَ المستَكبِرونَ لنَبيِّ اللهِ نوح: أنؤمِنُ برِسالَتِكَ وقدِ اتَّبعَكَ أدنَى فِئاتِ المجتَمَعِ مِنَ الضَّعَفَةِ والفُقَراء، فنتسَاوَى معَهمْ بذلك؟!

قالَ لهم نوحٌ عَليهِ السَّلام: ليسَ عليَّ مِن مُستَوَى مَكانَتِهم شَيء، إنَّما كُلِّفْتُ أنْ أدعُوَهم إلى اللهِ فاستَجابوا، وأنا أقبَلُ منهم تَصديقَهم، ولو كانوا على أيِّ حالٍ مِنَ المعيشَة، ومِن أيِّ طبَقَةٍ في المجتمَع.

وما مُحاسبَتُهم على ما يَعمَلونَ إلاّ على رَبِّ العالَمين، فهوَ الذي يتَولَّى سَرائرَهم، ولو شعَرتُم بشَيءٍ مِن هذا لعَلِمتُم أنَّهُ الحقّ، ولما عِبتُموهُم على إيمانِهم وطاعَتِهم.

ولنْ أطرُدَ عِبادَ اللهِ المؤمنين، سَواءٌ آمنتُم أمْ لم تُؤمِنوا.

ما أُرسِلتُ إلاّ نَذيرًا، مُكَلَّفًا برِسالَةٍ واضِحَةٍ بيِّنَة، أَعِظُ النَّاسَ وأزجُرُهم عن مُخالَفَةِ أمرِ الله، شُرفاءَ كانوا أو دونَهم، فالرِّسَالَةُ للجَميع.

وكذا قالَ هودٌ لقومه:
{وَمَا أَنَاْ بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّهُم مُّلاَقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّيَ أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ. وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ} [سورة هود: ٢٩-٣٠].
قوله: ولن أُبعِدَ المؤمنينَ الضُّعَفاءَ مِن حَولي حتَّى تَجلِسوا مَعيَ دُونَهم، فقد آمَنوا، وسَوفَ يُلاقُونَ ربَّهم يومَ الحِسابِ ليَجزيَهم على إيمانِهم، ولكنِّي أراكُم تَجهَلونَ مِيزانَ المقارَنةِ والمفاضَلة، ومَعرِفَةَ الخَيرِ والشرّ، فالمرءُ ليسَ بمالِهِ وحَسَبِه، إنَّما هوَ بإيمانِهِ وطاعَتِه، ولا فَرقَ بينَ الغَنيِّ والفَقيرِ في الإسلام، ولا الشَّريفِ والوَضيع، ما داموا مُسلِمين.
ويا قومي مَن يَدفَعُ عنّي غَضَبَ اللهِ ويَمنَعُني مِن عَذابِهِ إذا أبعَدتُ هؤلاءِ المؤمِنين، وهم أكرَمُ عندَ اللهِ مِنكم، أفلا تَتَّعِظون؟ وهَل تَستَمرُّونَ في جَهلِكم بدَعوَةِ الرسُلِ هكذا؟

وقالَ الله تعالَى في هذا ومثله:
{وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولواْ أَهَؤُلاء مَنَّ اللّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ} [سورة الأنعام: ٥٣].
معناه: وكذلكَ ابتلَينا واختبَرنا الناسَ بعضَهم ببَعض، الفقراءَ بالأغنياءِ والعَكس، والأشرافَ بمن دونَهم وبالعكس، ليقولَ المشركونَ المتكبّرونَ في أصحابِ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم، وقد كانَ غالبُهم منَ الضُّعفاءِ والعَبيدِ في أوَّلِ البِعثَة: أهؤلاءِ هَداهمُ اللهُ إلى الإيمانِ فهمُ الأحسَنُ مِن بيننا، أنحنُ نكونُ تبَعاً لهم وهمُ العبيدُ والفقراءُ ونحنُ الرؤساءُ والأثرياء؟ اطرُدْهُم عنكَ فلعلَّكَ إنْ طرَدتَهم أنْ نتَّبِعَك!
أليسَ اللهُ مطَّلعاً على أحوالِهم وضمائرِهم فهَداهُمْ إلى طريقِ الحقّ، ووفَّقهُم إلى ما فيهِ الخير؟ أليسَ عالماً بمن شكرَ نِعمَةَ الإيمانِ عليهِ فقَبِلَهُ عندَه؟

واليتامَى من ضُعَفاءِ المسلِمين، فلا آباءَ لهم يهتمُّونَ بهم، فيُتنبَّهُ لهم. قالَ الله تعالَى لنبيِّهِ محمدٍ صلَّى الله عليهِ وسلَّم:
{فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ} [سورة الضحى: ٩].

أي: كما كنتَ يَتيمًا، فلا تَحتَقِرِ اليَتيمَ ولا تَستَذِلَّه، ولكنْ أحسِنْ إليهِ وتلطَّفْ به.

وكذلك المحتاجُون:
{وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ} [سورة الضحى: ١٠].
أي: وكما كنتَ فَقيرًا، فلا تَزجُرِ السَّائلَ المحتاج، ولكنْ تفَضَّلْ عليهِ بشَيء، أو رُدَّهُ بقَولٍ جَميل.

عدم المنِّ والأذى

الإنفاقُ ينبغي أن يكونَ عن رضا وطيبِ نفسٍ، دون تعالٍ وأذى، ومن فعلَ ذلك فقد تطاولَ وتكبَّر:
{الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [سورة البقرة: ٢٦٢].
أي: الذينَ يُنفقونَ أموالَهم في سَبيلِ اللهِ ومَرضاتِه، من خَيراتٍ وصَدقات، ولا يُتْبِعونَ عطاءَهم هذا بمَنٍّ ولا أذًى، فلا يَمتعِضُونَ منَ السَّائلينَ ولا يتكبَّرونَ عليهم، ولا يُعَيِّرونَهم ولا يَتطاولونَ عليهم بكلامٍ لا يحبُّونَ سماعَهُ أو نَشره، بل يُعطونَهم بخُلقٍ طيِّبٍ ونفسٍ رَاضية، فهؤلاءِ لهم أجرُهمُ الكبيرُ الموعودُ بهِ عندَ ربِّهم، ولا يَلحقُهم مكروهٌ في الدارَيْن، ولا هم يأسَفونَ على ما فاتَهم منَ الحياةِ الدُّنيا وزهرتِها، فقد صَاروا إلى ما هوَ أفضلُ منها.
ثمَّ قالَ سُبحانه، في الآيةِ التي بعدَها:
{قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ}.
أي إنَّ كَلاماً حسناً لطِيفاً تَقبلَهُ القُلوب، ومُسامحةً للسَّائلينَ على إلحاحِهم، أفضلُ مِنْ عَطاءٍ يليهِ تَطاولٌ عليهِمْ وكلامٌ غيرُ مَرغوب.
ثمَّ قالَ عزَّ مِن قائل:
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالمنِّ وَالأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ} [سورة البقرة: ٢٦٤].
أي: لا تَجعَلوا صدقاتِكم تَذهبُ هَباء، وذلكَ عندما تُتْبِعونَها بالمنِّ والأذى، فتَتكبَّرونَ عَليهم وتعيِّرونَهم بما لا يُحبُّون، فإنَّ هذا الغَلطَ منكم يُذهِبُ ثوابَ ما تَصدَّقتم به.

وهذا مَثَلُ المنفقِ المرائي بصدَقتِه، الذي يُعطي ليَراهُ الناس، وهو لا يرجو من ورائهِ ثواباً مِن عندِ الله، ولا يؤمنُ باللهِ ولا بيومِ الجزاء (فهوَ مُنافق)، فهذا لا يؤجَرُ على فعلهِ مهما تَصدَّق.

عدم التكبر

وُصِفَ المؤمنونَ في القرآنِ الكريمِ بأنَّهم لا يَستكبرونَ عن السجودِ للهِ تعالَى:
{إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّداً وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ} [سورة السجدة: ١٥].

معناه: إنَّما يُصَدِّقُ بآياتِنا الذينَ إذا وُعِظوا بها استَمَعوا إليها وعَمِلوا بما فيها، مِن غَيرِ تَرَدُّدٍ ولا تَكبُّر، وبادَروا إلى السُّجودِ لرَبِّهم على وُجوهِهم؛ تَواضُعًا لهُ وخَوفًا مِن عَذابِه، ونزَّهوهُ عن كُلِّ ما لا يَليقُ بذاتِهِ وأسمائهِ وصِفاتِه، وأثنَوا عليهِ الخَيرَ كُلَّه، لِما هَداهُم إلى دِينِه، وأسبَغَ عَليهم مِن نِعَمِه، وهم لا يَستَكبِرونَ عنِ الإيمانِ بهِ وطاعَتِهِ والسُّجودِ له.

وصنفٌ من علماءِ النصارَى كانت عندهم رقَّةٌ في القلب، وتواضع، فكانوا أقربَ إلى المسلمين من اليهود. قالَ الله تعالَى:
{لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُوَاْ إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ} [سورة المائدة: ٨٢].

أي: ستَجِدُ أقربَ الناسِ مَودَّةً للمؤمنين – منْ بينِ مِلَلِ الكُفرِ – الذينَ زَعَموا أنَّهم نصارَى مِن أتباعِ المسيح، وذلكَ لرأفةٍ في قلوبِهم ورِقَّة، وفيهم علماءُ ورُهبانٌ وعُبّادٌ يتَّصفونَ بالعلمِ والعِبادةِ والتواضُع، وهؤلاءِ لا يَستكبرونَ عنِ الانقيادِ للحقِّ إذا عَرَفوهُ وفَهِموه. ولعلَّ التعبيرَ للكثيرِ مِن هؤلاء، أو أكثرِهم.

قالَ القاضي البيضاويّ: فيهِ دليلٌ على أنَّ التواضُعَ والإقبالَ على العِلمِ والعمَل، والإعراضَ عنِ الشَّهوات، محمودٌ وإنْ كانَ مِن كافِر.

قلت: وهناكَ فُرصةٌ طيِّبةٌ لدعوةِ هذه الفئةِ إلى الإسلام، وأمَلٌ في إسلامِهم.

ووصفَ اللهُ تعالَى نبيَّهُ يحيى بأنهُ لم يَكنْ مُتكَبِّرًا مُتَعالِيًا عن قَبولِ الحقّ، أو مُتَطاوِلاً على الخَلق:
{وَبَرّاً بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّاراً عَصِيّاً} [سورة مريم: ١٤].

وكذا قالَ عيسى عليه السَّلام:
{وَبَرّاً بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً} [سورة مريم: ٣٢].
معناه: لم يَجعَلني اللهُ مُستَكبِرًا، عاصِيًا.

عدم الغلو

طلبَ اللهُ تعالَى من أهلِ الكتابِ ألّا يتطرَّفوا في دينهم. قالَ سبُحانه:
{قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعُواْ أَهْوَاء قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيراً وَضَلُّواْ عَن سَوَاء السَّبِيلِ} [سورة المائدة: ٧٧].
أي: يا أهلَ الكتابِ منَ اليهودِ والنَّصارَى، لا تَتجاوزوا الحدَّ في أمرِ دينِكم، لا علوًّا ولا تقصيراً، فإنَّ تجاوزَ الحدِّ مَذمُوم، وكذا التقصيرُ فيه، فليسَ المسيحُ عيسى إلهًا كما يدَّعي النصارَى، ولا هو ابنُ زانيةٍ كما يدّعي اليهود، بل هوَ عبدُ اللهِ ورسولهُ الكريم، وأمُّهُ صِدّيقةٌ طاهِرة. ولا توافِقوا المذاهبَ الباطلةَ التي ابتدَعها شيوخُ الضَّلالةِ من أسلافِكم، الذينَ انحرَفوا وابتعَدوا عنِ الحقّ والصَّواب، وأضلُّوا كثيراً من أتباعِهم، نَتيجةَ خُروجِهم عن طريقِ الاستقامةِ والاعتدالِ إلى طَريقِ الشِّركِ والضَّلال.

عدم قبول الظلم

ومن صفاتِ المؤمنينَ أنهم لا يَقبلونَ الظلم، بل يَنتصرونَ لأنفسِهم إذا أرادوا. قالَ اللهُ تعالَى:
{وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ. وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ. وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ. إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ. وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} [سورة الشورى: ٣٩-٤٣].

أي: الذينَ إذا أصابَهم ظُلمٌ وإجحاف، انتصَروا لأنفُسِهم، وانتقَموا ممَّن ظلَمَهم، ولم يَكونوا عاجِزينَ أذِلاّء، وهم إنْ شاؤوا عفَوا، وغيرُهم قد يَتجاوزونَ في الانتِقام. والمؤمِنُ عَزيزُ النَّفسِ لا يُستَذَلّ، فإذا قَدَرَ عفا.

وجَزاءُ اعتِداءٍ هوَ المماثلَةُ فيه، يَعني القِصاص {فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ} [سورة البقرة: ١٩٤]. فمَن عَفا وتَجاوَزَ عن حَقِّه، وأصلحَ بينَهُ وبينَ مَن أساءَ إليه، فلهُ جَزاءٌ عَظيمٌ عندَ رَبِّه، واللهُ لا يُحِبُّ المعتَدين، الذينَ يَبدَؤونَ بالسيِّئة، أو يَتَجاوَزونَ الحدَّ في الانتِقام.

وللَّذي أخذَ بحَقِّهِ بَعدَما ظُلم، فلا بأسَ عليه، ولا يُعاقَب، فقد قامَ بعمَلٍ مَشروع.

إنَّما المؤاخَذَةُ على مَن ظَلَموا، فبَدَأوا بالاعتِداء، أو تَجاوَزوا في أخذِ حَقِّهم، ويُريدون البَغيَ والإفسَادَ في الأرضِ بغَيرِ وَجهِ حَقّ، فهؤلاءِ يَجِبُ أنْ يُمنَعوا مِنَ الظُّلم، ولهم عُقوبَةٌ شَديدَة.

ومَنْ صبَرَ على الأذَى، وعفَا عمَّن ظلَمَه، وتركَ الانتِصارَ لنَفسِهِ ابتِغاءَ وَجهِ اللهِ تَعالَى، فإنَّ ذلكَ الصَّبرَ والعَفوَ مِنَ الأخلاقِ الكَريمَة، والأفعالِ الحَميدَة، التي عَليها ثَوابٌ جَزيل.

الباب الثالث
الصفات والأحوال السيئة

الجزع

من الصفاتِ السَّيئةِ للإنسان، التي ينبغي ألّا يتَّصفُ بها المؤمِنون: الجزع، ويَنبغي أن يتغلَّبوا عليها بما أُوتُوا من إيمانٍ وصبرٍ وثبات.

قالَ الله سبحانه: {إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً. إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً. وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً. إِلَّا الْمُصَلِّينَ} [سورة المعارج: ١٩-٢٢].

معناها: لقد خُلِقَ الإنسَانُ شَديدَ الجزَع، إذا أصابَهُ بَلاءٌ وشِدَّةٌ فَزِعَ وتألَّمَ وانطوَى على نَفسِه!

وقالَ سُبحانهُ مذكِّرًا ومنبِّهًا:

{فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} [سورة الزمر: ٤٩].

معناه: إذا أصابَ الإنسَانَ بَلاء، مِن مرَضٍ وشِدَّةٍ وخَوف، تضرَّعَ إلينا في ذُلٍّ وصَغَار، وإذا آتَيناهُ نِعمَة، كزيادَةٍ في المالِ والولَد، وصِحَّةٍ وعافيَةٍ ورَفاهيَة، قال: إنَّما حصَّلتُ هذا بجُهدٍ منِّي ومَهارَةٍ في الإدارَةِ والتِّجارَة، فاستِحقَاقي ذلكَ هوَ عن جَدارَة. وليسَ الأمرُ كما زعَموا، بل هوَ اختِبارٌ وامتِحانٌ لهم فيما أعطَيناهُم، لنَنظُرَ ما الذي يَقولون، وماذا يَفعَلون، أيُطيعونَ أمْ يَعصُون؟ أيَشكرونَ أم يَكفُرون؟ ولكنَّ أكثرَهم لا يَعلَمونَ أنَّ الأمرَ كذلك، ولذلكَ فهم يَقولونَ ما يَقولون.

القلق والضيق

وصفَ اللهُ تعالى الحالةَ النفسيةَ لأهلِ الكفرِ فقال:

{وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى} [سورة طه: ١٢٤].

معناه: مَن خالَفَ هُداي، وكذَّبَ رسُلي، فإنَّهُ يَعيشُ في الدُّنيا حياةَ قَلَقٍ وحَيرَة، وشَكٍّ وحرَج، وضِيقٍ وشَقاء، وإنْ بَدا مُتنَعِّمًا. ويُضَيَّقُ عَليهِ في قَبرِه، ونَحشُرُهُ يَومَ القيامَةِ أعمَى البصَر.

الذلّ والصَّغار

عاقبَ الله تعالَى بني إسرائيلَ بالذلِّ والصَّغارِ نتيجةَ كفرهم وفسقِهم ومعاصيهم المتكررة. قالَ سبحانه:

{وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَآؤُوْاْ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ} [سورة البقرة: ٦١].

أي: وضعَ اللهُ عليهمُ الذُّلَّ والصَّغار، فلا يزالونَ كذلك، يَستذِلُّهم ويُهينُهم مَن وجدَهم، واستحقُّوا السُّخْطَ والغضبَ منَ اللهِ بما فعلوهُ مِن آثامٍ كبيرةٍ وذُنوبٍ عِظام، مِن كفرِهم بآياتِ اللهِ وحُجَجِهِ البيِّنة، واستكبارِهم عنِ اتِّباعِ الحقّ، وإهانتِهم وقتلِهم أفضلَ الخلقِ أجمعين: أنبياءَ اللهِ ورُسُلَه؛ فهذا جزاءُ مَن عصَى الخالقَ واعتدَى على خَلقه.

وقالَ في موضعٍ آخر:

{ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ المسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ} [سورة آل عمران: ١١٢].

أي أنَّ اللهَ ألزمَهمُ الذلَّةَ والمهانةَ أينما كانوا، وصارَ هذا مُلازماً لهم حتَّى استكنَّ في مشاعرِهم، ولن يَجدوا راحةً ولا استِقراراً إلاّ بذِمَّةٍ منَ الله، وهوَ أن يَكونوا ذِمِّيينَ في الدولةِ الإسلامية، يُلزَمونَ بدفعِ الجِزيَة، أو بعهدٍ منَ الناس، كأمانٍ منهم لهم، أو مُعاهداتٍ بينهم وبينَ دُوَلٍ كبرى يَتقوَّونَ بها.

لقد تَلبَّسوا بغَضَبِ اللهِ وأُلزِمُوا به، فلا يُغادرُهم ولا يَنفكُّ عنهم. وسببُ هذا الذلِّ المكتوبِ عليهم والغَضَبِ الذي يُلازمُهم، هوَ أنَّهم كانوا يَرفُضونَ اتِّباعَ الحقّ مهما كانَ واضِحاً وقويّاً، ويَكفرونَ بالحُجَجِ والمعجِزاتِ وهم يَرونَها عِياناً، وزَادوا على ذلكَ جَريمَةً لا يَرتكبُها إلاّ أكبرُ مُجرمِي البشرِ وأشقاهُم، وهوَ قتلُ الأنبياء، أصفَى البشَرِ وأنقاهُم سَريرة، وأحسنُهم خُلُقاً، وأعظمُهم قَدْراً، قَتلوهُم بدونِ أيّ مُبَرّر، وبدونِ أيِّ حَقّ، بل هَكذا سَوَّلتْ لهم نفوسُهمُ السيِّئةُ وقُلوبُهمُ السَّوداء؛ عِناداً وتكبُّراً وحَسَداً. فالذي دفَعهم إلى كلِّ هذهِ الجرائمِ هوَ عِصيانُهمُ المستَمِرُّ لأوامرِ الله، واعتدَاؤهم وظلمُهم.

الجهل

وصفَ اللهُ الإنسانَ بالجهل، وذلك لاغترارِه بعلمِه، وإذا علمَ أشياءَ ظنَّ أنهُ بحرٌ في العلم، والحقُّ أنهُ يجهلُ أكثرَ ممّا يعلم!

قالَ اللهُ تعالَى في بيانِ جهلهِ عندَما عُرِضَتْ عليه أمانةُ السماءِ والأرض:

{إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً} [سورة الأحزاب: ٧٢].

تفسيره: إنَّا عرَضْنا الفرائضَ والتَّكاليفَ على السَّماواتِ والأرضِ والجبال، وأوجَبْنا تلقِّيها بحُسنِ الطَّاعةِ والانقياد، والمحافَظةَ عليها وأداءَها وعدَمَ الإخلالِ بها، فإنْ أحسنَتْ أُثيبَت، وإنْ عصَتْ وضيَّعَتْ عُوقِبَت، عرَضْناها عَليها عَرْضَ تَخييرٍ لا إجبَار، فأبَتْ أنْ تَحمِلَ هذهِ الأمانَة، خَوفًا مِنْ أنْ لا تَقومَ بحَقِّها. وعرَضَ اللهُ هذهِ الأمانةَ على الإنسَان، إنْ قامَ بحَقِّها أُثيب، وإنْ ترَكَها

عُوقِب، فقَبِلَ حَملَها، وبيَّنَ استِعدادَهُ للالتِزامِ بها، والمحافظَةِ عَليها، وأدائها كما يَجِب، إنَّهُ كانَ بذلكَ مُفرِطًا في الظُّلمِ لنَفسِهِ والإضرارِ بها، مُبالِغًا في الجَهلِ بما قَبلَه، مُعتَدًّا بنَفسِهِ عندَما وافَقَ على شُروطِ هذهِ الأمانَةِ الصَّعبَة.

وقد فَرَضَ اللهُ الجِهادَ على المسلِمينَ وهوَ شاقٌّ عليهم، تَكرهُهُ النفوسُ وتَستَثقِلُه، ولكنْ رُبَّما كَرِهوا شيئاً وفيهِ خيرٌ لهم، فإنَّ نتيجتَهُ -إنْ شاءَ اللهُ- النصرُ على الأعداءِ وفتحُ بلادِ الكفرِ ورفعُ رايةِ الإسلام، أو الشهادةُ التي يَدخلُ بها المرءُ الجنَّة. وعسَى أنْ يحبُّوا شَيئاً وفيهِ شرٌّ لهم، فإنَّ القُعودَ عنِ الجهادِ والركونَ إلى الكسلِ والرفاهيةِ يُعطي نتيجةً عَكسيَّة، فيَستولي الأعداءُ على البلاد، ويَنهزمُ المسلِمون، ويَتحكَّمُ الكفّارُ في شؤونِهم.

فالجهادُ سَببٌ لحصولِ النصرِ والأمن.

ثمَّ قالَ الله تعالَى في آخرِ آيةِ القتَال:

{وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [سورة البقرة: ٢١٦].

يعني: واللهُ أعلمُ منكم بمآلِ الأمور، وأخبَرُ بما فيهِ صلاحُكم في دنياكم وآخِرَتِكم، فالتزِموا جانبَ الجهادِ والقُوَّة، فإنهُ أفضلُ لكم.

وقالَ اللهُ تعالَى في آخرِ الآيةِ (٢٣٢) من سورةِ البقرة، وفيها تشريعُ أحكامٍ في الأحوالِ الشخصية:

{وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ}.

أي: اللهُ يعلمُ ما يَصلُحُ بهِ شأنُكم، فيَشرَعُ لكم ما فيهِ خيرُكم، وأنتم لا تَعلمون، فذَروا رأيكم وامتَثِلوا أمرَه.

وقالَ سُبحانهُ في شؤونِ الرزقِ وأسرارِه التي لا يعلَمُها الناس:

(قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) [سورة سبأ: ٣٦].

أي إنَّ اللهَ يوَسِّعُ الرزقَ على مَن يَشاءُ مِن عِبادِه، مَن أحَبَّ منهم ومَن لم يُحِبّ، ويُضَيِّقُ على مَن شاءَ كَذلك، ابتِلاءً واختِبارًا منه، ولهُ حِكمَةٌ فيه، ولكنَّ أكثرَ النَّاسِ لا يَعلَمون، ولا يَنسِبونَ ذلكَ إلى حِكمَتِهِ تَعالَى.

وقالَ نوحٌ لقومه:

{وَلَكِنِّيَ أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ} [سورة هود: ٢٩].

أي: أراكُم تَجهَلونَ مِيزانَ المقارَنةِ والمفاضَلة، ومَعرِفَةَ الخَيرِ والشرّ، فالمرءُ ليسَ بمالِهِ وحَسَبِه...

الاغترار

اغترَّ أبُونا آدمُ ومعهُ أمُّنا حوّاءُ عليهِما السَّلامُ بكلامِ إبليس، وصدَّقَا حلفَهُ لهما إذا أكلَا من الشجَرة، وهما يعلَمانِ أنهُ عدوٌّ لهما، فكانت عاقبةُ الاغترارِ مؤلمةً جدًّا، وترتَّبَ عليه شيءٌ عظيم، فيه درسٌ وعبرةٌ لذرّيتِهِ إلى آخرِ عمرِ الدنيا:

{فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَآنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ. قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ. قَالَ اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ} [سورة الأعراف: ٢٢-٢٤].

أي: فحطَّهما الشَّيطانُ مِن دَرجةِ الطَّاعةِ إلى حالِ المعصية، بما غرَّهما مِنَ القسَمِ وطَمَعِ الخُلودِ في الجنَّة. فلمّا أكلا مِنَ الشَّجرةِ أكلاً يسيراً ظهرتْ لهما عوراتُهما، فجعلا يَرْقَعانِ ويُلْزِقانِ عليها مِن ورَقِ شَجَرِ الجنَّة، ونادَاهما ربُّهما لوماً وتوبيخاً: ألم أمنعْكُما مِنَ الأكلِ مِن تلكَ الشَّجرة، وأقلْ لكما إنَّ الشَّيطانَ ظاهرُ العداوةِ لكما فلا تُطيعاه؟

قالَ آدم وحوّاء: ربَّنا إنَّنا أضرَرْنا بأنفسِنا عندما عَصينا أمرَك، وإذا لم تَغفِرْ لنا هذا الذَّنب، وتَرحَمْنا بالرِّضَى عنّا، فسنَكونُ منَ الهالِكين.

قالَ اللهُ لهما ولإبليس، بما معناه: انزِلوا مِنَ الجنَّةِ إلى الأرضِ ليَكونَ بَعضُكم عدوًّا لبعض، ولكم في الأرضِ استقرارٌ لمدَّةٍ محدودة، في آجالٍ مَعلومَة...

والوصيةُ التي وصَّى اللهُ تعالَى بَني آدمَ بعدَ هذه الحادثةِ المؤلمة: {يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ} [سورة الأعراف: ٢٧]:
يا بَني آدم، لا يُوْقِعنَّكمُ الشَّيطانُ في الفِتنةِ والمحنَة، بأنْ يوَسوِسَ لكم ويحسِّنَ في قُلوبِكمُ الباطِلَ فتُطيعوه، كما فتنَ أبويكم آدمَ وحوّاءَ بذلكَ فأخرجَهما مِن دارِ النَّعيمِ إلى دارِ التعَبِ والعَناء.

وقالَ سبحانهُ فيمَن غفل، فغرَّتهُ الحياةُ الدنيا، فضلّ:
{وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ} [سورة الأنعام: ١٣٠].
أي: غرَّتهم الدُّنيا وألهتْهُم بزينتِها وشَهواتِها، فاتَّبعوا الشَّهوات، وخالَفوا الحقَّ مِن كلامِ الرسُل، وشَهِدوا على أنفسِهم يومَ القيامةِ أنَّهم كانوا كافِرينَ في الدُّنيا بالآياتِ والنذُر.

وقالَ المغترُّون بمباهجِ الدنيا حينَ رأوا خزائنَ قارون:
{يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ} [سورة القصص: ٧٩]:
قالوا: يا لَيتَ لنا مِنَ الأموَالِ والخدَمِ والزّينَةِ مثلَما أُعطِيَ قارُون، لا شَكَّ أنَّهُ ذو حَظٍّ وافِرٍ وحَياةٍ سَعيدَة.
فقالَ لهمْ أهلُ العِلمِ والتَّقوَى:
{وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ} [سورة القصص: ٨٠].
قالوا لهم: بئسَ ما قُلتُم، إنَّ ما عندَ اللهِ مِنَ الثَّوابِ والأجْرِ في اليَومِ الآخِرِ أفضَلُ ممَّا تتَمَنَّونَهُ في الحيَاةِ الدُّنيا، هذا لمن آمنَ بصِدقٍ وعَمِلَ العمَلَ الصَّالِح، ولا يُؤتَى ذلكَ إلاّ الصَّابِرونَ على طاعَةِ الله، الصابِرونَ عنِ المعاصِي والشَّهوات.
وكانتِ النتيجة:
{فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ المنتَصِرِينَ} [سورة القصص: ٨١].

معناه: في يَومِ زينَتهِ وفَخرِهِ وطُغيانِهِ خسَفنا بهِ وبِدارِهِ وأموالِهِ الأرض، فابتلَعَتْهم، وغارَتْ بهم، فما كانت هُناكَ جَماعَةٌ مِن أنصارِهِ تَدْفَعُ عنهُ نِقمَةَ اللهِ وعَذابَه، وما كانَ هوَ قادِرًا على الانتِصارِ لنَفسِه.

والدرسُ والعبرةُ في هذا:

{وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ} [سورة القصص: ٨٢].

تفسيره: أصبَحَ الذينَ رَأوا قارُونَ في زينَتِهِ وتمَنَّوا أنْ يَكونُوا في مَكانِهِ ومَنزِلَتِه بالأمسِ القَريبِ يَقولون، وقد نَدِموا على ما قالُوا: عجبًا! إنَّ اللهَ سُبحانَهُ يُعطي المالَ مَن يَشاءُ مِن عِبادِهِ ولا يَعني هذا أنَّهُ يُحِبُّهم ويَرضَى عَنهم، ويَمنَعُهُ ممَّن يَشاءُ ولا يَعني أنَّهُ يَكرَهُهم ويُهينُهم، فلَهُ الحِكمَةُ في ذلك، ولولا لُطْفُ اللهِ بنا وتَجاوزُهُ عن تَقصيرِنا فيما تَمَنَّيناه، لخسَفَ بنا الأرضَ كما خسَفَ بقارُون. ألم ترَ أنَّ الكافِرينَ بنعمَةِ اللهِ لا يَسعَدونَ ولا يَفوزون؟

وقالَ اللهُ ناصحًا عبادَه، رحمةً بهم، وشفقةً عليهم:

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ. إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ. الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ} [سورة فاطر: ٥-٧].

تفسيره: أيُّها النَّاس، إنَّ قِيامَ السَّاعَةِ حَقٌّ لا رَيبَ فيه، فلا تُلهيَنَّكمُ الحَياةُ الدُّنيا بزينَتِها ونَعيمِها عنِ الآخِرَة، ولا يَخدَعَنَّكم الشَّيطانُ ويَصرِفَنَّكم عنِ اتِّباعِ الحقّ، بكيدِهِ وتَزيينِهِ الشرَّ والمعاصيَ في نفُوسِكم.

إنَّ الشَّيطانَ عَدوٌّ قَديمٌ لكم، فاجعَلوهُ أنتُم أيضًا عَدوًّا لكم، وكونُوا على حذَرٍ منهُ حتَّى لا يُضِلَّكم، فإنَّهُ يَجهَدُ في دَعوَتِكم إلى الكُفرِ والضَّلال، لتُوافِقوه، وتَدخُلوا معَهُ عَذابَ السَّعير.

الذينَ كفَروا وكذَّبوا رسُلَ اللهِ مَصيرُهم عَذابٌ مؤلِمٌ قاس، جَزاءَ كُفرِهِم وطاعَتِهِمُ الشَّيطان، والذينَ آمَنوا وأخلَصوا في إيمانِهم، وأتبَعوهُ بالعمَلِ الصَّالِح، فأولئكَ يَغفِرُ اللهُ ما فرَطَ منهم مِن ذُنوب، ولهم ثَوابٌ عَظيم.

اتباع الظن

المطلوبُ من المسلمِ أن يتَّبعَ اليقين، لا الظنّ. قالَ الله تعالَى:

{وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً} [سورة الإسراء: ٣٦].

أي: لا تَتَّبِعْ ما لا عِلمَ لكَ به، ولا يَختَلِطْ عَليكَ الوَهمُ واليَقين، فيَلزَمُ التثَبُّتُ من صحَّةِ الخَبَرِ والواقِعَة، ولولا ذلكَ لاختلَطَ الحَقُّ بالباطِل، وأُخِذَ النَّاسُ بالظَّنِّ والخبَرِ الوَاهي، وجَوارِحُ الإنسانِ أمانَةٌ عِندَه، كالسَّمع، والبَصَر، والفؤاد، فكُلُّها مَسؤولَةٌ تُحاسَبُ على وظيفَتِها.

وإنَّ اتِّباعَ الظنِّ يؤدِّي إلى الضَّلال:

{وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ} [سورة الأنعام: ١١٦].

معناه: إذا أطعتَ أغلبَ الناسِ فإنَّهم يَصرفونَكَ عنِ الحقّ ويُبعِدونكَ عنِ الهُدى، ذلكَ أنَّهم مُقيمونَ في عَقائدِهم وأفكارِهم الشركيَّةِ والكفريَّةِ على الظنونِ والنظريّاتِ الباطِلة، الناشئةِ عنِ الجهلِ والضَّلال، فليسُوا على يَقينٍ من أمرِهم، بلْ هم يَكذبونَ في دعاويهم.

فالظنُّ ليسَ كافيًا للتصديقِ والإيمان، وليسَ هو من شأنِ المؤمنين.

والذينَ ادَّعَوا قتلَ عيسى عليهِ السَّلامُ لم يكونوا على صَواب، بل كانوا هم أنفسُهم في شكٍّ وحَيرةٍ من ذلك، غيرَ متأكِّدينَ منه، بل كانوا مُتردِّدين، ومتَّبِعينَ الظنّ، لا علمَ حَقيقيٌّ عندَهم بذلك. وما قَتلوا عيسَى يَقيناً.

قالَ الله تعالَى:

{وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا. بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا} [سورة النساء: ١٥٧-١٥٨].

ومعتقداتُ المشركينَ ظنيَّة:

{وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنّاً إَنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً إِنَّ اللّهَ عَلَيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ} [سورة يونس: ٣٦].

معناه: أكثرُ المشرِكينَ لا يَتَّبِعونَ في دِينِهم حُجَجًا ولو كانت واهية، بل هيَ ظُنونٌ وأوهامٌ وتَخَيُّلاتٌ لا تَستَنِدُ إلى أَساس، فهم يَظنُّونَ أنَّ للهِ شُركاء، ولكن لا يَتحقَّقونَ منه. وهكذا مُجادلاتُهم ومُحاوراتُهم التي يُدافِعونَ بها عن آرائهم ومُعتَقداتِهم، وإنَّ الظنَّ الفاسِدَ لا يُحَقِّقُ لهم شَيئاً مِنَ الحقّ، واللهُ عَليمٌ بأفعالِهم السيِّئة، وإعراضِهم عنِ الحقِّ المبين.

وجادَلوا بالباطِلِ وقالوا: لو شاءَ اللهُ ما أشرَكنا! فهل شَهدوا مشيئةَ الله حتَّى يَقولوا ذلك؟ إنما هو جدالٌ وخصومةٌ وعنادٌ واتِّباعٌ للظنِّ من قِبَلِهم، فقالَ الله:

{قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إَلاَّ تَخْرُصُونَ} [الأنعام: ١٤٨]

أي: هل عندكم كتابٌ أو حجَّةٌ ظاهِرةٌ أو أمرٌ مَعلومٌ من عندِ اللهِ بصدقِ ما أنتُم عليهِ منَ الشِّركِ وتَحريمِ ما حرَّمتُموه، حتَّى تُبرِزوهُ لنا لنطمَئنَّ إلى ذلك؟ إنَّ الذي تتَّبعونَهُ ما هوَ إلاّ وَهمٌ واعتِقادٌ فاسِد، وما أنتُم بهذا إلاّ تَكذِبونَ على الله، فإنَّ اللهَ لا يرضَى لعبادهِ الكفرَ والشِّركَ والفَواحِش، وكيفَ تُحِيلونَ شركَكم إليهِ وأنتُم لم تَشهَدوا مَشيئتَه؟ ولماذا أرسَلَ إليكم عذابَهُ؟ فلو كانت شُبهتُكم صَحيحةً لما أذاقَكم العَذاب.

الكذب والتزوير، شهادة الزور

والكذبُ والافتراءُ وتحريفُ الكلامِ وتزويرهُ من أقبحِ الصفاتِ وأخطرِها على الإنسَان، قالَ الله تعالَى مبيِّنًا ومحذِّرًا:

{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ} [سورة الأنعام: ٢١].

أي: ليسَ هناكَ أظلَمُ ولا أكذَبُ مِن الذي تَقوَّلَ على اللهِ فادَّعى أنَّهُ رسولٌ مِن عندِ اللهِ وليسَ هوَ كذلك، وممَّن ادَّعَى أنَّ لهُ شَريكاً وهوَ الواحِدُ الأحَد، أو كذَّبَ بالمعجِزاتِ التي أنزَلها اللهُ على رسولِه، الدالَّةِ على صِحَّةِ رسالتهِ وقالَ إنَّها سِحر، أو كذَّبَ بالقُرآنِ وقالَ إنَّهُ مِن كلامِ

البَشر. ولا يُفلِحُ الظَّالمونَ منَ المفتَرِينَ والمكذِّبينَ أبداً، وسيَظهَرُ كذبُهم وباطِلُهم في الدُّنيا، وتَفتَحُ لهم جهنَّمُ أبوابَها يومَ القيامَة.

وقالَ معيِّرًا بني إسرائيلَ في هذا:
{فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـذَا مِنْ عِندِ اللّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ} [سورة البقرة: ٧٩].
أي: وفريقٌ آخَرُ منكم يَدعونَ إلى الضلال، فيُزوِّرونَ ما في التوراة، يَكتبونَ بأيديهِم ما ليسَ مِنهَا ويقولونَ إنهُ مِن عندِ الله، مُقَابِلَ هَدَفٍ حَقِيرٍ وَطَمَعٍ زَائِل، هوَ أن يُعطَوا مَبلغاً زهيداً منَ المال! فالهلاكُ والعذابُ لهؤلاءِ المزَوِّرين، الذينَ يكتبونَ بأيدِيهِمُ الكذبَ والافتراء، وَوَيلٌ لَهُم مِن كَسْبِهِمِ الدَّنِيءِ وَمَا أكلوا بهِ مِنَ السُّحت.

وقالَ فيهم أيضًا:
{وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [سورة آل عمران: ٧٨].
أي أنَّ هناكَ جماعةً مِن أهلِ الكتاب، وكانوا يهوداً، يَميلونَ عنِ المنْزَلِ إلى المحرَّفِ منَ الكتاب، بتَحريفِ اللَّفظَةِ في حرَكاتِ الإعرابِ تَحريفًا يتغيَّرُ بهِ المعنَى، إمعاناً في التَّزييف، أو تأويلاً للنصوصِ ولَيِّها؛ لتُوافِقَ أهواءَهم، وليوهِمُوا الجَهلةَ أنَّهُ حُكمُ اللهِ في كتابِه، وليسَ هوَ من عندِ الله، بل هم كاذِبونَ مُفترون، وهم يَعرِفونَ ذلكَ ويَتعمَّدونَه.

وكذلك في قولهِ سبحانه:
{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلاَلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ السَّبِيلَ} [سورة النساء: ٤٤]:

ألا تَنظرُ أيُّها النبيُّ وتَعْجَبُ مِن حالِ اليَهودِ الذينَ أُوتوا حَظاً مِنَ العلمِ بالكتابِ الذي أُنزِلَ عَليهم، فيُعرِضونَ عمّا أَنزَلَ اللهُ عَليك، ويَتركونَ ما بأيديهِم مِنَ العلمِ ليَشتَروا بهِ ثَمناً قَليلاً مِن مَتاعِ الدُّنيا، فيُحَرِّفونَ فيهِ ويُزَوِّرونَ منهُ مُقابِلَ رِشًا وهَدايا، معَ علمِهِم بما يُقْدِمونَ عليه!
ومعَ ضلالِهِم هذا وتَكذيبِهِم النبيَّ صلى الله عليه وسلم وكتمِهِم صفاتِه، يُريدونَ منكم أنْ تَضِلُّوا مثلَهم، فتَكفُروا كما كَفَروا، وتَترُكوا ما أنتم عليهِ مِنَ الهُدَى والعلمِ النافِع!

وهذا من عملِ الشَّيطانِ وإغوائه:
{إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاء وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ} [سورة البقرة: ١٦٩].
أي: إنَّما يأمرُكمُ الشيطانُ بافتِراءِ الكذِبِ على الله، بأنْ تقولوا إنَّهُ حرَّمَ شَيئاً، وهوَ ما لا تَعلمونَ أنَّهُ حرَّمَه.

والتزويرُ ينالُ أمورًا كثيرة، مثلَ الكذبِ على الغَير:
{وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً} [سورة النساء: ١١٢].
معناها: مَن يَعملْ عَملاً سيِّئاً أو يَقترِفْ ذَنباً كبيراً، ثمَّ يتَّهِمْ بهِ بَريئاً، فقدِ ارتكبَ فِعلاً بَغيضاً، وكذَبَ على الغيرِ كَذِباً شَنيعاً، واقترَفَ ذَنباً عَظيماً، واضِحاً مُبيناً.

ومثلَ تغييرِ الوصيَّة، قالَ الله تعالَى:
{فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [سورة البقرة: ١٨١].
أي: فمَنْ غيَّرَ الوصيَّةَ وحرَّفَها، بزيادةٍ أو نَقص، أو كِتمان، عنِ الأوصياء، أو الأولياء، أو الشهود، بعدَما سمعَ قولَ الموصِي أو وصلَ إليه وتحقَّقَ لديه، فإنَّ إثمَ التغييرِ والتبديلِ على مَن فعلَ ذلكَ وخانَ الأمانة، ولا شَيءَ على الموصِي.
وإنَّ اللهَ سميعٌ لِما قالَ الموصِي، عليمٌ بتحريفِ المبدِّلِ وخيانتِه، ويَنتَظِرُهُ عِقابٌ شَديد.

ومثلَ قَذفِ المحصَناتِ والشَّهادةِ بالزور:

{إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [سورة النور: ٢٣].

معناه: إنَّ الذينَ يَقذِفونَ العَفيفات، البَعيداتِ عنِ التُّهَم، المؤمِناتِ، بالزِّنا، أُبعِدوا منَ الرَّحمَة، فعُذِّبوا في الدُّنيا بالحَدّ، وفي الآخِرَةِ بالنَّار، ولهم معَ اللَّعنِ عَذابٌ كبيرٌ هائل.

وشهادةُ الزورِ عمومًا ليستْ من صفاتِ عبادِ الرحمنِ الطيبين:

{وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ} [سورة الفرقان: ٧٢].

معناه: مِن صِفاتِ عِبادِ الرحمنِ المتَّقين، أنَّهم لا يُدْلُونَ بشَهاداتٍ كاذِبَة، ولا يُساعِدونَ أهلَ الباطِلِ على باطِلِهم بالكَذِبِ المتعَمَّد، فهذا مِن أكبرِ الكبائر، وقد قُورِنَ بالشِّرْكِ وعُقوقِ الوالِدَين، كما في الحديثِ الذي أخرجَهُ الشَّيخانِ وغيرُهما، مِن حَديثِ أبي بَكرَةَ المرفوع، واللفظُ لمسلِم: "ألَا أُنَبِّئكم بأكبَرِ الكبائرِ (ثلاثًا)؟: الإشراكُ بالله، وعُقوقُ الوالِدَين، وشَهادَةُ الزُّور، أو قَولُ الزُّور. وكانَ رَسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم مُتَّكِئًا، فجلَسَ، فما زالَ يُكَرِّرُها، حتَّى قُلنا: لَيتَهُ سَكت".

ولعنَ اللهُ الكذَّابين...

{قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ. الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ. يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ. يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ. ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ} [سورة الذاريات: ١٠-١٤].

أي: لُعِنَ الكذَّابونَ مِن هؤلاءِ الضَّالِّينَ المختَلِفين،

الذينَ هم في جَهلٍ وغَفلَةٍ عَظيمَة، لاهونَ، غَيرُ مُكتَرِثينَ بأمرِ الآخِرَة.

يَقولونَ تكذيبًا واستِهزاءً واستِعجالاً له: متَى يَكونُ يَومُ الجزاء؟

إنَّ هذا الجَزاءَ يَكونُ يَومَ يُعذَّبونَ ويُحرَقونَ في النَّار.

ذوقُوا عَذابَكمُ المهيَّأَ لكم، الذي كنتُم تُكذِّبونَ بهِ في الدُّنيا، وتَستَعجِلونَهُ هُزءًا وسُخريَة.

والهلاكُ والعذابُ لكلِّ كذَّاب، عاصٍ لربِّه:

{وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ} [سورة الجاثية: ٧].

تضييع الحق في مقابل دنيا زائلة

وشنَّعَ اللهُ على قومٍ يطلبونَ دنيا ولو كان في مقابلِ حقٍّ يضيّعونه، فقالَ سُبحانه:

{إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآَخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [سورة آل عمران: ٧٧].

أي: إنَّ الذينَ يَستَبدِلونَ بما عَهِدَ اللهُ إليهم، منَ الإيمانِ بالرسولِ صلى الله عليه وسلم، وبما حَلَفوا بهِ من قولِهم: "واللهِ لنُؤمِنَنَّ بهِ ولنَنْصُرَنَّه"، يَستبدلونَ بهذا أثماناً زَهيدةً مِن حُطامِ الدنيا وعُروضِها الزائلة، فيَخونونَ العهدَ مُقابلَ ذلكَ ويَغدِرونَ بالأمانة، فهؤلاءِ لا نَصيبَ لهم في نَعيمِ الآخِرَة، ولا يكلِّمُهمُ اللهُ بشَيءٍ يَسُرُّهم، ولا يَنظرُ إليهم نظرَ رَحمةٍ يومَ الحِساب، ولا يُثني عَليهم، ولا يُطَهِّرُهم مِن آثامِهم وذُنوبِهمُ المتراكِمة، بل يُعْرِضُ عنهم ويَسخَطُ عليهم ويَقذِفُ بهم إلى النارِ ليُعَذَّبوا فيها.

والآيةُ عامَّةٌ في هذا وغَيرِه، فقد وردَ في الصحيحِ أنَّها نزلتْ فيمَن يَحلِفُ باللهِ على شيءٍ ولا يُبالي، فقالَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: "مَنْ حَلَفَ على يَمينٍ يَستَحِقُّ بها مالاً وهوَ فيها فاجِر، لَقِيَ اللهَ وهوَ عليهِ غَضبان". فأنزلَ اللهُ تصديقَ ذلك، كما رواهُ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ في صحيحِ البخاريِّ وغيرِه.

الغفلة، النسيان، اللامبالاة

قالَ اللهُ تعالَى في أوَّلِ سورةِ الأنبياءِ منبِّهًا ومحذِّرًا من الغَفلة:

{اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ}.

أي: اقترَبَ يومُ الحِساب، ووَزنُ الأعمال، والنَّاسُ في غَفلَةٍ عَظيمَةٍ، لا يَتفكَّرونَ في مَآلِهم، ولا يَعمَلونَ له.

وقالَ في الغَفلةِ واللامُبالاةِ التي تصيبُ بعضَ الناس:

{وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ} [سورة يوسف: ١٠٥].

معناه: كم مِن آياتٍ دالَّةٍ على وَحدانيَّةِ اللهِ وقُدرتِهِ مَبثوثَةٍ في السَّماواتِ والأرض، مَعروضَةٍ أمامَ الأعيُن، يُشاهِدُها النَّاس، ولكنَّهم لا يَتفكَّرونَ فيها، ولا يَعتَبرونَ بها، للأُلفَةِ والعَادةِ التي هُم عَليها، فاكتَفَوا برُؤيتِها هكذا دونَ التعمُّقِ فيها ومَعرِفةِ الحِكمةِ منها، ولذلكَ لا تَجِدُ أكثرَهُم مؤمنين.

وقالَ في غَفلةِ المشركين:
{مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مَّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ} [سورة الأنبياء: ٢-٣].
أي: ما يَنزِلُ إليهم أمرٌ جَديدٌ مِنَ القُرآنِ فيهِ تَذكيرٌ وإنذَار، إلاّ استَمَعوهُ بنُفوسٍ لا مُبالِية، لاهِينَ مُستَهزئين، غيرَ جادِّينَ ولا مُتدَبِّرين، لا يَعتَبِرونَ ولا يتَّعِظون.
قُلوبُهم ذاهِلَةٌ غافِلَة.

وقالَ سُبحانهُ أيضًا:
{أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءهُمُ الْأَوَّلِينَ} [سورة المؤمنون: ٦٨].
معناه: أفلَم يتدَبَّروا القُرآن، ويتَفهَّموا أحكامَهُ وأخبارَه، ووَعدَهُ ووَعِيدَه، ليَعتَبِروا، ويَعرِفوا أنَّهُ كتابٌ سَماويٌّ مُعجِز، وبُرهانٌ على صِدقِ النبيِّ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم؟

وقالَ الله معيبًا على الكافرينَ عدمَ تفكُّرِهم وتدبُّرِهم:
{أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى} [سورة الروم: ٨].
معناه: ألا يَتفَكَّرونَ في أنفُسِهم وطَبيعَةِ تَكوينِهم وهَيئتِهم، وفيما حَولَهم مِن أعاجِيبِ الخَلق، وهذهِ السَّماواتِ الكبيرَة، والأرضِ وما فيها، وما بينَهما، وأنَّ اللهَ لم يَخلُقْهما إلاّ بالحَقِّ والعَدل، ولِحِكمَةٍ وفائدَة، وهُما مَخلوقانِ إلى أجَلٍ مُحَدَّد، هوَ يَومُ القيامَة.

وعندَما تكونُ الغَفلةُ عن آياتِ الله، وعدمِ الإيمانِ بالحسابِ والعقاب، تكونُ العاقبةُ سيِّئة:

{إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا وَرَضُواْ بِالْحَياةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّواْ بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ. أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمُ النُّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ} [سورة يونس: ٧-٨].

معناه: إنَّ الذينَ كفَروا بيَومِ البَعث، وقالوا لا جَزاءَ على الأعمَال، واكتَفَوا بما هم فيهِ وعَليهِ مِنَ الحياةِ الدُّنيا ومَظاهِرِها، ورَكَنوا إليها دونَ أنْ يُفكِّروا بثَوابٍ أو عِقاب، وغَفَلوا عن آياتِ اللهِ المبثوثَةِ في الكون، ولم يَتفكَّروا فيها كما يَنبغي، ولم يَعرِفوا الحِكمةَ من خَلقِهم ومِن خَلْقِ الدنيا كلِّها، أولئكَ مَقَرُّهمُ النارُ في يَومِ القِيامة، جَزاءَ ما كانوا يَعمَلونَ مِن آثام، ولا يَعتَبِرونَ من آيات، ولا يَستَجيبونَ لِنداءِ الحَق، ولا يَقومونَ بوَظيفةِ المخلوق.

وذكرَ اللهُ تعالَى جزاءَ نِسيانِ ما ذُكِّرَ به أقوام، فقال:

{فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ} [سورة الأنعام: ٤٤].

معناه: لما أعرَضوا عمّا ذكَّرْناهُم به، ونَسُوا ما وُعِظوا به، وخالَفوا ما أُمِروا بهِ من قِبَلِ رُسلِهم، وانهمَكوا في مَعاصيهم، حقَّ عليهمُ العَذاب، وحانَ وقتُ العِقاب، فأعطيناهم منَ الدُّنيا ما يَشتَهون، وجعَلناهُم في نِعمَةٍ ورَخاء، بدلَ الشدَّةِ والبَلاء؛ مكراً بهم واستِدراجاً لهم. حتَّى إذا اتَّخَموا وبَطِروا بما عندَهم من أموالٍ وأرزاقٍ ونِعَم، ولم يَقومُوا بحقِّها، عاقَبناهُم فَجأة، وأنزلنا بهمُ العَذابَ وهم غافِلون، وكانوا في قِمَّة فرَحِهم وسَكرَتِهم، ليَكونَ العَذابُ أوقعَ فيهم وأوجَع، فإذا هم آيسِونَ منَ النَّجاةِ والرَّحمَة، أذلَّةٌ خاضِعون، ساكتونَ مُكتَئبون.

وقالَ سُبحانهُ في المنافِقين، الذين نَسُوا الله:

{نَسُواْ اللّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} [سورة التوبة: ٦٧]:

لقد نَسُوا ذِكرَ اللهِ وتَركوا طاعتَه، فعامَلَهم اللهُ مُعامَلةَ مَن نَسيَهم، فحَرَمَهم مِن تَوفيقهِ وهِدايتِه، ومنعَ لُطفَهُ وفَضلَهُ عنهم. إنَّ المنافِقينَ خارِجونَ عن الطَّاعة، بَعيدونَ عنِ الحقّ.

وعندَما رَأوا أهوالَ القِيامةِ عرفُوا أنَّهم كانوا في غَفلة!

{وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ} [سورة الأنبياء: ٩٧].

أي أنَّهم قالوا: يا هَلاكَنا ويا حَسرَتَنا، لقد كُنَّا في الدُّنيا غافِلينَ عن هذا الذي حصَلَ لنا مِنَ الحِسابِ والجَزاء، بل كُنّا مُعتَدِين، مُجانِبينَ الحَقّ، عندَما كذَّبْنا بآياتِ اللهِ ورُسُلِه، وعَبَدْنا ما لا يُعْبَدُ.

وفي جزاءِ من تعمَّدَ النسيانَ في يومِ القيامة، وهو الإعراضُ واللامبالاةُ:

{قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً. قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى} [سورة طه: ١٢٥-١٢٦].

معناه: يَقولُ العَبدُ لرَبِّهِ يومَذاك: يا رَبّ، لماذا أعمَيتَ عَينيَّ وقدْ كنتُ أرَى بهما في الدُّنيا؟

فيَقولُ لهُ رَبُّه: إنَّكَ كما أعرَضْتَ عن هِدايَتي وآياتي البيِّنَةِ الواضِحَة، فتعامَيتَ عنها وتركتَها غَيرَ مُبالٍ بها، فكذلِكَ تُعامَلُ مُعاملَةَ مَن يَنساكَ في هذا الموقِف، وتُتْرَكُ أعمَى هكذا، فالجزاءُ مِن جنسِ العمَل.

عدم العمل بالعلم

المؤمنُ يعملُ بما عَلِم، ويعملُ بما يَقول، وإذا لم يَفعلْ فقد أدانَ نفسَهُ بنَفسِه!

قالَ الله تعالَى لبني إسرائيل:

{أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ} [سورة البقرة: ٤٤].

تفسيرها: أتَطلُبونَ مِنَ الناسِ أنْ يَعمَلوا الخيرَ ولا تَعملونَ أنتم به، وعندَكمُ العِلم، بما تقرؤونَهُ في الكتُب، وتَعلمونَ جزاءَ مَن خالفَ أمرَ اللهِ في ذلك؟ ألا تتنبَّهونَ إلى خطأ ما أنتم فيهِ وخطَرِهِ عليكم؟ فهلاّ اتَّصفتُم بالعقلِ وعمِلتمُ الخيرَ كما تأمرونَ بهِ الناس؟

وعاتبَ اللهُ مَن لم يَعملْ بما قالَ ووعَد، فقالَ سُبحانه:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ}؟ [سورة الصف: ٢].

أي: لماذا تَقولونَ قَولاً، وتَعِدُونَ وَعدًا، ثمَّ لا تَفُونَ بهِ ولا تَلتزِمون؟

وكانَ ناسٌ مِنَ المؤمِنينَ قَبلَ أنْ يُفرَضَ الجِهادُ يَقولون: لوَدِدْنا أنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ دَلَّنا على أحَبِّ الأعمَالِ إليهِ فنَعمَلَ به، فأخبرَ اللهُ نبيَّهُ أنَّ أحبَّ الأعمال: إيمانٌ بهِ لا شَكَّ فيه، وجِهادُ أهلِ مَعصيَتِهِ الذينَ خالَفوا الإيمَانَ ولم يُقِرُّوا به. فلمَّا نزلَ الجِهادُ كَرِهَ ذلكَ ناسٌ مِنَ المؤمنينَ وشَقَّ عَليهِمْ أمرُه. فنزَلَتِ الآيات. قالَهُ ابنُ عبَّاسٍ رَضيَ اللهُ عَنهما.

وقالَ ربُّنا الجليلُ في اليهودِ الذين لم يَعملوا بالتَّوراة:
{مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [سورة الجمعة: ٥].
تفسيرها: مثَلُ الذينَ أُعطُوا التَّوراةَ وكُلِّفوا العملَ بها والقِيامَ بحَقِّها، ثمَّ لم يَعملوا بها ولم يُؤَدُّوا حقَّها، كمثَلِ الحِمارِ يَحمِلُ كُتبًا وهوَ لا يَدري ما فيها ولا يَنتفِعُ بها. واليَهودُ قرَؤوا التَّوراةَ وعَلِموا ما فيها ولكنَّهم لم يَعمَلوا بمُقتَضاها، بل أوَّلوا وحرَّفُوا وبدَّلوا، فبئسَ القَومُ هم، الذينَ كذَّبوا بآياتِ اللهِ وكتُبِه، وسعَوا في تَبديلِ كلامِهِ وتَغييرِه، واللهُ لا يَهدي الظَّالِمينَ الذينَ تَجاوَزوا الحقَّ، ووَضَعوا التَّكذيبَ في مَوضِعِ التَّصديق.

العصيان وعمل الفواحش

وهو شأنُ الكافرين والمنافقين، ويُبتلَى به مسلِمونَ حينَ يَغلبُهم الشَّيطان.
قالَ اللهُ تعالَى في شأنِ الكافرين:
{وَجَاء فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ. فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً} [سورة الحاقة: ٩-١٠].
أي: جاءَ فِرعَونُ ومَن قَبلَهُ مِنَ الأُمَمِ الكافِرَة، وقُرَى قَومِ لُوطِ المنقَلِبات، بالشِّركِ والمعصيَةِ والأفعالِ الشَّنيعَة.
فَكذَّبَ كلٌّ رسولَ اللهِ إليهم وخالَفوه، فأخذَهمُ اللهُ بعَذابٍ شَديدٍ زائد.

وقالَ سُبحانه:
{وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ. وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ} [سورة المرسلات: ٤٨-٤٩].

أي: إذا قيلَ لهؤلاءِ الكافِرينَ في الدُّنيا أطيعُوا اللهَ واعبُدوه، وصَلُّوا لهُ كما يُصَلِّي المسلِمون، لا يَقبَلونَ ذلك، ويُصِرُّونَ عل الكُفر.

فالوَيلُ والعَذابُ يَومَ القيامَةِ لهؤلاءِ الكافِرينَ المجرِمين، لإصرارِهم على الكُفرِ والعِصيان، وتَكذيبِهم بيَومِ الدِّين.

وليَعلَمِ العاصِي أنَّهُ ضالٌّ منحَرِف:

{وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُّبِيناً} [سورة الأحزاب: ٣٦].

أي: مَن يَعْصِ اللهَ ورَسُولَهُ ويَعْمَلْ برَأيِهِ وهَواه، دونَ حُكمِ اللهِ ورَسُولِه، فقد ضَلَّ عن طَريقِ الحقّ، وانحرَفَ انحِرافًا بَيِّنًا.

فمن عصَى وعملَ الفاحشةَ فإنَّما أطاعَ الشَّيطان، فإنَّ هذا شأنهُ في الإغواءِ ونشرِ الفاحشة، قالَ الله تعالَى:

{إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاء} [سورة البقرة: ١٦٩].

أي: إنَّما يأمرُكمُ الشيطانُ بالمعاصِي وبالأعمالِ السيِّئةِ والفواحشِ الدَّنيئة.

وكما قالَ سبحانه:

{الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالفَحْشَاءِ} [سورة البقرة: ٢٦٨].

أي: الشيطانُ يأمرُكم بالمعاصي وارتكابِ المحَرَّمات، ويُغرِيكم على البُخلِ ومنعِ الصَّدقات.

وقالَ الجليلُ أيضًا:

{إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [سورة النور: ١٩]

معناه: إنَّ الذينَ يُحِبُّونَ أنْ تنتَشِرَ الفَواحِشِ والمنكَراتُ والأخبَارُ السَّيِّئةُ في المجتَمعِ الإسلاميّ، لهم عَذابٌ شَديدٌ في الحَياةِ الدُّنيا، وهوَ إقامَةُ الحَدِّ عَليهم، أو ما يُناسِبُهُ من تَعزير، معَ ما يَبتَليهمُ

اللهُ مِنَ البَلايا والمِحَن، وفي الآخِرَةِ لهم عَذابُ النَّار. واللهُ يَعلَمُ الأمُورَ وما يُناسِبُها مِن وَعيد، وأنتُم لا تَعلَمونَ ما يَعلَمُه، فرُدُّوا إليهِ الأمُورَ تَرشُدوا وتَنجُوا.

والزنا من أكبرِ الفَواحِش. قالَ الله تعالَى:
{وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً} [سورة الإسراء: ٣٢].
معناه: لا تَقتَرِبوا منَ الزِّنا، ولا تَتعاطَوا أسبابَهُ ودَواعيه، فإنَّها تُقَرِّبُ إلى الزِّنا. وهوَ من كبائرِ الذنوبِ والفَواحش، ومَسلَكٌ سَيِّء، يورِثُ الانحِلالَ الخُلُقيّ في المجتَمَع، وتَضيعُ فيهِ الأنساب، ويُفْقَدُ فيهِ العِرضُ والشَّرَف، ويموتُ أجَلُّ خُلُقٍ في الإنسانِ وهوَ الحَياء، وتَتَفَكَّكُ الأُسَر، وتَنتَشِرُ الأمراضُ الجِنسيَّةُ بشَكلٍ وبائيّ، مِثلُ الزُّهْريّ، والهِربِس، والإيْدز، والسَّيَلان، والفُطريّات، وأمراضٍ أُخرَى تُصيبُ الجِهازَ التَّناسُليّ، وتَشَوُّهاتٍ خَلقيَّةٍ تَنتَقِلُ إلى الأبناءِ والأحفاد. معَ أمراضٍ اجتماعيَّةٍ أُشيرَ إلى بَعضِها، وهوَ يؤدِّي إلى الطَّلاق، وسوءِ التربية، والأمراضِ النفسيَّة، والجَريمَة، ويُشَجِّعُ العُزوبيَّة، والإقدامَ على الاغتِصاب، ويَنتَشِرُ الإجهاض...

ومثلهُ اللِّواط، وقد شنَّعَ نبيُّ الله لوطٌ على قومهِ تعاطِيهم هذه الفاحشةَ المنكَرة، ووردَ هذا في أكثرَ من موضعٍ من كتابِ الله الكريم، مثاله:
{أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ. وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ} [سورة الشعراء: ١٦٥-١٦٦]:
قالَ لهم نبيُّهم: يا قَوم، أتأتونَ الذُّكورَ مِن بَني آدمَ في أدبارِهم،
وتَتركونَ ما خلقَ اللهُ لكم منَ الزَّوجاتِ وهُنَّ محَلُّ الاشتِهاء؟ بلْ أنتُم قَومٌ شاذُّونَ ظالِمون، مُتجاوِزونَ الحَلالَ إلى الحَرام.

وقالَ في المشركينَ ودأبِهم في عملِ الفواحش:
{وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا وَاللّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ} [سورة الأعراف: ٢٨].

معناه: إذا فعلَ المشرِكونَ أفعالاً مُنكَرة قَبيحة، كعِبادةِ الأصنام، والطَّوافِ بالبَيتِ عُرياً، قالوا: هكذا وَجدنا آباءَنا يَفعلون، واللهُ أمرَنا بها، فقلَّدوا عن جهل، وافترَوا على الله. قُلْ لهم أيُّها النبيّ: إنَّ ما تَفعلونَهُ فاحِشَةٌ مُنكَرة، واللهُ لا يأمرُ بعَملِ الفَواحِش، بل هوَ سُبحانَهُ يأمرُ بمحاسنِ الأعمال، ويَحُثُّ على مَكارمِ الأخلاق، أتُسنِدونَ إلى اللهِ قولَ ما لم يَقُلْهُ، وما لا تَعلمونَ صِحَّةَ ذلكَ عنه؟!

وقالَ اللهُ لائمًا الإنسانَ على عِصيانه:
{يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ} [سورة الانفطار: ٦].
معناه: أيُّها الإنسَانُ الذي كرَّمَهُ الله، ما الذي خدَعَكَ وجرَّأكَ على عِصيانِ رَبِّكَ العَظيمِ معَ إحسَانِهِ إليك، وما الذي أمَّنكَ مِن عِقابِهِ حتَّى أضَعْتَ ما أوجبَهُ عَليكَ معَ إنذَارِهِ لك، وقابَلتَهُ بما لا يَليق معَ إنعامِهِ عَليك؟!
قالَ عمَرُ رَضيَ اللهُ عنه: غرَّهُ حُمقُهُ وجَهلُه. وقالَ الحسنُ البَصْريُّ رَحِمَهُ الله: غَرَّهُ شَيطانُهُ الخَبيث.

وقالَ الكريمُ العليمُ منبِّهًا ومحذِّرًا:
{أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاء مَا يَحْكُمُونَ} [سورة العنكبوت: ٤]
معناه: أمْ ظَنَّ الذينَ يَعصُونَ ويُفسِدونَ أنَّهم سيُعجِزوننا فلا نتمَكَّنُ مِن مُحاسبَتِهم والانتِقامِ منهم؟ ألا بئسَ ما حكَموا بهِ حينَ ظَنُّوا ذلك.

وقالَ أيضًا:
{وَمَن يَكْسِبْ إِثْماً فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً} [سورة النساء: ١١١].
أي: مَن يَقترِفْ ذَنباً مِنَ الذُّنوبِ عن قَصد، فإنَّهُ يَجني بذلكَ على نفسِه، ويَجلُبُ لها الضَّرَرَ والوَبال، ويُعَرِّضُها للعَواقب، واللهُ عَليمٌ بما يَقترِفهُ النَّاس، حَكيمٌ بما يُقَدِّرهُ مِن عُقوبةٍ عَليهم.

وسَوفَ يَندمونَ على هذا العِصيَان:

{يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الأَرْضُ وَلاَ يَكْتُمُونَ اللّهَ حَدِيثاً} [سورة النساء: ٤٢].

معناه: في ذلكَ اليومِ المفزعِ المخيف، يَوَدُّ الكافرونَ والذينَ عَصَوا الرسُولَ ولم يتَّبِعُوا هَديَه، منَ المنافقينَ وغَيرِهم، يَوَدُّونَ لو ابتَلعتْهمُ الأرضُ ولم يَظهَروا للنَّاسِ والحِساب، للخَوفِ الذي يَعترِيهم، وللهَمِّ والغَمِّ الذي يَغشاهُم، وللخِزي والفَضيحةِ والتوبيخِ الذي يَحِلُّ بهم، ويَعترفونَ بكلِّ شَيءٍ ذلكَ اليوم، ولا يَقْدِرونَ على كتمِ أعمالِهم، فتَشهَدُ عليهم جوارحُهم بما صَنعوا.

العجلة

البشَرُ يستَعجلونَ الأمور، هذا شأنهم، ودأبهم! قالَ اللهُ تعالَى:

{خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ} [سورة الأنبياء: ٣٧].

معناه: خُلِقَ الإنسانُ مَطبوعًا على العجَلَةِ والتسرُّع، فهوَ قَليلُ الصَّبر، لا تكادُ تَنفكُّ عَنهُ العجَلة، ولو كانَ فيما يَطلبُهُ مَضرَّةٌ له. والكافِرونَ يَستَعجِلونَ العَذاب، تَكذيبًا لهُ ومُعانَدةً مِن أنفُسِهم. لا تَستَعجِلوا، فسَوفَ تَنالُكم النِّقمَةُ والعَذاب، إنْ عاجِلاً في الدُّنيا، أو آجِلاً في الآخِرَة. واللهُ سَريعُ الانتِقام، وهوَ إنْ أمهَلَكم، فلن يؤخِّرَ العُقوبَةَ عنكم إذا جاءَ مَوعِدُها.

وقالَ أيضًا عَظُمَ شأنُه:

{وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً} [سورة الإسراء: ١١].

معناه: الإنسانُ عَجولٌ بطَبعِه، يُسارِعُ إلى ما يَظنُّ فيهِ مَصلحَتُه، وإنْ كانتْ تَحمِلُ ضَرَرًا بعدَ النَّظَر، وهوَ غَيرُ مُطَّلِعٍ على عَواقِبِ الأمورِ حتَّى يَضبِطَ قِيادَةَ العجَلَةِ في نَفسِه.

العصبية الجاهلية، التعصب المقيت، الحميَّة

كما حدثَ للكفَّارِ في صُلحِ الحُديبية، قالَ الله تعالَى:

{إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً} [سورة الفتح: ٢٦].

أي: جعلَ الكافِرونَ في قُلوبِهِمُ الأنفَةَ والعَصبيَّةَ النَّاشِئةَ مِنَ الجاهليَّةِ الممقوتَة، تَكبُّرًا وتَعنُّتًا، أثناءَ عَقدِ الصُّلح، فاستَكبَروا عن قَولِ "لا إلهَ إلاّ الله"، ورفَضوا كتابَةَ "بسمِ اللهِ الرحمنِ الرَّحيمِ" في أوَّلِ الوَثيقَة، ولم يَقبَلوا كتابةَ "رَسُولِ اللهِ" بعدَ اسمِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم، وحالُوا بينَهُ وبينَ بيتِ اللهِ الحرَام، خَوفًا مِن أنْ يُعيِّرَهمُ العرَبُ ويَقولوا: إنَّهم قتَلوا أبناءَكم ثمَّ دخَلوا عَليكم مكَّةَ واعتمَروا رَغمًا عنكم!

فأنزلَ اللهُ الطُّمأنينةَ والرِّضا على رَسُولِهِ صلى الله عليه وسلم وعلى المؤمِنينَ الحاضِرينَ معَه، وألزمَهم كلمةَ التَّقوَى، وهي "لا إلهَ إلاَّ الله"، فاستَكبَرَ عَنها المشرِكونَ يَومَ الحُديبيَة، وكانَ المسلِمونَ أحقَّ بها منهم في عِلمِ اللهِ تَعالَى، ولذلكَ فازُوا بها، فكانوا أهلَها، واللهُ عَليمٌ بكُلِّ شَيء، فيَعلَمُ مَن يَستَحِقُّ الهِدايَة، ومَن هوَ أهلٌ للكُفرِ والضَّلال.

ومثلَما كانَ شأنُ قومِ شُعيب، في تخلُّفِهم وجهلِهم وتعصُّبِهم المقيت:

{قَالُواْ يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً وَلَوْلاَ رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ} [سورة هود: ٩١].

أي: قالَ لهُ قَومُهُ المشرِكونَ المفسِدون: يا شُعَيبُ لا نَفهَمُ ولا نَعقِلُ كثيرًا مِن قَولِك، ونحنُ نَراكَ فيما بينَنا ضَعيفًا، لا تَقدِرُ على أنْ تُلحِقَ الضَّرَرَ بأحَدٍ منّا، ولولا تَقديرُنا لعَشيرَتِكَ لقَتلناكَ شَرَّ قِتْلَة، وما أنتَ عندنا ذا قِيمةٍ واحترام!

وكذا قومُ هود:

{قَالُواْ يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ} [سورة هود: ٥٣].

وقبلَهم قومُ نوح:

{وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلَا سُوَاعاً وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً} [سورة نوح: ٢٣].

معناه: قالَ بَعضُهمْ لبَعض: لا تترُكوا عِبادةَ آلِهتِكم إلى عِبادةِ رَبِّ نُوح، ولا تترُكوا عِبادَةَ هذهِ الآلِهةِ خُصوصًا: وَدًّا، وسُوَاعًا، ويَغُوثَ، ويَعُوْقَ، ونَسْرًا.

ويأتي المزيدُ منه في موضوعِ (التقليد الأعمى).

موالاة الكفار

نهى اللهُ المسلمينَ عن موالاةِ الكفّارِ ومودَّتهم، فقالَ سُبحانه:
{لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ} [سورة آل عمران: ٢٨].
أي: لا يَحِلُّ لأحَدٍ منَ المسلِمينَ أنْ يُواليَ كافراً ويُحِبَّهُ من دونِ المؤمنين، فمن فعلَ ذلكَ فقد مالَ قلبهُ إلى الكافرِ وفضَّلَهُ على المؤمِن، وهوَ بهذا العملِ ليسَ منَ اللهِ في شَيء، فهوَ مُنقَطِعُ الصِّلَةِ به، بَعيدٌ عنه، بَريءٌ منه. إلاّ مَن خافَ منهم فاتَّقَى شرَّهم، في بُلدانٍ وأوقاتٍ معيَّنة، بظاهرِ لسانهِ لا بقلبه، فإذا زالَ الخوف، زالتِ التقيَّة.
وإنَّ اللهَ يُحذِّركم نِقمتَهُ وغَضَبه، فإنَّ العذابَ سيَنالُ مَن والَى أعداءَهُ وعادَى أولياءَه، وإنَّ مصيرَكم جميعاً إلى الله، ولسوفَ يُجازي كلاًّ بما عَمل.

كما حذَّرَ اللهُ المؤمنينَ من الثقةِ بهم، فقال:
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ} [سورة آل عمران: ١١٨].
أيُّها المؤمِنون، لا تثِقوا بالكافِرينَ والمنافقينَ وأهلِ الكتاب، ولا تَتَّخذوا منهم أصدقاءَ تَستَشيرونَهم وتَجعلونَهم موضعَ ثِقَتِكم، ولا تُسرُّوا إليهم بشَيءٍ من أسرارِكم، فإنَّهم ليسُوا منكم، بل يَسْعَونَ إلى مُخالفتِكم ومَضرَّتِكم بكلِّ ما يَملِكونَ من جُهْدٍ ومَكرٍ وخَديعة، ويُحبُّونَ أنْ يُحرِجوكم ويوقِعوكم في المشْكلاتِ ليؤذوكم ويَنتقِموا منكم، هذا ظاهِرُ ما يُخطِّطونَ له، وما تَفوهُ بهِ ألسنتُهم مِن حِقدٍ وبُغض، والذي تُخفيهِ صُدورُهم مِن كُرهٍ وعَداوةٍ أكثرُ ممَّا يُظهِرونَه، وفي هذا البيانِ دلائلُ كافيَةٌ لكم إذا أدركتُموهُ بعقُولِكم؛ لئلاّ تَتَّخذوا منهم أصدقاء، ولا تُوادُّوهم، ولا تَفتَحوا لهم قلوبَكم.

وقد نزلتِ الآيةُ في رِجالٍ منَ المسلمينَ كانوا يواصِلونَ رِجالاً منَ اليهود، لِما كانَ بينهم منَ الجِوارِ والحِلْفِ في الجاهليَّة، فنُهوا عن مباطنَتِهم خوفَ الفِتنةِ عليهم منهم.

وموالاة الكافرين تشبُّهٌ بالمنافِقين؛ لأنها من صِفاتِهم:
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً مُّبِيناً. إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً} [سورة النساء: ١٤٤-١٤٥].
أيُّها المؤمنون، لا تَتشبَّهوا بالمنافِقينَ فتتَّخِذوا منَ الكافِرينَ أولياءَ لكم تَصحبونَهم وتُصادِقونهم، وتُناصِحونَهم وتُوادُّونَهم، وتُفشونَ أسرارَ المسلِمينَ إليهم، أتُريدونَ بذلكَ حُجَّةً ظاهرةً للهِ عليكم ليعاقبَكم عليها ويُعَذِّبَكم لأجلِها؟
فإنَّ مصيرَ المنافِقينَ هوَ أسفلُ النَّارِ وأدنىَ درَكاتِ جهنَّم، وهوَ قَعْرُها، ولن تَجِدَ لهم يومئذٍ مَن يُنقِذُهم من حالِهم أو يُخَفِّفُ من عَذابِهِمُ الشَّديد.

كما وُصِفَ اليهودُ بأنَّهم يوالونَ الكافرين:
{تَرَى كَثِيراً مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ. وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِالله والنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاء وَلَكِنَّ كَثِيراً مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ} [سورة المائدة: ٨٠-٨١]
معناه: وترَى كثيراً منَ اليهودِ يوالُونَ المشرِكينَ والمنافِقين، ويَنتَصرونَ لهم ويُقَوّونَهم ضدَّ دينِ الإسلام، فما أسوأ عملَهم، وما أتعسَ ما قدَّموا من عَملٍ لمعادِهم يومَ حِسابِهم، فقد جلَبوا بذلكَ غضبَ اللهِ وسُخْطَهُ عليهم، وسيُدخلُهم بذلكَ النَّار، ويُخَلِّدهم فيها تَخليداً.
ولو أنَّ هؤلاءِ الموالِينَ للمشرِكينَ يؤمِنونَ باللهِ حقَّ الإيمان، ويؤمِنونَ بخاتَمِ أنبيائهِ محمَّدٍ صلى اللهُ عليه وسلَّم، وبِما أنزلَهُ عليهِ منَ القُرآنِ الكريم، لَما اتَّخذوهم أولياءَ يُناصِرونَهم ضدَّ دينهِ وأوليائه، ولكنَّ كثيراً منهم خارِجونَ عن طاعةِ الله، معانِدونَ للحقِّ الذي أوجبَ اتِّباعه، مخالفونَ لوحيهِ المنْزَل.

والكافِرونَ بَعضُهم أنصَارُ بَعض، لا يَتعاوَنونَ إلاّ معَ مَن كانَ مثلَهم. قالَ اللهُ تعالَى:
{وإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ} [سورة الجاثية: ١٩].

ومَن والَى الشيطانَ فمصيرهُ محسُوم:
{كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ} [سورة الحج: ٤].
أي: قُضِيَ على الشَّيطانِ أنَّ مَنِ اتَّبَعَهُ وقَلَّده، فسَوفَ يُضِلُّهُ في الدُّنيا ويُغوِيه، ويَقودُهُ في الآخِرَةِ إلى عَذابِ النار، وبئسَ المصير.

تصديق الكذب والكذابين

وصفَ اللهُ المنافقِين واليهودَ ومَن في حُكمِهم بأنَّهم {سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ} [سورة المائدة: ٤١].
أي أنَّهُمْ جميعاً يَقبَلونَ الكذب، ويُبالِغونَ في قَبولِ كلامِ آخَرينَ لا يأتونَ مجلِسَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم، حُبًّا ومُوالاةً لهم.

السفه

السفيهُ من لا يهمُّهُ الحقّ، ولا يَلتفتُ إلى فيه خيرٌ ومنفعة، ولا يكونُ راشدًا.
{وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لاَ يَعْلَمُونَ} [سورة البقرة: ١٣].
أي: إذا قِيلَ للمنافقينَ آمِنُوا بالإسلامِ كما آمَنَ الناسُ، إيمانًا كاملاً لا شكَّ فيه، وأطيعوا اللهَ وامتَثِلوا أوامرَ رسولِهِ كما يَفعلون؛ أَنِفُوا منَ الاستسلامِ للحقّ، وقالوا في غُرورٍ وبَلَه: أَنُؤمِنُ كما آمَنَ هؤلاءِ السفهاءُ - يَعْنُون الصحابةَ رَضِيَ اللهُ عنهم- وَنَصِيرُ وَهُم بمنزلةٍ واحِدة؟!
لكنَّ الحقَّ أنَّهم همُ الجهلاءُ، فهم ضَعيفو الرأيِ وقَليلو المعرفةِ بمواضعِ المصالحِ والمضارّ، ومِن تَمامِ جهلِهم أنَّهم لا يَعلمونَ بحالِهم في الضلالةِ والجَهل، وهذا أَرْدَى وأبلغُ في السَّفَهِ والعَمَى!

وقد يكونُ السفَهُ في المال، فلا يكونُ تصرُّفُ السفيهِ فيه برشدٍ وحِكمة. قالَ اللهُ تعالَى:

{وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا} [سورة النساء: ٥].

أي: لا تُعطُوا غيرَ الرَّاشدينَ أموالَكم، ممَّن لا يُحسِنونَ تَصريفَها وتَدبيرَها وتَثميرَها، فالأموالُ لا تُهدَرُ ولا تُرمَى، ففيها معايشُكم ومصالحُكم، مِن تِجاراتٍ وغيرِها، وأعطُوا غيرَ الرَّاشدينَ ممَّن تَتولَّونَ أمورَهم حقوقَهم، من كُسوةٍ ومُؤنةٍ وطَعام، وأحسِنوا تَعامُلَكم مَعهم، فبرُّوهم، وقولوا لهم كلاماً طيّباً.

وكانَ من دعاءِ موسى عليه السّلام:

{أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاء مِنَّا}؟ [سورة الأعراف: ١٥٥].

أي: أتُهلِكُنا يا ربَّنا بما اقترَفَهُ السُّفهاءُ منّا، مِن عِبادةِ العِجل، أو عنادِهم وسوءِ أدبِهم معَ جلالِكَ وعظمتِك...؟

الاستهزاء، اللهو واللعب

السُّخريةُ والاستِهزاءُ من صِفاتِ الجاهِلين، ولذلكَ يَبتعدُ عنها ويتجنَّبُها المؤمنونَ الملتزمونَ بأخلاقِ الإسلام. قالَ اللهُ تعالَى منبِّهًا ومحذِّرًا:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْراً مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاء مِّن نِّسَاء عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الاِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [سورة الحجرات: ١١].

أي: لا يَستَهزِئْ رِجالٌ منكم برِجالٍ آخَرين، ولا يَستَحقِروهم ولا يَستَهينوا بهم، فقد يَكونُ المحتَقَرونَ أعظمَ قَدْرًا عندَ اللهِ وأحَبَّ إليهِ مِنَ السَّاخِرينَ منهم والمحتَقِرينَ لهم. ولا يَستَهزِئْ نِساءٌ مُؤمناتٌ بنِساءٍ مِثلِهنّ، فعسَى أنْ يَكنَّ خَيرًا وأفضلَ قَدْرًا عندَ اللهِ منهنّ. ولا يَعِبْ بَعضُكم بَعضًا ولا يَطعَنْهُ، فاللَّمزُ ذِكرُ المعايبِ في حَضرةِ الشَّخصِ أو غَيبَتِه. ولا يَدْعُ بَعضُكم بَعضًا بألقَابٍ وكلماتٍ يَسُوؤهُ سَماعُها، فبئسَ الذِّكرُ أنْ تَذكروا الرجلَ بالفِسقِ بعدَ إيمانِهِ وتوبتِه، وتُنادوهُ باسمٍ أو صِفَةٍ مَكروهَة، ومَنْ لم يَتُبْ عمَّا نُهيَ عنه، فأولئكَ همُ العاصُون، المخالِفونَ لأمرِ الله.

وفي قصصِ بني إسرائيلَ عبر، كما في الآيةِ الكريمة:
{وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً قَالُواْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ} [سورة البقرة: ٦٧].
أي: اذكرُوا يا بَني إسرائيلَ عندما قُتِلَ أحدُكُم ولم تَعرِفوا قاتِلَه، وسألتُم نبيَّكُم معرفتَه، فطلبَ منكم أنْ تَذبَحوا بقرةً - والحكمةُ منْ ذلك في آخرِ آياتِ القصَّة — فَقُلتُمْ في جَفاء، وسوءِ أدبٍ وتكذيب: أتَهزأ بِنا وتَسخرُ منَّا؟ فقالَ لكم، وهوَ مُعَلِّمُكُم ومُرشِدُكُمْ إلى الخير: حاشا أنْ أكونَ منَ المستَهزئينَ بالمؤمنين، إنما الأمرُ بِوَحي منَ الله.

واستهزأَ الكافرونَ بالنبيِّ عليهِ الصلاةُ والسَّلام:
{وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً} [سورة الأنبياء: ٣٦].
أي: إذا رآكَ المشرِكونَ أيُّها النبيّ، سَخِروا مِنكَ واستهزأوا بك.

كما استَهزأوا بالأنبياءِ من قبلِه، عليهم الصَّلاةُ والسَّلام:
{وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون} [سورة الأنبياء: ٤١].
معناه: لقد أرسَلنا أنبياءَ قَبلَك، فاستَهزَأَ بهم الكافِرونَ كما يَستَهزِئُ بكَ كُفّارُ قَومِك، فأحاطَ بالذينَ استَهزَأوا منهم العَذابُ الذي كانوا يَتحَدَّونَ بِهِ أنبياءَهم أنْ يأتوهُم به، ويَستَبعِدونَ وقوعَه.

ويا حسرةً على هؤلاءِ المستهزئينَ والمصيرِ الذي ينتظرُهم:
{يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون} [سورة يس: ٣٠].
أي: يا حَسرَةَ العِبادِ المكذِّبين، ويا خَيبتَهم ونَدامتَهم على أنفُسِهم على ما ضَيَّعوا مِن أمرِ الله، فما كانَ يأتِيهم رَسولٌ مِن عندِ اللهِ إلاّ ويَجحَدونَ ما أُرسِلَ به، ويَسخَرونَ منه.

البغي: الحقد والحسد...
من أسبابِ عدمِ الإيمانِ البغي، والمقصودُ هنا الحقدُ المتراكمُ في القلب، والحسدُ الذي يُعمي!

قالَ اللهُ تعالَى:
{وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ العِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ} [سورة آل عمران: ١٩].
أي: وما اختلفَ أهلُ الكتابِ وما تَنازعوا إلا بعدَ أنْ جاءَهمُ العلمُ وقامَتْ عليهمُ الحُجَّةُ ووَضَحَ أمامَهمُ الطَّريق، بإرسالِ الرسلِ إليهم، وإنزالِ الكُتبِ عَليهم، فتركوا الأدلَّةَ الواضِحة وتَخَلَّوا عنِ العَقيدةِ الصَّحيحَةِ والشريعةِ المحْكَمة، ولازَموا جانبَ الخِلافِ والجِدال، والمخاصمةِ واللَّجاجَة، اعتداءً وظُلماً، وحَسداً وتَباغُضاً، وعِناداً واستِكباراً، حتَّى صَارَ بعضُهم يُخالِفُ بعضاً قصداً ونِكايةً ولو لم يَعرفوا حقيقةَ الأمر!

وقد كانت هذه الصفةُ البغيضةُ من أسبابِ عدمِ إيمانِ اليهودِ برسالةِ نبيِّنا محمدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، فقالَ سُبحانه:
{بِئْسَمَا اشْتَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَا أنَزَلَ اللهُ بَغْياً أَن يُنَزِّلُ اللهُ مِن فَضْلِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَآؤُواْ بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ} [سورة البقرة: ٩٠].
أي: بِئسَتِ التجارةُ تجارتُهم أنْ شَرَوُا الحقَّ بالباطِل، فكفَروا بما جاءَ به محمَّدٌ صلى الله عليه وسلم حَسداً وبُغضاً وتكبُّراً أنْ لم يَكنْ منهم. و{اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ} [سورة الأنعام: ١٢٤]، فيَصطفي مَن يشاءُ مِن عبادِهِ لتَحَمُّلِ أعباءِ الرسالة، وَلَيسُوا همُ الذين يحدِّدونَ الرسُول. لقدِ استحقُّوا بهَذا غَضَباً مُضاعَفاً: عندما ضيَّعوا التوراةَ وهيَ معَهم، ثمَّ كَفَروا بالنبيِّ صلى الله عليه وسلم.
وقَد خَسِرُوا في تجارتِهم عندما لم ينضمُّوا إلى لواءِ الإسلامِ المجيد، كما سَيَندَمُونَ في الآخرةِ بما يَنتظِرهم مِنَ العذابِ جَزاءَ كُفرِهم هذا، وسوفَ يَكونُ عَذاباً مُهيناً وَمُذِلاً لَهُم.

وقالَ الله تعالَى في موضعٍ آخر:
{كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الكِتَابَ بِالحَقّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ البَيِّنَاتُ بَغْيًا

بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [سورة البقرة: ٢١٣].

معناه: كانَ النَّاسُ على شَريعةٍ واحدةٍ منَ الحقّ، ثمَّ اختلَفوا وصَاروا يعبدونَ الأصنامَ وغيرَها، فأرسلَ اللهُ إليهمُ الأنبياءَ ليبشّروهمْ بالجزاءِ الحسَنِ إنْ هم أطاعوا وثَبَتوا علَى الحقّ، وليُخوّفوهم منَ العِقابِ الشَّديدِ إنْ هم خالَفوا وعصَوا. وأنزلَ معهمُ الكُتبَ بالحقّ والعَدلِ والقولِ الفَصلِ، ليَتدبَّرَها الناسُ ويَتحاكموا إلى ما فيها مِن أوامرَ ونَواه، ففيها الحقُّ، ولا قولَ بعدَها.

وما اختلفَ في هذهِ الكتبِ إلاّ الذينَ نَزلتْ فيهم بعدَما قامَتْ عليهمُ الحُجَجُ ووَضَحَ لهمُ الأمرُ ورسَخَ في عُقولِهم. وما حمَلَهم على هذا الاختلافِ إلا الحسَدُ والطَّمَع، والظُّلمُ والهوَى، والخُصومَةُ واللَّجاجَة، والعِنادُ والتمرُّدُ على الحقّ، والتهالُكُ على الدنيا.

وقد هدَى اللهِ بلُطفهِ وتيسيرهِ المؤمنينَ إلى الحقّ فيما اختُلِفَ فيهِ مِن ذلك، لصَفاءِ نُفوسِهم، واستِعدادِهم لقَبولِ الحقّ، فأقامُوا على الإخلاصِ للهِ وحدَه، وعبادتهِ على بيّنةٍ واستِقامَة، واعتَزلوا الخلاف، وتَركوا الأهواءَ والنَّزوات، والخُصومةَ والعِناد.

واللهُ يَهدي مَن يشاءُ مِن خَلْقهِ إلى الطريقِ المستَقيم، ممَّن يَعلَمُ فيهمُ الرغبةَ في اتّباعِ الهُدَى وتقبُّلِ الحقّ. وهوَ الهادي إلى سَواءِ السَّبيل.

والحسدُ خُلقٌ ذميم، وآفةٌ خطيرة، ونتائجهُ سيئة. يقولُ الله تعالى في كتابهِ الكريم:

{وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [سورة البقرة: ١٠٩].

أي: إنَّ كثيراً من اليهودِ والنصارَى يَتمَنَّونَ لو قَدَرُوا عَلَى أَنْ يُعِيدُوكُم إلى الكفرِ كما كنتُم، وَأَنْ يَسلبُوا منكم هذا الخيرَ الذي هُدِيتُم إليه؛ حسَداً وحِقداً مِن نفوسِهم، التي لا تحبُّ الخيرَ للناس، بَعدَما تَبَيَّنَ أنَّ محمَّداً رسولُ الله، كَمَا يَجِدُونَهُ مكتوباً عِندَهُم في التوراةِ والإنجيل، فَكَفَرُوا بهِ حسداً وَبَغياً أنْ لم يَكُنْ مِنهُم.

ولكنْ لا تقابِلوهم أنتُم بهذا الخُلقِ السيّئ، بل كونوا أَرفَعَ مِن هذا وأعلَى، فَلا تُؤَاخِذُوهم ولا تؤنّبوهم، بلِ اعفُوا واصفَحوا الآن، حتَّى يأتِيَ أمرُ الله، وهو الإذنُ بالقِتال، أو هوَ قتلُ بني

قُرَيظَة، وَإِجلاءُ بني النَّضِير، وإذلالُهُم بضربِ الجزيَةِ عَليهم. واللهُ قادرٌ على كلِّ شَيء، وعلى الانتِقامِ منهم إذا أراد.

وقالَ في حسدِ وعداوةِ المنافقين:
{إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ} [سورة التوبة: ٥٠].
أي: من ظَاهرِ عَداوةِ المنافِقين، أنَّ اللهَ إذا قدَّرَ لكَ نَصراً وغَنيمةً في غَزوة، ساءَهم ذلكَ وحَزنوا؛ لحَسدِهم وعداوتِهم للإسلام، وإذا قدَّر عليكَ شِدَّةً قالوا: قد احتَطنا لذلكَ وأخذنا حَذَرَنا فقعَدنا عنِ الغَزو، ولولا ذلكَ لأصابَنا ما أصابَهم، ثمَّ يَنصرِفونَ وهم مَسرُورونَ بما حلَّ بالمسلِمين!

وقد يصدرُ الحسدُ من طرفٍ مُسلم، ويكونُ تصرُّفًا خطأ. قالَ اللهُ تعالَى:
{وَلاَ تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ اللّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُواْ وَلِلنِّسَاء نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُواْ اللّهَ مِن فَضْلِهِ} [سورة النساء: ٣٢].

أي: لا تَتمنَّوا ما أعطاهُ اللهُ تَعالَى بَعضَكم وميَّزَهُ بهِ عَليكم، فلِكلٍّ منَ الرِّجالِ والنِّساءِ نَصيبُهُ الذي قَسَمَهُ اللهُ له، فهيَ قِسْمَةٌ صَادِرَةٌ مِن حَكيمٍ خَبير، وعلى الكلِّ أنْ يَرضَى بما قُسِمَ له، ولا يَتمنَّى حَظَّ الآخَرِ ولا يَحْسُدُهُ على ذلك، واسألوا اللهَ مِن إحسانهِ وإنعامِه، فإنَّ ما عندَهُ كثيرٌ لا يَنْفَدُ أبداً، كريمٌ وَهّاب.

وقالَ يعقوبُ لابنهِ يوسفَ عليهما السَّلام، لما قصَّ عليهِ رؤياه:
{قَالَ يَا بُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْداً إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ} [سورة يوسف: ٥]
أي: لا تُخبِرْ إخوَتَك برؤياكَ هذه، فإنَّهم إذا سَمِعوها منكَ حَسَدُوك، واحتالُوا حِيَلاً كَبيرةً لإهلاكِك. إنَّ الشَّيطانَ عَدوٌّ ظاهِرٌ للإنسَان، لا يألو جُهدًا في إثارةِ الحسَدِ والفِتنةِ بينَ الإخوَة.

ويُستعَاذُ من شرِّ الحاسد، فإنهُ سيّء:
{وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ} [سورة الفلق: ٥]
بمعنَى: وأعوذُ مِن شَرِّ حاسِدٍ إذا أظهَرَ ما في نَفسِهِ مِنَ الحسَد، وأحَبَّ زَوالَ النِّعمَةِ عن غَيرِه، ولم يَرْضَ بما قسَمَ اللهُ له.

العين

وهو الإصابةُ بالعين، والعائنُ يشتركُ مع الحاسدِ في إرادةِ الأذَى.
ووردَ في القرآنِ الكريمِ ذكرُ هذه الصفَة، فقالَ تعالَى لرسوله:
{وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ} [سورة القلم: ٥١].
معناه: يَنظرُ إليكَ المشرِكونَ نَظرةَ حِقدٍ وعَداوَة، ويَكادُونَ أنْ يُصيبُوكَ بالعَينِ من جَرَّاءِ ذلك، ليُزِلُّوا قدَمَكَ ويَرمُوكَ على الأرض، عندَ سَماعِهِمُ القُرآنَ وأنتَ تَتلُوه؛ لكُرهِهم وبُغضِهم له، ويَقولونَ مِن جَهلِهم إنَّ محمَّدًا مجنون!

التكبر

والكِبْرُ من الصِّفاتِ السيِّئةِ جدًّا، التي تمنعُ الطاعةَ وقبولَ الحقّ. وكان السببُ الأكبرُ لرفضِ إبليسَ السُّجودَ لآدمَ عليهِ السَّلامُ هو الكِبر، وأوردهُ هنا للعِبرة، فإنَّ الكتابَ في صفاتِ الإنس:
{فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ. إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنْ الْكَافِرِينَ} [سورة ص: ٧٣-٧٤].
معناه: بعدَ أنْ نُفِخَ الرُّوحُ في آدمَ سجَدَ لهُ الملائكةُ كُلُّهم، ولم يتأخَّروا،
إلاّ إبليسَ، استَكبَرَ عن تَنفيذِ أمرِ رَبِّه، ورفَضَ أنْ يَكونَ معَ الملائكةِ السَّاجِدين، وصارَ مِنَ الكافِرين، بتَعاظُمِهِ على أمرِ الله.

وقالَ اللهُ تعالَى معيِّرًا بني إسرائيلَ بهذا الخُلقِ السيِّء:

{أَفَكُلَّمَا جَاءكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ}؟ [البقرة: ٨٧]

معناه: أَوَكُلَّمَا أرسلنا إليكم رسولاً استكبرتُم عن قَبولِ الحقّ، ففَريقٌ منكم يُكذِّبهم، وآخَرُ يَقتلُهم؟!

وقالَ اللهُ في خَصلةٍ من الكِبْر:

{وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً} [سورة الإسراء: ٣٧].

أي: لا تَمشِ في الأرضِ خُيَلاءَ مُتكبِّرًا، فإنَّكَ لن تَقطَعَ الأرضَ بمَشيكَ على هذهِ الهَيئة، ولا تَستَطيعُ أنْ تُطاوِلَ الجبالَ بتَمايُلِكَ وإعجابِكَ بنفسِك، ولن ينفَعَكَ هذا شَيئًا.

ووعظَ لقمانُ ابنَهُ فقال:

{وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ} [سورة لقمان: ١٨].

أي: لا تُعْرِضْ بوَجهِكَ عنِ النَّاسِ إذا كلَّمتَهمْ أو كلَّموك؛ استِكبارًا عَليهم وتَحقِيرًا لِشَأنِهم، ولكنْ أَلِنْ جانِبَكَ لهم، وابسُطْ وجهَكَ لهم. ولا تَمشِ في الأرضِ أَشِرًا مُتكبِّرًا كما يَفعَلُ أهلُ الخُيَلاءِ والتكبُّر، إنَّ اللهُ يَبغُضُ المتَبَختِرَ في مِشْيَتِه، المفتَخِرَ بمالِهِ وجاهِه.

وللتكبُّرِ صورٌ أخرى سيِّئة، كما وردَ في قولهِ سبحانه:

{إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً. الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً. وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَـاء النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِيناً فَسَاء قِرِيناً} [النساء: ٣٦-٣٨].

معناها: اللهُ لا يُحِبُّ المتكبِّرَ المعْجَبَ بنفسِه، الذي يَفْخَرُ على الناسِ بغَيرِ الحقّ، ويرَى أنَّهُ خَيرٌ منهم، ويأنَفُ مِن أقاربِهِ وجيرانِه، وهوَ عندَ اللهِ حقيرٌ وعندَ الناسِ بَغيض.

الذينَ يَبْخَلونَ بأموالِهم ولا يُنفِقونَها فيما أمرَهمُ اللهُ به، مِنَ الإحسانِ إلى اليتامَى والمساكينِ والجيرانِ والضِّيفان، ويَجحَدونَ نعمةَ اللهِ عليهم، فلا تَظهرُ على حالِهم ولا في نفقَةٍ لهم وبَذل، وقد تَفضَّلَ اللهُ بها عليهم ليَمتَحِنَهم بها، فالذينَ يَجحَدونَها ويُخفونَها فلا يُظهرونَها عندَ حاجةِ الناسِ إليهم، فقد كفَروا بنعمةِ اللهِ عليهم، فلهم يومَ القيامةِ عَذابٌ يُهينُهم كما أهانوا نعمتَهُ عليهم بالبُخلِ والكَتْم.

والذينَ يُنفِقونَ أموالَهم ليَراهمُ النَّاس، وللافتِخار، ليُقال: ما أسخاهُم وما أجوَدَهم، وهم غيرُ مُؤمنينَ بالله، وهوَ مانحُ الثوابِ ومُقَدِّرُ العِقاب، ولا يُؤمِنونَ باليومِ الآخِر، الذي يُثابُ فيهِ المرءُ على أعمالِهِ أو يعاقَبُ عَليها، ولذلكَ لا يَتحرَّونَ في إنفاقِهم مَرضاةَ اللهِ وثوابَه، وقد حَمَلهم على هذا تسويلُ الشيطانِ لهم، فحَسَّنَ لهمُ القَبائح، ومَن كانَ الشيطانُ صاحبَهُ ومُلهِمَهُ فإنَّهُ بئسَ الصاحِب، لأنَّهُ يَدعوهُ إلى المعصيةِ المؤدِّيةِ إلى النار.

فالمتكبِّرُ يَغلبُ عليه البُخل:

{وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ. الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ} [سورة الحديد: ٢٣-٢٤].

معناه: لا تَفخَروا ولا تأشَروا، فإنَّ اللهَ يبغَضُ المتَكبِّرَ في نَفسِه، المفتَخِرَ على غَيرِهِ بمالِهِ وجاهِه. فالمختالونَ بالمالِ يبخَلونَ بالنفقَةِ في سَبيلِ الله، حتَّى يَتجمَّعَ عندَهمُ المالُ أكثَر، فيَزدَادونَ بطَرًا وطُغيانًا، ويَحُضُّونَ النَّاسَ على البُخلِ كذلك، ويَصرِفونَهم عن فعلِ الخَير، ومَن يُعرِضْ عنِ الإنفَاق، فإنَّ اللهَ غَنيٌّ عن نفقَتِه، ولا يَضرُّهُ الإعراضُ عن شُكرِه، وهوَ محمودٌ في ذاتِه، غَنيٌّ عن حَمدِ النَّاس.

ومن صفاتِ المتكبّرين أيضًا وجزاءِ تكبُّرِهم:

{سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ} [سورة الأعراف: ١٤٦]:

سأُبعِدُ عن دَلائلِ عَظمتي وأحكامِ شَريعتي الذينَ يَتكبَّرونَ على عبادِي ويُحاربونَ أوليائي بغيرِ الحَق؛ عقوبةً لهم على عِنادِهم واستِكبارِهم، فلا يَنتَفِعونَ بآياتي الجليلة، التي يَستأهِلُها المؤمِنونَ المصَدِّقونَ وحدَهم.

فإذا شاهدَ المتكبِّرونَ المعجِزاتِ والدَّلائلَ على أيدي رُسلي لم يؤمِنوا بها، وإذا رأوا طَريقَ النَّجاة، والهُدَى والسدَاد، لم يَسلُكوها.

وإذا رَأوا طَريقَ الهَلاكِ والضَّلالِ اختارُوها لأنفسِهم ولم يَتركوها، لموافقتِها أهواءَهم وشَهواتِهم، وهذا لأنَّهم كذَّبوا بأدلَّتِنا الواضِحَةِ الصَّادقة، وحُجَجِنا البيِّنةِ الكاشِفة، المؤدِّيةِ إلى الحقِّ واليَقين، وقد كانوا ساهينَ عنِ التفكيرِ فيها والاتِّعاظِ بها.

وعُرِفَ فرعَونُ بالكِبر:

{وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ} [سورة يونس: ٨٣]:

وكانَ فِرعَونُ مُتَكبِّرًا مُتَعَجرِفًا، وحاكِمًا طاغيةً مُتجَبِّرًا، ذا حُكومةٍ قويَّةٍ وبَطشٍ وإرهاب، مُتجاوِزًا الحدَّ في الظُّلمِ والفَساد، بسَفكِ الدِّماءِ والإهانةِ وبَثِّ الرُّعبِ والتكبُّر... حتَّى ادَّعَى الرُّبوبيَّة!

وقالَ الله فيه وفي جُنوده:

{وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ. فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ} [سورة القصص: ٣٩-٤٠].

أي: طغَى فِرعَونُ وتجبَّرَ هوَ وجنودُهُ في أرضِ مِصرَ وأكثَروا فيها الفَساد، بغَيرِ أمرِ حَقٍّ ولا نظَرِ إصْلاح، فضَلُّوا وكفَروا، وظَنُّوا أنَّهمْ لنْ يُبعَثوا بعدَ الموتِ للحِسابِ والجَزاء.

فجمَعنا فِرعَونَ وجُنودَهُ وألقَيناهُم في البَحر، وأغرَقناهُم فيهِ جَميعًا، فانظُرْ أيُّها الرَّسُولُ كيفَ كانَ مآلُ المشرِكينَ المعتَدين، ليَكونوا عِبرَةً للعالَمين.

ومن صورِ غرورِهِ وتكبُّرِه:

{وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ} [سورة الزخرف: ٥١].

أي أنَّ فرعَونَ المتكبِّرَ جمعَ عُظماءَ قَومِه، أو طائفَةً كبيرةً منهم، ونادَى فيهم قائلاً: يا قَوم، أليسَ لي مُلكُ مِصرَ كُلِّها، وهذهِ الأنهارُ المتفَرِّعَةُ مِنَ النيلِ تَجري مِن بينِ يديَّ وهيَ تحتَ تصرُّفي، أفلا ترَونَ ما أنا فيهِ مِنَ العَظمَةِ وقُوَّةِ الملك؟

ووصفَ اللّهُ عادًا بأنَّهم كانوا يتَّبعونَ الجبابرةَ المتسلِّطينَ عليه:
{وَاتَّبَعُواْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ} [سورة هود: ٥٩].
معناه: اتَّبعوا أمرَ كُلِّ مُتَسَلِّطٍ عليهم، مُستَكبِرٍ مُعانِدٍ للحَقّ، طاغٍ مُتَحَدٍّ لآياتِ الله.

وقالَ الله فيهم:
{فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ. فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ} [سورة فصلت: ١٥-١٦].
يَعني أنَّ قَبيلَةَ عادٍ طغَوا وتجبَّروا في الأرضِ بغَيرِ حَقّ، وقالوا في غُرور: ليسَ هُناكَ مَن هوَ أقوَى منَّا! أوَلَم يَتفَكَّروا فيمَن هوَ أقوَى منهمْ حقًّا، وهوَ خالِقُهمُ الذي جعَلَهم بهذهِ الخِلْقَةِ الضَّخمَة، وأمدَّهم بالقوَّة؟ وكانوا يَكفُرونَ بالمعجِزاتِ التي آتَيناها رسُلَنا.
فانتقَمنا منهم، وأرسَلنا عَليهم عاصِفَةً قَويَّةً شَديدَةَ الهبُوب، في أيَّامٍ مُتَتابِعات، نَكِدَاتٍ مَشؤومَات، حتَّى أبَدناهُم عن آخِرِهم، لنُذيقَهم في الدُّنيا عَذابَ الذُّلِّ والصَّغار، ولهم في الآخِرَةِ عَذابٌ أشَدُّ إهانَةً وإيلامًا، ولن يَكونَ هُناكَ مَن يَنتَصِرُ لهم ويَدفَعُ عنهمُ العَذابَ الذي هم فيه.

وعاقبةُ الكِبرِ فادِحة:
{الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ} [سورة الأنعام: ٩٣]:
فاليومَ تُعاقَبونَ بالعَذابِ المذِلِّ المهين، جزاءَ كَذِبِكم على اللهِ ورسلِه، وعنادِكم واستِكبارِكم عنِ اتِّباعِ الحقِّ وإعراضِكم عمّا أنزلَهُ الله.

الفخر والبطر

يقدِّرُ اللهُ الأرزاقَ للنَّاسِ حتى لا يَبطَروا. قالَ جلَّ مِن قائل:

{وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ} [سورة الشورى: ٢٧].

أي: لو وسَّعَ اللهُ الرِّزقَ لعِبادِهِ وأعطاهُم فَوقَ حاجَتِهم، لطغَوا وتجبَّروا، وأفسَدوا في الأرض، ولكنَّهُ يُنَزِّلُ لهم مِنَ الرِّزقِ بقَدْرِ مَصلحَتِهم، كما تَقتَضيهِ حِكمَتُهُ تَعالَى، وهوَ أعلَمُ بما يُصلحُهم، فيُغني مَن يَستَحِقُّ الغِنَى، ويُفقِرُ مَن يَستَحِقُّ الفَقر. واللهُ خَبيرٌ بأمرِ عِبادِه، بَصيرٌ بما يَلزَمُهم وما يُصلِحُهم.

ومن الصفاتِ السيِّئةِ التي تعتري الإنسان: البطَر، قالَ الله تعالَى:

{وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاء بَعْدَ ضَرَّاء مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ} [سورة هود: ١٠].

أي: إذا أعطَيناهُ نِعمةً من عندِنا بعدَ شِدَّةٍ وبَلاءٍ أصابَه، قال: زالتِ الشَّدائدُ عنّي، فهوَ بذلكَ فَرِحٌ فَخور، مُغتَرٌّ مُتَعاظِمٌ على النَّاس، لا يَحسُبُ لزوالِها حِسابًا. وذاكَ دأبُ الكافِرينَ وضَعيفي الإيمان.

وقالَ أيضًا:

{وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ} [سورة الإسراء: ٨٣].

معناه: إذا أنعَمنا على الإنسَانِ بالمالِ والعافيَة، ونالَ ما يَرغَبُ ويَشتَهي، بَطِرَ واستَعلَى، ولَجَّ في الظُّلمِ وطغَى، وأعرَضَ عن طاعَةِ الله، فلم يَذكُرْهُ ولم يَشكُرْه.

وطلبَ المؤمنونَ من قَارونَ ألّا يَبطَر:

{إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ} [سورة القصص: ٧٦]:

قالَ لهُ صالحِو قَومِهِ يَنصَحونَه، لا تَبْطَرْ ولا تَتفاخَرْ بما أُوتِيتَ مِن مَال، فاللهُ لا يُحِبُّ الأَشِرينَ البَطِرين، الذينَ يتطاوَلونَ على النَّاس، ولا يَشكرونَ اللهَ على ما أغناهُم بهِ وأنعَمَ عَليهم.

وافتخرَ كافرٌ على مؤمنٍ بأنهُ أكثرُ منهُ مالًا:
{وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً. وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً} [سورة الكهف: ٣٤، ٣٥].
أي أنهُ كانَ لصَاحبِ البُستانَينِ أموالٌ كثيرة، فقالَ لصاحبِهِ المؤمِن، وهوَ يُخاصِمُهُ ويَفتَخِرُ عَليه: أنا أكثَرُ أموالاً منك، وأكثَرُ خدَمًا وحشَمًا منك، وأولادًا وعَشيرَة.
ودخَلَ الكافِرُ بُستانَهُ وهوَ مُتَكبِّرٌ مُنكِرٌ للمَعاد، وقالَ في غُرور: لا أظنُّ أنَّ هذا البُستانَ سيَفنَى أبدًا، فأشجارُهُ كثيرَةٌ مُتماسِكة، ومِن أصنافٍ جيِّدَة، والماءُ مَوجودٌ بكَثرَة!
ونصحهُ المؤمنُ وذكَّره، وانتهَى الأمرُ بهلاكِ ماله، واعترفَ بمقولةِ المؤمن.

ويُهلِكُ اللهُ من شاءَ من أهلِ البطَر:
{وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ} [سورة القصص: ٥٨].
معناه: قد أهلَكنا كثيرًا مِن أهلِ القُرَى، الذينَ طغَوا وبَطِروا وكفَروا بنِعمَةِ اللهِ ولم يُقَدِّرُوها، وهذِهِ آثارُ مساكنِهم التي دَمَّرناها، تَمُرُّونَ بها في أسفارِكم، لم تُسكَنْ مِن بَعدِهم، إلاّ سَكنًا قَليلاً، مِن قِبَلِ المارَّةِ والمسافِرين، ونحنُ الذينَ نُميتُهم، ثمَّ يَرجِعُ إلَينا جَميعُ ما آتَيناهُم مِنَ النِّعَمِ التي كانوا يَتفاخَرونَ بها، ونُحاسِبُهم عَليها.

ونتيجتُهم يومَ الدِّين:
{ذَلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ} [سورة غافر: ٧٥].
أي: هذا الذي عُوقِبتُم بهِ في جَهنَّم، هوَ جَزاءُ ما كنتُم تأشِرونَ وتبطَرون، وتَظلِمونَ وتُفسِدونَ في الأرض، بغَيرِ ما وَجهِ حَقّ، وبما كنتُم تَتوَسَّعونَ في الأفراحِ والملذّات، وتَنسَونَ أمرَ رَبِّكم.

القلب القاسي

القلبُ القاسي لا يُرتجى منه خشيةٌ أو رحمَة، بل يُنتظَرُ منه العِصيانُ والتمرُّد، وكان هذا شأنَ بني إسرائيلَ في عهود، فوبَّخهم الله على هذه الصفةِ السيئةِ الخطيرة، وقال:

{ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاء وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللّهِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} [سورة البقرة: ٧٤].

معناها: بعدَ كلِّ هذهِ الآياتِ والنِّعَمِ والتحذيرات، قَسَتْ قلوبُكم فصارَتْ كالحجارةِ التي لا علاجَ لِلِينها، وبعضُها أَقسَى مِنهَا، فإنَّ منَ الحجارةِ ما تتفجَّرُ منهُ العُيونُ الجارية، ومنها ما يَتشَقَّقُ فيَخرجُ منهُ الماءُ وإنْ لم يكنْ جارياً، ومنَ الحجارةِ ما يهبِطُ مِن رأسِ الجبلِ خَوفاً منَ الله، وقد دُكَّ الجبلُ عندما تجلَّى اللهُ لهُ وَخَرَّ موسى صَعِقاً. وقلوبُكُمْ لا تَلِينُ، ولا تنْبِضُ بخشيةِ الله، واللهُ ليسَ بِغَافِلٍ عن أعمالِكُم وقَساوَةِ قُلوبِكُم، التي لا يُنتَظَرُ منها سِوَى الأعمالِ السيِّئة، إنَّما هوَ تأخيرٌ إلى موعدِ محاسبتِكم.

وقالَ سُبحانه:

{فَلَوْلا إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} [سورة الأنعام: ٤٣]:

فهلاّ لما نزلَ بهم ابتلاؤنا تَذلَّلوا وتَضرَّعوا إلينا؟ ولكنَّهم أبَوا ذلكَ وبَقُوا على عِنادِهم وقَساوةِ قلوبِهم وجُمودِ عُقولِهم، واستمَرُّوا على ما كانوا عليه، وسَوَّلَ لهمُ الشَّيطانُ أنَّ ما أصابَهم ليسَ بسببِ ما كانوا يَعمَلونَ منَ الكُفرِ والمعاصي.

ومن أسبابِ قساوةِ قلوبِهم المعاصي المتكررةُ ونقضُ العهود، قالَ الله تعالَى:

{فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ} [سورة المائدة: ١٣].

معناه: بسببِ نقضِهِمُ العهدَ المؤَكَّدَ الذي أُخِذَ عليهم، أبعدناهم عن رَحمتِنا، وطَردناهم منَ الهُدى؛ عقوبةً لهم، وجَعلنا قلوبَهَمْ غَليظةً لا تَلين، تَنبو عن قبولِ الحقّ، ولا تَتَّعظُ بموعِظة. وكانوا

يُحَرِّفونَ كلامَ اللهِ ويَفتَرونَ عليه، ويؤوِّلونَه، ويَحمِلونَهُ على غيرِ مُرادِه، وتَركوا قِسماً وافياً منَ التَّوراة فلم يَعمَلوا به.

وإنذارٌ لمن قسَا قلبه:
{فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} [سورة الزمر: ٢٢].
معناه: الوَيلُ والهَلاكُ لمن كانَ قاسيَ القَلب، لا يَخشَعُ عندَ ذِكرِ اللهِ ولا يَلين، أولئكَ في ضَلالٍ ظَاهرٍ عنِ الحقّ.

والمطلوبُ العِبرةُ ممّا مضَى، وخَشيةُ الله:
{أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ} [سورة الحديد: ١٦].
معناه: ألمْ يَحِنْ للمؤمِنينَ أنْ تَلينَ وتَرِقَّ قُلوبُهم لذكرِ اللهِ ومَواعِظِه، وعندَ سَماعِ القُرآنِ والإنصاتِ له، فيُطيعوا ربَّهم، ولا يَكونوا كاليَهودِ والنَّصارَى، الذينَ طالَ الزَّمانُ بينَهم وبينَ أنبِيائهم، فبدَّلوا كتُبَهم، واشترَوا بآياتِها ثَمنًا قَليلاً، ومالُوا إلى الدُّنيا، واتَّبَعوا أهواءَهم، وأعرَضوا عنِ الموعِظَة، فقسَتْ قُلوبُهم فلم تَقبَلِ التَّذكير، ولم تَلِنْ بوَعدٍ ووَعيد، وكثيرٌ منهم خارِجونَ عن حُدودِ دينِهم، بَعيدونَ عن طاعَةِ ربِّهم، فقُلوبُهم فاسِدَة، وأعمالُهم باطِلَة.

الغلظة والقسوة في التعامل

وصفَ اللهُ تعالَى عادًا قومَ هودٍ بالغلظةِ والجبروتِ إذا عاقبوا أو تعامَلوا في أمور، فقال:
{وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ} [سورة الشعراء: ١٣٠].
أي: إذا أَخَذتُم شَيئًا أو عاقَبتُم على أمْر، فضَرَبتُم أو انتَقَمتُم، فعَلتُم ذلكَ بقوَّةٍ وغِلْظَة، وجبَروتٍ وغضَب، دونَ مُراعاةِ أدَبٍ أو حِسابِ أثَرٍ مَكروهٍ له.

كما وصفَ ربُّنا كافرًا بأنهُ {عُتُلّ}، في الآيةِ (١٣) من سورةِ القلم، وهو الغَليظُ الجَاف، الشَّديدُ الخُصومَةِ في الباطِل.

الظلم

الظلمُ صفةٌ سيِّئة، يبغضُها كلُّ ذي فطرةٍ سَليمة، ومن ظَلَمَ فقد استحقَّ العقوبة. قالَ الله تعالَى:
{فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ} [سورة البقرة: ١٩٣].

واللهُ يَبْغُضُ الكافِرينَ الذينَ يُؤثِرونَ الغَيَّ والضَّلالَ على الإيمانِ والهُدَى، ولن يَرحَمَهم. قالَ سُبحانه:
{وَاللّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ} [سورة آل عمران: ٥٧].

وقد لعنَهم:
{أَلاَ لَعْنَةُ اللّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ} [سورة هود: ١٨]:
ألَا بُعدًا وهَلاكًا لهؤلاءِ الظَّالِمينَ المفتَرين.
والمقصودُ منهم، كما في الآيةِ التي بعدَها:
{الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ}.
أي أنَّهم الذينَ يَرُدُّونَ النَّاسَ عنِ الحقّ، ويَمنعونَهم من سُلوكِ طَريقِ الهُدَى، ويُريدونَ لهم طريقًا مُنحَرِفًا يأخذُ بهم إلى الضَّلال، ويَرُدُّهم إلى الكُفر، وهم لا يؤمِنونَ بالآخِرَة، التي فيها إثابَةٌ على اتِّباعِ الحقّ، ومُعاقبَةٌ على اتِّباعِ الباطِل.

وبسببِ ظلمِهم هذا عرَّضوا أنفسَهم للنار:
{أُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ} {لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ} [سورة هود: ٢١-٢٢].
معناه: سَوفَ يَخسَرُ هؤلاءِ أنفُسَهم بتَعريضِها لعَذابِ النَّارِ يومَ القيامة، فقد فَضَّلوا عِبادةَ الآلِهةِ على عِبادةِ خالقِهم ورازِقِهمُ الحقّ، وذهبَ عنهم ما كانوا يَعبُدونَه، فلم تُغْنِ عنهم أصنامُهم شَيئاً.

ولا مَحالةَ أنَّ هؤلاءِ الكفّارَ همُ الأكثرُ والأبيَنُ خُسرانًا، فقد استعاضُوا بالجنَّةِ ونَعيمِها، جَهنَّمَ وسَعيرَها.

والعقوباتُ التي طالَتِ اليهودَ كانتْ بسببِ ظلمِهم أيضًا:
{فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ كَثِيرًا. وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا} [سورة النساء: ١٦٠-١٦١].
أي: فبسبَبِ ظُلمِ اليَهودِ وما ارتَكبوهُ مِن ذُنوبٍ عَظيمة، كالكُفرِ بآياتِ الله، وعِبادَةِ العِجل، وعَداوةِ الرُّسُل، وقَتلِ الأنبياء، وبُهتانِهم على مَريم... حرَّمنا عليهم أطعمةً طيِّبةً كانت حَلالاً لهم، وبسبَبِ صَرفِ أنفسِهم وآخَرينَ عن دِينِ اللهِ الحقِّ مرّاتٍ كثيرَة.
وبسبَبِ تعامُلِهم بالرِّبا، وتَحايُلِهم في أخذهِ بأنواعِ الحِيَل، وقد نُهوا عن ذلكَ في التَّوراة.
وبسبَبِ أكلِهم أموالَ الناسِ بغَيرِ الحقّ، كالرِّشا في الحُكم، والتَّحريفِ والتَّزويرِ بالهدايا، وما إليها منَ الوجوهِ المحرَّمة. وقد هيّأنا للمُصِرّينَ منهم على الكُفرِ - إلاّ مَن تابَ وآمَنَ - عَذاباً مُؤلماً مُوجعاً في الآخِرَة، إضافةً إلى معاقَبتِهم في الدُّنيا؛ لظُلمِهم وعِصيانِهم.

ويَكثرُ الظلمُ بين الشركاء. وفي القرآنِ الكريم:
{وَإِنَّ كَثِيراً مِّنْ الْخُلَطَاء لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ} [سورة ص: ٢٤].
يَعني إنَّ كثيرًا مِنَ الشُّرَكاءِ الذينَ تَختَلِطُ أموالُهم يَظلِمُ بَعضُهم بَعضًا، وخاصَّةً الأقوياءَ منهم مِن أهلِ الدُّنيا، إلاّ المؤمنينَ الصَّالحِين، فإنَّهم يَبتَعِدونَ عنِ الظُّلمِ والعُدوان، وأمثالُ هؤلاءِ قَليلون.

ووصفَ الله من لم يَحكم بما أنزلَ الله من أحكامٍ بأنهُ ظَالم:
{وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أنزَلَ اللهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [سورة المائدة: ٤٥].

التهديد، الترهيب، العنف، التعذيب

ومن صفاتِ الظالمينَ والحكّامِ المتجبّرين: تخويفُ الناسِ وترهيبُهم وتعذيبُهم، كما كانَ من شأنِ فرعَونُ مع بني إسرائيل، فقالَ لملَئِهِ فيما يصنعُ بهم:

{سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ} [سورة الأعراف: ١٢٧].

قال: سنَقتلُ كلَّ ذكَرٍ منهم يُولَد، ونُبقي على إناثهم، قَهْراً وإذلالاً لهم، وسنَغلِبُهم بهذا، فيَقلُّونَ شَيئاً فشَيئاً، ولن يَقدِروا على الفَسادِ بعدَ ذلك، وهم جميعاً مَقهورونَ تحتَ أيدينا.

وكما كان موقفهُ ممَّن آمنَ بموسى من السحَرة:

{لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلاَفٍ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ} [سورة الأعراف: ١٢٤]:

قالَ لهم فِرعَون: سأقطَعُ من كلِّ واحدٍ منكم يدَهُ اليُمنَى ورِجْلَهُ اليُسرَى، ثمَّ أصلُبُكم على جُذوعِ النَّخلِ جميعاً، لتَموتوا جُوعاً وعَطشاً، عُقوبةً لإيمانِكم.

قالَ الله تعالَى لنبيِّهِ موسى:

{فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ} [سورة طه: ٤٧].

معناه: أطلِقْ بَني إسْرائيلَ ممّا أوجَبْتَهُ عَليهم، ولا تُبْقِهم تحتَ العَذاب.

وكانوا يُكَلِّفونَهم بالأعمالِ الشّاقَّة، ويَقتُلونَ أبناءَهم، ويَستَخدِمونَ نِساءَهم.

ومن التعذيبِ حفرُ خنادقَ وتأجيجُها بالنَّارِ وقذفُ المؤمنينَ فيها، كما في قصةِ أهل الأخدود:

{قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ. النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ...} [سورة البروج: ٤-٥].

بل قذَفَ الكافرونَ نبيَّ الله وخليلَهُ إبراهيمَ في النّار. ولكنَّ الله أنقذَه، وجعلَها عليه بَردًا وسلامًا:

{قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ. قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ} [سورة الأنبياء: ٦٨-٦٩].

الإفساد

ذكرَ الله سببَ الفسادِ فقال:

{ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [سورة الروم: ٤١].

معناه: ظهرَ الفسادُ، مِنَ المعاصي وقَطْعِ الطَّريقِ والظُّلمِ والمنكراتِ وغَيرِها، في البَرّ، وفي المدُنِ والقُرَى التي على الأنهَارِ والبِحار، بسبَبِ ذُنوبِهِمْ وجرَائمِهم، وليُعاقِبَنَّهم اللهُ على فسَادِهم بابتِلائهم، بنَقصِ الأموَالِ والأنفُسِ والثمَرات، لعلَّهم بذلكَ يَرجِعونَ عن أعمالِهِمُ السَّيِّئة.

وقالَ في فرعَونَ وآله:

{وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ. الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ. فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ. فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ} [سورة الفجر: ١٠-١٣]:

وفِرعَونَ صَاحبِ الجُنودِ الذينَ كانوا يُقوُّونَ حُكمَه.

الذينَ ظلَموا وتجبَّروا في الأرضِ بالكُفرِ والمعاصي.

وعاثُوا فيها ظُلمًا وأذًى وفَسادًا.

فأنزلَ اللهُ بهؤلاءِ المشرِكينَ المفسِدينَ العُقوبَةَ وأنوَاعَ العَذاب.

وطلبَ الصالحونَ من قارونَ ألَّا يُفسد:

{وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ} [سورة القصص: ٧٧].

أي: لا تَطلُب بأموالِكَ الفسَادَ في الأرضِ والإساءَةَ إلى الخَلق، واللهُ لا يُحِبُّ مَن أفسدَ وعصَى، وأجرمَ وبَغَى.

وللإفسادِ صور، كمَن قَطعَ الطريقَ وأخافَ السَّبيلَ وارتكبَ أنواعَ الشرّ، وعقوبتهُ شديدة، قالَ الله تعالَى:

{إِنَّمَا جَزَاء الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [سورة المائدة: ٣٣].

الآيةُ عامَّةٌ في المشركِينَ وغيرِهم ممَّن جنَى هذهِ الجنايات.

وقد نزلَتِ الآيةُ في قومٍ أكرمَهُم رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم وأحسنَ إليهم، ثمَّ قتَلوا وسَرَقوا، وكفَروا وحارَبوا... فقُطِّعتْ أيديهم وأرجلُهم.

والحاكمُ يَختارُ مِن هذهِ الأحكامِ ما يناسبُ الجريمة. وقالَ الإمامُ البغوي: "ذهبَ الأكثَرونَ إلى أنَّ هذهِ العُقوباتِ على تَرتيبِ الجرائمِ لا على التخيير".

فإنَّما عُقوبةُ مَن يُحارِبونَ دِينَ الله، ورسولَه، وأولياءَه، ويُفسِدونَ في الأرض، أنْ يُقتَلوا إذا قتَلوا، أو يُصْلَبوا معَ القتلِ إذا قتَلوا وأخَذوا الأموال، أو تُقطَعَ أيديَهمُ اليُمنَى وأرجلَهمُ اليُسرَى لمن اقتصرَ على أخذِ المال، أو يُنْفَوا مِن أهلِهمْ بالحَبسِ إنْ أخافُوا وسعَوا في الفسادِ ولم يَقتُلوا ولم يَسرِقوا.

وما فُصِّلَ مِنَ الأحكامِ عَذابٌ وهَوانٌ وفَضيحةٌ لهم في الدُّنيا، ولهم إضافةً إلى ذلكَ عَذابٌ شَديد، وعُقوبةٌ عَظيمةٌ في الآخِرَة.

الفسق

الفسقُ هو الخروجُ عن الطاعة، وهو من أسبابِ العقوباتِ الربّانية. قالَ الله تعالَى:

{وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً} [سورة الإسراء: ١٦].

أي: إذا أردنا أنْ نُدمِّرَ قريَةً أو مَدينَةً ونُهلِكَ أهلَها بأعمالِهمُ السيِّئة، وقد كثُرَ فيها المترَفُونَ المتَنَعِّمون، الخائضُونَ في الفَواحشِ والموبِقات، والجبّارونَ الوالِغونَ في الجَرائمِ والحُرُمات، فانتشَرَ الفِسقُ والضَّلال، والظُّلمُ والفسَاد، أمرناهُم بالطَّاعاتِ وسُلوكِ دَربِ الصَّلاح، فأبَوا وتمرَّدوا، وطغَوا وأفسَدوا، فحَقَّ عَليها أمرُ اللهِ بالهَلاك، فأبَدْنا أهلَها، ودَمَّرناها تَدميراً كامِلاً.

فالفاسِقُ مُنحرف، وقد قالَ الله تعالَى لنبيِّهِ محمدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم:

{وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلاَّ الْفَاسِقُونَ} [سورة البقرة: ٩٩].
أي: لقد أنزلنا إليكَ يا محمَّدُ (صلَّى الله عليهِ وسلَّمَ) دَلائِلَ وَعَلامَاتٍ واضحاتٍ على نبوَّتِكَ وصدقِ ما جئتَ به، ولا يكفرُ بها إلا الفاسِقونَ المنحرِفونَ عنِ الفطرةِ السَّليمة.

وحذَّرَ الله من الفِسقِ والفاسِقين:
{وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} [سورة الحشر: ١٩].
أي: لا تَكونوا كالذينَ تركوا أمرَ اللهِ وطاعتَهُ ولم يُراعُوا حُقوقَه، فأنسَاهُمُ الأعمالَ الصَّالحةَ ليَنفَعوا بها أنفُسَهم يومَ الحِساب، أولئكَ الخارِجونَ عن طاعَةِ الله، الخاسِرونَ يَومَ المعاد.

وقالَ جلَّ مِن قائل:
{بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ} [سورة الأحقاف: ٣٥].
أي: هذا القُرآنُ بَلاغٌ مِنَ اللهِ إليكم، ولا يُهلَكُ إلاّ الخارِجونَ عن طاعَتِه، ولا يُعَذَّبُ إلاَّ مَنِ استَحقَّ العَذاب.

ووصفَ الله من لم يحكمْ بما أنزلَ الله من أحكامٍ بأنهُ فاسِق:
{وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} [سورة المائدة: ٤٧].
أي: مَنْ لم يَحكمْ بما أنزلَ اللهُ مِن أحكامٍ وأوامِر، فإنَّهم خارِجونَ عن أمرِ اللهِ وطاعتِه، تاركونَ الحقّ، مائلونَ إلى الباطِل.

اللهو، اللعب، العبث

وهذا يكونُ شأنَ أهلِ الدنيا، والمغترّينَ بها، ومَن كفر.
قالَ اللهُ تعالَى:
{أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ} [سورة التكاثر: ١].
أي: شَغلَكمُ التَّفاخُرُ والتَّنافُسُ في الأموَالِ والأولادِ وحُبِّ الدُّنيَا وزَخارفِها، وغَفَلتُم عن طاعَةِ ربِّكم والعمَلِ لآخِرَتِكم.

وقالَ في القومِ الكافِرين:
{الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا} [سورة الأعراف: ٥١]:
فهمُ الكافِرون، الذينَ اتَّخذوا دينَ اللهِ الذي أُلزِمو باتِّباعه، هُزْءاً وسُخريَة، بدلَ أنْ يَستقبِلوهُ بصدقٍ وجِدّ، فاستحلُّوا وحرَّموا كما تُملي عليهم أهواؤهم، واغترَّوا بزينةِ الدُّنيا، وشَغلتهُم شهواتُها وزَخارِفُها عنِ الآخِرَة، فأعرضوا عنها ونَسُوها،

وقالَ في الكلامِ الباطلِ الذي لا خيرَ فيه:
{وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ} [سورة لقمان: ٦].
أي: بَعضُ النَّاسِ يُقبِلونَ على الحَديثِ الذي لا يُنْتَفَعُ بهِ ولا يُرضي الله، كالمنكَرِ منهُ والباطِل، وكُلّ ما شَغَلَ عن عِبادَةِ اللهِ وذِكره، منَ السَّهراتِ والمضحِكاتِ والأدَبِ الماجِنِ والغِناءِ ونَحوِه، ليَصرِفُوا النَّاسَ عن دِينِ اللهِ الحَقّ جَهلاً منهم بهِ وبعظَمَتِه، ويَستَهزؤوا بالنَّهجِ المستَقيمِ الذي رَضيَهُ اللهُ لعِبادِه، ويأخذُ بهم إلى السَّعادَةِ والنَّجاة، فأولئكَ لهم عَذابٌ مؤلِمٌ مُوجِع، معَ الذُّلِّ والهَوان، جَزاءَ إهانَتِهمُ الحَقَّ وإيثارِهمُ الباطِلَ عَليه.

وقالَ لرسولِه محمدٍ صلَّى الله عليهِ وسلَّم:
{وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا} [سورة الأنعام: ٧٠].
معناه: دَعِ الكافِرينَ الذينَ فُرِضَ عليهم أنْ يَدِينوا بالإسلامِ فسَخِروا منه وعَبَثوا بهِ ولم يُبالوا، وخُدِعوا بما في الدُّنيا مِن لَذَّةٍ ومَتاعٍ ووَلد، حتَّى أنكَروا البَعث.

وقالَ هودٌ لقومِهِ عاد:
{أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ} [سورة الشعراء: ١٢٨].
يعني: ما لكم تُضَيِّعونَ جُهودَكم وأوقاتَكم مِن دُونِ فائدَة، فتَبنونَ في مُلتقى كُلِّ طَريقٍ مَعْلَمًا، أو مُجَسَّمًا بارِزًا لا حاجةَ لكم إليه؟!

وبيَّنَ اللهُ حقيقةَ الدُّنيا للنّاسِ حتى لا يغترُّوا:
{إِنَّمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ} [سورة محمد: ٣٦].

معناه: إنَّما هذهِ الحياةُ الدُّنيا – في غالبِها – كاللَّعِبِ واللَّهوِ في عدَمِ النَّفعِ والثَّبات، فلا يَشتَغِلُ العاقِلُ بما هوَ باطِلٌ وغُرورٌ ولا بَقاءَ له. وإنْ تَكونوا صادِقينَ في إيمانِكم، وتتَّقوا اللهَ فيما تأتونَ وما تذَرون، يؤتِكم ثَوابَ أعمالِكم في الآخِرَة، ولا يَسألْكُم جَميعَ أموالِكم، بل جُزءًا قَليلاً منهُ تُؤدُّونَهُ لإخوانِكمُ المحتاجين، ويَرجِعُ ثَوابُهُ إليكم.

الكلام اللغو والباطل

وهذا يقعُ فيه كثيرٌ من النَّاس، وهو خطير.
وقد سُئلَ الكافرونَ عن أسبابِ دخولِهم جهنَّم، فكانَ من أجوبتِهم:
{وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ} [سورة المدّثر: ٤٥].
قولهم: وكنَّا نتكلَّمُ في الباطِل، وفيما لا يَعنِينا، وفيما لا نَعلَم، معَ هؤلاءِ الذينَ لا يَزالونَ يتكلَّمونَ صَباحَ مَساءَ في أفكارٍ ونَظريَّاتٍ وأمورٍ شَتَّى، ولا يُبالونَ فيها بحقٍّ ولا باطِل، فنَميلُ معَهم حيثُ مالُوا، ولا نُبالي.

النميمة

وهي من الصفاتِ السيِّئةِ المنكَرة، التي ينبغي تجنُّبها. والنمَّامُ هو الواشي، الذي يَنقلُ الكلامَ بينَ النَّاسِ عَلَى جهةِ الإفساد، ليُفسِدَ قُلوبَهم، ويُحرِّشَ بينَهم، ويَقطَعَ صِلاتِهم.
قالَ اللهُ لرسولِهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: {وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ. هَمَّازٍ مَّشَّاء بِنَمِيمٍ} [سورة القلم: ١١].

البخل

ومن صفاتِ الإنسانِ السيئةِ أيضًا: البخل.

قالَ اللهُ سبحانه: {وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً. إِلَّا الْمُصَلِّينَ} [سورة المعارج: ٢١-٢٢].
أي: إذا حصلَتْ لهُ نِعمَةٌ وسَعَةٌ لم يُنفِقْ ممَّا يُحِبّ، ورأيتَهُ بَخيلاً، إلاّ مَن هَداهُ اللهُ للإيمَانِ فكان مِنَ المصَلِّين...

وقالَ اللهُ فيمَن يبخَلُ بمالِهِ ولا يُنفقُ منهُ للفقراء:
{وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ وَللهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} [سورة آل عمران: ١٨٠].
أي: لا يَظُنَّنَّ الذينَ يَبخَلُونَ بأموالِهم فيَكنِزونَها ولا يُنفِقونَها في حقِّها أنَّ ذلكَ أفضَلُ لهم وأحسَن، بل هوَ شرٌّ لهم، وسوءُ عاقبةٍ يَنتظرُهم، فإنَّ تلكَ الأموالَ ستَتحوَّلُ إلى نيرانٍ فَظيعةٍ تُحيطُ بهم وتُطَوِّقُهم؛ جَزاءَ إمساكِهم ما تفضَّلَ اللهُ بهِ عليهم مِن مال، وسيَعلمونَ عندئذٍ أنَّ حِفظَهُم لتلكَ الأموالِ كانَ حفظاً لنارٍ تنتَظرُهم.
وليسَ اللهُ بحاجةٍ إلى أموالِهم، فهُم وأموالُهم وما في السَّماواتِ والأرضِ مُلْكٌ لله، ويَرِثُ اللهُ السَّماواتِ والأرضَ بعدَ فَناءِ مَخلوقاتِهما. فكلُّ شَيءٍ مَرجِعهُ إليه، ومَن أنفقَ فإنَّما يُقَدِّمُ لنفسِهِ خَيراً، واللهُ خَبيرٌ بنيّاتِكم في المنعِ والبُخل، ويُجازيكم على ذلك.

وخاطبَ اللهُ المعانِدينَ المكابِرين، الذينَ كانوا يُطالِبونَ رسولَ اللهِ بالمعجِزاتِ كما يوافِقُ أهواءَهم، من بُيوتِ الذَّهَبِ والبَساتينِ والينابيعِ المتفَجِّرَة:
{قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفَاقِ وَكَانَ الإنسَانُ قَتُوراً} [سورة الإسراء: ١٠٠].
أي: لو كنتُم تَملِكونَ خَزائنَ رزقِ اللهِ ونعمِهِ الكثيرَة، لبَخِلتُم بها على عِبادِ الله، وامتَنَعتُم من إنفاقِها خَوفًا من أنْ يُصيبَكمُ الفَقْر، وكانَ الإنسَانُ بَخيلاً، قَليلَ الإنفَاق.
قالَ ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ الله: اللهُ تعالَى يَصِفُ الإنسانَ من حَيثُ هو، إلاّ مَن وفَّقَهُ اللهُ وهَداه، فإنَّ البُخلَ والجَزَعَ صِفَةٌ له...

وانظرْ إلى عاقبةِ البخل، في حديثٍ عن المنافقين:

{وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ. فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُواْ بِهِ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ. فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُواْ اللّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ} [سورة التوبة: ٧٥-٧٧].

أي: منَ المنافِقينَ مَن عاهدوا اللهَ وقالوا: لئن أغنانا اللهُ بالأموالِ لَنتَصَدَّقنَّ ونُعطي حُقوقَ الفُقَراءِ منها، ولَنكونَنَّ ممَّن يُطيعُ اللهَ ويَعمَلُ الأعمالَ الصَّالحة.

فلمّا أعطاهمُ المالَ والمتاعَ لم يَفُوا بعَهدِهم، فمنَعوا حقَّ اللهِ منَ الأموالِ التي أعطاهُم، ولم يُنفِقُوها في الخيراتِ والمبرّاتِ كما عاهَدوا، وأعرَضوا عن طاعةِ اللهِ ولم يَكونوا منَ الصَّالحين.

فجَعلَ اللهُ عاقبةَ أمرِهم نِفاقاً في قُلوبِهم، وحرَمهم منَ التَّوبةِ حتَّى الموت، وذلكَ لِغدرِهم بعَهدِ اللهِ الذي عاهَدوهُ عليه، ونَقضِهم ميثاقَهُ الذي واثَقوهُ عليه، وبما كانوا يَكذِبونَ ويَقولونَ إنَّهم سيَكونونَ صَالحينَ يؤدُّونَ حقَّ اللهِ إذا أغناهم، فالتَهَوا بالمال، واستَسلموا للشَّهوات، ورَكنوا إلى الدُّنيا، ونَسُوا الله.

ونبَّهَ اللهُ الإنسانَ إلى دَخيلةٍ في نفسه، وحذَّرَهُ من أن تَطغَى عليه، فقال:

{وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ. إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ. هَاأَنتُمْ هَؤُلَاء تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاء} [سورة محمد: ٣٦-٣٨].

تفسيرها: إنْ تَكونوا صادقِينَ في إيمانِكم، وتتَّقوا اللهَ فيما تأتونَ وما تذَرون، يؤتِكم ثَوابَ أعمالِكم في الآخِرَة، ولا يَسألْكُم جَميعَ أموالِكم، بل جُزءًا قَليلاً منهُ تُؤدُّونَهُ لإخوانِكمُ المحتاجين، ويَرجِعُ ثَوابُهُ إليكم.

وإذا سألَكم جَميعَ أموالِكم، فسيُجهِدُكم ذلك، وستَبخَلونَ بها، ويُخرِجُ بذلكَ أحقادَكم، لمزيدِ حُبِّكم للمَال.

ها أنتُم تُدْعَونَ للإنفَاقِ في طاعَةِ الله، مِنَ الجِهادِ وغَيرِه، فمِنكم مَن يَبخَلُ بمالِهِ فلا يُجيب، ومَن يَبخَل بما عندَهُ فإنَّما يَضرُّ نَفسَه، ويَنقُصُ مِن أجرِه، واللهُ غَنيٌّ عن طاعَتِكم، غَيرُ مُحتاجٍ إلى أموالِكم، وأنتمُ الفُقَراءُ إليه، المحتاجُونَ إلى رِزقِه، فإنفاقُكم أو عدَمُهُ مَحسُوبٌ لكم أو عَليكم.

ووصيةُ اللهِ لخلقهِ في هذا:
{وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [سورة التغابن: ١٦].
أي: ومَن مَنعَ نَفسَهُ مِنَ البُخلِ والحِرصِ على المال، فقد نجحَ وفاز.
وفي حديثِ جابرٍ المرفوعِ قَولُهُ صلى الله عليه وسلم: "واتَّقوا الشُّحّ، فإنَّ الشُّحَّ أهلكَ مَنْ كانَ قَبلَكم، حملَهمْ على أنْ سفَكوا دِماءَهم، واستَحلُّوا مَحارِمَهم". رَواهُ مُسلم.
والشُّحُّ أشَدُّ البُخل.

وإذا لم يَفعل، فَهذه نتِيجتُه:
{وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى. وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى. فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى. وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى} [سورة الليل: ٨-١١].
معناها: مَن بَخِلَ بمَالِه، ولم يُنفِقْهُ في وجُوهِ البِرّ، واستَغنَى عن ثَوابِ اللهِ ولم يَرغَبْ فيه،
وكذَّبَ بالحقّ، وبالجزاءِ والحِسابِ يَومَ الدِّين،
فسنُهيِّءُ أمرَهُ لِما فيهِ مَشقَّةٌ وحرَجٌ وخِذلان، فيَعثُرُ ويَتخبَّطُ ويَسلُكُ طَريقَ الشَّقاوَة، وإنْ ظنَّ أنَّهُ يَسيرُ في طَريقٍ صَحيح!
ولا يَنفَعُهُ مالُهُ الذي بَخِلَ بهِ إذا مَات، أو إذا هوَى في جهنَّم.

جحود النعم

بعكسِ الشُّكر، فكمَا أنَّ هناكَ مَن يَشكرُ نِعمةَ ربِّهِ عَليه، فإنَّ هناكَ من يُنكرُها، أو يَستَهينُ بها، وهو الغالبُ على البشَر، ووصفَ اللهُ تعالَى هؤلاءِ بقَوله:
{وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ} [سورة إبراهيم: ٣٤].
معناه: أعطاكمُ اللهُ مِن كُلِّ شَيءٍ سَألتُموه، ممّا تَحتاجونَ إليهِ في جَميعِ أحوالِكم.
وإنْ تَعُدُّوا نِعَمَ اللهِ عَليكم لا تتَمكَّنوا مِن عَدِّها، ولو إجمالًا، فإنَّها كَثيرَةٌ جِدًّا.

ومعَ ذلكَ فإنَّ مِنَ النَّاسِ مَن يَظلِمُ نَفسَهُ بالمعصيَة، فيَجعَلُ للهِ شُركاءَ ويَعبُدُهم، وهوَ الذي أنعمَ عَليهم، والشُّرَكاءُ لم يَفعَلوا شَيئًا، فيَكونُ كافِرًا بالنِّعمةِ والمنعِم، جاحِدًا بفَضلِه، مُنكِرًا لرُبوبيَّتِه.

وهي خصلةٌ في الإنسان؛ لحرصهِ على المالِ والنَّعيم، وخشيةَ الفقرِ والحاجة.

قالَ الله تعالَى:

{إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ. وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ} [سورة العاديات: ٦-٧].

بمعنى: إنَّ الإنسَانَ لجَحودٌ لنِعَمِ اللهِ عَليه، مُنكِرٌ لفَضلِه،

وإنَّهُ لَشاهِدٌ على جُحودِهِ بما يَصنَع، وبما يَظهَرُ مِن أثَرِهِ عليه.

قالَ الشيخُ محمد الطاهر بنُ عاشور رحمهُ الله في تَفسيره:

أي أن في طبعِ الإنسانِ الكُنودَ لربِّه، أي كفرانَ نعمته، وهذا عارضٌ يَعرضُ لكلِّ إنسانٍ على تفاوتٍ فيه، ولا يسلَمُ منه إلا الأنبياءُ وكُمَّلُ أهلِ الصَّلاح؛ لأنهُ عارضٌ يَنشأُ عن إيثارِ المرء نفسَه، وهو أمرٌ في الجبِلَّة، لا تَدفعهُ إلا المراقبةُ النفسيَّةُ وتذكُّرُ حقِّ غيره. وبذلك قد يذهلُ أو ينسَى حقَّ الله، والإنسانُ يحسُّ بذلك من نفسهِ في خطراته، ويتوانَى أو يَغفلُ عن مقاومته؛ لأنهُ يشتغلُ بإرضاءِ داعيةِ نفسه. والأنفسُ متفاوتةٌ في تمكُّنِ هذا الخُلق منها، والعزائمُ متفاوتةٌ في استطاعةِ مغَالبَته.

وأكثرُ النَّاسِ لا يشكرونَ ربَّهم، المنعِمَ عليهم. ووردَ هذا في أكثرَ من آية. قالَ ربُّنا سبحانهُ وتعالَى:

{إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ} [سورة البقرة: ٢٤٣].

أي أنَّ مِن فَضلِ اللهِ علَى النَّاسِ أنَّهُ يُريَهم الآياتِ والدلالاتِ والعِبرَ ليُؤمِنوا ويَعتَبروا، ولكنَّ أكثرَهم، معَ هذا، لا يقومونَ بشكرِ المنعِمِ عَليهم.

الإسراف والتبذير

قالَ الله تعالَى:

{وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ} [سورة الأنعام: ١٤١].

أي: لا تُسرِفوا في الأكلِ ولا في الإعطاء، فاللهُ لا يُحِبُّ مَن تجاوزَ الحدَّ إلى ما هوَ مُضِرٌ، بنفسهِ أو بالآخَرِين.

وقالَ سبحانه:
{وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيراً. إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُواْ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً} [سورة الإسراء: ٢٦-٢٧].
أي: كُنْ وسَطًا في الإنفَاق، ولا تُسرِفْ إسرافًا.
قالَ مُجاهِدٌ رَحِمَهُ الله: لو أنفقَ إنسَانٌ مالَهُ كُلَّهُ في الحقِّ لم يَكُنْ مُبَذِّرًا، ولو أنفقَ مُدًّا في غَيرِ حَقِّهِ كانَ تَبذيرًا.
قالَ صَاحِبُ "الظِّلال": فلَيسَتْ هيَ الكَثرَةُ والقِلَّةُ في الإنفاق، إنَّما هوَ مَوضِعُ الإنفاق.
إنَّ المسرفِينَ كانوا أصحابَ الشَّياطينِ وأشباهَهُم؛ لإنفاقِهِمُ الأموالَ في الشرِّ والمعصيَة، بدلَ أداءِ حَقِّ نِعمَتِها وصَرفِها في الحقوقِ والطّاعات، والشَّيطانُ كافِرٌ بنِعمَةِ رَبِّه، جاحِدٌ لها.

الفرار والهزيمة
قالَ الله تعالَى مخاطبًا المسلمينَ في فئةٍ منهم فرَّتْ يومَ أُحد:
{إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ التَقَى الجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ} [سورة آل عمران: ١٥٥].
أي: إنَّ الذينَ فَرُّوا منَ الحَربِ عندَما تَقابلَ الجيشان، إنَّما كانَ فِرارُهم بسببِ ذُنوبٍ سَالفةٍ ارتَكبوها، فضَعُفَ ارتباطُهم بالله، وفَقدوا ثِقتَهم في قوَّتِهم، واختلَّ تَوازنُهم وتَماسُكهم، فوجدَ الشَّيطانُ مَدْخلاً إلى نُفوسِهم، ليَهجِسَ فيها ويوَسوِس، ويُسَوِّلَ لهم حُسنَ الهزيمة! ثمَّ عفا اللهُ عمّا كانَ منهم مِن فِرار، وهوَ سُبحانَهُ واسِعُ المغفِرَة، حَليمٌ، لا يُعَجِّلُ العُقُوبَةَ لمن عَصَاه.

وقالَ سُبحانَهُ في المنافقين يومَ الأحزاب:
{وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاراً} [سورة الأحزاب: ١٣].

أي أنَّ جَماعَةً منهم كانوا يَستأذِنونَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم لتَركِ مَواقعِهم، ويَقولونَ إنَّنا نَخشَى على بيوتِنا مِنَ الخطَر، فليسَ دونَها ما يَحجبُها مِنَ العَدوِّ ونحنُ غائبونَ عَنها، وليسَ الأمرُ كما يَدَّعون، إنَّما يُريدونَ بالاستئذانِ الهربَ مِنَ القِتال.

وقالَ موسى عليه السلامُ مذكِّرًا قومه:
{يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ المقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ} [سورة المائدة: ٢١].
أي: ادخُلوا الأرضَ المقدَّسة – وهيَ أريحا أو القُدس – التي قدَّرها وقَسَمها اللهُ لكم في ذلكَ الوَقت... ولا تَجبُنوا عنِ الجهاد، ولا تَرجِعوا عن مَقصِدِكُم خوفاً منَ الجبابِرَة، فتَعودوا خاسِرين.

اليأس والقنوط

ومن الصفاتِ السيِّئةِ التي يصابُ بها الإنسان: اليأس. قالَ اللهُ تعالَى:
{وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُوسٌ كَفُورٌ} [سورة هود: ٩].
أي: إذا أنعَمنا على الإنسَانِ نِعمَة، مِن غِنىً وصِحَّةٍ وأمن، وذاقَ لذَّتَها، واستَمتعَ بها، ثمَّ سَلبناها منه، وجدتَهُ مَهمومًا مَغمومًا على ما أصابَه، يائسًا من رُجوعِ رحمةِ اللهِ إليه، جاحِداً بتلكَ النِّعمَة.

ومثلهُ قولهُ تعالَى:
{لَا يَسْأَمُ الْإِنسَانُ مِن دُعَاء الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُوسٌ قَنُوطٌ} [سورة فصلت: ٤٩].
معناه: إذا أصابَهُ ضِيقٌ وشِدَّة، جَزِعَ وتَضايَقَ وفقَدَ الأمَل، وظنَّ أنَّ اللهَ لن يُعيدَ إليهِ ما كان!

وقالَ أيضًا:
{وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَؤُوساً} [سورة الإسراء: ٨٣].
أي: إذا أصابَتْهُ المصائبُ والحَوادِث، ونالَتْ منهُ الشَّدائدُ والنَّوازِل، انكفَأ على نَفسِه، فحَزِنَ وقَنَطَ، وظَنَّ أنْ لنْ يَحصُلَ لهُ خَيرٌ بعدَ هذا؛ لضَعفِهِ وشِدَّةِ جَزَعِهِ، إلاّ مَن رَحِمَ الله.

وفي رحلةِ البحثِ عن يوسفَ وأخيهِ طلبَ يعقوبُ عليهِ السَّلامُ من أبائهِ ألّا ييأسُوا من فرَجِ الله:

{يَا بَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ} [سورة يوسف: ٨٧].

معناه: اذهَبوا إلى مِصرَ وتعرَّفوا خبرَ أخوَيكُما يوسُفَ وبِنيامين، ولا تَقطَعوا الرَّجاءَ والأملَ مِن فَرَجِ اللهِ ورَحمَتِه، إنَّهُ لا يَقنَطُ مِن فَرَجِ اللهِ – ولو أحاطَ بهِمُ الكَرْبُ – إلاّ الكافِرون؛ لإنكارِهم سَعَةَ رَحمَةِ الله، واستِبعادِهم عَفوَه.

وأمرَ الله عبادَهُ المؤمنينَ ألّا يَقنَطوا من رحمَته، فإنَّهُ يَغفرُ الذنوبَ كلَّها:

{قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} [سورة الزمر: ٥٣].

أي: قُلْ أيُّها الرَّسُولُ مِن مَعنَى كَلامِ الله: يا عِباديَ الذينَ أفرَطُوا في المعاصي وأكثَروا مِنَ الذُّنوبِ والفَواحِش، لا تَيأسُوا مِن رَحمَةِ اللهِ ومَغفِرَتِه، فاللهُ يَغفِرُ الذُّنوبَ جَميعَها، مَهما كانت، صَغيرَها وكبيرَها، سِرَّها وعَلانيَتَها، فاللهُ كثيرُ المغفِرَةِ لذُنوبِ التَّائبين، عَظيمُ الرَّحمَةِ بعِبادِهِ المؤمِنين.

الخسارة

والخسارةُ عاقبةُ من عصَى الله، وابتعدَ عن دينِ اللهِ الحقّ:

{وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآَخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ} [سورة آل عمران: ٨٥].

أي: ومَن يَسلُكْ غيرَ دينِ الإسلامِ طَريقاً ومِنهَجاً، مِن مَذهبٍ أو دِينٍ أو فكرةٍ أو نِظام، فإنَّ اللهَ لن يَقبَلَ منه، فلا عِبرةَ بما تُريدهُ أهواءُ البَشر، وإنَّما يكونُ الاعتِقادُ والعمَلُ بما يُشَرِّعهُ ربُّ البَشر، فمَن أبَى وتَنحَّلَ غيرَ دينِ الله، فإنَّ اللهَ لن يَقبلَ منه، وسيَكونُ منَ الخاسِرين، حيثُ يَنتظِرُهُ العذابُ المقيم، لرفضِهِ الحقَّ المبين، ولتَفضيلِهِ الضَّلالَ على الهِداية.

وانتهى أمرُ قابيلَ إلى الخسارةِ عندما قرَّرَ قتلَ أخيه، وباءَ بإثمه:
{فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [سورة المائدة: ٣٠].
أي: خَسِرَ أعظمَ خَسارة، في الدُّنيا والآخِرَة.
وفي الصحيحين: " لا تُقْتَلُ نفسٌ ظُلماً إلاّ كانَ على ابنِ آدمُ الأوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دمِها، وذلكَ لأنَّهُ أوَّلُ مَنْ سَنَّ القَتل".
وهذا حديثٌ خَطير، فليَعتبرْ كلُّ مَسؤول، وقائدٍ وزَعيم، فإنَّ لهُ أو عَليه كلُّ مَن قالَ بمقالهِ أو عَمِلَ بعمَلِهِ حتَّى يومِ الدِّين.

وقد تكونُ الخسارةُ في إبطالِ العَملِ ودخولِ النار، كما قالَ اللهُ تعالَى في حقِّ المنافقين:
{حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَاسِرِينَ} [سورة المائدة: ٥٣].
أي: بطلَ كلُّ خيرٍ عَمِلوه، فخَسِروا الدُّنيا بافتِضاحِهم وذُلِّهم وتَحَسُّرِهم، وخَسِروا الآخِرَةَ بفواتِ ثوابِ أعمالِهم، ودُخولِهمُ النار.

وبيَّنَ سُبحانهُ أنَّ الخسارةَ عاقبةُ من لم يؤمن:
{الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ} [سورة الأنعام: ١٢، ٢٠].
معناه: الخائبونَ الذينَ خَسِروا أنفسَهم في اليومِ الآخِرِ همُ الجاحِدونَ المستَهزِئونَ برسَالاتِ ربِّهم في الحياةِ الدُّنيا، المصِرُّونَ على الكفر، المستَكبِرونَ عن قَبولِ الحق، الذينَ لا يُصَدِّقونَ بالمعاد، ولا يَخافونَ سُوءَ ذلكَ اليَومِ وهَوْلَه.

وخَسِروا عندَما لم يؤمنوا باليومِ الآخر، وفيهِ الحسابُ والجزاء:
{قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَاء اللهِ حَتَّى إِذَا جَاءتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلاَ سَاء مَا يَزِرُونَ} [سورة الأنعام: ٣١].
أي أنَّهم خَسِروا أنفسَهم، هؤلاءِ الذينَ كفَروا بيومِ الحِساب، وخابوا ونَدِموا، حتَّى إذا دقَّتْ عليهم ساعةُ يومِ القيامَةِ فَجأة، قالوا وقد عَلِموا ما قدَّموا مِن سُوءِ الفَعال: ما أشدَّ ندامَتَنا على

ما قَصَّرنا وضَيَّعنا مِن أعمالِ الطَّاعةِ في الحياةِ الدُّنيا، وهم يَحمِلونَ آثامَهم وخطاياهُم على ظُهورِهم، ألا ما أسوأَ وما أثقلَ ما يَحمِلون.

والخسارةُ الكبرى إذا كانت على النفسِ ومعها الأهل!
{إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ} [سورة الزمر: ١٥].
أي أنَّ الخاسِرينَ كُلَّ الخَسارَة، همُ الذينَ خَسِروا أنفُسَهم باختِيارِهِمُ الكُفرَ بدَلَ الإيمان، وخَسِروا أهليهم كذلك، لأنَّهم أضَلُّوهم فعَرَّضوهم للنَّارِ يَومَ القِيامَة، وذلكَ هوَ الخُسرانُ البَيِّنُ الذي ليسَ بعدَهُ خَسارَة!

وقالَ اللهُ تعالَى في شأنِ الخاسرين:
{قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً. الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً. أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً. ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُواً} [سورة الكهف: ١٠٣-١٠٦].

أي: هل أُخبِرُكم بالذينَ خَسِروا أعمالَهم خَسارَةً بيِّنَة، ونَدِموا أشدَّ النَّدامَة؟
الذينَ ضاعَ جُهدُهم وبطَلَ عمَلُهمُ الذي عَمِلوهُ في الدُّنيا، وهم يَظنُّونَ أنَّهم يقومونَ بأعمالٍ حسَنَةٍ مَرْضِيَّة؟
أولئكَ الأخسَرونَ همُ الذينَ جحَدوا آياتِ اللهِ ومُعجِزاتِه التي أيَّدَ بها رُسُلَه، وكفَروا بيومِ المعاد، فلا حِسابَ في نظَرِهم ولا جَزاءَ بعدَ الموت، فهؤلاءِ بطَلَتْ أعمالُهم مهما ظَنُّوا أنَّها حسنَة، لأنَّهم لم يَصدُروا فيها عن إيمانٍ وعمَلٍ صالِح، فهيَ غَيرُ قائمةٍ على شَريعَةٍ مَشروعَةٍ ومَقبولَةٍ عندَ الله، بلْ هيَ من أهوائهم وتَسويلِ الشَّيطانِ لهم، فلا نَجعَلُ لهؤلاءِ يومَ القِيامَةِ وَزنًا ولا اعتِبارًا.
فإذا كانَ الأمرُ كذلك، فإنَّ جزاءَهم جَهنَّمُ؛ بسَبَبِ كُفرِهم، واستِهزائهم بآياتي ومُعجِزاتي، وتكذيبِهم كُتُبي ورسُلي.

والكفرُ يَجلبُ البغضَ لصاحبِه، وخسارةً له:
{وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتاً وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَاراً} [سورة فاطر: ٣٩].
أي: كُلَّما ازدَادوا في كُفرِهم، ازدَادوا بذلكَ بُغضًا واحتِقارًا عندَ رَبِّهم، وزادُوا في خَسارَةِ أنفُسِهم يَومَ القِيامَة.

وكلُّ الناسِ في خُسران، إلا من آمنَ وعملَ صالحًا، وقد أنزلَ الله سورةً في هذا، هي سورةُ العَصر:
{وَالْعَصْرِ. إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ. إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ}.
تفسيرُها:
أُقسِمُ بالعَصرِ. وهوَ الزَّمان، الذي يَعيشُ فيهِ الإنسَان، وتقَعُ فيهِ أعمالُه.
إنَّ الإنسَانَ لَفي خَسارَةٍ في عمُرِه، لانشِغالِهِ بالدُّنيَا، واستِغراقِهِ في مَصالحِه، وصَرفِ وَقتِهِ في مَطالبِهِ وأهوَائه، وإهلاكِ نَفسِهِ بالمعاصِي،
إلاّ الذينَ آمَنوا وصدَقوا في إيمانِهم، وأدَّوا ما فرَضَ اللهُ عليهم، وعمِلوا الأعمَالَ الصَّالحةَ الموافِقَةَ للدِّين، وأخلَصوا بها لوَجهِ اللهِ تَعالَى، وأوصَى بَعضُهم بَعضًا بالتَّوحيدِ والإخلاصِ في الطَّاعَة، وباتِّباعِ أمرِ اللهِ كُلِّه، وتَواصَوا كذلكَ بالصَّبرِ على الشَّدائدِ والمصائب، وعلى الجِهادِ والدَّعوَة، وعلى طاعَةِ اللهِ سُبحانَه، وعلى تَركِ المنكَراتِ والمعاصِي.
فهؤلاءِ لَيسُوا في خُسرَان: الذينَ جمَعوا بينَ الإيمَان، والعمَلِ الصَّالح، والتَّواصي بالحقّ، والتَّواصي بالصَّبر؛ بل همُ الفَائزون.
جعلَنا اللهُ من الفَائزين.

الباب الرابع
من صفات وأحوال المنافقين

ومن صفاتِ المنافقين، وقد ذُكِر بعضُها:

النفاق

وهو أبرزُ صفاتِهم. وقد لخَّصَ الله تعالَى أمرَهم في قوله:

{يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ} [سورة آل عمران: ١٦٧].

معناه: يَقولونَ بألسنتِهم غيرَ ما يُضمِرونَهُ في قُلوبِهم، واللهُ أعلمُ بما يُخفونَهُ من كُفرٍ ونِفاق، وما يَغْمِرُ قلوبَهم مِن شرٍّ وفَساد.

وقالَ فيهم أيضًا:

{يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لاَ يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطاً} [سورة النساء: ١٠٨].

أي أنَّهم يَستَتِرونَ بقَبائِحِهم وأعمالِهِمُ الدنيَّةِ من النَّاسِ لئلاّ يُعرَفوا بذلك، لكنَّهم يُجاهِرونَ بها اللهَ خالِقَهم وهوَ أحَقُّ مِن أنْ يُستَحيا منهُ ويُخشَى عِقابُه، وهوَ معهم إذْ يُدَبِّرونَ ما يُجافي الاستقامةَ والعَدل، وهوَ سُبحانَهُ عالِمٌ بأعمالِهِمُ الظاهِرةِ والخافِيَة، لا يَخفَى عليهِ شَيء.

الشكّ

ومن صفاتِ المنافقين: الشكّ، وهو ضدُّ الإيمانِ اليقينيّ عند المؤمن. قالَ جلَّ جلاله:

{فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ} [سورة البقرة: ١٠].

معناه: في قلوبِهم عِلَّةٌ جعلَتْهُمْ يَحِيدون عنِ الحقّ ويُصِرُّون عَلى مَوقِفِهم، فزادَهمُ اللهُ بذلك عِلَّةً؛ فإنَّ الانحرافَ يَكبُر، والمرضَ يزدادُ معَ الإصرار، فَشَكُّوا ولم يحاولوا الإيمان، فزادَهمُ اللهُ شكًّا، كما أنَّ الذينَ {اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى} [سورة محمد: ١٧].

التذبذب والتردد

ومن أوصافِهم، وهو قريبٌ من السابق: التأرجحُ والتردُّد، قالَ الله تعالَى:

{مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لاَ إِلَى هَؤُلاء وَلاَ إِلَى هَؤُلاء وَمَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً} [سورة النساء: ١٤٣].

معناه: إنَّهم مُتحَيّرونَ ومُتأرجحونَ بينَ الكُفرِ والإيمان، ومُترَدّدونَ بينَ الكافِرينَ والمؤمِنين، فلا هم مَنسُوبونَ إلى المؤمنين حَقيقةً لإضمارِهمُ الكُفر، ولا هم يُظهرونَ الكُفرَ ليُقالَ إنَّهم كفّار، بل ظاهِرُهم معَ المؤمنينَ وباطنُهم معَ الكافِرين. ومَن يَصْرِفْهُ اللهُ عنِ الهُدَى، ويُضْلِلْهُ عن سَبيلِ النجاة، فلن تَجِدَ لهُ هَادياً ومُنقِذاً، لعدمِ استعدادهِ للهدايةِ والتوفيق، ولصرفِ نفسهِ عنِ الحقّ والصَّواب.

الخوف والحيرة والخسران

الشيطانُ يخوِّفُ الناسَ بأحابيلِهِ وأوهامِهِ ووسَاوسه، والمطلوبُ الثقةُ باللهِ والخوفُ منهُ سبحانه:

{إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [سورة آل عمران: ١٧٥].

إنَّما هوَ الشَّيطانُ الذي يُوهِمُكم أنَّهُ ذو بَأسٍ وشِدَّة، ويُلْبِسُ أنصارَهُ لباسَ القوَّةِ والقُدرة، ويُوقِعُ في القُلوبِ أنَّهم ذَوو حَوْلٍ وطَوْل، وأنَّهُمْ سيَنتصِرون، فلا تَخافوا المشركِينَ أولياءَ الشَّياطين، الذينَ يَنشُرونَ الفسادَ والباطِل، بل خافونِ والتَجِؤوا إليّ، فأنا كافِيكم وناصرُكم عليهم ما نَصَرْتُموني.

وقالَ الله في وصفِ المنافقين:

{أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ. مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اُسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَ يُبْصِرُونَ. صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ} [سورة البقرة: ١٦-١٨]

إنَّهم عَدَلُوا عنِ الهُدى إلى الضَّلال، وآثَرُوا الكُفرَ على الإيمانِ الصَّريح، في تجارةٍ خاسرةٍ من جميعِ الوجوهِ، فما رَبِحَتْ صَفقتُهم هذه، وما كانوا راشدينَ في صنيعِهم هذا.

ومَثَلُ هؤلاءِ الذينَ عَدَلوا عنِ الهُدَى إلى الضَّلال، وآثَرُوا العَمَى على التبصُّر، كمَثَلِ رجلٍ أوقَدَ نارًا في ليلٍ مُدْلَهِمٍّ، فَلَمَّا أضاءتِ النارُ ما حولَها وانتفعَ بها مُوقِدُها، وأبصرَ بها ما حولَهُ واستأنسَ بها، إذا بها طُفِئَت، فصارَ في ظلامٍ شديدٍ، لا يُبصرُ ولا يَهتدي!.

والمنافقونَ كذلك، رَأَوا نورَ الإسلامِ فآمَنوا، ثم انقَلبوا على وجوهِهم يَخبِطُونَ حائرين، مُؤثِرينَ الضلالَ على الهُدَى بعدَما تبيَّنوه. {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ} [سورة المنافقون:٣].

فكانَ جزاؤُهم أنْ أذهبَ اللهُ عنهم ما يَنفعُهم، وهوَ النور، وأبقَى لهم ما يَضرُّهم، وهوَ الإحراقُ والدُّخَان، وترَكهم في ظُلُماتِ الشكِّ والكُفرِ والنِّفاق، لا يَهتدونَ إلى سَبيلِ الخير.

لقدْ عَطَّلوا وظائفَ آذانِهم وألسنتِهم وعيونِهم؛ فلا يسمعونَ خيرًا، ولا يَتكلَّمونَ بما يَنفعُهم، ولا يَرَونَ الحقَّ، فكيف يَهتدون، وأنَّى يَستجيبونَ للهُدَى والنور؟

وضربَ مثلًا آخرَ للمنافقين، الخائفين المترددين..

وقالَ سُبحانهُ في وصفِهم يومَ الأحزاب:

{فَإِذَا جَاء الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُوْلَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً} [سورة الأحزاب: ١٩].

يعني: إذا جاءَ الخَوفُ مِن قِبَلِ العَدوّ، وظَنُّوا أنَّ البأسَ سيَقعُ بهم كما يَقَعُ بغَيرِهم، رأيتَهم يَنظُرونَ إليكَ وأعينُهم تَدورُ مِنَ القَلقِ وشِدَّةِ الهَلَع، كنظَرِ المغشيّ عَليهِ مِن سَكراتِ الموت، فإذا انجَلَى الخَوفُ وأَمِنوا، بسَطوا فيكم ألسِنتَهم السَّليطَةَ المقذِعَة، وآذَوكم وانتَقَصُوكم، وهم بُخَلاءُ بالنفَقة، لكنَّهم حَريصونَ على أخذِ الغنائمِ معَ المجاهِدينَ المسلمِين!

فهؤلاءِ المتَّصِفونَ بهذهِ الصِّفاتِ لم يؤمِنوا بإخلاص، بل أظهَروا إيمانَهم أمامَ النَّاسِ وهم كافِرونَ في بَواطنِهم، ولذلكَ أبطلَ اللهُ أعمالَهمُ التي يُظَنُّ أنَّ فيها خَيرًا، وهذا أمرٌ سَهلٌ على الله، فإنَّهُ لا يُبالي بهم وقد خانُوا الدِّينَ والعَهد.

الكذب والخداع

من صفاتِ المنافقينَ البارزةِ الكذبُ، الذي يدخلُ فيه النفاقُ والرياءُ والخداع. قالَ ربُّنا سبحانهُ وتعالَى في أولِ سورةِ (المنافقون):

{إِذَا جَاءكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ}.

معناه: إذا أتاكَ المنافِقونَ وحضَروا مجلِسَكَ أيُّها الرسُول، أظهَروا الإسلامَ وقالوا: نَشهَدُ أنَّكَ رسُولُ الله، واللهُ يَعلَمُ أنَّكَ رَسُولُهُ إلى النَّاس، واللهُ يَشهَدُ أنَّ المنافِقينَ كاذِبون، لأنَّهم يُضمِرونَ خِلافَ ما يَعتَقِدون.

وقالَ أيضًا:

{وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ. يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ} [البقرة: ٨-٩].

فهناكَ منافقونَ، يُظهرونَ الإيمانَ ويُبطِنُون الكُفرَ، ويُبدُونَ الخيرَ ويُسِرُّون الشرَّ، ويَقولون: إنَّهم يؤمنونَ باللهِ وبيومِ الجزاء، ولكنَّهم في الحقيقةِ غيرُ مؤمنين.

ويَعتقِدونَ - بجَهلهم - أنَّهم يَخدعونَ اللهَ بذلك، وأنَّ أُسلوبَهم هذا يَنفَعُهُم عندَه، وأنه يَرُوجُ عليهِ كما يَرُوجُ على بعضِ المؤمنين، ولكنَّهم بِصَنِيعِهم هذا لا يَضُرُّون إلا أنفسَهم، ولا يسيؤونَ إلاّ إلى أنفسِهم، فيَسخَطُ عَليهم ربُّهم وهم غيرُ شاعرينَ بذلك، فهم على عمًى مِن أمرِهم مُقيمُون.

وقال:

{إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ} [سورة النساء: ١٤٢].

أي أنَّ المنافِقينَ يَفعلونَ ما يَفعلُ المخادِع، فيُظهِرونَ الإيمانَ ويُضمِرونَ نَقيضَه، وهم يَظنُّونَ — بجهلِهم - أنَّ أمرَهم هذا سيرُوْجُ حتَّى عندَ الله، العالمِ بالسرائرِ والضَّمائر، ولكنَّ اللهَ يَستدرِجُهم في طُغيانِهم وضَلالِهم، وهوَ فاعِلٌ بهم ما يَفعلُ الغالِبُ في الخِداع، فهوَ إنْ تركَهم مَعصومِي الدِّماءِ

والأموالِ بينَ المسلِمينَ لتَظاهُرهم بالإسلام، فقد أعدَّ لهم في الآخِرَةِ الدرْكَ الأسفلَ منَ النار، بعدَ فضحِهم وإظهارِ شأنِهم.

وقالَ في آيةٍ أخرى:
{وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الخِصَامِ} [سورة البقرة: ٢٠٤].
أي: هناكَ منَ الناسِ مُنافِقون، يَقولُ لكَ أحدُهم كلاماً جَميلاً في ظاهره، يُنْبِئُ عن مَحَبَّةٍ وطَاعة، ويَحلِفُ أنَّهُ صادقٌ في إيمانهِ ومَوقفه، وهوَ في الحقيقةِ مِن أشدِّ الخُصَماءِ لكَ وللدِّين، فهوَ يَكذِبُ ويَفْجُر، ولا يوافقُ باطِنُهُ ظاهرَه، وما كلامهُ هذا سِوَى تمويهٍ وسِترٍ يُخفيه، خشيةَ أنْ ينالَهُ سيفُ الإسلام، أو أنَّهُ يتحيَّنُ الفُرصةَ ليؤذيَ المسلِمين.

الحلف الكاذب

قالَ الله تعالَى في صفةٍ تلازمُ المنافقين، وهي من الكذب:
{وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} [سورة النور: ٥٣].
أي: حلَفَ المنافِقونَ حَلِفًا عَظيمًا أنَّكَ إذا أمرتَهم بالخُروجِ إلى الجِهادِ خرَجوا، قُلْ لهم أيُّها النبيّ: لا تَحلِفوا حَلِفاً فاجِرًا، فإنَّ طاعتَكم طاعَةٌ مَعروفَة، هيَ باللِّسانِ فقط، لا بالعمَل. واللهُ خَبيرٌ بأعمالِكمُ الظَّاهِرَةِ والباطِنَة، وما تُضمِرونَ مِن كُفر، وتَكذِبونَ في حَلِف.

الخبث

قالَ الله تعالَى مشيرًا إلى طبيعةِ المنافقينَ الخبيثة:
{مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ المؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ} [سورة آل عمران: ١٧٩].
معناه: ما كانَ اللهُ لِيَدعَ المؤمنينَ هكذا بدونِ تَمحيصٍ وابتِلاءٍ وقدِ التبسَ بهمُ المنافِقون، فكانَ لا بدَّ منَ المِحنةِ حتَّى يَظهرَ الوليُّ منَ العَدوّ، ويَبِيْنَ المؤمِنُ الصَّابرُ منَ المنافقِ الفاجِر، وذلك

يومَ أُحُد، وكانَ كذلك، حيثُ تَبيَّنَ المخلِصونَ المجاهِدونَ الذينَ ثَبتُوا معَ رسولِ الله، وظَهرتْ مخالفةُ المنافِقينَ وخيانتُهم للهِ ورسولِه.

وقالَ سُبحانهُ في الخبيثين:
{الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ} [سورة النور: ٢٦].
أي: الخَبيثاتُ السَّيِّئاتُ مِنَ النِّساءِ مُناسِباتٌ ولائقاتٌ بالخَبيثينَ السَّيِّئينَ مِنَ الرِّجال، والخَبيثونَ منهمْ لائقونَ بالخَبيثاتِ منهنّ ومُوافِقونَ لَهُنّ.

التكبر

ومن صفاتِ المنافقين: التكبُّر، الذي يمنعُ من اتّباعِ الحق. قالَ الله تعالَى:
{وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللهَ أَخَذَتْهُ العِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ المِهَادُ} [سورة البقرة: ٢٠٦].
أي: إذا وُعِظَ أحدُ هؤلاءِ المنافقينَ وقيلَ له: احذَرْ غَضبَ الله، وانْتَهِ مِن فَعالِكَ السيِّئة، وارجِعْ إلى الحقّ، أخَذتْهُ الحميَّةُ والغَضب، وتعاظمَ واستكبرَ أنْ يُوَجَّهَ لهُ مثلُ هذا التذكيرِ والإنكار، لِما امتلأَ قلبُهُ مِنَ الكفرِ والعِصيان، فما استَحيا منَ الله، ولا سمعَ كلامَ أحَد، وهوَ في واجهتِهم يتَظاهرُ بالإيمانِ والمحبَّةِ والطَّاعة!

السفه

ومن صفاتِ المنافقين: السفه، كما في الآيةِ (١٣) من سورةِ البقرة:
{وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لاَ يَعْلَمُونَ}.
أي: إذا قِيلَ للمنافقينَ آمِنُوا بالإسلامِ كما آمَنَ الناسُ، إيمانًا كاملاً لا شكَّ فيه، وأطيعوا اللهَ وامتَثِلوا أوامرَ رسولِهِ كما يَفعلون؛ أَنِفُوا منَ الاستسلامِ للحقِ، وقالوا في غُرورٍ وبَلَه: أنؤمِنُ كما آمَنَ هؤلاءِ السفهاءُ - يَعنُون الصحابةَ رَضِيَ اللهُ عنهم- وَنَصِيرُ وَهُم بمنزلةٍ واحِدة؟!
لكنَّ الحقَّ أنَّهم همُ الجهلاءُ، فهم ضَعيفو الرأيِ وقَليلو المعرفةِ بمواضعِ المصالحِ والمضارِّ، ومِن تَمامِ جهلِهم أنَّهم لا يَعلمونَ بحالِهم في الضلالةِ والجَهل، وهذا أَزْدَى وأبلغُ في السَّفَهِ والعَمَى!

موالاة الكافرين

ومن صفاتِ المنافقين أيضًا: موالاةُ أهلِ الكفر. قالَ اللهُ تعالَى فيهم:

{وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ} [سورة البقرة: ١٤].

معناه: إذا لَقِيَ المنافقونَ المؤمنينَ أظهروا لهمُ الإيمانَ والموالاة، وأَبدَوا لهمُ المحاباةَ والمصافاة، نِفاقًا ومُصانعة؛ ليتَّقوا بذلكَ أذًى يُصيبُهم مِنهم، وليتَّخِذوا هذهِ التَّقيَّةَ وسيلةً لكي يُؤذُوهم، وليُشارِكوهم فيما يُصيبونَهُ مِن مَغنم.

وإذا انصَرفوا إلى رؤسائهِمْ وسَادتِهم، من أحبارِ اليهودِ ورؤوسِ المشركينَ وكُبَراءِ المنافقين، قالوا لهم: نحنُ مَعكم، إنَّما كنَّا نَسْخَرُ بالمؤمنين!

عدم الرغبة والإخلاص في العبادة

ووصفَ اللهُ المنافِقينَ أيضًا بقوله:

{وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاَّ قَلِيلاً} [سورة النساء: ١٤٢].

أي: مِن صفاتِهم أنَّهم إذا قامُوا إلى خَيرِ شَعيرةٍ في الإسلام، وهوَ الصَّلاة، قامُوا إليها مُتثاقِلينَ مُتباطِئين، يُصَلُّونَها بلا نيَّةٍ ولا خَشية، ولا فَهمٍ ولا رَغبة، ولا إيمانٍ ولا إخلاص، إنَّما يَفعَلونَ ذلك ليَراهمُ الناسُ وهم يُصلُّونَ ليَحسَبوهمْ مُسلِمين. فهم في صَلاتِهم ساهونَ لاهون، لا يَدرونَ ما يَقولون، ولا يَذكرونَ الله إلاّ زَماناً قليلاً.

التخلف عن الجهاد

وأمرُ المنافقينَ معروفٌ في خذلانِ المسلمين، ونشرِهم الشائعات، وموالاةِ الكفّار، والقعودِ عن الجهاد، من ذلك قولهُ تعالَى:

{فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلاَفَ رَسُولِ اللّهِ وَكَرِهُواْ أَن يُجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَقَالُواْ لاَ تَنفِرُواْ فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ} [سورة التوبة: ٨١].

معناه: لقد فَرِحَ الذينَ تَخلَّفوا عنِ الجِهادِ في غَزوةِ تَبوكَ بقُعودِهم بعدَ خروجِ النبيِّ صلى اللهُ عليهِ وسلَّم، وكَرِهوا أنْ يَبذُلوا أموالَهم وأنفسَهم في سَبيلِ الله، إيثاراً للرَّاحةِ والكسَل، وطَلَباً للتنعُّمِ والتلذُّذ، وقالَ بَعضُهم لبَعض، تواصياً فيما بينَهم بالباطل، وتثبيتاً لهم على القُعودِ عنِ الغَزو: لا تَخرُجوا في الحرِّ فإنَّهُ لا يُطاق. قُلْ لهم أيُّها النبيّ: إنَّ نارَ جهنَّمَ التي تَصيرونَ إليها بسبَبِ مُخالفتِكم، هيَ أشدُّ حرًّا مِن هذا الحَرِّ الذي ترَونَهُ مانعاً لكم منَ الخُروج، هذا لو كانوا يَعلمونَ أهوالَ جهنَّمَ وشدَّةَ حَرِّها، وفكَّروا بمصيرِهم حقًّا.

وقالَ سُبحانهُ بعدَ هذه الآية:
{وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُواْ بِاللّهِ وَجَاهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُوْلُواْ الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ. رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ} [سورة التوبة: ٨٦-٨٧].
أي: إذا أُنْزِلَتْ سُورةٌ مِن القُرآنِ تأمرُ بالإخلاصِ في الإيمانِ والجِهادِ معَ رَسولِه، طلبَ الإذنَ منكَ بالقُعودِ ذَوُو الغِنَى والسَّعَةِ منَ المنافِقين، وقالوا: دَعْنا نَكُنْ معَ القاعِدينَ منَ الذينَ لم يُجاهِدوا لعُذر.
رَضُوا بأنْ يَبْقُوا معَ الخالِفينَ منَ الصِّبيانِ والعاجِزينَ والنِّساءِ بعدَ خُروجِ الجَيش. وختمَ اللهُ على قُلوبِهم بسببِ عَدمِ خُروجِهم معَ رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم، فهم لا يَفهمَونَ ما يَنفعُهم ولا ما يَضرُّهم في دُنياهُم وآخِرَتِهم.

عدم التعاون على الخير

ومن دأبِ أهلِ النفاقِ وأمثالهم، أنَّهم لا يتعاونونَ على الخير، فهم بخلاءُ أنانيُّون جَشِعون، لا يهتمُّون بأمر اليتامَى والمحتاجينَ والجيران، ولا يقضونَ حوائجَ الناس. قالَ الله تعالَى في طرَفٍ من صِفاتِهم هذه:
{فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ. وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ} [سورة الماعون: ٢-٣].
أي: فذلكَ المكذِّبُ الكافِر، هوَ الذي يَزجُرُ اليَتيمَ الصَّغيرَ ولا يُعطيهِ حقَّه.

ولا يُطعِمُ المسكِينَ الذي لا يَجِدُ شَيئًا يأكلُه، ولا يأمرُ أهلَهُ ببَذلِ الطَّعامِ له، لأنَّهُ لا يؤمِنُ بالجزاء، ولا يَعتَقِدُ بأنَّ لهُ ثَوابًا على خَيرٍ يُقَدِّمُه.

وقالَ أيضًا:
{وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ} [سورة الماعون: ٧].
أي: ويَمنَعونَ زَكاةَ أموالِهِم للفُقَراء، وأنواعَ الخَيرِ والبِرِّ والمعروفِ بالنَّاس، وما يَكونُ بينَ الجيرانِ مِنِ استِعارَةِ أمتِعَةِ البَيتِ ونَحوِها.

الإفساد

ومن صفاتِ المنافقينَ التي ذكرَها اللهُ تعالَى في كتابهِ الكريم: الإفساد:
{وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللهُ لَا يُحِبُّ الفَسَادَ} [سورة البقرة: ٢٠٥].
معناها: إذا مضَى أحَدُ هؤلاءِ المنافِقينَ الكذّابينَ عَمَدَ إلى بَثِّ الفسادِ وزرعِ الشرِّ والإضرارِ بكلِّ ما هوَ حيّ، قاصداً إهلاكَ الأحياءِ وتخريبَ الزُّروعِ والثِّمارِ والبيئةِ ونشرَ الخَرابِ والدَّمار، فلا مبادئَ ساميةٌ عندَه، ولا خوفَ لديهِ منَ الحِساب، حيثُ لا يؤمِنُ به، بل شأنهُ الغَدرُ والشرُّ والفَساد، واللهُ يَبغُضُ الفَسادَ في الأرض، ولا يُحِبُّ مَنِ اتَّصفَ به، ولا تَخفَى عليهِ سَرائرُ النَّاس، فلا تَغُرَّنَّكمُ المظاهرُ والكلِماتُ المعسُولة.

وقالَ في شأنِهم أيضًا:
{وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ. أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لاَ يَشْعُرُونَ} [سورة البقرة: ١١-١٢].
فإذا طُلِبَ منهم عَدَمُ الكُفرِ، وعَدَمُ العصيانِ؛ لأنَّ ذلكَ يُؤَدِّي إلى الإفسادِ في الأرضِ، والطاعةَ تُؤَدِّي إلى الإصلاحِ، قالوا في سَفَهٍ وتبجُّحٍ: إنَّهم يُريدونَ بذلكَ الإصلاحَ! وأمثالُ هؤلاءِ كُثُر، ممنِ اختَلَّتْ موازينُ الحقِّ عندَهم؛ لاختلالِ عقيدتِهم.

والحقُّ أنَّ هذا الذي يَعتمدونَهُ في منهجِهم، وَيزعُمُونَ أنَّهُ إصلاحٌ، هوَ عينُ الفسادِ، ولكنْ مِن جهلِهم لا يَشعُرونَ بكَونِهِ فَسَادًا.

عقاب من اتصف بصفاتِ النفاق

بعدَ أن بيَّنَ اللهُ تعالَى صفاتٍ للمنافِقين، قالَ فيمَا يَستحقُّونهُ من عقاب:
{فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ} [سورة البقرة: ١٠].
أي: فاستحقَّ المنافقونَ بذلكَ العِقابَ القاسِي، وذلك لكَذِبِهم، وهوَ مَوْقِفُهمُ المناقضُ للحقّ، والكَذِبُ أَحَدُ أبوابِ النفاق، وما أَسْرَعَهُ في إفسادِ القلب!

ومن العقوباتِ التي ترتَّبتْ على صِفاتهم، فعوقبوا من جنسِها، قولُ الله تعالَى فيهم:
{وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ}
فقالَ سبحانه:
{اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} [سورة البقرة: ١٥]
أي: ما داموا اختاروا طريقَ الخِداعِ والتآمُر، والتهكُّمِ والاستهزاء، فإنَّ اللهَ لهم بالمرصادِ، وسيَعلمونَ غدًا أنَّ الهُزْءَ والمكْرَ قد حاقَ بهم {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ} [سورة النساء:١٤٢]، فسوفَ يَسخرُ اللهُ بهم بالانتقامِ منهم، ويدَعُهم يَخبِطُون في طريقٍ لا يَعرِفونَ نهايتَه، ولا يجدونَ سبيلاً إلى الخروجِ منه، فقد طَبَعَ اللهُ على قلوبِهم، وأعمَى أبصارَهُم، نتيجةَ أعمالِهِمْ ومَواقفِهمُ السيِّئة.
والمكرُ والخِداعُ والسُّخريةُ على وجهِ اللَّعبِ مُنتَفٍ عنِ اللهِ عزَّ وجلَّ بالإجماع، وأمّا معَ وجهِ الانتقامِ والمقابَلَةِ بالعدلِ والمجازاةِ، فلا يمتَنعُ ذلك، كما قالَ ابنُ جَريرٍ الطبريُّ.

وبيَّنَ عذابَهم الشديد، تحذيرًا، وعقوبة، فقالَ سُبحانه:
{وَعَدَ الله الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ} [سورة التوبة: ٦٨].

أي أنَّ اللهَ وعَدَهُم نارَ جهنَّمَ تُسْعَرُ بهم جزاءَ كُفرِهم، مؤبَّدينَ فيها، وفيها ما يَكفِيهم منَ العِقابِ والعَذاب، وأبعدَهم اللهُ من رَحمَتهِ وأذَلَّهم، فلا أملَ في خَلاصِهم ممّا هم فيه، فلهم عذابٌ دائمٌ لا ينقَطِعُ أبداً.

الباب الخامس
من صفات وأحوال الكافرين

الكفر والشرك

قالَ اللهُ تعالَى لأهلِ الكتاب:

{قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَاللهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ} [سورة آل عمران: ٩٨].

أي: لماذا تَكفُرونَ بالحُجَجِ القويَّة، والبراهينِ الجليَّةِ التي يُنزِلُها الله؟ واللهُ شاهدٌ على صَنيعِكم بما تُخالفونَ بهِ ما نَزلَ منَ الحقّ، وتُعانِدونَ الرَّسولَ وتحارِبونَ رسالتَه.

وقالَ مبيِّنًا عنادَ الكافرين وإصرارَهم على الكفر:

{وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ} [سورة الأنعام: ٧]:

إنَّهم كفّارٌ مُكابِرونَ معانِدون، ولو أنَّنا نزَّلنا عليكَ منَ السَّماءِ كتابةً في ورقٍ ونَظروا إليها بأعينِهم، ولمسوها بأيديهم، ورأوها تَنْزِلُ عِياناً، لأنكَروا كلَّ هذهِ الدلائلَ المادِّيةَ المحسوسةَ التي تُسَلِّمُ بنزولِ هذا الكتاب، وقالوا: لا شكَّ أنَّ هذا سِحرٌ واضحٌ بيِّن، وليسَ هوَ بكتابٍ حقيقيّ!

وقالَ الله تعالَى مبيِّنًا نتيجةَ الكفر:

{إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الكُفْرَ بِالإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [سورة آل عمران: ١٧٧].

إنَّ الذينَ استَبدلُوا الكفرَ بالإيمان، رغبةً في الأوَّلِ وإعراضاً عنِ الآخَر، لن يَضُرُّوا اللهَ شَيئاً، إنَّما ضَررُهم على أنفسِهم، عندما يَأتي على أبدانِهم عذابٌ مُؤلمٌ شَديد، جزاءَ سُرورِهم بالكُفرِ في الدُّنيا.

وقالَ سبحانهُ مبيِّنًا ومنبِّهًا:
{مَن كَفَرَ بِاللهِ مِن بَعْدِ إيمَانِهِ إلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [سورة النحل: ١٠٦].
معناه: إنَّ الكافِرَ حَقًّا مَن كفرَ بعدَ أنْ رَأى نورَ الإيمانِ واطمأنَّ بهِ قَلبُهُ واعتنقَ الإسْلام، فارتدَّ مُؤْثِرًا الحياةَ الدُّنيا على الآخِرَة، وصُحبَةَ أهلِ الكُفرِ على أهلِ الإيمان، إلاّ مَن فُتِنَ في دِينِهِ وعُذِّبَ وأُكرِهَ على الكُفرِ ولكنَّ قَلبَهُ مَليءٌ بالإيمانِ وحُبِّ اللهِ ورَسولِه، فهؤلاءِ مؤمِنونَ حَقًّا، وإنْ نَطَقوا بالكُفرِ ظاهِرًا تحتَ التَّعذيبِ والإكرَاه.
والكافِرُ الصَّريحُ هوَ مَن فتحَ صَدرَهُ للكُفر، وقَبِلَهُ طَواعيَةً واختيارًا، فهؤلاءِ عَليهم غَضَبٌ عَظيمٌ وسُخْطٌ منَ الله، ولهم عَذابٌ كَبيرٌ يومَ القِيامَة، لعِظَمِ جُرمِهم.

ووصفَ اللهُ تعالَى من لم يحكمْ بما أنزلَ اللهِ منَ الأحكامِ بأنهُ كافر:
{وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ} [سورة المائدة: ٤٤].
قالَ ابنُ عباسٍ رضيَ الله عنهما: مَنْ جَحدَ ما أنزلَ اللهُ فقدْ كفَر، ومَنْ أقرَّ بهِ ولم يَحكمْ فهوَ ظالمٌ فاسِق.
وبعدَ أنْ ذكرَ ابنُ جَريرٍ الطبريُّ أنَّ الآيةَ نَزلتْ في أهلِ الكتابِ خاصَّة، قال: وكذلكَ القولُ في كلِّ مَنْ لم يَحكمْ بما أنزلَ اللهُ جاحِداً به، هوَ باللهِ كافر، كما قالَ ابنُ عباس؛ لأنَّهُ بجحودهِ حُكْمَ اللهِ بعدَ علمهِ أنَّهُ أنزلَهُ في كتابِه، نظيرُ جُحودهِ نبوَّةَ نبيِّهِ بعدَ علمهِ أنَّهُ نَبيّ.
قلتُ: ومثلهُ مَنْ استَهزأ بشَريعَةِ الإسلامِ وأحكامِها، أو زعمَ أنَّها لا تَصْلُحُ للحُكم.

والكافرُ مَلعُون:
{قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ. مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ}؟ [سورة عبس: ١٧-١٨]

أي: لُعِنَ المكذِّبُ بالبَعثِ والنُّشورِ ما أشَدَّ كُفرَه!
مِن أيِّ شَيءٍ مَهينٍ خَلقَه؟ ما أصلُهُ وما مَبدَؤهُ حتَّى يتكبَّرَ ويُعرِضَ؟

وما كانوا يؤمنونَ بيومِ القيامة:
{إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَاباً} [سورة النبأ: ٢٧].
أي: ما كانوا يؤمِنونَ بالبَعثِ والجَزاء، وما كانوا يَخافونَ ذلكَ اليَومَ الذي يُحاسَبونَ فيه.

وصفةُ مَن يكفرُ باليومِ الآخر:
{وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ} [سورة المطففين: ١٢].
أي: لا يُكذِّبُ بالمعادِ إلاّ كلُّ مُعتَدٍ على محارمِ الله، مُتَجاوزٍ للحقِّ إلى الباطِل، كثيرِ الإثْمِ في أقوالِهِ وأفعالِه، مُنهَمِكٍ في الشَّهوات، غارِقٍ في المحرَّمات.

وقالَ سُبحانهُ في جزائهم:
{وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْداً} [سورة مريم: ٨٦].
أي: نَسوقُ الكفَرَةَ المكَذِّبينَ إلى جَهنَّمَ مُشاةً عِطاشًا، كما تُساقُ الإبِلُ إلى الماءِ وهيَ عَطشَى.

وكيفَ يكونُ موقفُ الكافرِ يومَئذ؟
{وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَاباً} [سورة النبأ: ٤٠].
أي: يَقولُ الكافِرُ يَومَئذٍ وهوَ في غايَةِ الخَيبَةِ ونِهايَةِ التَّحَسُّرِ والألَمِ، وقد نظرَ إلى أعمالِهِ الفاسِدَة: يا ليتَني كنتُ تُرابًا في الحياةِ الدُّنيا، فلم أُخلَقْ ولم أُكلَّف. أو أنَّهُ يَقول: ليتَني كنتُ تُرابًا في هذا اليَومِ ولم أُبعَث.

××× ××× ×××

والشركُ حالةٌ ملازمةٌ للمشركين، الذين يجعلونَ مع اللهِ إلهًا آخر، هي الشركُ بالله، ولن يغفرَها اللهُ لهم:

{إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا} [سورة النساء: ٤٨]:

واللهُ لا يَغفِرُ ذَنبَ مَن أشركَ به، فالشركُ يُحبِطُ الأعمالَ حتَّى لا يُبقِي لصاحبِها حَسنة، وهوَ سُبحانَهُ يَغفِرُ ذنوبَ مَن شاءَ مِن عبادهِ مادامَ غيرَ مُشرِكٍ به.

ومَن يُشرِكْ باللهِ فقدِ اختلقَ كَذِباً عَظيماً وارتكبَ إثماً كبيراً، يُستَحقَرُ دونَهُ جميعُ الذنوبِ والآثام. والمرادُ بالشركِ مُطلَقُ الكفر. وكانَ اليهودُ وغيرُهم معَ تَحريفِهم وشِركِهم وكُفرِهِم يَطمَعونَ بالمغفِرة {وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا} [سورة الأعراف: ١٦٩]، فبيَّنَ اللهُ تَعالَى أنَّهُ لا يُغفَرُ لمن يُشرِكُ به.

وقالَ في آخرِ آيةٍ أخرى:

{وَمَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً} [سورة النساء: ١١٦].

أي: فقدِ ابتعدَ عنِ الطريقِ الحقّ، وارتكبَ إثماً عظيماً، وأهلكَ نفسَهُ فخَسِرَ رحمةَ رَبِّهِ وجنَّتَه.

ويعني أنهُ يترتَّبُ على الإشراكِ إحباطُ العمل:

{وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [سورة الزمر: ٦٥].

تفسيرها: لقد أوحَينا إليكَ وإلى النبيّينَ مِن قَبلِكَ: لئنْ أشرَكتَ معَ اللهِ في عِبادَتِك، لَيُبطِلَنَّ ثَوابَ عَمَلِكَ الصَّالِحِ الذي عَمِلتَه، ولتَكونَنَّ مِنَ الهالكينَ يومَ القِيامَةِ إنْ أشرَكتَ باللهِ شيئًا.

وبيَّنَ سخفَ عقولِ المشركينَ في شركِهم، فقال:

{أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ. وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَلاَ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ} [سورة الأعراف: ١٩١-١٩٢].

معناه: أيُشرِكونَ باللهِ تعالى أصناماً مِن حَجَرٍ، لا تَقدِرُ على الحرَكة، ولا على الضَّرَرِ والنَّفع، ولا هيَ قادِرَةٌ على أنْ تَخلُقَ شيئاً، وعابِدوها أقدرُ منها وأسمعُ وأبصَر!! وهذهِ الأصنامُ مَصنوعةٌ ومُشَكَّلةٌ بأيديهم؟! {أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ}؟ [سورة الصافات: ٩٥].
ولا تَقدِرُ هذهِ الأصنامُ على الانتِصارِ لمن يَعبُدها، كما لا تستَطيعُ الدفاعَ عن نفسِها إذا ضُرِبتْ أو كُسِرت.

وقالَ اللهُ تعالَى مبيِّنًا سببَ استمرارِ المشركينَ في شركِهم:
{بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ وَصُدُّواْ عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ} [سورة الرعد: ٣٣].
معناه: سوَّلَتْ لهم نُفوسُهم تَزيينَ هذا الشِّرك، وحبَّبَتْ إليهم تَمويهَ هذهِ الأباطيلِ حتَّى ظَنُّوها حَقيقَة، فوصَلوا إلى دَرجَةِ عِبادَتِها، والدِّفاعِ عَنها، وامتَنعوا عنِ اتِّباعِ الطَّريقِ الحقّ، لتَمادِيهم في الضَّلال، وإغواءِ الشَّيطانِ لهم، حتَّى خُتِمَ على قُلوبِهم، فلا يَرونَ شَيئاً إلاّ الكُفر؟! ومَن أضَلَّهَ اللهُ لنُفورِهِ مِنَ الحقّ، فلا هاديَ لهُ إليه، ولا قائدَ لهُ إلى النُّور.

وقالَ سُبحانهُ في اليهودِ والنصارَى:
{قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّىَ تُقِيمُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ} [سورة المائدة: ٦٨].
أي: لستُم على شَيءٍ مِنَ الحقِّ، ولا على صَحيحٍ مِنَ الدِّين، حتَّى تُحافِظوا وتُراعُوا ما في التوراةِ والإنجيلِ مِن أمورٍ وأحكامٍ دونَ تحريفٍ ولا تَبديل، ومِن ذلكَ البِشارةُ بمبعَثِ خاتَمِ الأنبياءِ محمَّدٍ صلى اللهُ عليه وسلَّم، وحتَّى تؤمِنوا بالقُرآنِ الذي أُنزِلَ عليه.

وقد حذَّرَ أنبياءُ اللهِ أقوامَهم من الشرك، فإنهُ كفر. قالَ الله تعالَى:
{لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُواْ اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ} [سورة المائدة: ٧٢].

أي: لقد كفرَ مَن قالَ مِنَ النَّصارَى إنَّ اللهَ هوَ المسيحُ بنُ مريم، وقد قالَ المسيحُ نفسُه: يا بَني إسرائيل، اعبُدوا اللهَ وحدَه، فهوَ ربِّي وربُّكم، ونحنُ جميعاً عَبيدٌ لله، وإنَّ مَن يُشرِكْ بهِ في عبادتهِ فقد حرَّمَ عليهِ دُخولَ الجنَّة، وأوجبَ لهُ النَّار. وقد ظَلموا بإشـــراكِهم وكفرِهم هذا وعَدَلوا عن طريقِ الحقّ، ولن تَجِدَ لهؤلاءِ الظَّالمينَ مُعيناً ولا ناصِـــراً يُنقِذُهم من عَذابِ اللهِ وعُقوبتهِ المقدَّرةِ عليهم.

الضلال

الضلالُ عكسُ الهداية، ويعني الطريقَ الخطأ، المعوجّ.

قالَ الله تعالَى في شأنِ فرعونَ وضلاله:

{وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى} [سورة طه: ٧٩].

معناه: قد أضَلَّ فِرعَونُ قَومَهُ وأغواهُم، بكُفرِهِ واستِكبارِهِ عَن قَبولِ الحقّ، وبقَولهِ لهم: {أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى} [سورة النازعات: ٢٤]. ولم يُرشِدْهُم إلى الطَّريقِ الصَّحيحِ عندَما أمرَهم بتَكذيبِ رَسولِ اللهِ موسَى.

ومن الأقوامِ التي ضلَّتْ ثمود:

{وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [سورة فصلت: ١٧]:

وأمَّا قَبيلَةُ ثَمودَ، فقد بيَّنَّا لهم سَبيلَ الهُدَى ودعَوناهم إليه، فاختَاروا الضَّلالَ عَليه، وكذَّبوا رَسُولَهم صالحًا، فعُوقِبوا بصاعِقَةٍ قَويَّةٍ مُهلِكةٍ جعَلَتْهم أذِلَّةً مُهانين، جَزاءَ تَكذيبِهم وإصرارِهم على الكُفر.

وأهلُ الكتابِ الذين لم يؤمِنوا برسالةِ الإسلامِ يُعتبَرونَ من الكافرين، فهم مثلُهم على ضَلال.

قالَ الله تعالَى:

{وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ} {سورة آل عمران: ٦٩}.

أي: لقد حَسدَتْكُم جماعةٌ مِن أهلِ الكتابِ لأنَّهم يَكرهونَ لكمُ الهِداية، وأبَغضَتكم يهودُ وودُّوا لو كنتُمْ ضالِّين مُنحرِفين، وبَذلُوا جُهودَهم لأجلِ إضلالِكم، وكادُوا ودَسُّوا وجادَلوا ولبَّسوا لإغوائِكم، ولكنَّ وبالَ ذلكَ يَعودُ عَليهم، فهم يُوقِعُونَ أنفسَهم بذلكَ في الضَّلال، غيرَ شاعِرينَ أنَّهم يَمكرونَ بأنفسِهم.

وبيَّنَ سبحانهُ أنهُ لا يَهدي أهلَ الضلالِ والعناد، فقالَ في قصة نمرودَ مع إبراهيمَ عليه السلام:
{وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [سورة البقرة: ٢٥٨].
أي إنَّ اللهَ لا يَهدي هؤلاءِ الذينَ يَظلِمونَ أنفسَهم، فيَختارونَ طريقَ الضلالِ والعِناد، على الرَّغمِ منْ وضوحِ الحُجَّةِ ضدَّهم.

ومن أضلُّ الناس؟
{وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَومِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ} [سورة الأحقاف: ٥].
معناه: ليسَ هُناكَ أضَلُّ ممَّن يَدعو أحجارًا وأخشابًا مِن دونِ الله، لا يَسمَعونَ مَعبوديهم، ولا يَقدِرونَ على تَلبيَةِ طلَبٍ ولا قَضاءِ حاجَةٍ لهم، حتَّى يَومِ القِيامَة، وهم غافِلونَ عن دُعائهم، لا يَدرونَ ماذا يَقولون، فهم جَماداتٌ لا حَياةَ فيها، لا يَتكلَّمونَ ولا يَسمَعون.

وبيَّنَ اللهُ ضلالَ من كفرَ بعدَ الإيمانِ فقال:
{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ} [سورة آل عمران: ٩٠].
أي أنَّ مَنْ كفرَ بعدَ أنْ هَداهُمُ اللهُ للإيمان، ثمَّ ازدادوا كُفراً وإصرَاراً، واستمرُّوا على ذلكَ إلى أنْ ماتوا، فإنَّ اللهَ لن يَقبَلَ توبتَهم عندَ المَمات، فأولئكَ همُ الضالُّونَ الذينَ أمضَوا حياتَهم في طريقِ الغيِّ والكفر.
ومِن أمثلةِ زيادةِ الكفرِ ردُّ الحُجَجِ والآياتِ المتَتالية.

ولم يَعتبِروا من إضلالِ الشيطانِ لهم وللسَّابقين:

{وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلّاً كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ. هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ. اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ} [يس: ٦٢-٦٤].

معناه: لقد أضلَّ الشَّيطانُ خَلقًا كثيرًا منكم فأهلَكَهم الله، أَمَا تَتفكَّرونَ وتتَّعِظونَ بهم؟

هذهِ جهنَّمُ التي كنتُم تُحذَرونَ منها وتُوعَدونَ بها في الدُّنيا أيُّها الكافِرون.

ادخلُوها أَذِلَّةً مُهانين، وذُوقوا حرَّها وعذَابَها؛ بسبَبِ إصرارِكم على الكُفرِ والتَّكذيبِ في الحيَاةِ الدُّنيا.

وقد يتحوَّلُ الإنسانُ إلى شيطان، عندَما يكونُ دأبهُ إضلالَ الناس، ولذلك يُستَعاذُ:

{مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ. الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ. مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ} [سورة الناس: ٤-٦].

فالشَّيطانُ يَنتَظِرُ غَفلةَ الإنسَانِ وسَهوَه، فإذا غَفَلَ وَسوَسَ في صَدرِهِ خُفيَة، وألقَى في نَفسِهِ الهَواجِسَ والأوهَام، والخواطِرَ السيِّئة، وزَيَّنَ لهُ المعصيَة، وحسَّنَ لهُ الشرَّ وأرَاهُ إيَّاهُ في صُورَةٍ حسَنَة، وثبَّطَهُ عن فِعلِ الخَير.

وهذا الموسوِسُ هوَ مِن شَياطينِ الجِنِّ والإنس، فقد يَكونُ الشَّيطانُ إنسيًّا أيضًا، مِثلَ صَديقِ السُّوء، والبِطانَةِ السيِّئة، والكاهِن، والمنَجِّم، والنمَّام، وبائعِ الشَّهوات، وغَيرِهم ممَّن يَنصِبونَ أحابيلَ الشرِّ ويَدخُلونَ القُلوبَ مِن مَنافذِها الخفيَّة.

وقالَ سُبحانهُ في جزاءِ الضالّ:

{وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً} [سورة الإسراء: ٧٢].

أي: ومَنْ كانَ في هذهِ الدُّنيا ضالاً لا يُبصِرُ سَبيلَ الرُّشد، ولا يهتَدي إلى طَريقِ الحَقِّ الذي بيَّنَهُ لهُ اللهُ في كتُبِهِ وعلى ألسِنةِ رسُلِه، فهوَ في الآخِرَةِ أيضًا لا يَهتَدي إلى مَنْ يُسعِفُهُ ويُنجِيه، فهوَ ثمَرَةُ عمَلِهِ السَّيِّء، ومَنْ كانَ غافِلاً لاهِيًا وأفاقَ على جِدٍّ لَقيَ ما لا يُحِبّ، بل هوَ أكثَرُ ضَلالاً منهُ في الدُّنيا، لعدَمِ إمكانِ تَدارُكِ ما فاتَه، ولا عَودَتِهِ إلى الدُّنيا ليَعملَ صالحًا.

الجهل

المشركونَ جاهلون:

{قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ}؟ [سورة الزمر: ٦٤].

معناه: قُلْ للمشرِكينَ أيُّها الرسُول: أتَطلُبونَ منّي أنْ أعبُدَ غَيرَ اللهِ أيُّها الجاهِلون؟

ولما طلبَ قومُ موسى أن يجعلَ لهم تمثالًا يعبدونَهُ مثلَ قومٍ رأوهم يَعكفونَ على أصنامٍ لهم، قالَ لهم:

{إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ} [سورة الأعراف: ١٣٨].

أي: إنَّكمْ قومٌ تَجهلونَ عَظَمةَ اللهِ وربوبيَّتَهُ وتَوحيدَه.

ومن صفاتِ المؤمنينَ أنَّهم يُعرِضونَ عن المشركينَ ولا يَسلكونَ نَهجهم:

{وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ} [سورة القصص: ٥٥].

معناه: لا نُريدُ مَسلَكَ الجاهِلين، ولا نُحِبُّ صُحبتَهم ولا مُجاورَتَهم.

وقد يُطلَقُ الجهلُ على السفه، وأمِرَ رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ أن يُعرِضَ عن هؤلاء:

{خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ} [سورة الأعراف: ١٩٩].

بمعنى: أعرِضْ عنِ السُّفهاءِ ولا تُكافِئهم بمثلِ سَفَهِهم، واحلُمْ عليهم.

الإعراض عن الإيمان

من أعرضَ عن الإيمانِ بالله فقد خابَ وخَسر..

{مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا} [سورة النساء: ٨٠].

أي: مَن أعرضَ عمّا جِئتَ بهِ ولم يَسمَعْ كلامَكَ أيُّها الرسُول، فقد خابَ وخَسِرَ وجنَى على نفسِه، لأنَّهُ عصَى اللهَ وأعرضَ عن دينِه، ولا عليكَ منهم، فلستَ مَسؤولاً عنهم وعمّا يَعمَلون، ولم نُرسِلْكَ حَفيظاً مُهيمِناً تَحفَظُ أعمالَهم عليهم وتُحاسِبُهم عليها، إنَّما عليكَ التَّبليغ.

ومن صفاتِ الكافرينَ أنَّهم يُعرِضُون عن الإيمان، قالَ الله تعالى:
{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ. خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [سورة البقرة: ٧-٨]
أي: إنَّ الذينَ كفَروا بما أُنزِلَ إليكَ لا يُؤمنونَ ما داموا مُصرّينَ على مَوقِفِهم، وسواءٌ عليهم إنذارُكَ وعدمُه، فإنهم لا يَسمَعونَ منكَ إنذارًا ولا تحذيرًا.
لقد طَبَعَ اللهُ على قلوبِهم وعلى سَمعِهم، وصارَ على أبصارِهم غِطاءٌ نتيجةَ هذا الموقفِ الخطأِ منهم، ولا مُبالاتِهِمْ بالإنذار، فكثُرَتْ ذنوبُهم وتَتابَعَتْ حتَّى أَغلقَتْ مَنافِذَ الفَهمِ والتَّبَصُّرِ عندَهم، فلا مَسلَكَ للإيمانِ إليها، ولا للكفرِ عنها مخلَصٌ، وجزاءُ الكُفرِ العنيدِ، وعدمِ الاستجابةِ للنذيرِ، هوَ العَذابُ العظيم.

كما وصفَ المنافِقين بذلك، فقالَ سُبحانه:
{وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ المنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا} [سورة النساء: ٦١].
أي: إذا قيلَ لأولئكَ المتحاكِمينَ إلى الطاغُوت: تعالَوا إلى التَّحاكمِ إلى كتابِ الله، وإلى رسولهِ الذي يَحكُمُ بهِ للفَصلِ بينَكم، أبصَرتَ المنافقينَ يُعرِضونَ عنكَ - أيُّها النبيُّ - إعراضَ المستَكبِر.

كتمان الحق

أمرَ اللهُ أهلَ الكتابِ أن يؤمِنوا بالنبيِّ محمدٍ صلَّى الله عليهِ وسلَّمَ إذا بُعِث، ولا يَكتموا أمرَه، ولكنَّهم بغَوا، ولم يَفعلوا:
{وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ} [سورة آل عمران: ١٨٧].
لقد أخذَ اللهُ العهدَ والميثاقَ على أهلِ الكتابِ أنْ يُبَيِّنوا للنَّاسِ أمرَ الرسُولِ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم كما علَّمهم أنبياؤهم وكما هو مسطَّرٌ في كتُبِهم، وألاّ يَكتُموه، حتَّى إذا أرسلَهُ اللهُ عَرفوهُ وتابَعوه، لكنَّهم طَرحوهُ وضَيَّعوهُ وتَركوا العَملَ به، واستَعاضوا بذلكَ الهدايا والمآكِلَ والرِّشا، حَظًّا

دُنيوياً حَقيراً مُقابلَ أمرٍ عَظيمٍ يترتَّبُ عليهِ تَضليلُ أُمَمٍ وأجيالٍ على مدَى قُرونٍ وأحقاب... فبئستِ التجارةُ تجارتُهم، وبئسَ ما يَشترَون.

قالَ قتادةُ رحمَهُ الله: هذا ميثاقٌ أخذَهُ اللهُ تعالَى على أهلِ العِلم. فمَن عَلِمَ شَيئاً فليُعلِّمه، وإيّاكم وكِتمانَ العِلم.

وقالَ ابنُ كثير: في هذا تحذيرٌ للعُلماءِ أنْ يَسلُكوا مَسلكَهم، فيُصيبَهم ما أصابَهم...

ومن صفاتِ الكافرينَ أنَّهم لا يريدونَ الحقَّ لذَاته، بل يَستَخدِمونَهُ عندَما يوافقُ أهواءَهم ومصَالحَهم، ويَكتمونَهُ إذا لم يوافِقها.

وقالَ الله تعالَى في حقِّ اليهودِ والنَّصارى، ممن لم يؤمِنوا برسالةِ النبيِّ محمدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [سورة البقرة: ١٤٦].

أي: إنَّ أهلَ الكتابِ منَ اليهودِ والنصارَى يَعرفونَ محمَّداً صلى الله عليه وسلم وصِحَّةَ ما جاءَ بهِ كما يَعرِفُ أحدُهمُ ابنَه! وهوَ مَثَلٌ يُضْرَبُ في صحَّةِ الشيءِ والتيقُّنِ منهُ تماماً، فمَعرفةُ الابنِ هي قمَّةُ المعرِفة؛ وذلكَ لوصفِ الرسولِ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم الدقيقِ في كتبِهم، وصفةِ أمَّته، وما إلى ذلك، ومنها القِبلةُ التي يتوجَّهونَ إليها. لكنَّ فريقاً منهم معَ هذا التحقُّقِ والتأكُّدِ في مَعرِفتِه، يَكتمونَ الناسَ ما في كتبِهمْ من ذلك، وهمْ يَعلمونَه.

وقالَ سبحانه:

{إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ. إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} [سورة البقرة: ١٥٩].

إنَّ أهلَ الكتاب، وخاصَّةً اليهود، يُخفُونَ ما أنزَلنا على الرسُلِ منَ الدلالاتِ البيِّنةِ على حَقائقَ مُهمَّة، وما جَاؤوا بهِ منَ الهَدي النافعِ للقلوب، كالإيمانِ بمبعثِ الرسولِ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم ووجوبِ اتِّباعِه، حيثُ بيَّنَهُ اللهُ تعالَى في الكتبِ التي أنزلها.

فهؤلاءِ الساكتونَ عنِ الحقّ، الكاتمونَ ما أنزلَ اللهُ من خيرٍ وهُدًى، يَطردُهمُ اللهُ ويُبعِدهم مِن رحمتِه، كما يَلعنُهم كلُّ مَن يتأتَّى منهمُ اللعنُ والدعاءُ عليهم، مِنَ الملائكةِ ومؤمني الجنّ والإنس، فهم مَنبوذونَ مِن أهلِ الحقّ كلِّهم.

ويُستثنَى مِن أهلِ الكتابِ المذكورين، الذينَ تابوا إلى اللهِ ورجَعوا عمّا كانوا عَليهِ مِن ضَلال، وأعلنوا الحقَّ واعترَفوا به، وأصلَحوا ما أفسَدوا وحرَّفوا، وبيَّنوا للناسِ ما كانوا كتَمُوه، فهؤلاءِ أقبَلُ توبتَهم، وأنا كثيرُ قبولِ التوبةِ ونَشرِ الرحمة.

وقالَ في تلبيسِهم الحقَّ بالباطل:

{يَا أَهْلَ الكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الحَقَّ بِالبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ}؟ [سورة آل عمران: ٧١].

أي: لماذا تُخفُونَ ما في كُتبِكم صفةَ الرسولِ محمَّدٍ صلى اللهُ عليه وسلم؟ لماذا تَكتمونَ الحقَّ وتَخلِطونَهُ بالباطلِ وتُضيِّعونَهُ عن عَمْدٍ وقَصدٍ وأنتُم تَعرِفونَهُ جيِّداً؟

بغض الحق

ومن صفاتِ الكافرينَ بُغضُ الحقّ. قالَ الله تعالَى في وصفِهم:

{وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ} [سورة الزمر: ٤٥].

أي: إذا ذُكِرَ اللهُ وحدَهُ دونَ آلهةِ المشركين، فقيل: لا إلهَ إلاّ الله، انقبَضَتْ ونَفرَتْ قُلوبُ الذينَ لا يُؤمِنونَ بالمعاد، ولم تَقبَلْه، وإذا ذُكِرَتْ أصنامُهم وَحدَها، أو ذُكِرَتْ معَ الله، إذا هُم يَفرَحونَ ويُسَرُّون؛ لحبِّهم لها!

تكذيب الحقائق، الإعراض عن الحق

من شأنِ الكافرينَ تكذيبُ الآياتِ والحججِ الظاهرة، وإن كانت واضحة، قالَ الله في هؤلاءِ وما أُعِدَّ لهم من عذاب:

{وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [سورة الأعراف: ٣٦].

معناه: الذينَ جحَدوا بما جاءَ بهِ رسُلُنا، واستَكبَروا عنِ الإيمانِ به؛ تعالياً واستِهزاءً وعِناداً، فسيَكونونَ مُلازِمينَ النار، ماكثينَ فيها أبداً، جزاءَ تَكذيبِهم واستِكبارِهم.

وليس هناك أظلمُ ممَّن كذَّبَ بآياتِ الله:

{فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ} [سورة الأنعام: ١٥٧].

معناه: ليسَ هناك أظلمُ ممَّن خالفَ الرسُلَ، وكذَّب بما أوحَى اللهُ إليهم، وأعرضَ عن آياتِ اللهِ البيِّنات، فلم يَنتَفِعْ بهَدِي الرسالةِ السَّماويَّة، وسنُجازي إعراضَهم هذا وتكذيبَهم بآياتِ اللهِ بما يناسِبُهُ منَ العَذابِ الشَّديدِ المؤلِم، بسبَبِ إعراضِهِمُ المستَمِر، وتَجاوزِهِمُ الحقَّ.

وقالَ في تكذيبِهم وإعراضِهم:

{بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ} [سورة الأنبياء: ٢٤].

معناه: أكثرُهم جاهِلونَ لا يُفرِّقونَ بينَ الحقِّ والباطِل، فهم مُستَمِرُّونَ في الإعراضِ عنِ الحقّ، والتَّكذيبِ بالرَّسُول.

وقالَ أيضًا:

{بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ} [سورة المؤمنون: ٧١].

أي: أتَيناهُم بالقُرآنِ الكَريم، الذي فيهِ الحَقُّ المطلَق، وفيهِ عِزُّهم وفَخرُهم، ولكنَّهم مُعرِضونَ عن مَصدَرِ عِزِّهم وشرَفِهم هذا، غَيرُ مُبالِينَ بهِ ولا مُقبِلينَ عَليه.

وقالَ في كُرهِهم للحقّ:

{وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ} [سورة المؤمنون: ٧٠].

أي أنَّ أكثرَهمْ مُعانِدون، كارِهونَ للحَقّ، مُبغِضونَ للحُجَّةِ والدَّليلِ مادامَ ليسَ في هَواهُم، فلا عجبَ أنْ لا يُؤمِنوا وهم كذلك، وقد دَلَّ مَوقِفُهم على طَبيعَتِهم المنحَرِفَة، وزَيغِهم وضَلالِهِم.

وقالَ سبحانهُ في فرعَونَ وآله:

{كَدَأْبِ آَلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللهُ شَدِيدُ العِقَابِ} [سورة آل عمران: ١١].

كصَنيعِ آلِ فرعونَ ومَن قَبلَهم منَ الأممِ الكافرةِ، منَ الكفرِ والتكذيبِ بما جاءَ بهِ أنبياءُ الله، عندما حارَبوهم واستهزَؤوا بهم ونَبذوا ما جاؤوا بهِ وراءَ ظهورِهم، فأهلَكناهُم حينَ كذَّبوا بآياتِنا، واللهُ شديدٌ في عقابهِ لهؤلاءِ الكافِرينَ وأمثالِهم.

وقالَ اللهُ تعالَى في تَكذيبِ بني إسرَائيل:

{لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَاءهُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقاً كَذَّبُواْ وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ} [سورة المائدة: ٧٠].

أي: لقد أخَذنا العهودَ والمواثيقَ على بَني إسرائيل، وبَعَثنا فيهم أنبياءَ وأرسلنا إليهم رُسلاً، يُذَكِّرونَهم بها ويُخَوِّفونَهم نقضَها، ليسمَعوا ويُطيعوا ويأتَمِروا بما أُنزِلَ إليهم، ومِن ذلكَ العهدُ الذي أخذَهُ أنبياؤهم عليهم، منَ الإيمانِ بالنبيِّ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم، ولكنْ كلَّما جاءَهم رسولٌ بما لا يوافِقُ أهواءَهمُ الزائغَة، وآراءَهمُ الفاسِدة، صارَ فريقٌ منهم يُكذِّبونَهم ويُخالفونَهم، وآخَرونَ منهم يَقتلونَهم!

الصمم والبَكَم والعمى

وصفَ الله تعالَى الكافرين بصفاتٍ سيِّئة، تزري بهم، ويكونون بها أضلَّ من الحيوان! فقالَ سبحانه:

{وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاء وَنِدَاء صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ} [سورة البقرة: ١٧١].

أي: مَثَلَ الذينَ كفَروا في غيِّهم وضلالِهم وجهلِهم وعدمِ تدبُّرهم فيما أُلقيَ إليهم منَ الآيات، كالبَهائمِ التي لا تَفقَهُ ما يُقالُ لها، فإذا دعاها أو هتفَ بها راعِيها لا تَفهَمُه، إنَّما تَسمعُ لحنَهُ ودويَّ صوتِه.

فهم صُمٌّ عن سَماعِ الحقّ، وخُرْسٌ لا يَتفوَّهونَ به، وعُميٌ عن رؤيةِ طَريقه، ولو كانت لهم حَواسٌّ ظاهِرَة، ما داموا لا يَنتفعونَ بها. إنَّهم لا يَفهمونَ شيئاً لأنَّهم لا يتدبَّرونَ الآياتِ والحقائق، ولا يتأمَّلونَ فيما يرونَهُ مِنَ الدلائلِ الواضحةِ والأمورِ النافِعة.

ومثلهُ قولهُ تعالَى:
{وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ} [سورة الأعراف: ١٧٩].
معناه: لقد خَلقنا للنارِ وهيَّأنا لها كثيراً مِنَ الإنسِ والجنّ، وهمُ المصِرُّونَ على الكُفرِ والضَّلال، الرافِضونَ للحَقِّ رغمَ وضُوحِه، فلَهم قُلوبٌ لم يَستَعمِلوها لمعرفةِ الخَيرِ والهُدَى، ولا ليَفقَهوا دلائلَ الإيمان. ولهم أعينٌ لم يَستَعمِلوها لتبصُّرِ آياتِ اللهِ الكونية، ولا لمعرفةِ خالقِ الشَّواهدِ الحسِّية، ولهم آذانٌ لا يَسمَعونَ بها كلامَ اللهِ الحقّ، ولا مَواعِظَهُ وزَواجِرَهُ في كتابهِ الكريم، الذي أنزلَهُ لهدايةِ عبادِه. فأولئكَ كالحيَوانات، قد عطَّلوا ما وهبَهمُ اللهُ مِنَ الحواسِّ المدرِكة، ولم يَستَخدِموها لوظائفها الحقِيقيَّة، فصَاروا كالحيَواناتِ التي لا تَعقِل، بل هم أضلُّ منها، فهيَ تُميِّزُ بينَ كثيرٍ منَ المضارِّ والمنافع، فلا تُقْدِمُ عليها حتَّى لا تَهلِك، وهؤلاءِ الكفّارُ غَفَلوا عمّا يُصلِحُهمْ في الدُّنيا ويُخَلِّصُهم من وعيدِ اللهِ وعِقابهِ في الآخِرَة.

وقالَ سُبحانه:
{وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَإِ اللهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} [سورة الأنعام: ٣٩].
أي: الكافرونَ الذينَ كذَّبوا بالقُرآنِ وسائرِ الأدلَّةِ الواضِحات، مثَلُهم في قِلَّةِ علمِهم وعدمِ فَهمِهم، كالصُّمِّ الذينَ لا يَسمَعون، والبُكْمِ الذينَ لا يَتكلَّمون، وهم معَ ذلكَ في ظَلامٍ لا يُبصِرون، فلا يَسمَعونَ الآياتِ سَماعَ المتفهِّمِ المتدبِّر، ولا يَقدِرونَ على النُّطقِ بالحقّ، لانجذابِهم إلى التَّقليدِ الأعمَى وعدمِ تجاوبِهم معَ العَقلِ السَّويّ والفِكرِ السَّليم، فهم في ظُلماتِ الكُفرِ والجهلِ والعِنادِ ماكِثون، وهوَ سُبحانَهُ المتصرِّفُ في خَلْقِه، فمَن وجدَ استعدادَهُ مائلاً إلى الكُفرِ

والضَّلالِ أضلَّه، ومن وجدَ فيه خَيراً وقابِليَّةً لقَبولِ الحقِّ والتَّجاوبِ مع الإيمانِ أرشدَهُ إلى الطريقِ الصَّحيح.

وقالَ ربُّنا الحكيمُ العَليم:
{وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لاَ يَعْقِلُونَ. وَمِنهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُواْ لاَ يُبْصِرُونَ} [يونس: ٤٢-٤٣].
معناه: مِن هؤلاءِ المشرِكينَ مَن يَستَمِعُ إلى كلامِكَ الحسَن، وإلى القُرآنِ الكريم، ولكنَّهم لا يَتدبَّرونَه، بل لا يُصْغُونَ إليهِ حتَّى يَستَفيدوا منه، فكأنَّهم لم يَسمَعوه، وعَطَّلوا بذلكَ حاسَّةَ السَّمعِ عندَهم، وأنتَ لا تَقدِرُ على إسماعِ الأصمّ، ولو ضمَّ إلى سمعهِ عقلَهُ الذي لا يَعقِلُ به، فقد أُصيبَ في عَقلِه، وفي جَميعِ حَواسِّه.
ومِن هؤلاءِ مَن يَنظُرُ إليكَ وهوَ يَرى في سَمْتِكَ وخُلُقِكَ دَلائلَ النبوَّة، ولكنَّها أبصارٌ ظاهِرةٌ ليسَ وراءَها عِظَةٌ وعِبرة، ولا استِبصارٌ في القَلب، أفأنتَ تُبصِّرُ العُميَ ولو ضَمُّوا إلى عدَمِ البَصرِ عدَمَ البَصيرة؟

وقالَ أيضًا مبيِّنًا حالَهم:
{إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ. وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْراً لَّأسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ} [الأنفال: ٢٢-٢٣]
معناه: إنَّ شرَّ مَن دَبَّ على وجهِ الأرضِ مِن خَلْقِ الله، الذين لا يَسمَعونَ الحقّ، ولا يَنطِقونَ به، فهم لا يَفقَهونَ كلامَ اللهِ ولا يَنتَفِعونَ به، لأنَّهم لم يَستَعمِلوا عقولَهم وحواسَّهم التي خلقَها اللهُ لهم كما يَنبَغي، ليُميِّزوا بها الحقَّ مِنَ الباطِل، والخَيرَ مِنَ الشَّرّ.
ولو عَلِمَ اللهُ في هؤلاءِ الكافِرينَ المعانِدينَ خيراً لأفهمَهم حتَّى يَقِفوا على الحقّ، ولو أفهمَهُم فوقَفوا على الحقِّ لأعرَضوا عنهُ ورفَضوه، فلم يَنتَفِعوا بهِ ولم يَقبَلُوه؛ لعنادِهم واستِكبارِهم.

وقالَ عزَّ وجلّ:
{قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ} [سورة الرعد: ١٦].

أي: هلْ يَستوي مُشركٌ جاهِلٌ بحَقيقةِ التَّوحيد، وبَصيرٌ يَعبدُ اللهَ وحدَهُ وهوَ على نُورٍ مِن رَبِّه؟ أم هل يَستوي الكُفرُ والشِّركُ والضَّلالُ وهوَ ظُلُمات، معَ الإيمانِ والتَّوحيدِ والحقِّ وهوَ النورُ المبين؟

وقالَ لنبيِّهِ محمدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ وهو يرَى صدًّا من مشركي قُرَيش:

{إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاء إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ. وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ} [سورة النمل: ٨٠-٨١].

معناه: إنَّكَ لا تُسمِعُ مَن كانَ مَيِّتَ القَلب، فهوَ لا يَفقَهُ ولا يَعي ما تَقول، كما لا تُسمِعُ مَن سَدَّ أُذُنَيهِ عن سَماعِ الحَقّ، فهوَ لا يُريدُ سَماعَه، ولا يُريدُ أنْ يَنفُذَ إلى قَلبِه، فهؤلاءِ مُعرِضونَ عن رِسالَةِ رَبِّهم، مُخالِفونَ لأمرِه.

ولا تَستَطيعُ أنْ تُرشِدَ أعمَى القَلبِ وتَصرِفَهُ عنِ الضَّلالِ الذي هوَ فيه، ولا تُسمِعُ إلاّ مَن فتحَ اللهُ قَلبَهُ للإيمان، وصدَّقَ أنَّ القُرآنَ مِن عندِ الله، فعندَئذٍ يَسمَعُ ما تَتلوهُ عَليه، وما تُرشِدُهُ إليه، لأنَّهُ مُسلِمٌ مُخلِصٌ في إيمانِه، مُنقادٌ للحَقِّ المطلوبِ منه.

والنتيجة:

{وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ} [سورة محمد: ١٢].

معناه: الكافِرونَ يَتمَتَّعونَ في الدُّنيا زمَنًا قَليلاً، ويأكُلونَ كما تأكلُ البَهائم، لا يُفكِّرونَ إلاّ بأطماعِهم وشَهواتِهم، فهم غافِلونَ عمَّا يَنتَظِرُهم في آخِرَتِهم، وهُناكَ المستَقبَلُ الحقيقيّ، وليسَ في الدُّنيا الفانيَة. والنَّتيجَةُ أنْ تَكونَ النَّارُ مَوضِعَ إقامَتِهم الدَّائم.

واعترَفوا بذنبِهم:

{وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ} [سورة الملك: ١٠].

أي: قالوا مُعتَرِفينَ بذَنبِهم: لو كنَّا نَسمَعُ مِنَ الرسُلِ ما أَنزلَ اللهُ مِنَ الحقّ، أو كانت لنا عُقولٌ نُمَيِّزُ بها ونَنتَفِعُ منها، لما كُنَّا في عِدادِ أهلِ النَّار.

والعَقلُ الذي لا يَزجُرُ صاحِبَهُ عنِ المعاصي والجرائمِ والمنكَرات، ليسَ عَقلاً مُستَقيمًا ولا سَليمًا.

التقليد الأعمى

التبعيةُ والموالاةُ والتقليدُ إذا لم يكنْ عن عقلٍ وهدًى أضلَّ صاحبَه.

فإذا قيلَ لمن يَعبُدون الأصنام: لماذا تَعبدُونها؟

{قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءنَا لَهَا عَابِدِينَ} [سورة الأنبياء: ٥٣].

فكانَ جوابُهم: هكذا وجَدنا آباءَنا وأجدادَنا يَعبدُونَها، ونحنُ نتَّبِعُهم ونُقَلِّدُهم في ذلك!

وقد أجابَهم إبراهيمُ عليه السَّلامُ بما يناسبُ عقولَهم السَّخيفَةَ فقال:

{أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} [سورة الأنبياء: ٦٧].

أي: تُبًّا لكم على إصرارِكم وتَشَبُّثِكم بالباطِل، وعِبادَتِكم لهذهِ الجَماداتِ التي تَدَّعونَ أُلوهيَّتَها وقد صَنَعتُموها بأيديكم، وهيَ غيرُ قادِرَةٍ على نَفعِكم ولا الإضرارِ بكم، أفلا تتفكَّرونَ فيما أنتُم فيهِ مِن ضَلالٍ وجَهل، وتَتدَبَّرونَ فيمَن يَستَحِقُّ العِبادَةَ حقًّا؟

وقالَ الله تعالَى في حقِّ المشركين، الذين أبَوا إلّا أن يتَّبعوا عقائدَ آبائهم ونهجَهم:

{وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ} [سورة البقرة: ١٧٠].

معناها: إذا طُلِبَ منَ المشركِينَ وأهلِ الكتابِ أنْ يتَّبعوا كتابَ اللهِ الذي أنزلَهُ على رسولهِ محمّدٍ صلى الله عليه وسلم قالوا: لا نتَّبعُه، بلْ نتَّبعُ ما وَجدنا عليهِ آباءَنا، لأنَّهم كانوا خَيراً منّا!

أيَقتَدونَ بهم ويَقتَفونَ أثرَهم ولو كانوا لا يَفهمونَ شيئاً ولا يهتدونَ إلى الصواب؟ ولو كانوا غافلينَ وجاهلينَ ضالِّين؟

ومثلهُ قولهُ سُبحانه:

{وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ} [سورة المائدة: ١٠٤].

معناه: إذا قيلَ للمُشركين: تعالَوا والتزموا بما أنزلَ اللهُ مِن أحكامٍ في الحلالِ والحرام، وإلى الرسُولِ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلمَ الذي أُنزِلَتْ عليهِ هذهِ الأحكام، لتَقِفوا على حقيقةِ الحال، وتُمَيِّزوا الحرامَ منَ الحلال، أجابوا في عِنادٍ وضَلال: يَكفِينا ما وجَدنا عليهِ آباءَنا وأجدادَنا، ولا نَلتَفِتُ إلى غَيرهم، فمعَهمُ الحقُّ وكفَى!
ولكنْ لماذا يُقلِّدونَ آباءَهم هكذا بدونِ تَعَقُّلٍ ولا تَفكير؟ فإذا كانَ الآباءُ جَهَلةً ضالِّينَ مِثلَهم، لا يَفهَمونَ الحقَّ ولا يَعرِفونَ سَبيلَ الاهتداءِ إليه، فكيفَ يَتَّبِعونَهم والحالةُ هذهِ؟

العناد والإصرار على الباطل

كما كان شأنَ فرعون:
{وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى} [سورة طه: ٥٦].
أي: أبصَرْنا فِرعَونَ وعَرَّفناهُ آياتِنا ومُعجِزاتِنا بتفاصيلِها، ولكنَّهُ كذَّبَ بها استِكبارًا وعِنادًا، وأبَى أنْ يؤمِن.

وقالَ ملأُهُ مثلَه:
{وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِن آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ} [سورة الأعراف: ١٣٢].
معناه: قالَ قومُ فِرعَونَ لموسَى في عِنادٍ وإصرارٍ على الباطِل: إنَّكَ مَهما جئتَنا بهِ من مُعجِزةٍ لتُشبِّهَ بها عَلينا، أو تَرُدَّنا بها عن دينِنا وتَصرِفنا عمّا نحنُ فيه، فلن نَقبلَها منك، ولن نُؤمنَ بكَ وبرسالتِك.
ونتيجةُ هذا العنادِ والإصرارِ على الباطل، كما في الآيةِ التي بعدها:
{فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاَتٍ فَاسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ}:
فكانَ جزاءَ كفرِهم وإصرارِهم على الباطِل، أنْ عاقبناهُم بإرسالِ الطُّوفانِ عَليهم، فملأَ بيوتَهم، وأتلفَ زرُوعَهم، وأغرَقَ أراضيَهم... ثمَّ أرسَلنا عليهمُ الجرادَ فأتلفَ ما بقيَ مِن زُروعِهم، وأكلَ ثمارَهم ونباتَهم، ثمَّ القملَ – وكفى بهِ عذاباً –، والضفَادِع، التي ملأتْ بيوتَهم وأوعيتَهم وأطعِمتَهم، ثمَّ الدمَ ليجريَ في مياهِهم، فصارُوا يَشرَبونَ الدم، ولا يَطبخون! ... وكلُّها آياتٌ وأدلَّةٌ وعِبَرٌ

إلهيةٌ بيّنةٌ، كافيةٌ للرّدعِ عنِ الكُفر، والاستِسلامِ لله، والإيمانِ برسالتِه، ولكنَّهم معَ كلِّ هذا استَكبَروا عنِ الإيمانِ بها، فكانوا كافِرينَ مُجرِمين!

وكانَ جزاءُ اليهودِ في عنادِهم واستِكبارِهم عن قَبولِ الحقّ، ما ذكرَهُ اللهُ تعالَى في قوله:
{فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ} [سورة الأعراف: ١٦٦].
معناه: فلمّا لم يَرتَدِعوا بما عذَّبناهم، واستَكبَروا عن قَبولِ الحقّ، وأصَرُّوا وعانَدوا ولم يَنتَهوا عمّا نُهوا عنه، عاقَبناهم وقُلنا لهم: كونوا قِرَدَةً أذلَّةً صَاغِرين، مُحقَّرينَ مُهانين.

ومن المواقفِ العنيدةِ السيّئةِ تجاهَ الحق، موقفُ قبيلةِ عاد:
{قَالُوا سَوَاء عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ} {إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ} {وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ} {فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ} [سورة الشعراء: ١٣٦-١٣٩]:
لكنَّ عادًا لم يَشكُروا ربَّهم، ولم يتَّعِظوا بنصَائحِ نبيّهم، فقالوا لهُ في استِخفافٍ ولامُبالاة: إنَّ كلامَكَ وعدَمَهُ عندَنا سَواء، وإنَّكَ إنْ وعَظْتَ أو لم تَعِظ، لم نَرجِعْ عمَّا نحنُ عَليه.
وقالوا: ما هذا الذي جئتَ بهِ سِوَى خُرافاتٍ وحِكاياتٍ اختلَقَها الأوّلون.
وقالوا مُستَمرّينَ في كُفرِهم: ولا بَعْثَ بعدَ الموت، فلا نُحاسَبُ على أعمالِنا ولا نُعَذَّبُ عَليها.
وهكذا كذَّبوا نبيَّهم هُودًا، واستَكبَروا عنِ اتّباعِ الحَقّ، فأهلَكناهُم بريحٍ شَديدَةٍ عاتيَة، جَزاءَ فِعلِهِمُ السيّء، وفي ذلكَ عِبَرٌ كثيرةٌ للأحيَاء، لمن تفكَّرَ منهم وتدَبَّر، وعقَلَ فوَعَى. ومعَ كُلِّ هذهِ الدَّعوَة، والتَّبليغِ المستَمِرّ، وضَربِ الأمثَال، وسَردِ الأخبَارِ التي فيها عِظاتٌ وعِبَر، فإنَّ أكثرَهم لا يؤمِن!

السفه

كلُّ من خالفَ ملَّةَ إبراهيمَ فهوَ سَفيه. قالَ اللهُ في محكَمِ كتابه:
{وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا} [سورة البقرة: ١٣٠]

أي: لا يَبعُدُ عن طريقةِ إبراهيمَ ومِنهَجهِ إلا الشخصُ المذِلُّ لنفسِه، المستخِفُّ بها، الذي يُفَضِّلُ الضَّلالَ على الحقّ. فَنبيُّ اللهِ إبراهيمُ إمامُ الحُنَفاء، ومَن خَالَفَهُ فَقَد جَانَبَ الحقَّ الصَّريح، والدِّينَ الصَّحيح، والهدايةَ والرَّشاد، الذي اصْطُفِيَ عليهِ في الدُّنيا، وقدِ اخْتِيرَ للنبوَّةِ والحكمةِ منْ بينِ سائرِ الخلق.

وهوَ ردٌّ على الكفَّارِ فيما ابتَدعوهُ وأحدَثوهُ منَ الشِّركِ وعِبادةِ الأصنامِ المخالفِ لِملَّةِ إبراهيمَ عليهِ السلام، فَأَيُّ ضَلالٍ أكبرُ مِن هَذَا، وأيُّ سَفَهٍ أعظمُ مِن عَدَمِ اتِّباعِ ملَّتِهِ القائمةِ على التوحيدِ الخالصِ البيِّن؟

اتباع الهوى والشهوات

وصفَ الله الكافرينَ بأنهم يتَّبعون هَواهُم وشهواتِهم، فقالَ سُبحانه:

{وَاللّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلاً عَظِيماً} [سورة النساء: ٢٧].

أي أنَّ اللهَ يُريدُ أن يَتقبَّلَ توبتَكم، فتوبوا إليهِ ليتوبَ عليكم ويَرضَى عنكم، ويُريدُ الفاسِقونَ وأتباعُ الشياطينِ منَ الكافِرينَ والمشركينَ أن تَزيغوا عنِ الحقّ إلى الباطِلِ لتكونوا مثلَهم.

ووصفَ قومًا بشرّ، عندما اتَّبعوا شهواتِهم، فقالَ عزَّ مِن قائل:

{فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً} [سورة مريم: ٥٩].

أي أنَّهم آثَروا شَهواتِ أنفُسِهم على طاعَةِ ربِّهم، فسَوفَ يُجزَونَ بذلكَ شَرًّا وخُسرانًا.

وقالَ الله فيمن اتَّبعَ هَواه:

{أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ} [سورة الجاثية: ٢٣].

معناه: أفرَأيتَ مَن جعلَ هَواهُ ورَغبَتَهُ إلهًا له، فما حسَّنَتْهُ لهُ نَفسُهُ اتَّبعَه، وما قَبَّحَتْهُ تركَه، وأضَلَّهُ اللهُ بعدَ بُلوغِ العِلمِ إليه، وقيامِ الحُجَّةِ عَليه، فلا يَزدادُ إلاّ بُعدًا عنِ الدِّين، فيُفَضِّلُ هَواهُ عَليه،

وطبَعَ اللهُ على سَمعِه، فلا يَسمَعُ ما يَنفَعُه، ولا يَفقَهُ ما يُقالُ فلا يَتأثَّرُ به، وجعلَ على بصَرِه غِطاء، فلا يرَى الدَّليلَ الذي يُهتَدَى به، فمَن يَهديهِ بعدَ أنْ أضَلَّهُ اللهُ وهوَ يَعلَمُ أنَّهُ يَستَحِقُّ ذلك، ألا تتَّعِظونَ وتَعتَبِرون؟

وقالَ سُبحانهُ في نتيجةِ اتِّباعِ الهوى:
{وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ} [سورة المؤمنون: ٧١].
معناه: لو اتَّبَعَ اللهُ مُرادَهم فيما يَفعَل، وأجابَهم إلى ما في أنفُسِهم مِنَ الهَوى، وشرَعَ الأمورَ على مُعتقَداتِهم الشِّركيَّة، لفسَدَ ما في السَّماواتِ والأرض، وبطَلَ ما فيهما من حَياةٍ وعمَل، لأهوائهم الفاسِدَة، واختِلافِ آرائهم وتَناقُضِها وتَهافُتِها، وعدَمِ واقعيَّتِها وملاءَمَتِها للحقَائقِ الكَونيَّة، لجَهلِهم وعدَمِ مَعرِفَتِهم بنواميسِها ودِقَّتِها.

المكر والخديعة، الكيد والحيلة

قالَ اللهُ تعالَى في مكرِ الكافرين وكيدِهم:
{وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ} [سورة إبراهيم: ٤٦].
بمعنَى أنَّهم كادُوا ومكَروا وبذَلوا كُلَّ ما يَملِكونَ مِن جُهدٍ للقَضاءِ على رِسالةِ التوحيد، وصَرفِ المؤمنينَ عن دِينِهم، والاستِهزاءِ بعَقيدَتِهم، ولكنَّهم هم وإرادتُهم وما يُخَطِّطونَ في قَبضَةِ قُدرَةِ العَزيزِ الجبّارِ وتحتَ تَصرُّفِه، وجَزاءُ مَكرِهم عندَهُ سُبحانَه، وإنْ كانَ كَيدُهم وتَدبيرُهم قَويًّا شَديدًا، حتَّى يَكادُ يُزيلُ الجِبالَ مِن أماكنِها، وهيَ أثقَلُ شَيءٍ وأبعدُ ما يُتصوَّرُ عنِ التحرُّكِ والزَّوَال. ويَعني أنَّهم لم يَتمكَّنوا منَ القضاءِ علَى ما أتَتْ بهِ الرسُل، علَى الرَّغمِ مِن مُناصَبَتِهمُ العِداءَ ومُحارَبتِهم وأتباعَهم.

وأمرَ اللهُ تعالَى نبيَّهُ الكريمَ صلَّى اللهُ عليه وسَّمَ أن يكونَ على حذرٍ من كيدِ اليهودِ وخدعِهم:
{وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللهُ إِلَيْكَ} [سورة المائدة: ٤٩].

أي: كنْ على حَذَرٍ مِن أنْ يُدَلِّسَ عليكَ اليهودُ الحقَّ بخُبثِهم، ويَصرِفوكَ عن بعضِ ما أنزلَهُ اللهُ عليكَ منَ الحقّ، فإنَّهم كفَرةٌ خوَنةٌ لا يُؤمَنُ جانبُهم.

وقالَ نوحٌ في قومِه:
{وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً} [سورة نوح: ٢٢].
أي أنَّهم كادُوا كَيدًا عَظيمًا، بصَدِّ النَّاسِ عنِ الدِّين، وتَحريضِهم على أذيَّةِ النبيِّ نُوحٍ عليهِ السَّلام، والاستِهزاءِ بهِ وبرِسالتِه.

وكادَ فرعَونَ لما جمعَ السحَرة:
{فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى} [سورة طه: ٦٠].
أي أنَّ فِرعَونَ مضَى يُدَبِّرُ الأمرَ ويُخَطِّطُ ليَغلِبَ موسَى عليهِ السَّلام، فجمَعَ السَّحرَةَ الكِبارَ مِن أنحَاءِ مِصر، وكانت سُوقُهم رائجَةً في ذلكَ الوَقت، ثمَّ أتَى إلى الميدانِ في وَقتِه.

وقالَ سُبحانهُ في أعداءِ نبيِّهِ عيسى عليهِ السَّلام:
{وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الماكِرِينَ} [سورة آل عمران: ٥٤].
أي: تحرَّكتِ الطَّائفةُ الكافِرةُ المعَادِيَةُ لعيسَى عليهِ السلام لتَقتُلَهُ غِيْلَة، بعدَ اتِّهامهِ بالكذِبِ والشَّعوَذة، وقذفِ والدتهِ الطَّاهرةِ بالزِّنا، ووشَوا به إلى الملك...، ولكنَّ اللهَ أبطلَ حِيَلهم في الوصولِ إليه، واللهُ أقواهُم مَكراً، وأنفذُهم كَيداً، وأحكَمُهم تَدبيراً، وأقدرُهم على الانتِقام.
قالَ البغويّ: والمكرُ لدَى المخلوقين: الخُبْثُ والخَديعةُ والحِيلة، والمكرُ منَ الله: استدراجُ العبدِ وأخذُهُ بَغتَةً مِن حيثُ لا يَعلم... وقال ما مَعناه: ومكرُ اللهِ تعالى بِهم في هذهِ الآيةِ هوَ إلقاؤهُ الشِّبْهَ على صاحبِهمُ الذي أرادَ قتلَ عيسَى عليهِ السلامُ حتَّى قُتِل!

خُلف الوعد، نقض العهد

ومن صفاتِ الكافرينَ نقضُ العَهد. قالَ اللهُ تعالى:
{الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ} [سورة البقرة:٢٧].

معناه: إنَّ الكافِرينَ والمنافقينَ لا عهدَ لهم ولا مِيثاق، فقد تركوا الإقرارَ بالحقِّ معَ صِحَّةِ أدلَّته، وكذَّبوا الرسلَ والكتبَ المنزَلةَ على الأنبياء، معَ علمِهم أنَّ ما أتَوا بهِ حقّ، فمُعجزاتُهم شاهِدةٌ على صِدقِهم، ولا طاقةَ لهم بردِّها.

ولما ابتلَى اللهُ قومَ فرعونَ بأنواعِ البَلاء، وعَدوا موسى عليهِ السلامُ أن يؤمِنوا إذا رفعَ عنهم هذا العذاب، ولكنَّهم كذَبوا، ونقَضوا عهدَهم!
{فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ} [سورة الأعراف: ١٣٥].
أي: فلمّا أنجَيناهم مِنَ العَذابِ إلى وقتٍ محدَّدٍ – وهوَ وقتُ الغرَقِ – إذا هم يتمرَّدونَ ويَنقُضونَ العَهد، فلم يُؤمنوا!
فكانَ عاقبتهم، كما في الآيةِ التي بعدَها:
{فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ}:
فأرَدنا الانتِقامَ منهم، فأغرَقناهم في البَحر، بسببِ تكذيبِهم بآياتِ اللهِ العَظيمة، وعدمِ اكتراثِهم بها، وغَفلتِهم عنها.

وقالَ سُبحانهُ في اليهودِ ودأبِهم في نَقضِ العهود:
{أَوَكُلَّمَا عَاهَدُواْ عَهْداً نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ} [سورة البقرة: ١٠٠].
معناه: أَوَكلَّما عاهَدَ اليهودُ على الالتزام بأمرٍ نَكَلَ فريقٌ منهم ورفضَ العَهدَ؟ وهذا دأبُهم حتَّى خانُوا العَهدَ الذي أبرَموهُ معَ الرسولِ صلى الله عليه وسلم عندَ مَقدَمهِ إلى المدينة .. بل أكثرهم لا يؤمنونَ بالرسولِ المبعوثِ إليهم وإلى الناسِ كافَّة، الذي يَجدونَ صفتَهُ في كتبِهم، وقد أُمِرُوا باتِّباعهِ ومناصَرتِه.

واستَحقُّوا اللعنَ بذلك:
{فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ} [سورة المائدة: ١٣].

أي: بسببِ نقضِهِمُ العهدَ المؤكَّدَ الذي أُخِذَ عليهم، أبعدناهم عن رَحمتِنا، وطَردناهم منَ الهُدى؛ عقوبةً لهم، وجَعلنا قلوبَهم غَليظةً لا تَلين، تَنبو عن قبولِ الحقّ، ولا تَتَّعظُ بموعِظة. وكانوا يُحَرِّفونَ كلامَ اللهِ ويَفتَرونَ عليه، ويؤوِّلونَه، ويَحمِلونَهُ على غيرِ مُرادِه، وتَركوا قِسماً وافياً منَ التَّوراة فلم يَعمَلوا به.

ومثلُهم النصَارى:
{وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ العَدَاوَةَ وَالبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ} [سورة المائدة: ١٤].
معناه: والذينَ ادَّعَوا أنَّهم نصارَى مُتابِعونَ لعيسَى بنِ مريمَ عليهِ السَّلام، وهم ليسُوا كذلك، أخَذنا منهمُ العهودَ والمواثيقَ بمتابعةِ الرسولِ ومناصَرتِه، والإيمانِ بأنبياءِ اللهِ كلِّهم، ومنهم محمَّدٌ صلى الله عليه وسلم، ولكنَّهم خالَفوا ونَبذوا قِسماً كبيراً ممّا عُلِّموهُ وذُكِّروهُ في التوراةِ والإنجيل، وصَاروا مثلَ اليهودِ مُناقِضينَ للمَواثيق، فكانَ جزاؤهم أنْ ألقَينا بينهمُ العَداوةَ والحِقدَ والتباغُض، حتَّى صارَ يَلعنُ بعضُهم بعضاً ويُكفِّرونَهم، ولا يَزالُ هذا شأنَهم حتَّى آخرِ الدُّنيا، وسوفَ يُحاسِبُهمُ اللهُ على أعمالِهم وما نَسبوهُ إليهِ زُوراً وبُهتاناً، وما نَقضوهُ منَ العُهودِ والمواثيقِ التي أخذَها عليهم، ويُعذِّبهم على ذلكَ عذاباً شديداً.

وأمرَ اللهُ رسولَهُ بأن يقاتلَ مَن خانَ ونقضَ العَهد، فقال:
{وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الخَائِنِينَ} [سورة الأنفال: ٥٨].
معناه: إذا عَلِمْتَ أيُّها النبيُّ مِن قَومٍ مُعاهَدينَ نَقْضَ عهدٍ فيما بينَكَ وبينَهم، بما يَلوحُ لكَ مِن دَلائل، ويَظهرُ مِن إشاراتٍ وحرَكات، فاطرحْ إليهم عهدَهم، وأعلِمْهُم بذلك، واكشِفْ خيانتَهم لهم، ليَعلموا أنَّكَ قد فسَختَ العهدَ الذي بينَكَ وبينهم، وصِرْتَ حَرباً عليهم، ولا تَبدأهم بحربٍ قبلَ إعلامِهم بذلك، واللهُ لا يُحِبُّ مَن يَخونونَ العهودَ ويَنقُضونَ المواثيق.

وقالَ في صفةِ المشركين:

{لاَ يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ} [سورة التوبة: ١٠].
بمعنَى إنَّهم لا يُراعُونَ في مُؤمِنٍ أصولَ قَرابة، ولا حُقوقَ عَهد، فإذا ظَفِروا بهِ قَتلوه، وإنَّ شأنَهم الاعتِداءُ، بالظُّلمِ ونَقضِ العَهد.

فهم غدّارون، لا يُؤمَنُ جانبُهم:
{فَقَاتِلُواْ أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ} [سورة التوبة: ١٢]:
فقاتِلوا رؤوسَ المشرِكينَ وقادةَ الكُفر، فلا أمانَ لهم على مِيثاق، ولا وفاءَ لهم بعَهد، ولعلَّهم بذلكَ يكفُّونَ عنِ الطَّعنِ في دينِكم، ويرجِعونَ عمّا هم فيهِ منَ الكُفرِ والضَّلال.
(ملاحظة: من أهلِ العلمِ من ذهبَ إلى أن نجاسةَ الكافرِ معنويةٌ وليستْ حسِّية، فهو طاهر)

الصدّ عن سبيل الله

قالَ اللهُ تعالَى في الكافرين:
{الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً وَهُم بِالآخِرَةِ كَافِرُونَ} [سورة الأعراف: ٤٥]:
إنَّهم الكافِرونَ الذينَ يَصرِفونَ الناسَ عن دينِ اللهِ كما يُعرِضونَ هم عنه، ويَطلبونَ إمالتَهُ إلى الباطلِ ويَذُمُّونَهُ ولا يُريدونَهُ كما هو، وهم لا يؤمِنونَ بالبَعثِ والحِساب.

وقالَ لأهلِ الكتاب:
{قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} [سورة آل عمران: ٩٩].
يعني: لماذا تمنَعونَ الناسَ منَ الإيمان، وتَقِفونَ حاجِزاً بينَهم وبينَ إرادةِ الحقّ، وتَختارونَ بذلكَ الطَّريقَ الأعوجَ على الصَّحيحِ المستَقيم، وأنتم شُهداءُ على صِحَّةِ آياتِ الله، وعلى يقينٍ مِن صِدقِ الرسُولِ محمَّد، بما عندكم من عِلم، وبما ترونَهُ ممّا يُطابِقُ ما أتَى به صلى الله عليه وسلم.
واللهُ ليسَ بغافلٍ عمّا تعمَلون، وسوفَ يُحاسبُكم على كفرِكم وصدِّكم عنِ الإيمان.

وقالَ في رُهبانهم:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّ كَثِيراً مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ} [سورة التوبة: ٣٤].

أي أنَّهم يمنعونَ الناسَ منِ اتِّباعِ دِينِ الله، بإثارةِ الشُّبهاتِ الباطلةِ حولَه، وبكَتْمِ ما أُمِروا بالتَّبشيرِ بهِ من مَبعثِ رسولِه، وتَحريفِ الأخبارِ حولَه، ويقولونَ إنَّهُ ليسَ النبيَّ المبَشَّرَ به، وهم يَعرفُونَ أنَّ الصِّفاتِ الواردةَ فيهِ عندَهم مُنطَبِقةٌ عليهِ تماماً، ويَعرفونَ ذلكَ كما يَعرفونَ أبناءَهم.

والمقصود: التحذيرُ منْ عُلماءِ السُّوءِ، الذينَ يَعرفونَ الحقَّ ويَكتمونَه، أو يُحَرِّفونَه، فيَخونونَ اللهَ بذلك.

وقالَ في الكافرينَ عمومًا:

{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا} [سورة النساء: ١٦٧].

معناه: الذينَ كفَروا بما أُنْزِلَ إليك، ومَنعوا الناسَ منِ اتِّباعك، وكَتموا أوصافَكَ ليُبعِدوهم عنِ الإيمانِ بنبوَّتِك، قدِ ابتعَدوا عنِ الحقِّ ابتِعاداً كبيراً، وجَمعوا بينَ الضَّلالِ والإضلال.

وطلبَ شعيبٌ عليه السّلامُ من قومِهِ ألّا يصدُّوا عن سبيلِ الله:

{وَلاَ تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجاً} [سورة الأعراف: ٨٦].

أي: لا تَقعُدوا بالطرُقِ تخوِّفونَ النَّاسَ وتُهَدِّدونهم بالقَتلِ والأذَى، وتَمنعونَ الناسَ عن دينِ الله، وتَقولونَ إنَّ شُعيباً كذَّابٌ فلا يَصرِفنَّكم عن دينِكم، وتتوعَّدون الذينَ آمنوا بهِ بافتِتانِهم عن دِينِهم، وتَبغونَ مِن دِينِ اللهِ الميَلانَ والعُدولَ عنِ الحقِّ ليوافِقَ أهواءَكم.

ومن أنفقَ المالَ للصدِّ عن سبيلِ الله فسيكونُ حَسرةً وندامةً له:

{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ} [سورة الأنفال: ٣٦].

معناه: إنَّ الكافِرينَ الذينَ يُنفِقونَ أموالَهم ليَمنَعوا بها اتِّباعَ دينِ الله، فسيَفعلونَ ذلكَ ويَكونُ ما أنفَقوا نَدامةً وتأسُّفاً لهم، لأنَّهم لم يَجْنُوا مِن ورائهِ سِوَى الخزيِ والهَزيمة، والذينَ بَقُوا مُصِرِّينَ على

الكُفرِ منهم، سوفَ يُجْمَعونَ ويُساقُونَ إلى جهنَّم، لتُسْعَرَ بهم نارُها، ويَمكثوا فيها خائبينَ مَقهورِين.

وقالَ أيضًا سُبحانه:
{الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ} [سورة محمد: ١].
معناه: الذينَ كفَروا بالإسلام، ومنَعوا النَّاسَ منه، أحبطَ اللهُ ثَوابَ أعمالَهم، فلم يَقبَلْها، وإنْ بَدَتْ حسَنَة.

التعلق بالدنيا والحرص على الحياة
الدُّنيا هي كلُّ شيءٍ في حَياةِ الكافِر، فهوَ يتعلَّقُ بها، بحثًا عن لذَائذِها ومناصبِها. قالَ اللهُ تعالَى:
{وَفَرِحُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ} [سورة الرعد: ٢٦].
معناه: فَرِحَ المشركونَ بالحَياةِ الدُّنيا ومَتاعِها، وأشِروا وبَطِروا، وبَسْطُ الرزقِ ليسَ تَكريمًا لهم، بلِ هوَ استِدراجٌ وإمهَال، ثمَّ مُحاسَبةٌ وعِقاب، وما الحياةُ الدُّنيا بالنسبةِ إلى نَعيمِ الآخِرَةِ ودوامِها، إلاّ مُتعَةٌ قَليلَةٌ سَريعةُ النَّفاد، ولو أنَّهم طَلبوا الآخِرَةَ لما مُنِعوا المالَ والرِّزق.

وقالَ سُبحانه:
{الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً أُوْلَئِكَ فِي ضَلاَلٍ بَعِيدٍ} [سورة إبراهيم: ٣].
أي: الذينَ يُفضِّلونَ الحَياةَ الدُّنيا، ويَركنونَ إلى لَذَّاتِها وشَهواتِها، ولا يتفَكَّرونَ في الآخِرةِ وجَزائها، ويَمنعونَ النَّاسَ مِنِ اتِّباعِ الرسُل، ويُريدونَ لدِينِ اللهِ طَريقًا مُلتَويًا يُناسِبُ أهواءَهم الزائغَة، وأفكارَهمُ المنحَرِفَة، أولئكَ في جَهلٍ وضَلال، بَعيدونَ عن الحقِّ والصَّواب.

ومن صفاتِ الكافرين، بمختلفِ عقائدهم، حبُّ الحياة. قالَ الله تعالَى في حقِّ اليهود، الذين زعموا أنَّهم وحدَهم الفَائزُونَ يومَ القيامةِ دونَ سائرِ الأمَم، فدَعاهمُ الرسولُ عليه الصلاةُ والسلامُ

إلى المباهَلَة، بأنْ يقفَ فريقٌ منَ المسلِمين، وفريقٌ منَ اليهود، ويدعُوَانِ اللهَ بِمَوتِ الكاذبِ منهُما، فلم يَستَجيبُوا لندَائه، ولم يَحضُروا المبَاهلَة:

{وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ} [سورة البقرة: ٩٦].

أي: ستجدُ اليهودَ أَحرَصَ النَّاسِ عَلَى طُولِ العُمر، وَوَدُّوا لَو عُمِّرُوا أَلفَ سَنة؛ لمعرفتِهم بمآلِهم السيِّئ، بل يَوَدُّونَ لو تَأَخَّرُوا عن يومِ الحِسابِ بما أَمكَنَهُم، لما يَتَوَقَّعُونَ ما يَنتظِرُهم. وكذا المشرِك، لأنَّهُ لا يؤمِنُ بِيَومِ البَعث، والدُّنيا جَنَّتُهُ، ولا حَظَّ لهُ في جَنَّةِ الخُلْد، بل يَنتظرُهُ العَذابُ الأليم، مَهمَا عُمِّرَ في الدنيا، فلا مَنْجَى منَ الحسابِ والعقاب، وَاللَّهُ عَالِمٌ بِمَا يَعملُ الجميعُ، مِن خَيرٍ وشَرّ.

وقالَ الله في المشركين:

{يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ} [سورة الروم: ٧].

إنَّما يَعلَمونَ ظاهِرَ ما هُم فيهِ مِنَ الحيَاةِ الدُّنيا، كأمرِ التكَسُّبِ والتِّجارَة، والغِراسِ والحَصاد، والشَّهواتِ والملذَّات، وهم سَاهونَ عنِ الدَّارِ الآخِرَة، جاهِلونَ بها، لا يَتفَكَّرونَ فيها ولا يَعمَلونَ لها.

ومن تعلُّقِهم بالحياةِ ولذائذِها صارُوا جشعِينَ أنانيِّين، فمَنعُوا الخيراتِ إلا لأنفسِهم. ووصفَ الله الكافرَ فقال:

{مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ} [سورة ق: ٢٥].

أي: كانَ يَمنَعُ الحقوقَ الماليَّةَ المفروضَةَ عليهِ للفُقَراءِ والمحتاجين، ويَظلِمُ ويُفسِد، ويَشُكُّ في الدِّين.

وقالَ سُبحانهُ في آيةٍ جامعة:

{إِنَّ هَؤُلَاء يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً} [سورة الإنسان: ٢٧].

معناه: إنَّ هؤلاءِ الكافِرينَ مُنهَمِكونَ في حُبِّ الدُّنيا، ومُقبِلونَ على لذَّاتِها الفانيَة، ويَدَعونَ يَومَ الحِسابِ والجَزاء، المحفوفَ بالصُّعوباتِ والشَّدائدِ والمكارِه.

وقالَ أيضًا:

{كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ. وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ} [سورة القيامة: ٢١]:

كلاَّ أيُّها النَّاس، إنَّكم تُحِبُّونَ الحيَاةَ الدُّنيا وحُطامَها الفَاني، وزينتَها السَّريعَةَ الزَّوال.

وتَترُكونَ الآخِرَة، وهيَ الحيَاةُ الباقيَة، والنَّعيمُ الذي لا يَزول.

ومصيرُ مَن آثرَ الدنيا:

{فَأَمَّا مَن طَغَى. وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا. فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى} [سورة النازعات: ٣٧-٣٩].

أي: مَنْ تَجاوَزَ الحَدّ، فكفرَ وعصَى، وتَجبَّرَ وعتَا،

واختارَ الحيَاةَ الدُّنيا ولذائذَها وشَهواتِها وقدَّمَها على دِينِ الله، ولم يَستَعِدَّ للدَّارِ الآخِرَة،

فإنَّ مَصيرَهُ جهنَّم، يُعذَّبُ فيها ولا يَموت.

الإثم والعدوان

وصفَ اللهُ تعالَى كثيرًا من اليهودِ بقوله:

{وَتَرَى كَثِيراً مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ} [سورة المائدة: ٦٢].

أي أنَّهم يُبادِرونَ إلى عَملِ الشرّ، فيَقترِفونَ المآثمَ والمنكَرات، ويَعتدونَ على الناسِ بأنواعِ الظُّلمِ والمكرِ والخِيانة.

وقالَ سبحانهُ لرسولِهِ في اليهودِ والنصارَى:

{وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} [سورة المائدة: ٦٨]:

إنَّ ما أنزَلَ اللهُ عليكَ مِن حقٍّ يا نبيَّ الله، سوفَ يَزيدُ كثيراً منَ الكفّارِ كُفراً وبُعداً عنِ الحقّ، لعدمِ قبولِهم به؛ لعِنادِهم ومكابرَتِهم، فلا تَحزَنْ عليهم ولا تَتحسَّرْ على هلاكِهم وعَذابِهم، فإنَّ هذهِ نتيجةُ مَن رضيَ بالضَّلالِ لنفسِه، وهمُ الذينَ جَنَوا على أنفسِهم.

والمنافِقون كذلك:
{الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ} [سورة التوبة: ٦٧].
معناه: المنافِقونَ والمنافِقاتُ مُتشابِهونَ في كلامِهم وسُلوكِهم، لأنَّهم على دِينٍ واحِد، يأمرونَ بالمعصِيَةِ وتَكذيبِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم، ويَنهَوْن عن الإيمانِ والطَّاعة.

عدم النهي عن المنكر

وصفَ الله تعالَى بني إسرائيلَ بأنهم ما كانوا يَتناهَون عن المنكر:
{كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ} [سورة المائدة: ٧٩].
أي أنَّهم إذا فَعلوا مُنكراتٍ وارتَكبوا مآثِم، لا يَنهَى بعضُهم بَعضاً عنها، ولا يَعِظُونَهم بتركِها، مثلَ أكلِ الرِّبا، وأخذِ الرشوة، وقَبولِ أثمانِ الشُّحوم، وغيرِ ذلك. فما أسوأَ فعلَهم، وما أنكرَ صَنيعَهم.

وقالَ سُبحانه:
{فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ} [سورة هود: ١١٦]:
فهلاَّ وُجِدَ مِنَ القُرونِ الماضِيةِ التي أهلكناهُم بَقايا مِن أهلِ الخَيرِ والطَّاعة، ذَوي رَأي وعَقلٍ وفَضل، يَقومونَ بالنَّهي عنِ الفَسادِ الواقعِ بينَهم، مِنَ الشِّركِ والظُّلم، والشُّرورِ والمعَاصي، إلاَّ قَليلاً منهم ممَّن أصلَحوا وقامُوا بالنَّهي عنِ المنكَرات، فأنجَيناهُم مِنَ الهَلاك، وسائرُهم كانوا ظالِمينَ مُفسِدين، فاستَمرُّوا على ما هم فيهِ منَ المعاصي والمنكَرات، والشَّهواتِ والمغرِيات، والترَفِ والبذَخ، وإيثارِ الدُّنيا على الآخِرة، وكانوا كافِرينَ مُجرِمين، بفَسادِهم وإفسَادِهم.

الاستهزاء

من صفاتِ الكافرينَ الاستهزاءُ والسخريةُ بالدِّينِ وأهله، حتَّى قالَ الله تعالَى:
{وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} [سورة الحجر: ١١].

أي: وما كانَ اللهُ يُرسِلُ إلى فِرَقِ وطوائفِ الأمَمِ الماضِيَة رسُولاً من عِندِهِ إلاّ كانوا يُكذِّبونَهُ ويَسخَرونَ منه.

وقالَ جلَّ شَأنه:
{وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} [سورة الأنعام: ١٠].
أي: لقد سبقَ لأمثالِ هؤلاءِ الكفّار أنِ استهزَؤوا وتَهَكَّموا برسُلٍ مِن قبلِكَ كما اسُتهزِئَ بكَ أيُّها النبيّ، فأحاطَ بالمستَهزئِينَ منهم عقوبةُ استِهزائهم بأنبيائهم، التي كانوا يَسخَرونَ منها ولا يُصَدِّقونَها.

فقد سَخروا من نبيِّ اللهِ نوح:
{وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُواْ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ. فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ} [سورة هود: ٣٨-٣٩].
أي أنَّ نوحًا عليهِ السَّلامُ نفَّذَ ما أمرَ به ربُّه، وأقبلَ على صُنعِ السَّفينة، وكُلَّما مَرَّ عليهِ جَماعَةٌ مِن قَومِهِ استَهزَؤوا بهِ وبعَمَلِه، وكذَّبوا بما تَوعَّدَهم بهِ منَ الغَرَق، وهوَ يَقولُ لهم: إنْ كنتُم تَسخَرونَ مِن عمَلِنا الآن، فإنَّنا سَنسخَرُ منكم عندَما يُصيبُكُمُ العَذاب، حيثُ تُغرَقونَ وتَطلُبونَ النَّجاة، ولا مُغيثَ لكم..
وسَوفَ تَعلَمونَ حِينَئذٍ مَنِ الذي يُصيبُهُ العَذابُ فيُذِلُّهُ ويُهينُه، وهوَ الغَرَق، ويَجِبُ عليهِ يَومَ القيامةِ عَذابٌ دائمٌ لا خَلاصَ لهُ منه.

ومن شأنِ الكافرينَ الاستهزاءُ بالمؤمنينَ وأحوالهم، كما قالَ الله هنا:
{زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ} [سورة البقرة: ٢١٢].

تفسيرها: لقد زُيِّنتِ الحياةُ الدُّنيا في عُيونِ الكافرينَ الذين رَضُوا برفاهيتِها، وتهالَكوا عليها، وتشبَّثوا بها، واطمأنُّوا إليها، ولم يتجاوزوها إلى ما هو أرقَى وأسمَى، وسَخِروا منَ المؤمنينَ الذين زَهِدوا فيها، وفضَّلوا حياةَ الجهادِ والدعوةِ والعِبادة، وأنفقوا ما عندَهم ابتغاءَ وجهِ الله، ولو كانَ ما عندَهم قليلاً. فكانوا منَ المكرَمينَ الذينَ حازوا الحظَّ الأوفرَ والدرَجةَ العُليا، والآخَرونَ ذُلُّوا وأُهينوا وكانوا في الدرَكاتِ السُّفلَى.

كما يستهزئونَ بشعائرِ الإسلام:
{وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاَةِ اتَّخَذُوهَا هُزُواً وَلَعِباً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ} [سورة المائدة: ٥٨]:
وإذا أذَّنْتُم للصَّلاةِ ودَعا بعضُكم بَعضاً لإقامةِ هذهِ الفَريضةِ العَظيمة، سَخِرَ أهلُ الكتابِ والمشرِكونَ منها واتَّخذوها لَعِباً وعَبَثاً، معَ أنَّها طاعةٌ للهِ وإفرادٌ لهُ سُبحانَهُ بالعِبادة، لكنَّهم سُفَهاءُ وحَمقَى، لا يَعرِفونَ الحقَّ ولذلكَ يُعادُونه، أو هم لا يُريدونَ أنْ يَعرِفوا ذلكَ فيَلعَبونَ ويَعبَثون، ولا يَستَعملونَ عقولَهم ليكونوا جادِّينَ راشِدين.

والاستهزاءُ من صفاتِ المنافقين أيضًا:
{وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ. لاَ تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ} [التوبة: ٦٥-٦٦]
معناه: إذا سألتَ المنافِقينَ عن سبَبِ قولِهم والدَّاعي إلى استِهزائهم، قالوا: إنَّما كنّا نَخوضُ في الكلامِ ونَلهو، قُلْ لهم أيُّها النبيّ: أبالله، وآياتِ كتابِه، ورَسولِه، كنتُم تَستهزِؤونَ وتَتهكَّمون؟ لا تَستَمِرُّوا في الاعتِذارِ أيُّها المنافِقون، فقد بدا منكم ما كنتُم تَحْرِصونَ على كَتْمِه، حيثُ أظهرتُم الكُفرَ باستِهزائكم وإيذائكم الرسُولَ صلى الله عليه وسلم بعدَ إظهارِكمُ الإيمان.

ويَسخَرونَ من الذينَ آمنوا أيضًا، في أمرِ الإنفَاق:
{الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [سورة التوبة: ٧٩]:

إنَّهُمُ المنافِقون، الذينَ مِن صِفاتِهم ألّا يَسْلَمَ أحدٌ من ألسِنَتِهم، وقَدحِهم وذَمِّهم، فيَعِيبونَ على مَن تَصدَّقَ منَ المؤمنين، فإنْ كانوا أغنياءَ وأكثَروا، قالوا: هذا يُعطي للرّياءِ والسُّمْعة، وإنْ كانوا فُقَراءَ فأقَلُّوا، قالوا: إنَّ اللهَ غنيٌّ عن صَدَقةِ هذا، جازاهمُ اللهُ شرًّا على سُخريتِهم مِنَ المؤمِنينَ الطيِّبين، الذينَ يُنفِقونَ أموالَهم فيما يُرضي الله، ولِهؤلاءِ المنافقينَ المعتَدينَ عذابٌ مؤلمٌ دائمٌ في الآخِرَة.

وذكَّرَ اللهُ أهلَ النارِ بما كانوا يفعَلونَهُ بالمؤمنينَ في الدنيا من سخريةٍ وتهكُّم، وقال:
{فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيّاً حَتَّى أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ} [سورة المؤمنون: ١١٠].
أي: فاستَهزَأتُم بهم واتَّخَذتُموهُم سُخرِيَة، وضَحِكتُم مِن عِبادَتِهم لي، ومِن دُعائهم وتَضَرُّعِهم إليّ، حتَّى شَغَلَكم هذا الاستِهزاءُ عن ذكرِ الله، والاستِماعِ إلى آياتي، والتفَكُّرِ في الحقِّ الذي يَدعونَ إليه.

وقالَ تذكيرًا بما كانوا يفعَلونَ بالمؤمنين:
{إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُواْ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ. وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ. وَإِذَا انقَلَبُواْ إِلَى أَهْلِهِمُ انقَلَبُواْ فَكِهِينَ} [سورة المطففين: ٢٩-٣١]
معناه: إنَّ المشركينَ كانوا يَستَهزِؤونَ بالمؤمِنينَ ويَحتَقِرونَهم في الحيَاةِ الدُّنيا.
وإذا مرَّ المؤمِنونَ بهم وهم في مَجالسِهم، يُشيرونَ إليهم بأعيُنِهم استِهزاءً وسُخريَة.
وإذا رجعَ هؤلاءِ المجرِمونَ إلى بُيوتِهم، رجَعوا مُبتَهِجينَ بما فعَلوا، مُستَمتِعينَ باستِخفافِهم بالمؤمِنين!

استعجال العقوبة

لوحِظَ على عددٍ من الأقوامِ الكافرينَ أنَّهم كانوا يتحدَّونَ العقوبة، ويستعجلونَ العذاب. وهذا من حُمقِهم وعِنادهم.
من ذلك قصَّةُ ثمودَ مع نبيِّ اللهِ صالحٍ عليهِ السَّلام:
{قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [سورة النمل: ٤٦].

أي: قالَ صالحٌ عَليهِ السَّلامُ للفَريقِ الكافِر، بعدَما رأى عُتوَّهم ومُكابرَتَهم عنِ اتِّباعِ الحق، وطلَبَهم إنزالَ العَذابِ بهم إنْ كانَ ما يَقولُهُ حَقًّا، قال: يا قَوم، لماذا تَستَعجِلونَ العُقوبَةَ التي فيها شَرٌّ لكم، قَبلَ التَّوبَةِ وطلَبِ الرَّحمَةِ مِنَ الله، التي لكم فيها خَيرٌ وفلاح، فهلاّ طلَبتُم مَغفِرتَهُ قبلَ عَذابِه، فإنَّ طلبَ الخَيرِ أفضَلُ مِن طلبِ الشَّرّ، ولعلَّهُ يَقبَلُهُ منكم فيَرحمُكم؟

وجوابُ قومِ لوط، عندما قالَ لهم نبيُّهم:

{أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ} [سورة العنكبوت: ٢٩]:

نَّكم تأتونَ الرِّجالَ في أدبارِهم وتَتركونَ ما خلقَ اللهُ لكم مِن زَوجات، وتَقطَعونَ الطَّريقَ على النَّاسِ فتَقتلونَهم وتأخذُونَ أموالَهم، وتَفعَلونَ في مجلِسِكمُ الذي تجتَمِعونَ فيهِ ما هوَ مُنكَرٌ وفاحِشٌ منَ الأقوَالِ والأفعَال.

فما كانَ جوابَ قَومِ لُوطٍ لما أنكرَ عَليهم إلاّ أنْ قالُوا سُخريَةً منه: ليَنْزِلْ بنا عَذابُ اللهِ إذا كُنتَ صادِقاً فيما تَعِدُنا به.

ومشركو قُريش:

{وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ} [سورة ص: ١٦].

معناه: قالوا في تَهكُّمٍ وسُخريَة: ربَّنا عَجِّلْ لنا حظَّنا مِنَ العَذابِ الذي تَوعَّدتَنا به!

وفيهم نَزل:

{وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ. يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ} [سورة العنكبوت: ٥٣-٥٤].

أي: يَستعجِلُكَ المشرِكونَ بالعَذاب، ولولا أنَّ اللهَ قَدَّرَ لهمُ العَذابَ في وَقتٍ مُعيَّن، لحَلَّتْ بهم نِقمَتُه، وسيَأتيهم فَجأةً وهم غافِلونَ عنه.

إنَّهم يَستعجِلونَ العَذابَ وهوَ مُحيطٌ بهم، فهوَ واقِعٌ بهم لا مَحالَة، ولن يَبقَى كافِرٌ إلاّ ويَدخُلُ جَهنَّم.

وقالَ الله لرسولهِ منبّهًا ومحذّرًا كفّارَ مكّة:

{فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوباً مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ} [سورة الذاريات: ٥٩].

معناه: إنَّ للَّذينَ كفروا مِن قومِكَ نَصيبًا مِنَ العَذاب، مثلَ نَصيبِ نُظرائهم مِنَ الأقوَامِ السَّابقين، الذينَ أهلكَهمُ الله، فلا يَطلبُوا استِعجالَ العَذاب، فإنَّهُ سيأتيهم نَصيبُهم مِن ذلك.

وقالَ في الآيةِ التي بعدَها:

{فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ}:

فالوَيلُ والهَلاكُ للَّذينَ كفَروا مِن يَومِ العَذابِ الشَّديدِ الذي يُوعَدونَ به، الذي لا مَحيدَ لهم عَنه، ولا مُنقِذَ لهم منه.

الاختلاف والشقاق

اختلافُ اليهودِ من آثارِ عداوةِ بعضِهم لبعض:

{وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ} [سورة المائدة: ٦٤].

أي: ألقَينا بينَ بعضِهِمُ البعضِ عداواتٍ وأحقاداً، فصاروا فِرَقاً وجماعاتٍ لا تَكادُ تَتوافَقُ قلوبُهم ولا تَتَّحِدُ كلمتُهم؛ لكثرةِ اختلافِهم وخُصوماتِهم وجدالِهم في دينِهم، فصاروا مُتباغِضينَ مُتخاصِمين، وسيَكونُ هذا شأنَهم إلى يومِ القيامة.

وقالَ سُبحانه:

{وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ} [سورة البقرة: ١٧٦].

أي: هؤلاءِ الذينَ اختلَفوا في الكتاب، فآمنوا ببَعضهِ وكفروا ببَعضهِ الآخَر، وأوّلوا منهُ أشياء، ثمَّ وصَفوا القُرآنَ بأوصافٍ باطِلة، هم في اختلافٍ شديدٍ وبُعدٍ عنِ الحقّ والصَّواب، مستوجِبٍ لأشدِّ العذاب.

الشقاء

ذكرَ الله أهلَ الشقاءِ ومصيرَهم، وهم الكافرونَ ومَن في حكمِهم، فقال:

{فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُواْ فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ} [سورة هود: ١٠٦].
معناه: فأمّا الأشقِياءُ فمأواهمُ نارُ جهنَّمَ المسعَرَة، فيَشهَقونَ ويَزْفِرونَ بشِدَّةٍ وألم؛ مِنَ الضِّيقِ والحرِّ والإحْراق.

وعندَما سألَ اللهُ الكافرينَ في جهنَّم:
{أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ}؟
{قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْماً ضَالِّينَ} [سورة المؤمنون: ١٠٥-١٠٦].
أي أنَّهم قالوا مُعترِفين: ربَّنا استولَتْ عَلَينا الشَّقاوَة، وقامَتْ عَلَينا الحُجَّة، وكُنَّا قَومًا مُنحَرِفِينَ زائغِينَ عنِ الحقّ، مُكَذِّبينَ بالآيَات.
قالَ الشَّوكاني في تفسِيره، في معنَى الشقاوَة: أي: غلبتْ علينا لذَّاتُنا وشهواتُنا، فسمِّيَ ذلك شَقوةً لأنه يؤولُ إلى الشقاء.

استعمال الألفاظ السيئة

وأهلُ الكفرِ والضلالِ لا يتورَّعون من استعمالِ الكلماتِ السيِّئةِ والألفاظِ البذيئة، من حقدِهم وكراهيتِهم لأهلِ الحقّ. مثالُه ما وردَ في قولِه سبحانه:
{مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيّاً بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْناً فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً} [سورة النساء: ٤٦].
بمعنى: هناكَ طائفةٌ منَ اليَهود، وهم عُلَماءُ الضَّلالِ مِنهم، يُفَسِّرونَ التورَاة على غَيرِ وجهِها الحقيقيّ، فيُؤوِّلونَ مَعناها أو يُحَرِّفونَ ألفاظَها عن قَصد، وإذا سَمِعوا كلاماً للرسولِ صلى الله عليه وسلم قالوا لهُ في كفرٍ وعِناد: سَمِعنا قولَكَ وعَصَينا أمرَك!! وقالوا مُستَهزئين: اسمَعْ ما نَقولُ لا سَمِعت، وراعِنا، يحرِّفونَها بألسنتِهم عن مَعناها، فهي تَحتَملُ معنَى أمهِلْنا وانظُرْ إلينا، ومعنَى الرُّعونة، وهيَ الهوَجُ والحُمْق، بقصدِ السبِّ والعَيب، والقَدحِ في الدِّينِ والسُّخريةِ منه.
ولو أنَّهم عندما سَمِعوا شَيئاً مِن أوامرِ الله، قالوا: "سَمِعنا وأطَعنا" بدلَ "سَمِعنا وعَصَينا"، وقالوا: "واسْمَعْ وانظُرْنا" بدلَ "واسْمَعْ غيرَ مُسْمَعٍ وراعِنا"، لكانَ أنفعَ مِن قولِهم وأعدلَ وأصوب، ولكنَّهم

لم يَقولوا ذلك، بل استمرُّوا في كُفرِهم وضَلالِهم، فخذلَهُمُ اللهُ وأبعدَهم مِن رحمتِهِ وهُداه، فلا يُؤمِنُ منهم إلاّ القَليل.

عدم تمني الخير لغيرهم

ومن صفاتِ الكفّارِ أنَّهم لا يتمنَّونَ أن يصلَ الخيرُ للمسلِمين، بل يريدون تأذّيهم، قالَ سُبحانه:
{مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلاَ الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} [سورة البقرة: ١٠٥].
أي: إنَّ الكافِرين، سَواءٌ أكانوا مشركِينَ أم مِن أهلِ الكتاب، شَديدو العَداوَةِ لَكُم، لا يُريدونَ لكمُ الخيرَ ألبتَّة، فلا تتَشَبَّهُوا بهم ولا تُوَادُّوهُم، فَإِنَّ قُلُوبَهُمْ تَغْلِي بالحقدِ والحسدِ على ما خَصَّكُمُ اللهُ بهِ مِن رحمتِهِ الواسعةِ وفَضْلِهِ الكَبِير، فَأَنزَلَ الوحيَ عَلَى مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم وهوَ بين ظَهرَانَيْكُم، فَاستَمْسِكُوا بهذا الذي يَحسُدُونَكُم عليه، واشكُروا فَضلَه، لِيَحفظَهُ فيكم ويزيدَكُم منه، وليسَ هناكَ أجَلُّ مِن نِعمَةِ الإيمانِ والاستجابةِ لدعوةِ النبيّ صلى الله عليه وسلم، فاحرِصوا على ذلك.

بغض المؤمنين

نبَّهَ اللهُ المؤمنينَ إلى أنَّ الكافرينَ يَبغضونَهم بُغضًا شديدًا، فقال:
{قَدْ بَدَتِ البَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ} [سورة آل عمران: ١١٨].
أي: ... هذا ظاهِرُ ما تَفوهُ بهِ ألسنتُهم مِن حِقدٍ وبُغض، والذي تُخفيهِ صُدورُهم مِن كُرهٍ وعَداوةٍ أكثرُ ممّا يُظهِرونَه.

وبيَّنَ علاماتٍ لهذا البغضِ فقال:
{إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ} [سورة آل عمران: ١٢٠].
فممّا يَبدو مِن عَداوةِ المنافِقينَ لكم، أنَّ اللهَ إذا مَنَّ عليكم برزقٍ أو نَصرٍ أو فَتح، أصابَهُم الهَمُّ والغَمّ، وإذا أصابَكم مَكروهٌ كقَحطٍ أو هَزيمة، فَرِحُوا واستَبشَروا، فلا يُحزِنَنَّكم هذا، واتَّقوا شرَّهم

بالتحلّي بالصَّبر، والدوامِ على طاعةِ الله، وحُسنِ التوكُّلِ عليه، ولن يَضُرَّكم شيءٌ مِن مكرِهم إذا كنتُم كذلك، فاللهُ مُحيطٌ بهم، عليمٌ بما يَصنَعون، ولن يَقَعَ شيءٌ في الوجودِ إلا بتقديرِهِ ومَشيئتِه.

الإفساد

قالَ اللهُ تعالَى في صفةِ اليهود:

{وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ} [سورة المائدة: ٦٤].

أي أنَّ شأنَهم الإفسادُ في الأرض، بالكيدِ لأهلِ الحقّ، وإثارةِ الشرِّ والفِتنة، وإيقادِ نيرانِ الحروب، واللهُ يَبغَضُ هذهِ الصفاتِ وأهلَها، ويَجزيهم على ذلكَ سُوءَ العَذاب.

ومن صفاتِ الكفَّارِ نشرُ الفساد، قالَ الله فيهم:

{وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ} [سورة البقرة: ٢٧].

أي: يُفسِدونَ في الأرضِ بالمعاصي والفِتَنِ وإثارَةِ الشُبُهاتِ حَولَ القُرآن.

وقالَ في النصارَى الذين أشرَكوا:

{فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِالمفْسِدِينَ} [سورة آل عمران: ٦٣].

بمعنى: إذا أعرَضُوا عنِ التوحيدِ وأبَوا إلاّ الإشراك، بعدَ مُعاينةِ كلِّ الحُجَجِ والبراهين، فإنَّهم بذلكَ قَد أفسَدوا فِطرتَهم، ففسدَ بذلكَ عِلمُهم، وصارَت قُلوبُهم سَوداءَ مُغلَقة، واللهُ عليمٌ بهم وبجِناياتِهم هذه، لا يَفوتهُ شيءٌ ممّا فَعلوهُ وأورَثوهُ مِنَ الضلال، وسيَجزيهم شرَّ الجزاءِ على ذلك.

الإيذاء والتعذيب

ومن دأبِ الكفّارِ أن يَفتنوا المسلِمين عن دينِهم، ويعذِّبوهم، ويتفنَّنوا في إيذائهم بأنواعِ التعذيب، كما في صَنيعِ فرعَونَ ومَلئهِ معَ بني إسرَائيل، بقَتلِ أطفالِهم الذكور، وتركِ نِسائهم للسُّخرة، والكبارِ للأعمالِ الشاقَّة.

واختارَ فرعونُ نوعَ التعذِيبِ لمن آمنَ من السحرةِ هكذا، كما سَبق:

{لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلاَفٍ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ} [سورة الأعراف: ١٢٤]:
قوله: سأقطَعُ من كلِّ واحدٍ منكم يدَهُ اليُمنَى ورِجْلَهُ اليُسرَى، ثمَّ أصلبُكم على جُذوعِ النَّخلِ جميعاً، لتَموتوا جُوعاً وعَطشاً، عُقوبةً لإيمانِكم.

وتعذيبُ السَّابقينَ إلى الإسلامِ معروفٌ عندَ القارئ. وقالَ الله تعالَى:
{وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ القَتْلِ} [سورة البقرة: ١٩١].
أي: كانوا يَفتِنونَكم عن دينِكم، ويُعَذِّبونَكم، ويُصادِرونَ أموالَكم، ولا يَسمحونَ لكم بإقامةِ شعائرِ دينِكم، ويُقاتلونَكم ليُبيدُوكم، انطلاقاً منْ ملَّةِ الكفرِ التي همْ عليها.

وقالَ سبحانهُ في جزاءَ من آذَى رسولَه:
{وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [سورة التوبة: ٦١].
معناه: الذينَ يُؤذونَ رسولَ اللهِ بأيِّ نوعٍ منَ الإيذاء، فلهم عِقابٌ شَديدٌ مؤلِم، لا يَعرِفُ قَدْرَهُ إلاّ الله.

قتل أهل الحق

من صفاتِ الكافرين المجرمين أنهم لا يتورَّعونَ عن قتلِ من يدعوهم إلى الحقّ، ولو كانوا دعاةً وعلماءَ وأنبياء!
{إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} [سورة آل عمران: ٢١].
أي: إنَّ الذينَ كفَروا بدينِ اللهِ وما أنزلَهُ من آياتٍ بيِّناتٍ، فآثرُوا الكفرَ على الإيمان، وارتكبوا المآثمَ بتكذيبِهم رُسُلَه، وخالَفوهمُ استكباراً وعِناداً، ولم يَكتفوا بهذا، بل قَتلوا بعضَ أنبياءِ اللهِ الكِرام، ولا جَريمةَ لهم في ذلكَ سِوَى دعوتِهم إلى الحقّ! ثمَّ شَهَروا السُّيوفَ ضدَّ مَن يأمرُهم بالعدلِ واتِّباعِ الصِّراطِ المستَقيم، ويَنهاهُم عنِ المنكرِ والبَغي والجَهالة، مادامَ ذلكَ لا يَوافقُ

أهواءَهم وضلالاتِهم، تكبُّراً واستعلاءً على الحقِّ والهُدَى. إذاً فبشِّرهُم بذِلَّةٍ وصَغار، وعَذابٍ قَريبٍ ينالُهم.

وقالَ الله تعالَى مخاطبًا اليهود:

{فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} [سورة البقرة: ٩١].

أي: إذا كنتُم تَدَّعُونَ صِدْقَ الإيمانِ فيما أُنْزِلَ عَليكم، فَلِمَ قَتَلتُمُ الأنبياءَ الذينَ جاؤُوكمْ بتصديقِ التوراةِ والحُكْمِ بها وأنتم تَعلمونَ صِدْقَهُم؟ بَل هُوَ الهوَى والتشهِّي، والبغيُ والاستِكبار، وليسَ هذا مِن صفاتِ المؤمنين.

وقالَ سُبحانهُ في أصحابِ الأُخدود، الذينَ كانوا يحفرونَ الأخاديدَ ويؤجِّجونَ فيها النار، ويلقونَ فيها المؤمنين:

{وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ} [سورة البروج: ٨].

أيس: وما نقَموا منهم هذا الانتِقامَ الفَظيع، إلاّ لكونِهم آمَنوا باللهِ الغَالبِ الذي لا يُقهَر، الحَميدِ المستَحِقِّ للحَمدِ والثَّناءِ بإنعامِهِ وإحسانِه، ولأنَّ المؤمنينَ كفَروا بمَعبوداتِهمُ الباطِلَة.

تعطيل المساجد

ومن دأبِ الكفّارِ وأساليبِهم المنكَرة، أن يعوِّقوا رسالةَ المسجد، ويحاولوا تعطيلَها أو تحريفها عن مسارِها، كما في حالةِ مشركي قريش. قالَ سُبحانهُ وتعالَى:

{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُوْلَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَآئِفِينَ لهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [سورة البقرة: ١١٤].

معناها: ليسَ هناكَ أظلمُ ممَّن منعَ ذكرَ اللهِ في المساجِد، وسعَى في تَعطيلِها أو هَدمِها وخَرابِها، وما كانَ ينبغي لهؤلاءِ إلاّ أنْ يَدخلوها بخَشيَةٍ وخُضوع، فَضلاً مِنَ الاجتراءِ على تخريبِها أو تعطيلِها. وقد تجرَّأَ المشركونَ فَمَنَعُوا رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يومَ الحُديبيةِ من دخولِ المسجدِ الحرامِ! فلا تُمَكِّنُوا أحداً منهمْ مِن دخُولِهِ إذا قدَرتُم على ذلك.

وقد مُنِعُوا حقًّا عندما نَصَرَ اللهُ الإسلام، كما أوصَى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أن يُجلَى اليهودُ والنصارَى من جزيرةِ العرب، فكانَ ذلكَ خِزياً لهم لا يوصَف، بالقتلِ والسبيِ والإذلال، ولهم عذابٌ كبيرٌ على ما انتَهكوا من حُرمةِ البيتِ وامتَهنُوه، من نَصْبِ الأصنامِ حولَه، والدعاءِ إلى غيرِ اللهِ عندَه، وغيرِ ذلكَ من أفاعيلِهِمُ المنكَرة.

النجاسة

وصفَ الله تعالَى الكافرينَ بالنجاسة:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُواْ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا} [سورة التوبة: ٢٨].

بمعنَى أنَّ المشرِكينَ قَذِرون، لا يتطهَّرونَ ولا يَغتسِلون، ولا يتجنَّبونَ النجاسات، وهم فاسِدو العقيدةِ خَبيثو الباطن، فلا تَسمَحوا لهم بالاقترابِ منَ المسجدِ الحرامِ بعدَ هذا العام، التاسعِ للهجرة.

أكلُ الحرام

قالَ اللهُ تعالَى في وصفِ اليهود:

{سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ} [سورة المائدة: ٤٢].

أي: المكثِرونَ مِن قَبولِ الكذِب، والمكثِرونَ من أكلِ الحَرام، كالرِّشا وغيرِها.

وقالَ في موضعٍ آخَر:

{وَتَرَى كَثِيراً مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} [سورة المائدة: ٦٢].

أي: يأكلونَ الرِّشا ليُحِلُّوا الحرام، فما أسوأَ ما يَتعاطون، وما أنكرَ ما يَفعلون.

وقال:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّ كَثِيراً مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ} [سورة التوبة: ٣٤].

أي أنَّ كثيراً مِن عُلماءِ اليَهودِ والنَّصارَى يَتخلَّونَ عن أحكامِ دينِهم بقَبولِ أموالٍ محرَّمةٍ عليهم منَ الناس، فهم يأخذونَ الرشوَة، ويَقبَلونَ الهدايا، ويُغيّرونَ لأصحابِها شرعَ اللهِ الحقّ، أو يخفّفونَ أحكامَه عنهم، أو يُسامِحونَهم فيها.

قطع الرحم

ومن شأنِ الكافرينَ أنهم يَقطعونَ الرَّحِم، ويُجافُون أهلِيهم.. قالَ سُبحانهُ وتعالَى:

{الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ} [سورة البقرة: ٢٧، سورة الرعد: ٢٥].

أي أنَّهم معَ عِنادِهِم وفسادِ عَقيدتهم غيرُ أوفياءَ معَ أقربِ المقرَّبينَ إليهم، فهم يَقطعونَ علاقاتِهم معَ أهليهم وأقربائهم.

وقالَ والدُ إبراهيمَ المشركِ له، وقد دعاهُ إبراهيمُ عليه السَّلامُ إلى تركِ عبادةِ الأصنامِ فأبَى:

{وَاهْجُرْنِي مَلِيّاً} [سورة مريم: ٤٦].

أي: ابعُدْ عَنّي إذا كُنتَ تُريدُ النَّجاةَ لنَفسِك.

عواقب الصفات السيّئة للكافرين

ومن العواقبِ التي ترتَّبتْ على اتِّصافِ الكافرينَ بتلك الصفاتِ السيّئة، أنهم خَسروا ولم يَربحوا. قالَ الله سُبحانهُ وتعالَى:

{الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} [سورة البقرة: ٢٧].

أي أنَّهم خسروا بهذا وتعرَّضوا إلى غضبِ الله، وحالتْ أعمالُهُم السيّئةُ بينَهمْ وبينَ رحمةِ اللهِ العظيمة.

وقالَ جلَّ جلالهُ في جزاءِ من كتمَ الحقّ:

{إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ الكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ. أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالهُدَى وَالعَذَابَ بِالمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ} [سورة البقرة: ١٧٤-١٧٥].

معناها: إنَّ الذينَ يَكتمُونَ ما أنزلَ اللهُ في الكتُبِ مِن صِفَةِ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم، وخاصَّةً اليهود، حتَّى لا تَذهبَ وجاهتُهم ورئاستُهم أمامَ العرب، وكانوا يتلقَّونَ منهمُ التُّحَفَ والهَدايا تعظيماً لشأنِهم وعلمِهم، كما يأكلونَ الرِّشا مُقابلَ تَحليلٍ أو تَحريم، فخَشُوا إنْ هم أظهَروا أوصافَهُ صلى الله عليه وسلم أنْ يتَّبعَهُ الناسُ ويتركوهم، فكتَموا ذلك، إبقاءً على ما كانَ يَحصلُ لهم مِن ثَمنٍ قليلٍ مُقابلَ أمرٍ عَظيم، فباعُوا دينَهم مُقابلَ نَزْرٍ يَسيرٍ منَ المال، فكانوا منَ الخاسرين.

وسوفَ يأكلونَ ناراً تتأجَّجُ في بُطونِهمْ يومَ القيامة، جزاءَ ما كانوا يأكلونَهُ مقابلَ كِتمانِ الحقّ. ولا يكلِّمُهمُ اللهُ غَضباً عليهم. ولا يُثني عليهم خَيراً، بلْ يُعَذِّبُهم عَذاباً مؤلماً شَديداً.

لقدِ اشترَوا الباطِلَ بالحقّ، وباعُوا الهُدَى بالضَّلال، عندما كتَموا البِشارةَ برسولِ الله صلى الله عليه وسلم ولم يتَّبِعوه، ورضُوا بالكفرِ والتَّكذيبِ والكِتمان. لقد باعوا — إذنْ - المغفرةَ واشترَوا العذاب. فما أعجبَ حالَهم! وما أحرصَهم على التهالُكِ على دخولِ النارِ والصبرِ عليها، عندما تَعاطَوا أسبابَ ذلك، وتنافَسوا فيه، قَصداً واختِياراً!

وقالَ في جزاءِ كُفرِهم ومخالفتِهم:

{وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً} [سورة النساء: ١١٥].

أي: مَن يُخالِفْ رسولَ اللهِ ويَسْلُكْ غيرَ طَريقِ الشَّريعةِ التي جاءَ بها، عن عَمدٍ وتَقصُّدٍ، بعدَ ما ظهرَ لهُ الحقُّ ممّا حُكِمَ به، وعَرَفَ بذلكَ الأوامرَ والحُدود، ويَسْلُكْ طريقاً آخرَ غيرَ ما اجتَمَعَ عليه المؤمنونَ واتَّفقوا عليه، نُخَلِّي بينَهُ وبينَ ما اختارَهُ لنفسِه، ونَكِلْهُ إلى نَفسهِ الآثِمة، ونُدْخِلْهُ جهنَّمَ فيُعَذَّبُ فيها، وبئسَ ما انتهَى إليهِ واستَقرَّ في مكانٍ كلُّهُ نارٌ وعَذابٌ.

وكلما طالَ عمرُ الكافرِ كثرتْ ذنوبهُ وزادَ عذابه:

{وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ} [سورة آل عمران: ١٧٨].

أي: لا تَظُنَّنَّ أيُّها الرسُولُ أنَّ إمهالَنا الكافِرينَ فيهِ خيرٌ ومَنفَعةٌ لهم، إنَّما نُؤخِّرُهم في الحياةِ الدُّنيا لتَزدادَ آثامُهم وتَكثُرَ ذنوبُهم، فيزدادَ عذابُهم، وعذابُهم في الآخِرةِ يَكونُ مُذِلاً لهم؛ جزاءَ عنادِهم وتَجبُّرِهم.

الباب السادس
من الصفات والأحوال المزدوجة

قد تكونُ حسنةً وقد تكونُ سيئة، وقد توجدُ في المسلم، وفي الكافر. وقد مضى بعضها.

التمييز بين الحق والباطل

خلقَ الله نفسَ الإنسان، وألهمَها التفريقَ بين الخيرِ والشرّ، وبين الحقِّ والباطل. وهذا من متطلَّباتِ العقل، الذي تميَّزَ به الإنسانُ من بينِ الكائنات.

قالَ الله تعالَى:

{إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى} [سورة الليل: ١٢].

أي: إنَّ علينا أنْ نُبيِّنَ طَريقَ الهُدَى مِن طَريقِ الضَّلال.

وقال:

{وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ} [سورة البلد: ١٠].

أي: هَدَيناهُ طَريقَ الخَيرِ والشرَّ، والحقِّ والباطِل، ليَختارَ أيَّهما شَاء.

وقالَ أيضًا سُبحانه:

{وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا. فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا} [سورة الشمس: ٧-٨].

معناها:

ونَفسٍ وما أنشَأها وأبدعَها، وسوَّى أعضاءَها، وجعلَها على الفِطرَة.

فأرشدَها وبيَّنَ لها الخَيرَ والشرّ، وعرَّفَها الحقَّ والباطِل، وما يُصلِحُها وما يَشينُها.

وفي حَدِيثِ ابنِ عباس، أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم إذا تَلا هذهِ الآيَة: {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا. فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا} وقفَ ثمَّ قال: "اللهمَّ آتِ نَفسي تَقوَاها، أنتَ وليُّها وخَيرُ مَنْ زَكَّاها". رَواهُ الطبَرانيُّ وحسَّنَ إسنادَهُ في مَجمَعِ الزَّوائد.

ثمَّ إنَّ الإنسانَ مسؤولٌ عن نفسهِ بما يختارُ لها، من خيرٍ أو شرّ، ومن صلاحٍ أو إفساد، فهو حرّ. ولكنَّهُ محاسَبٌ حسابًا دقيقًا على اختياراته، وأعمالهِ كلِّها، فلم يُخلَقْ عبثًا:

{قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا. وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا} [سورة الشمس: ٩-١٠].

أي: قد فازَ وسَعِدَ مَن أصلحَ نَفسَهُ وطهَّرَها مِنَ الشِّركِ والمعاصِي ومَساوئِ الأخلاق.

وقد خابَ وخَسِرَ مَن أفسَدَ نَفسَهُ وأغوَاها، وأهلكَها بحَملِها على الكُفرِ والمعصية.

ادِّعاء الحق

كلٌّ يدَّعي أنه هو وحدَهُ على الحقّ، دونَ غيره، حتى المشركون الذين زوَّروا كتبَ الله يقولونَ ذلك!

{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا. انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا} [سورة النساء:٤٩-٥٠]:

ألا تَنظرُ يا نبيَّ اللهِ إلى هؤلاءِ اليَهودِ والنَّصارَى، الذينَ يَزعُمونَ أنَّ ذُنوبَهم مَغفورة، وأنَّهم أحبابُ اللهِ فلا يُعَذِّبُهم، وأنَّهُ لا يَدخُلُ الجنَّةَ إلاَّ مَن كانَ منهم؟ لكنَّ الذي يَغفِرُ الذنوبَ ويُبرِئُ النفوسَ منها هوَ اللهُ وحدَه، فهوَ العالِمُ بحقائقِ الأمورِ ونيّاتِ القُلوب، ولا يُظلَمُ عندهُ أحَد، فلا يُنقَصُ مِن أجرِ أعمالِهِم مِقدارُ الخيطِ الذي في شِقِّ النَّواة.

انظرْ في دَعواهم هذهِ وزَعمِهم أنَّهم مُطَهَّرونَ منَ الذنوبِ وأنَّهم أبناءُ اللهِ وأحبَّاؤه، وهُم بهذا كذّابون، ويَرتَكِبونَ ذَنباً عَظيماً بيِّناً بادِّعائهم على اللهِ ما لا يَعلمون.

وقد أمرَ الله رسولَهُ أن يقولَ للمشركين:

{وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} [سورة سبأ: ٢٤].
أي: قُلْ لهم: نحنُ أو أنتُم على صَوابٍ، أو في انحِرافٍ واضِح، ولا يَكونُ كِلانا على صَوابٍ أو ضَلال، ونَحنُ قد أبدَينا حُجَّتَنا، وأظهَرنا بُطلانَ أُلوهيَّةِ أصنامِكم، فأنتُم على بُطلان.

الخصومة واللجاجة

وهي صفةُ المجادلِ العَنيد، الذي يتمادَى في الخصُومة، ولا يهمُّهُ الوصولُ إلى الحقّ. قالَ الله تعالَى:
{خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ} [سورة النحل: ٤].
أي أنَّ اللهَ هوَ الذي خلقَ الإنسانَ من مَنيٍّ ضَعيفٍ مَهين، فإذا بِهِ عندَما يَكبَرُ يُخاصِمُ ربَّهُ بالباطِلِ في وجودِهِ ووحدانيَّتِه، ويُكَذِّبُهُ في وَحيِهِ وآياتِه، وقد خُلِقَ عَبدًا مَملوكًا لرَبِّه.

وقد يتحوَّلُ الجدالُ والحوارُ إلى لجاجةٍ وتضييعِ وقت، دونَ فائدة:
{وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُواً} [سورة الكهف: ٥٦].
أي: وما إرسالُنا الرُّسُلَ إلاّ ليُبَشِّروا المؤمنينَ الصَّادِقينَ منهم بالثَّواب، ويُنذِروا الكافِرينَ المكَذِّبينَ بالعَذاب، ولكنَّ الكافِرينَ يُعانِدونَ ويُجادِلونَ بالبَاطِل، ويَقترِحونَ مُعجِزاتٍ تَعَنُّتًا، ليُبطِلوا بجِدالِهِمُ الحَقَّ الذي جاءَ بِهِ الرُّسُل، واتَّخَذوا آياتي والمعجِزاتِ التي أيَّدتُهم بها وما أُنذِروا بِهِ منَ العِقابِ والعَذابِ استِهزاءً وسُخريَةً.

ولا يَدفَعُ الحقَّ ولا يُجادِلُ بالباطلِ إلاّ الجاحِدونَ بآياتِ اللهِ البيِّنة، كما قالَ اللهُ تعالَى:
{مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا} [سورة غافر: ٤].

وهدفُهم طَمسُ الحقِّ وإثارةُ الشكُوك، فقد شَكَّكوا في رِسالاتِ الأنبياء، وجادَلُوهم وعانَدوهم، ليَصرِفوا النَّاسَ عنها. قالَ الله تعالَى:
{وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ} [سورة غافر: ٥].

وكما في جدالِ الكافرين حولَ البعثِ وإحياءِ الموتَى:

{وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ} [سورة الحج: ٣]

أي أنَّ مِنَ النَّاسِ مَن يُخاصِمُ ويُجادِلُ في شأنِ اللهِ وقُدرَتِهِ على البَعثِ مِن غَيرِ علمٍ ولا بُرهانٍ صَحيح، ويَقولُ ما لا خَيرَ فيهِ مِنَ الأباطِيل، ويُنكِرُ ما هوَ حَقٌّ وصَواب، ويَتَّبِعُ بذلكَ كُلَّ شَيطانٍ مارِدٍ على الحَقّ، مُتَمادٍ في الشَّرّ، مُتجَرِّدٍ من كُلِّ خَيرٍ وفَضيلَة، مِنَ الجِنِّ والإنْس، مِن مثلِ رؤوسِ الكُفرِ وأهلِ الضَّلالَة، الناشِرينَ للفسَادِ في كُلِّ عَصر.

ومثلهُ قولهُ سُبحانه:

{وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ} [سورة الحج: ٨].

معناه: مِنَ النَّاسِ مَن يُجادِلُ ويُخاصِمُ في شَأنِ اللهِ وقُدرَتِهِ على البَعثِ بغَيرِ علمٍ صَحيحٍ ومَعرِفَةٍ مَقبُولَة، ولا استِنادٍ إلى وَحي أو مَصدَرٍ فيهِ حُجَّةٌ وبُرهان، بلْ هوَ مُجَرَّدُ رأي وهوًى. فهوَ معانِدٌ لِلحقّ، جاهلٌ مقلِّد.

وقالَ اللهُ في جدالِ من آمنَ ثمَّ ارتدّ:

{وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ} [سورة الشورى: ١٦].

أي: الذينَ يُخاصِمونَ في دِينِ اللهِ ويَصُدُّونَ عنهُ النَّاس، مِن بعدِ أنِ استَجابوا لِنداءِ اللهِ ودخَلوا في دِينِه، ليُشَكِّكوهم فيهِ ويَتركوه، ويَعودوا إلى ما كانوا عَليهِ مِنَ الكُفرِ والجاهليَّة، حُجَّتُهم باطِلَةٌ عندَ رَبِّهم. وجدالُهم لا حقَّ فيهِ أصلاً، وإنَّما هوَ خُصومَةٌ ولَجاجَة، وعَليهم غضَبٌ وسَخَطٌ مِنَ الله، لعِنادِهم واستِكبارِهم، ولهم عَذابٌ أليمٌ يومَ القِيامَة.

ومن صُورِ الجدَلِ المنكَرِ والخصُومة:

{وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ. وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ. إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ} [سورة الزخرف : ٥٧-٥٩].

أي: لمَّا ذَكرَ رسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم للمشرِكينَ أنَّهم وما يَعبُدونَ حَصَبُ جهنَّم، جادلَهُ أحَدُهم وقال: إنَّ النَّصارَى كذلكَ تَعبدُ عيسَى، فهم وعيسَى في جهنَّم. فضَجَّ المشرِكونَ وظَنُّوا أنَّهُ حاجَّ الرسُولَ صلى الله عليه وسلم!

وقالوا له: أآلهتُنا أفضَلُ أم عيسَى؟! إنَّنا نَرضَى أنْ نكونَ وآلهتَنا معَ عيسَى في جهنَّم، مادامَ هوَ أيضًا سيَكونُ فيها! وما ضرَبَ المشرِكونَ لكَ هذا المثلَ إلاّ خُصومَةً وجدَلاً عَقيمًا، بل هم قَومٌ مُجادِلونَ بالباطِل.

والمرادُ بقَولِهِ تعالَى: {إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ} [سورة الأنبياء: ٩٨]: هم وأصنامُهم.

وما عيسَى بنُ مَريمَ إلاّ عَبدٌ مَخلوق، أنعَمنا عليهِ بالنبوَّة، وجعَلناهُ مُعجِزَةً وعِبرَةً لبَني إسرائيل، فقد خلَقناهُ مِن غَيرِ أب، وأيَّدناهُ بمُعجِزاتٍ كبيرَة.

الغضب

وقد غضبَ موسى عليه السَّلامُ غضبًا شديدًا عندما علِمَ بفتنةِ قومِهِ في عبادةِ العِجل:

{قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ. فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً} [سورة طه: ٨٥-٨٦].

أي عادَ موسَى إلى قَومِهِ مِنَ الميعادِ ومَعَهُ ألوَاحُ التَّوراة، وقدِ اشتدَّ غَضَبُهُ وحُنُقُهُ عَليهم...

{وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ...} [سورة الأعراف: ١٥٤].

أي: لمّا سكنَتْ سَوْرَةُ الغضَبِ عندَ موسَى، أخذَ ألواحَ التوراةِ التي كانَ قد ألقاها...

ومن صفاتِ المؤمنين أنَّهم إذا غَضبوا لم يَظلموا:

{وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ} [سورة الشورى: ٣٧].

معناه: الذينَ إذا ثارُوا وغَضِبوا لم يَظلِموا النَّاسَ ولم يَنتَقِموا، ولكنْ أنابُوا إلى رَبِّهم وعَلِموا ما عندَهُ مِنَ الثَّوابِ فكظَموا غَيظَهم، وحَلُمُوا وعفَوا عنهم.

العداوة

العداوةُ بين الإنسِ والشياطينِ قائمةٌ حتى يومِ القيامة. قالَ اللهُ تَعالَى لآدمَ عليهِ السَّلامُ وإبليسَ اللعين:

{اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ} [سورة طه: ١٢٣].

والشيطانُ يستغلُّ المحرَّماتِ ليوقِعَ الأحقادَ والعداواتِ بين الناس، كما في شربِ الخمورِ واللعبِ بالقمار..

{إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ} [سورة المائدة: ٩١].

أي: إنَّما يُريدُ الشَّيطانُ بتَعاطي هذهِ المحرَّماتِ أنْ يُوقِعَ بينَكمُ العَداواتِ والأحقادَ والمفاسِدَ والشُّرور، فالخمرُ تُذهِبُ العَقل، والمسكِرُ يُعَربِدُ ويَسُبُّ ويَتشاجر، وقد يقعُ على محارمهِ أو يَقتلُ آخرينَ وهوَ لا يَدري، فإذا صحا نَدِم. والمقامرُ يُقامِرُ على الأهلِ والمال، وقد لا يُبقي لنَفسهِ شَيئاً، ثمَّ يُصبحُ عدوًّا لمن قامرَه، وحَزيناً مُغتاظاً، وقد يَتشرَّدُ ويَتسوَّل... والأنصابُ والأزلامُ شِركٌ لا يُقْدِمُ عليها إلاّ مَن تركَ التوحيدَ واستسلمَ للجاهليَّةِ المنكَرةِ والتخلُّفِ العقَديِّ الأعمى.

وقالَ الله تعالَى في عداوةِ المشركين:

{إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ} [سورة المجادلة: ٢٠].

معناه: إنَّ الذينَ يُعادُونَ اللهَ ورسُولَه، ويُحاربونَ الدِّينَ الحقَّ وأهلَه، أولئكَ مِنَ الأشقِياءِ المهانينَ في الحيَاةِ الدُّنيا وفي الآخِرَة.

وقالَ أيضًا في عَداوةِ اليهودِ والمشركين:

{لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ} [سورة المائدة: ٨٢].

أي: ستَجِدُ أشدَّ النَّاسَ عداءً للمؤمنينَ اليهودَ والمشرِكين.
أمّا اليهود: فلعِنادهم وجُحودهم، وتضاعُفِ كُفرِهم، واتِّباعِهم الهوَى، وكذبِهم وافترائهم، وتمرُّدِهم على الحقّ، حتَّى قَتلوا أنبياء، وهمُّوا بقتلِ رسولِنا محمَّدٍ صلى الله عليه وسلَّم غيرَ مرَّةٍ وسَحَروه، ووَضعوا في دينِهم توجيهاتٍ بإيذاءِ مَن يُخالِفُهم!
والمشرِكونَ يُماثلونَهم في صِفاتٍ عدَّة، وقد غلبَ عليهمُ التقليدُ فسَدُّوا منافذَ الفِكرِ والفِطرةِ في نفوسِهم، فلازَموا الكفر، وفتَنوا المؤمنينَ عن دينِهم، وحارَبوا الدِّينَ الحقَّ بكلِّ ما أُوتوا من قوَّة..

وقالَ في تبرُّؤ المؤمنينَ من الكافرينَ، وفي بُغضِهم وعداوتِهم:
{قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاء مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ} [سورة الممتحنة: ٤].
معناه: لقد كانَ لكم قُدوَةٌ حسنَةٌ في نَبيِّ اللهِ إبراهيمَ وأتباعِهِ المؤمنين، إذْ قالوا لقَومِهمُ المشرِكين: تَبرَّأنا منكم ومِنَ الأصنامِ والكَواكبِ التي تَعبُدونَها مِن دونِ الله، كفَرنا بدينِكم وأنكَرنا طَريقتَكم، وقد وجبَتِ العَداوَةُ والبَغضاءُ بينَنا وبينَكم ما دُمتُم على كُفرِكم، حتَّى تُوَحِّدوا اللهَ وتَعبُدوهُ وَحدَهُ لا شَريكَ له.

الضعف
الضعفُ طبيعةٌ في الإنسان، وقد شرعَ الله ما يوافقُ طبيعته، ولم يكلِّفْهُ بما لا طاقةَ له به. قالَ جلَّتْ حكمته:
{يُرِيدُ اللّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً} [سورة النساء: ٢٨].
أي: يُريدُ اللهُ أن يُخَفِّفَ عنكم منَ الشرائعِ والتكاليفِ في أمورِ النِّكاحِ وغَيرِه، ولذلكَ أباحَ لكمُ الزَّواجَ منَ الإماء... ليُناسِبَ ذلكَ ضَعْفَ الإنسانِ في نَفسهِ وفي عَزمهِ وهمَّتِه، في أمرِ النساءِ خاصَّة، حيثُ لا صَبرَ لهُ عنهنّ.

والإنسانُ يَنتهي إلى ضَعفٍ بعدَ قوَّة:

{وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ} [سورة يس: ٦٨].
أي: مَن نُطِلْ عُمُرَهُ نُضْعِفْ جِسمَهُ وقوَّتَه، ونردُّها إلى نُقصانٍ بعدَ زيادَتِها، فيَتناقَصُ حتَّى يَصيرَ بدلَ القوَّةِ ضَعفًا، وبدلَ الشَّبابِ هَرمًا! أفلا يَتفكَّرونَ في ذلكَ ليَعلَموا أنَّ الإلهَ القادرَ على تَنكيسِهم وتَصريفِ أحوالِهم قادرٌ على مَسخِهم وإعمائهم وبَعثِهم بعدَ الموت؟

التعب والمشقَّة

وهي حالةٌ للإنسان، بمعنى المكابدةِ والعناءِ في الحياة.
قالَ الله تعالَى:
{لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ} [سورة البلد: ٤]
أي: لقد خلَقنا الإنسَانَ في تعَبٍ ومَشقَّةٍ ومُكابدَة. ففي أطوَارِ خَلقِهِ شِدَّةٌ ومَشقَّة، في بَطنِ الأُمّ، ثمَّ في زمَنِ الإرضَاع، فالتَربيَةِ والتَّعليم، وتَحصِيلِ المعاش، وما بينَ ذلكَ مِن مُعاناةِ المِحَنِ والشَّدائدِ والتَّكاليفِ والصَّبرِ عليها، فمعَاناةِ الموتِ وكربِه، وما بَعدَهُ مِنَ الحشرِ والحِسابِ والجزاء.

الحزن والأسى

والحزنُ يصيبُ الإنسان، فإنهُ لا يخلو من الهمُوم.
وفي قصةِ يوسفَ بكى والدهُ عليه وحزنَ حزنًا شديدًا، وازدادَ حزنهُ بعدَ أن غابَ عنه شقيقهُ بنيامين. قالَ الله تعالَى:
{وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ. قَالُواْ تَالله تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ. قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ} [سورة يوسف: ٨٤-٨٦].
أي أنهُ قال: يا حُزني ويا أسَفي على يوسُف. وابيضَّتْ عَيناهُ من شِدَّةِ الحُزنِ علَى وَلَدِيه، وكانَ مَغمومًا مَكروبًا، قدِ امتلأَ قلبُهُ بالأسَى والغَمّ، ولكنَّهُ ساكِتٌ لا يَبثُّه.
قالَ لهُ بَنوه: واللهِ لا تَزالُ تَذكرُ يوسُفَ ولا تُفارِقُ ذِكرَهُ حتَّى تَضعُفَ قُوَاكَ وتَكونَ منَ الميِّتين.
قالَ لهم يَعقوبُ عليهِ السَّلام: إنَّما أشكو غَمِّي وحُزني إلى اللهِ وحدَه، وأتضرَّعُ إليهِ ليَدفعَهُ عنِّي، وأنا أعلَمُ مِن لُطفِ اللهِ ورحمَتِه، وخَيرِهِ وإحسانِه، ما لا تَعلمونَ أنتُم.

وكانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يحزنُ لما يلاقيهِ من المشركينَ من صدٍّ واستهزاء:
{وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ} [سورة الحجر: ٩٧].
معناه: نحنُ نعلَمُ أيُّها الرَّسُولُ أنَّكَ تتحسَّرُ وتَغتَمُّ من كلماتِ الشِّركِ والاستِهزاءِ التي يَتلفَّظَ بها المشرِكون.

وقالَ اللهُ له:
{وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ} [سورة النمل: ٧٠].
أي: لا تَحزَنْ عَلى المشرِكينَ لإصرارِهم على الكُفرِ أيُّها الرَّسول، ولا يأخُذْكَ الهَمُّ والغَمُّ لإعراضِهم عنك، ولا يَضِقْ صَدرُكَ بمَكائدِهم ومُؤامراتِهم، فإنَّ اللهَ يؤَيِّدُكَ ويَعصِمُكَ منهم.

الحسرة والندم

الإنسانُ يتحسَّرُ على أمورٍ في الدنيا ويَندم، بما يلاقيهِ من صنوفِ الأذى في ظروفٍ مختلفة.
ويَظهَرُ ندمُ الناسِ في يومِ القيامةِ خاصَّة:
{يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ} [سورة التغابن: ٩].
معناه: يومَ يَجمَعُكمْ جَميعًا، أوَّلَكمْ وآخِرَكم، ذلكَ اليَومُ الذي يَظهَرُ فيهِ خُسرانُ النَّاسِ أو فَواتُ حُظوظٍ لهم، فيَخسَرُ الكافِرونَ الجنَّةَ لعدَمِ إيمانِهم، ويَخسَرُ مؤمِنونَ درَجاتٍ في الجنَّةِ لتَقصيرِهِمْ في الطَّاعَةِ والإحسَان.

ومن صنوفِ ما يصيبُ الكفّار من غمٍّ وندمٍ في الدنيا، ما وردَ في قولهِ تعالَى:
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [سورة آل عمران: ١٥٦].
أي: لا تَتشبَّهوا بالكافِرين في أقوالِهم وأفعالِهم، فلا تَقولوا كما قالوا للَّذينَ ماتوا من أصحابِهم عندما سافَروا للتِّجارةِ أو غيرِها، أو مضَوا إلى الغَزو: لو أنَّهم بَقُوا عندَنا لم يموتوا ولم يُقتَلوا. وقد

جعلَ اللهُ فيهم هذا الاعتقادَ ليَزدادوا حُزناً وكَمَداً، فهم ليسُوا مثلَ المؤمنينَ الذينَ يَتلقَّونَ الابتلاءَ بالصَّبرِ والاحتِساب، ويَرضَونَ بقضاءِ اللهِ وقَدَره، فالأمرُ كلُّهُ بيدهِ سبحانَه، فهو المحيي والمميت، إنْ قدَّرَ لهمُ الموتَ ماتُوا، وإنْ لم يُقَدِّرْ لهم ذلكَ لم يموتوا، سواءٌ أكانوا في تِجارةٍ، أمْ حَرب، أمْ غَيرِهما. واللهُ عالمٌ بخَلْقِه، بصيرٌ بشُؤونِهم، لا يخفَى عليهِ شيءٌ مِن أمرِهم.

الأمل والتمني

الأملُ قد يكونُ محمودًا، وقد يكونُ مذمومًا، بحسبِ الأمرِ المتعلقِ به.

أما الكفّارُ فماذا في أملِهم؟ يقولُ اللهُ تعالَى:

{ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ} [سورة الحجر: ٣].

أي: دَعْ هؤلاءِ الكافِرينَ يأكُلوا مِن أطعِمةِ الدُّنيا وملاذِّها ما شَاؤوا، ولْيَتمتَّعوا بجَمالِها وشَهواتِها، ولْيَشغَلْهمُ الأمانيُّ وطلَبُ السَّعادةِ وطُولِ العمُر، والتطلُّعُ إلى الصَّفَقاتِ والأرباح، دَعهم في دَوَّامَةِ الغُرورِ والمطَامِع، حَتَّى يأتيَهمُ الموتُ وهم على ذلك، وسَوفَ يَعلمونَ يومَ الحِسابِ سُوءَ صَنيعِهم، وفسادَ عَقيدَتِهم، وعاقِبةَ أمرِهم.

وقالَ الله في شفاعةٍ للكفّارِ يتمنَّونَها:

{أَمْ لِلْإِنسَانِ مَا تَمَنَّى}؟ [سورة النجم: ٢٤].

بمعنَى: أمْ أنَّ لكلِّ إنسانٍ أنْ يتمنَّى ما يَشتَهيهِ فيُحصِّلَه؟ إنَّ وَهمَهُ وزَعمَهُ هذا لا ينفَعُه، ولن يَنالَ الكافِرونَ شَفاعَةَ الآلهَةِ التي يَزعُمونَها في يَومِ القِيامَة، إذْ لا شَفاعةَ لها أصلاً.

وفي حوارٍ بينَ المؤمنينَ والمنافقينَ يومَ القيامَة، قالَ لهمُ المنافِقونَ إنَّهم كانُوا معَهم في الدنيا، فذكَّروهم أنَّ ذلك كانَ ظاهرًا...

{يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاء أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ} [سورة الحديد: ١٤].

أي: يُنادي المنافِقونَ المؤمِنينَ مِن وراءِ السُّور: أمَا كنَّا معَكم في الدُّنيا، نُصلِّي معَكم ونَصوم، ونَحضرُ الجمُعَة، ونُشارِكُ في القِتال...؟ فقالَ لهمُ المؤمنون: بلَى، كنتُم معَنا، ولكنَّكم أهلَكتُم

أنفسَكم بالنِّفاق، والمعاصي والشَّهوات، وصرَفتُموها عنِ الهُدَى، ولم تَعزِموا على الحقِّ ولم تَثبُتوا عَليه، وشَكَكتُم في النبوَّةِ والبَعث، وغرَّكم طولُ الأمَلِ وحبُّ الدُّنيا، ومازِلتُم على ذلكَ حتَّى جاءَكمُ الموت، وقد غرَّكمُ الشَّيطانُ وخدعَكم عندَما زيَّنَ لكم مَوقِفَكم هذا في نُفوسِكم، حتَّى قُذِفَ بكم في النَّار.

الضحك والبكاء

ومن صفاتِ الإنسانِ الضَّحِكُ والبُكاء. قالَ الله تعالَى:

{وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى} [سورة النجم: ٤٣].

أي أنَّهُ تَعالَى أوجدَ في عِبادِهِ الضَّحِكَ والبُكاء، والسُّرورَ والحُزن، وأسبَابَهما، وهُما مُختَلِفان.

النجوى والكلام

الكلامُ الذي يَجري بينَ النَّاس، منه مقبول، ومنه غيرُ مقبول:

{لاَّ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتَغَاء مَرْضَاتِ اللهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً} [سورة النساء: ١١٤].

تفسيرها: لا خَيْرَ في كَثيرٍ مِن كلامِ الناسِ إلاّ إذا كانَ في حَثٍّ على الصَّدَقات، أو أمرٍ بالخَيراتِ والطَّاعات، أو تأليفٍ بينَ النَّاسِ بالمودَّةِ إذا فَسدَ ما بينَهم، ومَن يَفعلْ هذهِ الأشياءَ مُبتَغياً بها وجهَ اللهِ ومَرضاتَه، مُحتَسِباً ثوابَ ذلكَ عندَه، فسوفَ نَجزيهِ أجراً كبيراً وثَواباً جَزيلاً.

وقالَ الله تعالَى في نجوَى يَهود:

{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ} [سورة المجادلة: ٨].

معناها: ألَمْ ترَ إلى اليَهودِ الذينَ مُنِعوا مِنَ التَّناجي دونَ المؤمنينَ فيما يَسوؤهم، ثمَّ يَرجِعونَ إلى المناجاةِ التي نُهوا عَنها، ويَتحدَّثونَ فيما بينَهم بما يَكونُ وَبالاً عَليهم، وفيهِ تعَدٍّ على المؤمنين، ومُخالفَةٌ لأمرِ الرسُولِ عَليهِ الصَّلاةِ والسَّلام؟

وأمرُ النجوَى كما وضَّحَهُ القرآنُ الكريم:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ. إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئاً إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} [سورة المجادلة: ٩-١٠].

أيُّها المؤمِنون، إذا تَناجَيتُم في مَجالسِكم وأنديَتِكم، فلا تَتناجَوا بما فيهِ إثمٌ وتعدٍّ على حُقوقِ الآخَرين، ومُخالفَةٌ لسُنَّةِ الرسُولِ الكريمِ صلى الله عليه وسلم، كما يَفعَلُهُ اليَهودُ والمنافِقون، ولكنْ تَناجَوا وتَباحَثوا بما فيهِ خَيرٌ ومَنفَعَةٌ وإحسَان، واخشَوا اللهَ وانتَهُوا عمَّا نَهَاكمْ عنه، فإليهِ تُحشَرون، ليُحاسِبَكم على ما تَعمَلون.

إنَّما التَّناجي بالإثمِ والعُدوان، أو بما يَشعُرُ المؤمِنونَ أنَّهُ لسُوءٍ بهم، هوَ مِن تَسويلِ الشَّيطانِ وتَزيينِه، ليُحزِنَهم بذلك، ولن يَضُرَّ الشَّيطانُ أوِ التَّناجي المؤمِنينَ شَيئًا، إلاَّ بإرادَةِ اللهِ ومَشيئتِه، وعلى اللهِ فليَعتَمِدِ المؤمِنون، ولا يُبالوا بنَجواهُم.

وفي الحديثِ قَولُهُ صلى اللهُ عليهِ وسلم: "إذا كنتُمْ ثَلاثَةً فلا يَتناجَى اثنانِ دونَ صاحبِهما، فإنَّ ذلكَ يُحزِنُه". رواهُ مُسلم.

حب المال

قالَ الله تعالَى في صفةٍ تلازمُ الإنسان:

{لَا يَسْأَمُ الْإِنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ} [سورة فصلت: ٤٩].

أي: لا يَمَلُّ الإنسَانُ مِن طلَبِ المالِ والغِنَى والصِّحَّةِ مِن رَبِّه!

فحبُّ المالِ تجدهُ عندَ كلِّ الناسِ تقريبًا:

{وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمّاً. وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبّاً جَمّاً} [سورة الفجر: ١٩-٢٠].

معناه: تأكلونَ الميراثَ بشَراهَةٍ وجشَع، وتَخلِطونَ بينَ الحَلالِ والحرَام، وتَجمَعونَ فيهِ بينَ نَصيبِكم ونَصيبِ غَيرِكم.

وتُحِبُّونَ جَمعَ المالِ حُبًّا كثِيرًا طَاغيًا، لا يُبقي في نُفوسِكم مَكرُمَةً للإحسَانِ إلى اليَتامَى والمسَاكين.

وقالَ أيضًا:

{وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ} [سورة العاديات: ٨]

معناه: إنَّهُ لَشديدُ المحبَّةِ للمَال.

وحبُّ المالِ وجمعهُ من غيرِ تَسديدٍ وتوجيهٍ إسلاميّ يؤدّي إلى النَّار:

{الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ. يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ. كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ} [سورة الهُمَزَة : ٢-٤].

أي: الذي جَمعَ مالاً واستَلذَّ بعَدِّهِ وإحصَائه، حُبًّا لهُ وشغَفًا به، فألهَاهُ عنِ اتّبَاعِ الحقِّ وشُكرِ المنعِمِ علَيه.

يَظنُّ أنَّ مالَهُ سيُخلِدُهُ في هذهِ الحيَاةِ الدُّنيَا، فتَراهُ لا يَمَلُّ مِن جَمعِه، والتَّكاثُرِ به، وتَطويلِ أمانيِّه، والتوَسُّعِ في مَشاريعِه.

كلاَّ، لنْ يُفلِحَ في هذا، ولن يُخلِدَهُ مالُه، واللهِ ليُطرَحَنَّ في نَارِ جهنَّم، التي تُحطِّمُ كُلَّ مَن يُلقَى فيها.

التنعم والترفه

حالُ أهلِ الدنيَا يَدعو إلى القَلق، فإنَّ شُغلَهم في طلبِ النعيم، والعيشِ في رفاهية، وهؤلاءِ لا يستجيبونَ لدعوةِ الأنبياء!

{وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ. وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ} [سورة سبأ: ٣٤-٣٥].

أي: ما أرسَلنا رَسُولاً في قَريَةٍ مِنَ القُرَى، إلاَّ وكذَّبَهُ رُؤسَاؤها وأغنيَاؤها، وقالوا لأنبيائهم: نحنُ لا نؤمِنُ بنبوَّتِكم، ولا نُصَدِّقُ رسَالتَكم.

وقالَ المترَفونَ المستكبِرون: نحنُ أكثَرُ أموالاً وأولادًا مِن هؤلاءِ الضُّعَفاءِ المؤمِنين، وهوَ دَليلُ كرامَتِنا على اللهِ ورِضاهُ عنَّا، ولو لم يُحِبَّنا لما أعطَانا ذلك، ولن يُعَذِّبَنا في الآخِرَةِ وقد أحسنَ إلينَا وأكرَمنا في الدُّنيا!

ثمَّ بيَّنَ اللهُ أنهُ يوَسِّعُ الرزقَ على مَن أحَبَّ من العبادِ ومَن لم يُحِبُّ، ابتِلاءً واختِبارًا منه، وأنَّ أموالَ الأغنياءِ الكثيرةَ لن تَنفعَهم يومَ القيامة، إلاّ مَن كانَ مؤمِنًا في الدُّنيا، وعَمِلَ الأعمَالَ الحسَنة.

وقالَ اللهُ تعالَى في ثمودَ قومِ صالح:
{وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً فَارِهِينَ} [سورة الشعراء: ١٤٩].
معناه: وتَنحِتونَ البُيوتَ منَ الجِبالِ في حِذْقٍ ومَهارَةٍ للتَّرَفُّهِ والتَّنَعُّم؟ (وهيَ مدائنُ صالِحٍ المعروفَة، في بِلادِ الحرَمَين).

وقالَ في مُشركي مكَّة:
{بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاء وَآبَاءهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ} [سورة الأنبياء: ٤٤]
أي: غَرَّ هؤلاءِ وآباءَهم ما هم فيهِ مِن نِعمَةٍ ومَال، واستمَرُّوا على ذلكَ عمُرًا مَديدًا، واعتَقَدوا أنَّهم بذلكَ على شَيء، وما هوَ إلاّ إمهالٌ لهم.

وما لم يُسدَّدِ الغنيُّ فإنهُ يَظلِمُ ويَتكبَّر:
{كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى. أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى} [سورة العلق: ٦-٧].
أي: كلاّ لمن كفرَ بنِعمَةِ الله. إنَّ الإنسَانَ ليَتجاوَزُ حدَّه، ويَستَكبِرُ فيَكفرُ بربِّه، ويَستَغرِقُ في حُبِّ الدُّنيَا،
إذا رَأى نَفسَهُ غَنيًّا، فكثُرَ مالُه، وزادَتْ آثارُ النِّعمَةِ عليه، ونَسيَ المنعِمَ عليه.

وليتنبَّهِ المترَفونَ إلى ما هم فيه، ولْيَعتبِروا من أحوالِ الآخَرين، ولْيَحذَروا أن يُصِيبَهم عذابُ الله، فيَكونوا من الخاسرين، من أصحابِ الشِّمال:
{وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ. فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ. وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ. لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ. إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ. وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ} [سورة الواقعة: ٤١-٤٦].
معناها:

وأصحابُ الشِّمال، ما أخبارُهم، وكيفَ أحوالُهم؟
في ريحٍ حارَّةٍ تؤثِّرُ تأثيرَ السُّمّ، وماءٍ شَديدِ الحرارَة.
وظِلٍّ شَديدِ السَّواد، كأنَّهُ قِطَعُ فَحم.
ليسَ بطيِّبٍ، ولا كريمِ المنظَر، ولا نافعٍ كسائرِ الظِّلالِ التي يُستَروَحُ إليها.
إنَّهم كانُوا في دارِ الدُّنيا مُنعَّمينَ مُرفَّهين، مُنهَمِكينَ في الشَّهوات.
وكانوا يَتعمَّدونَ الكُفر، ويَحلِفونَ أنَّهم لا يُبعَثون، ولا يُقلِعونَ عن هذا الإثمِ الكَبير...

وقالَ أيضًا سُبحانهُ في المتنعِّمين من الكفَّارِ يومَ القيامة:
{وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً. إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً وَجَحِيماً. وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ وَعَذَاباً أَلِيماً} [سورة المزّمّل: ١١-١٣].
أي: دَعني والمكَذِّبينَ المترَفينَ أهلَ التنعُّمِ والغِنَى، وأمهِلْهم زمانًا قليلاً، هوَ مُدَّةُ حياتِهمُ القَصيرَة.
إنَّا أعتَدْنا لهم في جهنَّمَ قُيودًا ثَقيلَةً، ونارًا مُضطَرِمَةً شَديدَةَ الإيقَاد.
وطَعامًا لا يُساغ، يُغَصُّ بهِ ويَنشَبُ في الحَلق، وعَذابًا مؤلِمًا شَديدًا.

الباب السابع
صفات وأحوال خاصة

الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

الأنبياءُ عليهم الصلاةُ والسَّلامُ بشَر، لكنَّهم يتمتَّعون بأحسنِ صفاتِهم وأعلاها، فهم مكمَّلونَ في أخلاقِهم وسلوكِهم. وقد سبقَ ذكرُ كثيرٍ منها مع الصفاتِ والأحوالِ الحسنةِ وغيرها، ونوردُ لهم هنا صفةً خاصَّةً للتمييزِ والتذكير.
وهي أنهم يتذكَّرونَ يومَ القيامةِ والحساب. قالَ الله تعالَى:
{إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ} [سورة ص: ٤٦]

تفسيرها: لقدِ اصطفَيناهُم وجعَلناهُم خالِصينَ لنا، بسبَبِ خَصلَةٍ جَليلَةٍ فيهم، هيَ جَعلُهمُ الدَّارَ الآخِرَةَ همَّهمُ الأوَّل، وتذَكُّرَهم لها دائمًا.

الملوك

كانَ سُليمانُ بنُ داودَ عليهما السَّلامُ نبيًّا ملِكًا، وأُوتيَ في مُلكهِ ما لم يؤتَهُ أحدٌ من الملوك، وكانَ قد دعَا فقَال:

{وَهَبْ لِي مُلْكاً لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ. فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاء حَيْثُ أَصَابَ} [سورة ص: ٣٥-٣٦]:

وقد قالَ في دُعائه: اللهمَّ اغفِرْ لي ما بدَرَ منِّي، وأعطِني مُلكًا لا يَكونُ مِثلُهُ لأحَدٍ مِنَ البشَرِ مِن بَعدي، فأنتَ الذي تَهَبُ ما تَشاءُ لمن تَشاء.

فسَخَّرْنا لهُ الرِّيحَ وذَلَّلناها لطاعَتِه، فكانتْ تَسيرُ بأمرِهِ سَهلَةً ليِّنَةً حيثُ أراد.

ومن صفاتِ الملوكِ التي وردتْ في القرآنِ الكريم، كما في قصَّةِ بلقيسَ مَلِكةِ سبأ:

{قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ} [سورة النمل: ٣٤]:

قالتِ الملِكَة: إنَّ الملوكَ إذا دخَلوا بلَدًا عُنوَةً أفسَدوهُ وخرَّبوه، وقصَدوا مَن فيهِ مِنَ الحُكَّامِ والأشرَافِ والجُنودِ فأهانوهُم غايَةَ الهَوان، إمَّا بالقَتلِ أو بالأسر، ليَستَقيمَ لهمُ الأمر. وكما قالَتِ الملِكَة، فإنَّهم يَفعَلونَ ذلك.

ومن دأبِ الملوكِ تبادلُ الهدايا فيما بينَهم، كما صنعتْ بلقيس:

{وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ} [سورة النمل: ٣٥].

أي أنَّها لجأتْ إلى المهادَنَةِ والمصانعَةِ مع نبيِّ الله سُليمان، فقالَتْ لقَومِها: سأبعَثُ إليهم بهَديَّةٍ كبيرَةٍ تُناسِبُ الملوكَ الكِبار، فلعَلَّهُ يَقبَلُها ويَكفُّ عنَّا، وسأرَى ما الذي يَكونُ جوابُهُ عن طَريقِ رسُلي.

وكثيرٌ من الملوكِ يغترُّونَ بسلطانِهم وعساكرهم، ويتكبَّرون ويَظلمون، كما في قصَّةُ فرعَونَ الملكِ الطاغيةِ المتجبِّر، التي تكررتْ في القرآن، وعرفَها القارئ، فقد دعاهُ موسى عليهِ السلامُ إلى الإسلامِ ولكنَّهُ تغَطرسَ وأبَى، واغترَّ بقوَّتهِ وطُغيانه، كما قالَ اللهُ تعالَى:
{فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ. فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ} [سورة الذاريات: ٣٩-٤٠].
أي أنَّهُ ركنَ إلى قوَّتِهِ وسُلطانِه، وقال فيه: هوَ ساحِرٌ يَخدَعُ النَّاس، أو مجنونٌ يُعَلِّمُهُ الجِنّ. وأصَرَّ على تَكذيبِ موسَى، ولم تنفَعْ معَهُ نَصيحَةٌ أو مُعجِزَة، فانتقَمنا منه، وطرَحناهُ معَ جنودِهِ في البَحر، وهوَ مَلومٌ كافِرٌ طاغٍ.

وبلغَ به الجبروتُ أنْ قال:
{يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي}! [سورة القصص: ٣٨].

ومثلهُ الملكُ الذي كان في عهدِ إبراهيمَ عليهِ السَّلام:
{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [سورة البقرة: ٢٥٨].

وسبقَ ذكرُ صِفاتٍ أخرى للمُلوك.

الشعراء

الصفاتُ التي ذكرَها الله تعالَى للشعراء:
{وَالشُّعَرَاء يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ. أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ. وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ. إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ} (سورة الشعراء: ٢٢٤-٢٢٧].

تفسيرها: القُرآنُ ليسَ مِثْلَ الشِّعْر، والأنبياءُ ليسوا مِثلَ الشُّعَراء، فالأنبياءُ راشِدونَ مُسَدَّدون، أهلُ هِدايَةٍ وصَلاحٍ وتَقوًى، يتَّبِعُهمُ المؤمِنونَ الصّادِقون، والشُّعَراءُ يتَّبِعُهمُ الضَّالُونَ مِنَ الإنسِ والجِنّ، لا أهلُ الهُدَى والسَّداد.

ألَا تَنظُرُ كيفَ أنَّ الشُّعَراءَ في كُلِّ لَغوٍ يَخوضُون، فيَمدَحونَ الشَّيءَ بعدَ أنْ ذَمُّوه، ويَهجُونَ قومًا ثمَّ يُثْنُونَ عَليهم، فهم حائرونَ في أودِيَةِ الكَلام، هائمونَ على وجوهِهم كأنَّهم لا مَقصِدَ لهم في الحَياة.

وهم يَكذِبونَ في شِعرِهم، فيَقولونَ فعَلنَا وفعَلنَا وهم لا يَفعَلون، ويَفتَخِرونَ بأحوالٍ ومَواقِفَ شجاعَةٍ ليسَتْ سِوَى وَهمٍ وخَيالٍ وانفِعال.

إلاّ الشُّعَراءَ الذينَ صَدَقوا في إيمانِهم، وأحسَنوا في أعمالِهم، ولم يَشغَلْهمُ الشِّعرُ عن طاعَةِ رَبِّهم وذِكرِه، فكانوا مِنَ الذَّاكِرينَ اللهَ كثيرًا في شِعرِهم، الذّابّينَ عنِ الإسلامِ وأهلِه، المحَرِّضينَ على الدِّعوَةِ والجِهادِ ومكارِمِ الأخلاق، فانتَصَروا لدِينِهم، وجاهَدوا الكُفَّارَ بلِسانِهم كما جاهَدوهُم بسُيوفِهم، بعدَ أنْ ظُلِموا وأُخرِجوا مِن ديارِهم بغَيرِ حَقّ، وسيَعلَمُ المشرِكونَ المعادُونَ للإسلامِ والمسلِمين، ومعَهمُ الشُّعَراءُ الضَّالُّون، ماذا يَكونُ مَصيرُهم، وأينَ يَكونُ مُستَقَرُّهم بعدَ الموت، وهوَ شَرُّ مَرجِع، وأسوَأُ مَصير.

ونفَى اللهُ صفةَ الشعرِ عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم، فإنَّها لا تناسِبُ ما أُرسِلَ له: {وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ} [سورة يس: ٦٩].

أي: وما علَّمْنا النبيَّ محمَّدًا صلى الله عليه وسلم الشِّعرَ، فلا يُحسِنُ نَظمَهُ ولا قَولَه، ولا يَصلُحُ له، فهوَ ليسَ مِن طَبعِهِ ولا وُظيفَتِهِ التي هيَّأها اللهُ فيه، فكيفَ تدَّعُونَ أنَّهُ شاعِرٌ يا كفَّارَ مكَّة؟! وما هذا القُرآنُ الموحَى إليهِ إلاّ مَوعِظَةٌ وتَذكِرَة، وقُرآنٌ واضِحٌ بيِّنٌ لمن تأمَّلَهُ وتدبَّرَه، لا يَلتَبِسُ بهِ الشِّعرُ ألبتَّة، فيهِ العِظَةُ والقِصَّة، والحُكمُ والخبَر، والثَّوابُ والعِقاب، وهوَ أمرٌ ونَهيٌ وبَيانٌ مِن رَبِّ العالَمين.

المرأة:

ذُكرتْ صفاتٌ وأحوالٌ للمرأةِ شاركتْ فيها الرجال، وممّا لم يُذكرْ من خصوصياتِها:

- **عدم ترقيق الكلام**

قالَ الله تعالَى مخاطِبًا أمَّهاتِ المؤمنين:

{يَا نِسَاء النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاء إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفاً} [سورة الأحزاب: ٣٢].

أي: لَستُنَّ في القَدْرِ والمنزلَةِ مِثلَ سائرِ النِّساءِ إنْ داوَمتُنَّ على طاعَةِ اللهِ ورَسولِه، لِما امتَزْتُنَّ بهِ مِن شرَفِ الزَّوجيَّةِ لرَسُولِ اللهِ وأُمومَةِ المؤمنين، فلا تُلِنَّ القَولَ، ولا تُرَقِّقْنَ الكلامَ إذا خاطَبْتُنَّ الرِّجال، فيَطمَعَ مَن كانَ في قَلبِهِ فُجورٌ أو شَهوَةٌ ويَجِدَ سَبيلاً إلى الطَّمَعِ فيكُنّ، وقُلْنَ قَولاً حسَنًا فيهِ خَيرٌ وصَلاح، مِن غَيرِ خُضُوع.

- **القرارُ في البيوت**

وقالَ لهنَّ أيضًا:

{وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى} [سورة الأحزاب: ٣٣].

أي: والْزَمْنَ بيوتَكُنَّ ولا تَخرُجْنَ مِن غَيرِ حاجَة، ولا تَمشِينَ بتبَختُرٍ وتكَسُّرٍ وتغَنُّج، ولا تُبدِينَ مَحاسِنَكُنَّ كشَأنِ الجاهِلِيَّة.

- **السؤال من وراء حاجز:**

وقالَ أيضًا سُبحانه:

{وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاء حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ} [سورة الأحزاب: ٥٣].

معناه: إذا أرَدتُم حاجَةً مِن أزواجِهِ، فاطلبوها مِن وراءِ سِتر، فهوَ أطهَرُ وأطيَبُ لقُلوبِكم وقُلوبِهِنَّ مِنَ الشُّكوكِ والخَواطرِ الشَّيطانيَّة.

- **الحجاب**

وقالَ سُبحانهُ وتعالَى:

{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاء الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً} [سورة الأحزاب: ٥٩]:

أيُّها النبيُّ الكريم، مُرْ زَوجاتِكَ وبناتِكَ، ونِساءَ المؤمنين جَميعًا، بأنْ يَستَتِرْنَ ويَحتَشِمْنَ، ويُرْخِينَ عَليهِنَّ مِن أردِيَتِهنَّ ومُلائهِنَّ، فإنَّ ذلكَ أقربُ أنْ يُمَيَّزْنَ عنِ المتبَرِّجاتِ والعَواهِرِ ومَن إليهِنَّ، فلا يُتَعَرَّضُ لهنَّ بسُوءٍ مِن قِبَلِ الفاسِقين. واللهُ كثيرُ المغفِرَةِ لمن خالَفَ ثمَّ تاب فالتزَم، وكثيرُ الرَّحمَة، فيَعفُو ويَرحَم.

- الحفاظ على النسب وعدم الإجهاض

وشرطَ الله على المرأةِ أمورًا حتى تُقبلَ مبايعتُهنّ، منها:

{وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ} [سورة الممتحنة: ١٢].

أي: ولا يَقتُلْنَ أولادَهنَّ، كما كانَ يُفْعَلُ في الجاهليَّةِ مِن وَأدِ البَنات، خَوفًا مِنَ الفَقر، أو خَوفًا مِن أنْ يُعيَّروا بالبَنات. قالَ ابنُ كثير: "ويَعُمُّ قَتلَهُ وهوَ جَنين، كما قد يَفعَلُهُ بَعضُ الجهلَةِ مِنَ النِّساء"، يَعني الإجهَاض، الذي اتَّفقَ العُلَماءُ على تَحريمِهِ دونَ عُذرٍ بعدَ الشَّهرِ الرَّابع، حيثُ يُنفَخُ فيهِ الرُّوح، وهوَ جِنايَةٌ تُوجِبُ غُرَّة، وهيَ دِيَةُ الجَنين: عَبدٌ أو أَمَة، فإنْ لم يوجَدا فعُشرُ دِيَةِ الأُمّ، ودِيَتُها خَمسونَ منَ الإبِل.

وعلى ألاّ يُلحِقْنَ بأزواجِهم غَيرَ أولادِهم. وفي الحديثِ المرفوعِ الذي رَواهُ ابنُ حِبَّانَ في صَحيحِه: "أيُّما امرأةٍ أدخلَتْ على قَومٍ مَنْ ليسَ منهم، فليسَتْ مِنَ اللهِ في شَيء، ولنْ يُدخِلَها اللهُ جنَّتَه".

- الكيد

وقالَ اللهُ تعالَى فيما كادتْ به زوجةُ العزيز، في قصَّةِ يوسفَ عليه السَّلام:

{فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ} [سورة يوسف: ٢٨].

أي: لما رَأى الزَّوجُ قَميصَ يوسُفَ وقد قُطِّعَ مِن خَلف، عَرَفَ حيلةَ زَوجتهِ وبراءَةَ يوسُفَ عليهِ السَّلام، فقال: إنَّ هذا الصَّنيعَ مِنِ احتيالِكنَّ أيَّتُها النِّساء، إنَّ مَكرَكُنَّ كَبير، بالنسبةِ إلى كَيدِ الرِّجال.

الفهرس

المقدمة ٣

الباب الأول
الصفات والأحوال الحسنة

الفصل الأول
الصفات الإيمانية

الإيمان ٥

الإسلام ٧

الهداية ٨

العبودية ٩

طاعةُ الله، اتِّباع الهدى ٩

الإخلاص ١٢

حبُّ الله ١٤

موالاةُ الله ورسوله ١٤

التوكل على الله ١٥

جزاء من آمن ١٧

الفصل الثاني

الصفات والأحوال الحسنة

الاصطفاء ١٨

العزة ٢٠

القوة ٢١

الثبات ٢٢

طلب الذرية وحب الأولاد ٢٣

الاستبشار والفرح ٢٥

الزينة والتجمل ٢٦

السمعة الطيبة، الذِّكر الحسن، الثناء الجميل ٢٦

السعادة، العافية، راحة البال ٢٧

الطمأنينة، السكينة ٢٨

السيادة والوجاهة ٣٠

التفاوت والاختلاف بين البشر ٣١

التعارف والتعاون على البر والتقوى ٣٢

الخيرية ٣٣

الأخوَّة ٣٥

العلم ٣٥

التعقل، التفكر، التفهم، التدبر ٣٦

الفصاحة والطلاقة ٤٠

الحكمة ٤١

الرشد، التدبير وحسن التصرف ٤٢
التثبت والتأكد ٤٣
الحذر والحيطة ٤٣
الإصلاح ٤٤
الأمن ٤٤
التبشير والإنذار ٤٥
التيسير ٤٦
الوسطية والاعتدال ٤٧

الفصل الثالث

الدعوة والوعظ والتوجيه

الدعوة والتبليغ ٤٨
الوعظ، التذكير، النصائح ٥٠
الجدال والحوار الهادف ٥٥
التربية الحسنة ٥٥
التزكية ٥٥
الزهد في الدنيا ٥٦
التقوى ٥٨
الربَّانية ٦١
الاستقامة، الالتزام والاعتصام بحبل الله ٦١
الخوف والخشية ٦٤

الخشوع، التضرع، التذلل ٦٨
الرقة والبكاء ٧٠
التوبة والاستغفار ٧١
الصلاح، العمل الصالح ٧٤
المبادرة إلى الخير والتنافس فيه ٧٦
الدرس والعبرة ٧٧

الفصل الرابع

الآداب والأخلاق

الأخلاق الحسنة ٨٠
الإحسان ٨١
الألفة، المحبة، المودة ٨٣
حسن المعاشرة والتودد ٨٤
الحنان ٨٥
برّ الوالدين ٨٥
صلة الرحم ٨٦
الحِلم ٨٧
كظم الغيظ ٨٧
الكلام الحسن، اللطف، الحوار الطيب. ٨٨
التغاضي والإعراض عما يؤذي ٨٩
العفو ٩٠

الحياء ٩١
العفاف ٩١
الصدق، قول الحق ٩٣
الأمانة ٩٤
الوفاء، وصدق الوعد ٩٥
العدل ٩٧
الصبر ٩٩
الشكر ١٠٣
الرحمة ١٠٥
الإيثار ١٠٦
إكرام الضيف ١٠٧
الإنفاق والصدقة في وجوه الخير ١٠٨
التواضع ١١٢
الاعتدالُ في المشي ١١٢
خفض الصوت ١١٢
الاستئذان ١١٣

الفصل الخامس

العبادات

العبادة، التهجد ١١٤
الطهارة ١١٧

إقامة الصلاة والخشوع فيها ١١٧
الصوم ١١٩
الزكاة ١٢٠
الزيادة في السعي ١٢١
ذكر الله ١٢١
الدعاء ١٢٤

الفصل السادس

المعاملات وما إليها

توفية الكيل والميزان ١٢٧
انتظارُ المعسر ١٢٨
المعاشرة بالمعروف ١٢٨
استقامة الصفوف ١٢٩
أكل الطعام الحلال الطيب ١٢٩
السياسة والتدبير ١٣٠
الشورى ١٣٠
أداء الشهادة بحق ١٣١
الصلح ١٣١
الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ١٣٢

الفصل السابع

جزاء الصفات الحسنة

جزاء الصفات الحسنة ١٣٥

الباب الثاني

الصفات والأحوال السالبة

عدم الإعراض عن الحق ١٣٧
عدم الشك ١٣٧
عدم خلط الحق بالباطل ١٣٧
نبذ الشرك ١٣٨
البعد عما يؤدي إلى الضلال ١٣٩
عدم اتباع خطوات الشيطان ١٤٠
عدم طاعة الكافرين وموالاتهم ١٤٠
عدم الركون إلى الظالمين ١٤٤
عدم الدفاع عن السيئين ١٤٤
عدم اتباع الهوى ١٤٤
عدم بغض المؤمن ١٤٥
عدم التعدي وظلم الناس ١٤٦
عدم سفك الدماء ١٤٧
تجنب السفه ١٤٧
تجنب الإفساد ١٤٨

اجتناب الذنوب والمعاصي، الكبائر، المحرمات عمومًا ١٤٨
البعد عن سوء الظن ١٥١
عدم التعلق بالدنيا الفانية أو تفضيلها ١٥٢
تجنب الجدال العقيم ١٥٣
عدم الخوض في الكلام الباطل ١٥٤
نبذ التنازع والخلاف ١٥٥
عدم الضعف والوهن ١٥٧
تجنب الحلف الكاذب ١٥٨
عدم الإنفاق من رديء المال ١٥٩
تجنب أكل الحرام ١٥٩
عدم التعامل بالربا ١٦٠
البعد عن القسوة والغلظة ١٦١
تجنب الكلمات السيئة ١٦٢
عدم التجسس ١٦٣
تجنب الغيبة ١٦٣
الترهيب من قطع الرحم.. ١٦٣
عدم الاستهانة بضعفاء المسلمين ١٦٤
عدم المنِّ والأذى ١٦٦
عدم التكبر ١٦٧
عدم الغلو ١٦٨
عدم قبول الظلم ١٦٨

الباب الثالث

الصفات والأحوال السيئة

الجزع ١٦٩

القلق والضيق ١٧٠

الذلّ والصَّغار ١٧٠

الجهل ١٧١

الاغترار ١٧٣

اتباع الظن ١٧٦

الكذب والتزوير، شهادة الزور ١٧٧

تضييع الحق في مقابل دنيا زائلة ١٨١

الغفلة، النسيان، اللامبالاة ١٨١

عدم العمل بالعلم ١٨٤

العصيان وعمل الفواحش ١٨٥

العجلة ١٨٩

العصبية الجاهلية، التعصب المقيت، الحميَّة ١٨٩

موالاة الكفار ١٩١

تصديق الكذب والكذابين ١٩٣

السفه ١٩٣

الاستهزاء، اللهو واللعب ١٩٤

البغي: الحقد والحسد.. ١٩٥

العين ١٩٩
التكبر ١٩٩
الفخر والبطر ٢٠٤
القلب القاسي ٢٠٦
الغلظة والقسوة في التعامل ٢٠٧
الظلم ٢٠٨
التهديد، الترهيب، العنف، التعذيب ٢١٠
الإفساد ٢١١
الفسق ٢١٢
اللهو، اللعب، العبث ٢١٣
الكلام اللغو والباطل ٢١٥
النميمة ٢١٥
البخل ٢١٥
جحود النعم ٢١٨
الإسراف والتبذير ٢١٩
الفرار والهزيمة ٢٢٠
اليأس والقنوط ٢٢١
الخسارة ٢٢٢

الباب الرابع

من صفات وأحوال المنافقين

النفاق ٢٢٦
الشك ٢٢٦
التذبذب والتردد ٢٢٧
الخوف والحيرة والخسران ٢٢٧
الكذب والخداع ٢٢٩
الحلف الكاذب ٢٣٠
الخبث ٢٣٠
التكبر ٢٣١
السفه ٢٣١
موالاة الكافرين ٢٣٢
عدم الرغبة والإخلاص في العبادة ٢٣٢
التخلف عن الجهاد ٢٣٢
عدم التعاون على الخير ٢٣٣
الإفساد ٢٣٤
عقاب من اتصف بصفاتِ النفاق ٢٣٥

الباب الخامس

من صفات وأحوال الكافرين

الكفر والشرك ٢٣٦

الضلال ٢٤١
الجهل ٢٤٣
الإعراض عن الإيمان ٢٤٤
كتمان الحق ٢٤٥
بغض الحق ٢٤٧
تكذيب الحقائق، الإعراض عن الحق ٢٤٧
الصمم والبَكَم والعمى ٢٤٩
التقليد الأعمى ٢٥٣
العناد والإصرار على الباطل ٢٥٤
السفه ٢٥٥
اتباع الهوى والشهوات ٢٥٦
المكر والخديعة، الكيد والحيلة ٢٥٧
خُلف الوعد، نقض العهد ٢٥٨
الصدّ عن سبيل الله ٢٦١
التعلق بالدنيا والحرص على الحياة ٢٦٣
الإثم والعدوان ٢٦٥
عدم النهي عن المنكر ٢٦٦
الاستهزاء ٢٦٦
استعجال العقوبة ٢٦٩
الاختلاف والشقاق ٢٧١
الشقاء ٢٧١

استعمال الألفاظ السيئة ٢٧٢
عدم تمني الخير لغيرهم ٢٧٣
بغض المؤمنين ٢٧٣
الإفساد ٢٧٤
الإيذاء والتعذيب ٢٧٤
قتل أهل الحق ٢٧٥
تعطيل المساجد ٢٧٦
النجاسة ٢٧٧
أكل الحرام ٢٧٧
قطع الرحم ٢٧٨
عواقب الصفات السيِّئة للكافرين ٢٧٨

الباب السادس

من الصفات والأحوال المزدوجة

التمييز بين الحق والباطل ٢٨٠
ادِّعاء الحق ٢٨١
الخصومة واللجاجة ٢٨٢
الغضب ٢٨٤
العداوة ٢٨٥
الضعف ٢٨٦
التعب والمشقَّة ٢٨٧

الحزن والأسى ٢٨٧
الحسرة والندم ٢٨٨
الأمل والتمني ٢٨٩
الضحك والبكاء ٢٩٠
النجوى والكلام ٢٩٠
حب المال ٢٩١
التنعم والترفه ٢٩٢

الباب السابع

صفات وأحوال خاصة

الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ٢٩٤
الملوك ٢٩٥
الشعراء ٢٩٦
المرأة ٢٩٧
الفهرس ٣٠٠